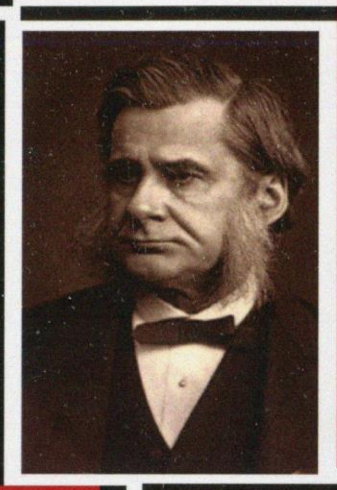
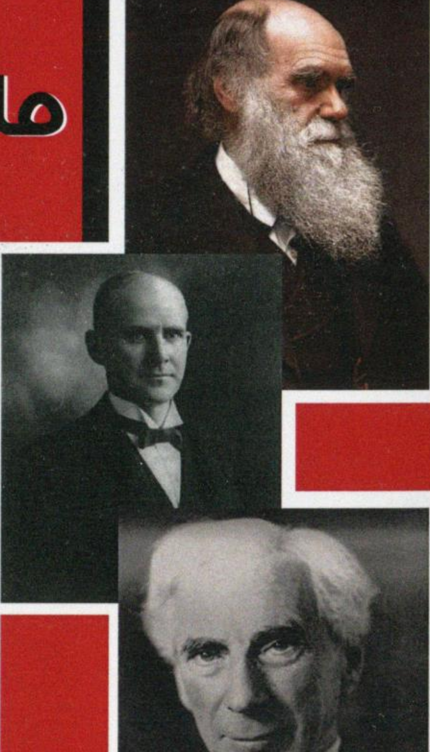
حوار مع رجل الكهف

في

ما المثقف؟





المحاورة الأولى

دافيد رجل الكهف

ما المثقف؟

المحاورة الأولى

First Edition

ISBN: 978-91-639-5038-4

YouTube: The Caveman Talks

www.facebook.com/rajulkahf

thecavemantalks@gmail.com

حوار مع رجل الكهف

في

ما المثقف؟

تأليف

دافيد رجل الكهف

الإهداء

إلى **داني** الذي من أجله تمت هذه المحاورة، والذي أقل ما يمكنني تقديمه له هو هذا الكتاب، متمنيا له الحرية.

إلى كل **الشباب** الناطق بالعربية من أبناء جيل داني، عسى ينير هذا الكتاب أدمغتهم بما يمكنهم من تحرير أنفسهم وبناء مجتمعات أفضل لأبنائهم وأحفادهم.

إلى **لوسيل** التي لا أعرف كيف كان ليكون بإمكاني تحمّل آلام هذه الحياة دون صوتها.

رجل الكهف

جدول المحتويات

توطئة للمحاورة

[1] على الرغم من أن القارئ سيشعر بأن المحاورة تتم في صيف مشمس، وهو على صواب في اعتقاده ذاك. وعلى الرغم من أن المحاورة قد تمت كتابتها الفعلية بالكامل في صيف ماطر، إلا أن مسودتها تعود إلى شتاء بارد. شتاء أبرد مما خبره معظم سكان العالم. شتاء القطب الشمالي. حيث تمحى الفروق بين الليل والنهار، وتمتنع الشمس عن الشروق سامحة للشفق القطبي بتزيين السماء، وحيث تنحدر درجات الحرارة لتوازي أشد حرارة يختبرها سكان العالم في الصيف، لكن مع إضافة إشارة سالب لقيمتها.

[2] "هل أنت مزعوج من شيء ما؟" بهذه الكلمات أيقظني مضيفي من شرودي الذهني وأنا في جلسة مع نفر ممن يُسَمَّونَ "مثقفين".

"كلا، مطلقا" هكذا أجبته كاذبا. فهو قد أكرم ضيافتي على خير ما يضيف به مضيفٌ ضيفه. ما أزعجني ليس كرم ضيافته، ولا أولئك الغرباء ذوي الوجوه البشوشة والأدمغة المفكرة. لكن ما أزعجني هو ذلك الهراء الثقافي الذي يتفوه به الجميع، الذي يدل على قصور في النظر وضحالة معرفية مريعة، كان من شأنها توليد نقاش حاد غوغائي لا يختلف مطلقا عن نقاشات من يسمونهم هم أنفسهم "العامة"، وإن بدا مختلفا بنظرة فينومينولوجية سطحية.

"لماذا توقفت عن مشاركتنا النقاش إذن؟ أنت صامت منذ مدة!" سألني مضيفي الجالس على يساري.

"إني أستمع" هكذا أجبته كاذبا أيضا. فمع أني موجود هناك بكامل جسدي إلا أن دماغي كان قد فصلني تماما عن واقعي وقام بقوقعتي داخله في حالة من العصف الفكري.

"إني أستمع!" في الحقيقة إني أستمع طوال حياتي، منذ تلك اللحظة التي قالت لي فيها جدتي الراحلة: "استمع إليّ يا بُني. إن الله قد أعطى كلا منا أذنين إثنتين وفما واحدا كي نستمع ضعف ما نتكلم". بدا لي على الفور كلامها مقنعا تماما، وامتثلت له منذ تلك اللحظة. ولم لا أمتثل لما أجده مقنعا؟ لكني بعد مدة ليست بالطويلة، اكتشفت أن "الله" قد أعطى كل منا عينين نستقبل بهما المعلومات أيضا سواء بالمشاهدة أو بالقراءة. لذا فقد قمت بتعديل نصيحة جدتي، التي كانت قد توفيت في تلك الفترة فلم أتمكن من أخذ رأيها في هذا التعديل، وأصبحت أتكلم مقدار ربع مجموع ما أستمع وأرى. باختصار، كنت شخصا قليل الكلام جدا، شديد الملاحظة والفضول إلى أبعد الحدود.

[3] ودّعني مضيفي في محطة القطار الذي لم يأت لسوء الأحوال الجوية، وبدأت رحلة نحو القطب الشمالي تستغرق ثلاثين ساعة أو شيئا من هذا القبيل، متجها إلى مكان إقامتي في ذلك الوقت في قرية حدودية بين السويد وفنلندا. ثلاثون ساعة قضيتها وأنا أفكر في أننا نعيش في زمن تساوت فيه أفكار المثقفين وغير المثقفين -وأعتذر لغرامشي- على قولي "غير المثقفين" لضرورة الاختصار هنا-

وسألت نفسي: إلى متى سوف نبقى نعيش في هذه الفوضى الثقافية؟ متى سيتعلم الناس منهجية المعرفة؟ لماذا لم تُعلّم كل الجدات أحفادهن ما علمتني إياه جدتي؟ هل كانت هي على صواب على أي حال؟ متى سيتوقف الناس عن التمسك بأفكارهم تمسكهم بممتلكاتهم وأموالهم وأقرانهم؟ ترى هل يعرف هؤلاء كيف قد تم بناء هذه الأفكار -التي يتشاجرون من أجلها- في أدمغتهم؟

إذا كان من يعتبرون أنفسهم، ومن يعتبرهم الناس، النخبة المثقفة في المجتمع هم على هذه الشاكلة من محدودية وضبابية التفكير، فهذه كارثة حقيقية. إذا كانت النخبة المثقفة عالقة ببضعة مفاهيم عفّى عليها الزمن، وبضعة كتب صفراء، فما الذي سأرجوه من العامة؟ إذا كان من يعتبرون أنفسهم النخبة المثقفة لا يستطيعون أن ينظروا لموضوع ما نظرة شمولية، بل هم قاصرون في نظرتهم على زاوية محددة، عالقون فيها غير راغبين في إبصار ما هو خارجها، فمن الطبيعي أن تكون العامة أشد قصورا ومحدودية في فكرها. إذا كان من يعتبرون مثقفي المجتمع غير قادرين على نقاش موضوع واحد بمنهجية فكرية صحيحة متقصين وراء كل علائقه دون القفز بين مواضيع غير مترابطة، فمن الطبيعي ألا تستطيع الحديث مع العامة في أي موضوع بطريقة منظمة. هل من وسيلة لعلاج هذه الغوغائية؟ هل من طريقة تجعل الإنسان يقر بمحدودية فكره وبجهله، ثم يبحث في تطوير أفكاره؟ متى سنفرق بين كاريزما مقدم الفكرة، وجودة الفكرة نفسها؟

[4] وبينما أنا أطرح أسئلة من هذا القبيل وأحاول الإجابة عليها دون أدنى اكتراث لرحلتي التي أقوم بها، وكأن دماغي منفصل عن جسدي تماما يؤدي مهمة في عالمه الخاص. تذكرت مثلا كيف أن مضيفي المذكور نفسه كان قد زارني في منزلي قبل سنوات عديدة ووقف مشدوها أمام مكتبتي، التي أصبحت رمادا في وقت لاحق، وقال لي: "قريبا، أنت ستصبح من النخبة المثقفة بسبب هذه الكتب". وبما أني أعرفه جيدا فإني قد فهمت مقصده: "قريبا ستنضم إلى المجموعة التي أنتمي إليها". هذه هي مشكلة الكثير من "المثقفين"، إنهم يعتقدون أنفسهم بشرا متفوقين، أو أنصاف آلهة أحيانا. أما عن كيفية اكتسابهم لهذه الصفة، فإن هذا ما لا يعلمه أحد.

على أي حال، بالنسبة لي لم أعر كلامه ذاك أي أهمية، فأنا لا أقرأ وأتعلم وأبحث لأنال أي صفة. لم أفكر يوما في أنني أنتمي للمثقفين أو لغيرهم. أنا كنت، وما زلت، أكره الانتماء. أنا رجل الكهف، أنتمي لكهفي فحسب. دائما ما شعرت أن أي انتماء آخر هو محو للذات. سواء كان هذا الانتماء عائلياً، أو مناطقياً، أو قومياً، أو اثنياً، أو أيديولوجياً، أو سياسياً، أو أي نوع من الانتماءات التي يتفاخر البشر بها. فإن كان هذا موقفي من الانتماء لجماعات واضحة التحديد، فمن باب أولى أن أنفر من الانتماء للجماعات الغير واضحة المعالم. لطالما كرهت المجموعات وقيودها، وإني أفضل الموت ألف مرة على أن أكون منتميا لما من شأنه أن يقيد من حريتي دون مبرر منطقي. لكني إذ تذكرت كلامه ذاك، كنت أفكر به رابطا إياه بما قالته لي إحدى الصديقات قبل بضعة أشهر من ذلك الوقت.

[5] كانت تلك رسامة وناشطة حقوقية استضافتني في منزلها في إسطنبول وأخذتني في جولات على

المكتبات الساحرة هناك، وجعلتني أنتشي بعبق رائحة الورق القديم في متاجر بيع الكتب المستعملة، كما أننا خضنا نقاشات ثقافية مُلهمة كان من شأنها أن تتوج بمحاولتها إعطائي كتاب إيدوارد سعيد *تمثيلات المثقفين* لتقول لي: "أنت تسير في الطريق الصحيح". لكنني لم أقبل هديتها لأنه كان لدي مسبقا أربع نسخ مختلفة من ذلك الكتاب. وفي خضم تلك الأفكار بدأت أفكر أنه ربما قد حان الوقت جدّيا كي أكسر قاعدة جدتي. هذا لأني، على أي حال، كنت فعلا قد وصلت درجة الغليان والقابلية للانفجار منذ بداية ذلك العام، لكني كنت غير مستعد للخروج من كهفي لأسباب عديدة. كما أني كنت قد توقفت منذ فترة عن كتابة المقالات بل وحتى الولوج إلى مواقع التواصل الاجتماعي. لكن دافعا قويا ممزوجا بثقل المسؤولية الأخلاقية قد بدآ بالظهور في النصف الأول من العام 2015 لتتوالى الأحداث في العام نفسه، كالمثالين المذكورين، إضافة إلى حوادث أخرى لا مجال لذكرها في هذه العُجالة، مؤدية إلى بروز قناة على اليوتيوب تحت مسمى *أحاديث رجل الكهف* في آخره.

[6] وعندما وجدت أن الأفكار الغريبة التي نشرتها، قد حظيت على الثناء من قبل الجمهور. وحيث أني أستقبل بوتيرة شبه ثابتة رسائل من أشخاص يقولون لي أني قد غيرت حياتهم نحو الأفضل، كان ذلك بمثابة تقييم لنجاح أفكاري في مساعدة الناس على تحرير أدمغتهم وبناء عقلية مثقفة نقدية حرة وموسوعية. كما ونجاحها في فتح عيونهم ومساعدتهم على "الولادة من جديد" كما يعبر البعض منهم. وبالتالي كان ذلك بمثابة مراجعة وتقييم لأفكار هذا الكتاب من قِبَل آلاف الأشخاص حتى قبل كتابته ونشره.

[7] لا يوجد طريقة لمعالجة مريض ما إلا بإقناعه بداية أنه مريض، وأن عليه التزام العلاج. وهذه هي الخطوة الأصعب نفسيا على المريض في رحلة مرضه كلها. سيكره المريض تلك اللحظة وقد يكره من أخبره بمرضه. لكن لا مناص من أن يتبرع أحد ما لإخباره متحملا تبعات إقلاق المريض بجسارة. وأعتقد أن هذا ما فعلته أنا في هذا الكتاب. لذا، فإنك ستشعر بنوع من عدم الراحة، الاستخفاف، الضعف، السذاجة، الازدراء وغيرها من المشاعر الغير مواتية. إذا حصل هذا فإنه يعني أن الكتاب يحقق المطلوب منه، وهذا شيء إيجابي، بل وضروري. إلا أني لن أتركك مدة طويلة تعاني من تلك الحالة، حيث أني سأساعدك على التخلص منها في أسرع وقت ممكن بما من شأنه أن ينقلك لحالة مختلفة تماما من الوعي. ومع أني أربأ أن أشبه نفسي- بالطبيب، لكن الأمر أشبه ما يكون بذلك. سأكون كالطبيب الذي يخبرك بمرضك، ويشرح لك أسبابه، ويصف لك طريقة العلاج التي عليك إتباعها.

ولذا فإن خطة البحث تبدأ بتوصيف للحالة العامة للثقافات البشرية، ولم هي كما هي عليه. ثم انتقلت للحديث عن طريقة عمل الدماغ البشري، وكيفية توليد الأفكار، وكيف يتم التحكم في بناء هذه الأفكار لدى الناس. ثم انتقلت إلى توضيح معنى الثقافة، وأنواع المعارف الإنسانية، واضعا للقارئ منهجية لتحصيل معارف موسوعية بجهد شخصي. ثم أتيت على تعليم القارئ كيفية تحرير دماغه والتفكير

بصورة عقلانية موضوعية. ثم اتجهت لمحاولة الإجابة على السؤال الكلاسيكي: من هو المثقف؟، مضيفا نصائح عملية تساعد الفرد على أن يصبح مثقفا حرا وموسوعيا.

[8] وإني كما عُرف عني أحاول دائما تبسيط الأفكار الأكثر تعقيدا بأسلوب سهل يساعد المستقبل على الفهم مهما كان مستواه التعليمي والثقافي منخفضا. فهؤلاء هم من أتوجه إليهم بأعمالي لأنهم الشريحة الأكبر في المجتمع والتي تحتاج مساعدة حقيقية -مع ضرورة وجود حد ثقافي وتعليمي أدنى بطبيعة الحال-. والتزاما مني بهذا الهدف فإني قد عمدت إلى كتابة هذا الكتاب على شكل محاورة، وأضفت إليها ما أمكنني من مؤثرات تساعد القارئ على الاندماج في القراءة والاستمتاع فيها بدل أن يجد نفسه متصديا لكتاب ثقافي جاف.

[9] هل أنا على صواب فيما أقدم من أفكار؟ في الواقع لا أعرف على وجه اليقين. لأني لا أعرف -ولا أعتقد أن أحدا يعرف- ما هو الصواب يقينا. لكن هذا العمل هو حصيلة سنوات من البحث، سواء الذي قمت فيه بنفسي أو الذي قام به عدد كبير من الناس الذين أوردت أقوالهم المؤيدة للأفكار التي أطرحها. وبما أن الجمهور الذي أستهدفه في هذا الكتاب هو جيل الشباب، ذكورا وإناثا، فإن اطلاعهم على أفكار أهم العقول التي عاشت يوما، والاستفادة من تجاربهم وخبراتهم في الحياة، كما والاستفادة من أحدث الاكتشافات العلمية ذات الصلة، لا شك أنه سيختصر عليهم الكثير من التجربة والخطأ، سيختصر سنوات قد يقومون فيها باتباع منهجيات فكرية أراها خاطئة.

وإذ ذاك قد قيل، فإن الأمانة الفكرية تحتم عليّ أن أشير للقارئ بأنني أثناء كتابة هذه السطور، أنا مقتنع جدا بصحة ما فيها، بناء على كل الأبحاث والأدلة ذات الصلة. وإنني لن أخدع نفسي- قبل أن أخدع القارئ بأن أتبنى أفكارا هزيلة أو مغلوطة أو غير مؤيدة بأدلة. ولذا فإن القارئ سيشعر أحيانا أني أتكلم بثقة في مواضع كثيرة من المحاورة، قد يعتبرها البعض ثقة زائدة عن اللزوم، لكن هذه تكون هي الأفكار التي أنا متأكد منها أكثر من غيرها، لتراكم أدلة كافية عليها، وتجارب أدت إلى الخلوص إلى هذه الفكرة أو تلك. لكن بطبيعة الحال لا توجد فكرة واحدة يقينية يقينا لا شك بعده فيها. المستقبل وحده هو ما سيحكم على جودة الأفكار الواردة في هذه المحاورة، أما الآن فهي أفضل ما يمكنني قوله باختصار في هذا السياق.

التبسيط والاختصار ومتعة القراءة وشمول الأفكار وتنوعها كان لها نصيب كبير من الاهتمام أثناء بناء هذا العمل. وبما أني مقتنع أن الكتاب الذي يجب ان يقرأه الإنسان ليس الكتاب الذي يفكر نيابة عنه، بل الكتاب الذي يجعله يفكر، فقد بنيت هذا الكتاب ليكون من النوع الثاني. أما إلى أي مدى قد وفقت في كل ما سبق، فإن الحكم يعود للقارئ وليس لي.

رجل الكهف

تنويهات قبل القراءة

[10] يمكن قراءة هذه المحاورة من أجل التسلية، فهي غنية بالطرافة الظاهرية والمبطنة، كما وإنها تحتوي العديد من القصص والأفكار المثيرة. لذا فإن قراءتها قبل النوم ستضمن للقارئ أحلاما غير معتادة. لكني لم أكتب هذه المحاورة لغرض التسلية. ولو أني أردت لها ذلك، لكنت نهجت فيها نهجا مختلفا تماما أقل تكلفة وأكثر إمتاعا.

[11] يمكن قراءة هذه المحاورة من أجل المعلومات، فلا تخلو فيها فقرة من معلومات معظمها غير مألوف. وتتنوع المعلومات فيها من الفلسفة إلى الغناء، ومن علم الأعصاب إلى الشعر، ومن الفيزياء الكمومية إلى الروايات، ومن البيولوجيا إلى أدب السجون، ومن المنطق إلى السير الذاتية، ومن علم النفس إلى الأمثال الشعبية، ومن علم الفضاء إلى الأساطير. وهي مزودة بأكثر من مئة مرجع في مختلف المجالات، وبعدة لغات، وبأنماط متنوعة. لذا فلا شك أنه يمكن اعتبارها مصدرا للمعلومات. لكني لم أكتب هذه المحاورة لتكون مصدر معلومات للقارئ، ولو أني أردت لها ذلك، لنهجت نهجا مختلفا في تنسيقها وفي طريقة تقديم المعلومات وإتمام شرحها، مما كان ليكون بإمكانه مضاعفة حجم المحاورة على أقل تقدير.

[12] يمكن قراءة هذه المحاورة من أجل الفهم، ولقد تم بناؤها بالضبط من أجل هذا الغرض. فأنا مقتنع تماما، كما آمل أن يقتنع معي القارئ من خلال صفحات هذا الكتاب، بصحة ما قالته آن إيزابيلا ثاكيراي في رواية "السيدة دايموند": "... إذا أعطيت شخصا سمكة فهو سيجوع مجددا في غضون ساعة. إذا علمته كيف يلتقط سمكة فأنت تصنع له نقطة تحول جيدة في حياته..." ولذا فأنا لا أهدف إلى إطعام القارئ السمك، بل أهدف إلى أن أقنعه بوجود بحر مليء بالسمك، ثم أن أعطيه خريطة للطريق المؤدي إليه، وأن أعلمه كيف يصطاد سمكا بنفسه.

أعني بالفهم إدراك أمور كان القارئ جاهلا بها قبل بدء القراءة، وهذا يعني بالضرورة أن على القارئ أن يكون يقظا أثناء القراءة. فإنه على الرغم من السهولة الظاهرية التي تتسم بها المحاورة، إلا أن كل فقرة فيها تتضمن ما يجب أن يهز القارئ من الداخل إذا وعاها كما ينبغي. هذا ولا يوجد أي لغو في المحاورة كلها، فحتى الفقرات أو المداخلات التي قد تعتبر لغوا ظاهريا، لهي تحتوي رسائل مبطنة على القارئ النبيه الانتباه إليها، مع وجود استثناءات وضعت لضرورة التنسيق فقط.

[13] لذا فإن وجدت هذا الكتاب سهلا ولم يحرك أشياء في أعماقك فهذا يعني أحد حالات ثلاث: إما أنك تعامله باستخفاف، ولذا عليك إعادة النظر في طريقة تعاملك معه. أو أنك غير أهل لتدرك كل ما فيه، وفي الحالة هذه عليك متابعة القراءة وعدم التوقف لأن الكتاب مبني بطريقة تكاملية بحيث أنك ستدرك الأفكار المحورية مع التقدم بالقراءة بشكل تلقائي. أما الحالة الثالثة فهي أن القارئ هو مسبقا بمستوى أعلى من مستوى الكتاب، أي إنه يعرف مسبقا معظم ما فيه من أفكار، وهذا النوع

من القراء يمكنه الاستفادة من الأفكار التي لا يعرفها، كما ويمكنه الاستفادة من المراجع كي يزداد علما ببعض الأمور التي يجهلها.

[14] بما أن الكتاب هادف لمساعدة القارئ على تحرير دماغه، فهذا يعني أن الكتاب مزعج. إن الغرض الحقيقي من هذا الكتاب هو أن يزعج القارئ. لذا فإني ألفت انتباه القارئ إلى هذه الحقيقة منذ الآن: أنت مقبل على قراءة أمور تخالف تماما -على الأغلب- ما اعتدت سماعه أو قراءته، فإن لم تكن تملك الجرأة على أن تطلع على هذه الأمور، فإني أهيب بك أن تعيد الكتاب إلى المكتبة كي يستفيد منه غيرك. أما إن كانت لديك عزيمة وإرادة لتحرير نفسك، فإني أطلب منك ألا تحاكم أيا من أفكار الكتاب قبل أن تتم قراءته بالكامل، فالكثير من الأفكار لن تتضح تماما إلا مع نهاية الكتاب. وعليه فإني أطالب القارئ أن يترك لي المساحة الكافية لعرض حججي ومن ثم مصادري، وبعدها سأترك له ما شاء من الوقت كي يرد على أفكاري.

[15] إني أقترح ألا يقرأ كل باب في أكثر من جلسة واحدة. وأن يقرأ الكتاب ككل بأقصر فترة زمنية ممكنة كي لا يفقد تماسك أفكاره. وبعد إتمام قراءته، يمكن إعادة قراءته مجددا للوقوف عند كل فقرة وكل معلومة والذهاب إلى المراجع للبحث فيها والاستزادة منها. أعتقد أن هذه هي الطريقة المثلى لقراءة هذه المحاورة. كما أن على القارئ ألا يقفز بين الفقرات والأبواب، فالكتاب تكاملي، كل فقرة وكل فكرة بُنيت على ما قبلها وتؤسس لما بعدها. هذا وإني أعتقد أن الكتاب سيفتح آفاقا جديدة للقارئ وسيكافئه بتناسب طردي مع التركيز والجهد الذي يبذله هو في القراءة وتحليل الأفكار والبحث في المراجع.

أتمنى للمقبلين على الحرية قراءة مُلهِمة، ولنا وقفة بعد ختام المحاورة.

رجل الكهف

04 August 2017 - 04:30 am
Kungshamn, Sverige

في هذه المحاورة

الباب الأول: برج المعارف الإنسانية

نظرة تاريخية لتشكل الثقافات المختلفة.
توصيف لحال الثقافات العالمية.
طرح مفهوم ثالوث القمع.
الفرق بين المثقفين وعامة الناس.
طرح فكرة الاختلافات بين المثقفين.

الباب الثاني: في أقسام الدماغ

شرح مفهوم ثالوث القمع.
في أسباب الاختلافات بين المثقفين.
في الفرق بين الإنسان الحافظ، والمفكر غير المطّلع.
في أقسام الدماغ الرئيسية.
تقديم لآلية صنع الأفكار في الدماغ.

الباب الثالث: في أهلية الدماغ لإصدار الأحكام

في آلية عمل الدماغ البشري.
في كيفية تطور الدماغ البشري.
في أسباب قصور الدماغ البشري.
في تأثيرات البيئة على عمل الدماغ.
في آلية الإدراك عند البشر.
في آلية توليد الأفكار وإصدار الأحكام.
في الوعي واللاوعي.
في حرية الإرادة.
في الانتقاء الطبيعي.

الباب الرابع: في برمجة الأدمغة

في كيف تتم برمجة الأدمغة.
في إنجاب الأطفال.
في التربية.

الباب العاشر: في عزلة المثقف

في أسباب عزلة المثقف.
في معنى عزلة المثقف.
في ماهية عزلة المثقف.
في ميزات عزلة المثقف.
في افتقاد الهوية.
في العمل للأجيال الحالية واللاحقة.

الباب الحادي عشر: في كيف تصبح مثقفا

نصائح عملية كي يصبح الإنسان مثقفا موسوعيا حرا هاويا.
في مخالطة الأشخاص.
في شدة الملاحظة.
في البيئة الثقافية.
في السفر.
في المراكز الثقافية.
في تشكيل مجموعات من المثقفين.
في الأفلام الوثائقية.
في الكتب صوتية.
في المحاضرات.
في قراءة المقالات.
في قراءة الكتب.

الباب الثاني عشر: المراجع

قائمة تضم المراجع التي تم الاقتباس منها، والمراجع التي من الممكن أن تساعد في فهم أفكار المحاورة بشكل أكبر.

الباب الثالث عشر: ملخص المحاورة وخاتمة

ملخص لأفكار المحاورة الرئيسية.

****

مدخل المحاورة
لقاء رجل الكهف

[16] مضى قرابة أسبوع على بدء الرحلة الاستكشافية التي يقوم بها داني ولوسيل في إحدى الغابات الشاطئية الغير مأهولة. كان أسبوعا هادئا مفعما بالنشاط في الحياة البرية بعيدا عن تلوث المدنية وضوضاء الحداثة. لقد قررا في هذا العام أن تكون إجازتهما مختلفة، فقد أرادا الإستمتاع بنقاء الطبيعة وحدهما مسلحين ببعض الكتب في علم الأحياء والحياة البرية، وأدوات للصيد، ولوازم التخييم. كانا يستمتعان بمشاهدة النجوم طوال الليل، ويمضيان النهار بحثا عن فرائس جديدة تكون طعامهما لذلك اليوم. لا يمكن لشخص أن يموت جوعا في الغابة، فمختلف أنواع النباتات والفطر الصالح للأكل منتشرة في كل مكان. إنها متعة المغامرة التي لازال الإنسان الحديث يحمل أثرها من أسلافه القدماء.

[17] لقد حظيا اليوم بتجربة فريدة، وهي فرصة التلصص على زوج من الشمبانزي يقضيان وقتا ممتعا. لقد كان ذكر حديث البلوغ من الشمبانزي يحاول إستمالة أنثى من الواضح أنها أكبر منه سنا. كانت الأنثى مستاءة من تحرشات ذلك المراهق بها، لكنها كانت تحاول إظهار عدم اكتراثها بطيشه الصبياني. اتخذ داني ولوسيل لنفسيهما مخبئا وجلسا فيه في صمت مطبق، محاولين تطبيق الخطوات اللازمة للإسترخاء التي تعلماها في كتاب عن مراقبة الحياة البرية. فأي همسة أو تنفس سريع قد يثير انتباه الحيوان موضوع المراقبة. لكنهما في الوقت نفسه كانا غير قادرين على التحكم في تدفق الأدرنالين الذي كان يشعر به كلاهما بوضوح، لأن مراقبة هكذا حدث بالعين المجردة تختلف كل الإختلاف عن مراقبة زوج من البشر يمارسون الجنس. فالأخيرة قد تنطوي على مشاعر اشمئزاز أو شهوة جنسية، أما الأولى فهي تحتوي على شعور بالرهبة ممزوجة بالخوف، فهما يعرفان أن الشمبانزي حيوانات إجتماعية، تعيش في مجموعات ذات تراتبية هرمية. وبالتالي فوجود زوج من الشمبانزي يعني بالضرورة وجود قبيلة من الشمبانزي في مكان قريب، ومن المحتمل أن طيش ذلك المراهق بالتحرش بتلك الأنثى على حين غفلة من قبيلتها لن يجلب له الأذى فحسب، إذا ما أصدرت الأنثى نداء استغاثة، بل سيجلب الأذى لهما أيضا. لكن نظرة واحدة تبادلاها كانت كفيلة بإيصال تفاهم بينهما أن الأمر يستحق المجازفة.

[18] أمضيا في مراقبة ذلك العاشق وأنثاه المتمنعة قرابة الست ساعات، لم يمل فيها الذكر من ابتكار طرق جديدة لحث محبوبته على تلبية رغبته، ولم تمل فيها الأنثى من محاولة إظهار عدم الإكتراث جل الوقت. إلا أنها كانت تظهر شيئا من الاهتمام كلما تغلغل اليأس إلى قلب الذكر البائس، فتحفزه بوادر إهتمامها إلى ابتكار المزيد من الطرق للحصول على موافقة وصالها، إلى أن تملكه اليأس منها وبدأ يقوم بالإستمناء أمامها، معلنا فشله في نيل رضاها. عندها شعرت هي أيضا أنها قد تمادت في تمنعها، وأعلنت موافقتها على وصاله، الذي لم يدم أكثر من دقائق معدودة قفز بعدها كلاهما بنشوة وسرور مغادرين منطقتهما الحمراء.

[19] تنفس داني ولوسيل الصعداء، وبدءا يضحكان بجبور شاكرين حظهما الذي أتاح لهما قضاء يومهما في مشاهدة حدث كهذا. "إنها لا تختلف عن إناث البشر" قال داني. فأجابت لوسيل: "وهو لا يختلف عن ذكورهم" وضحك كلاهما.

[20] أدرك كلاهما أنهما قد أمضيا جل يومهما في التلصص على زوج الشمبانزي، وأن الظلام سيحل خلال وقت قريب، وهما لم يتناولا أي طعام أو شراب اليوم، ولم يختارا مكان تخييمها لهذه الليلة. أحثا الخطى مسرعين محاولين إيجاد شيء ما قابل للأكل بسرعة، كذلك الفطر اللذيذ الذي حصلا عليه قبل يومين. لكن يبدو أنهما ليسا محظوظين في إيجاد الفطر اليوم كما كانا محظوظين بفرصة مشاهدة ذلك العرض الجنسي. "لا يمكن أن تكون محظوظا في كل شيء في اليوم نفسه" قال داني لنفسه بشيء من اليأس.

وبينما هما منهمكان في بحثهما إذ تقول لوسيل: "داني، لا أدري إن كان الدوار هو السبب، لكني أسمع موسيقى لبينك فلويد". فضحك داني قائلا: "لا بد أن دماغك يقوم بتسليتك في هذه اللحظات حتى لا تشعري بالجوع. أنت تعشقين هذه الفرقة، ولا بأس من أن نغني بعضا من أغانيها الآن".

[21] صمتت لوسيل لبرهة وهي تدير رأسها ببطء، مغلقة عينيها تطبيقا لتعليمات كتاب مراقبة الحياة البرية، وأجابت بحزم: "كلا يا داني، إنها موسيقى حقيقية وهي صادرة من ذلك الإتجاه" مشيرة إلى جبل قريب منهما. فأنصت داني بانتباه مطبقا نفس التعليمات، ثم قال: "يا إلهي! فعلا إن هناك موسيقى آتية من الجبل، من بحق السماء غيرنا في هذه الغابة الموحشة". تبادلا نظرات لا تخلو من الريبة والفضول قطعها داني قائلا: "هل يجب علينا الذهاب الى هناك واستطلاع الأمر، أم إنك تشعرين بالخوف مما يمكن أن نجده، وتفضلين أن نذهب بالإتجاه المعاكس؟". فأجابته لوسيل على الفور، وكأنها كانت تقوم بحساب الأمر في ذهنها قبل أن يسألها: "إنهم يستمعون إلى الموسيقى يا داني. من يتذوق موسيقى كهذه لا يمكن أن يكون شريرا". فأجابها داني مازحا: "أعرف أنك متحيزة لهذا النمط من الموسيقى، لكني لم أتوقع أنك ستراهنين بحياتك من أجل تحيزك هذا". فضحكت قائلة: "ستتأكد من ذلك خلال وقت قصير، أشعر أن رفقة رائعة بانتظارنا على ذلك الجبل".

[22] بدت الإثارة واضحة على وجهيهما وهما يشقان طريقهما باتجاه مصدر الصوت، متوقفين كل دقيقة أو إثنتين ليطبقا خطوات الانصات التي تعلماها لتحديد مصدر الصوت. والذي كلما اقتربا منه أكثر، كلما شعرا أكثر بمزيج من الإرتياح لتلك الموسيقى، والإثارة لمعرفة المجهول الذي ينتظرهما.

[23] أصبح الصوت واضحا جدا وقريبا. إنهما على مقربة من مصدره دون أدنى شك. تبادلا نظرة ريبة عندما شعرا أنهما قادمان الآن على مقابلة أولئك الأشخاص غريبي الأطوار الذين يستمتعون بالموسيقى في مكان شديد الإنعزال كهذا. بدآ بمحاولة إصدار بعض الأصوات الملحوظة كي لا يفزعا من لا يتوقع قدومهما، وهما يتقدمان محاولين إخفاء أثر الأدرنالين المتدفق في جسديهما، وإذا بهما يلحظان رجلا على بعد عشرة أمتار منهما.

[24] لقد كان رجلا ذو شعر ولحية طويلتين منكبا على تحضير طعامه. فوقفا في مكانهما يتأملانه وهو يقوم بما يقوم به، وهو يردد أغنية Echoes التي يتردد صداها في أرجاء الغابة. راقباه نحو نصف دقيقة، ثم تبادلا نظرة فهم كلاهما منها ارتياح الآخر لمحادثة ذلك الرجل. فقام كلاهما بإلقاء التحية من موقعهما بصوت عالٍ كي يثيرا انتباهه.

[25] جفل الرجل ووقف محدقا بهما. سادت لحظات من النظرات المتبادلة بين الثلاثة يسودها صمت مطبق لا يكسره سوى صوت ديفيد غيلمور وريتشارد رايت وهما يغنيان:

Strangers passing in the street
By chance two separate glances meet
And I am you and what I see is me
And do I take you by the hand
And lead you through the land
And help me understand the best I can

[26] كان وقع هذه الكلمات على ثلاثتهم صادما. فرغم أن ثلاثتهم قد سمعوا هذه الأغنية مئات المرات في السابق، إلا أنهم لم يشعروا قط قبل هذه اللحظة أنها تمسهم بشكل مباشر، بل وتمس الموقف الذي هم فيه تحديدا. أحيانا تكون الصدف العمياء، أقوى أثرا من أي تخطيط مسبق.

[27] **الرجل الغريب** "بهدوء وهو يوقف الأغنية": تفضلا أيها الغريبان، ماذا تفعلان هنا؟

داني: نحن في رحلة تخييم، وأنت؟

الرجل الغريب: أنا مقيم هنا، ولدي كل ما قد تحتاجانه لو كان ينقصكما شيء في رحلتكما.

يقترب الإثنان منه ويقول **داني**: ماذا تقصد أنك مقيم هنا؟ أين؟

الرجل الغريب: هنا، في هذا الكهف المتواضع.

لوسيل "بذعر": يا إلهي، إنك رجل كهف حقيقي! هذا آخر ما كنت أتوقع أن أراه في رحلتي هذه.

[28] كان كهفا لا تنطبق عليه كلمة متواضع. فهو مجهز بالكهرباء وجميع الأدوات المنزلية الأساسية بما فيها من ثلاجة وغسالة ثياب ومدفأة وبضعة حواسيب ومكتبة. كما أنه يحتوي، كما لاحظا، على مرحاض ومكان للاستحمام أيضا. كان أشبه ما يكون بمنزل صغير قد اقتلع من احدى المدن وألقي به هنا مع ساكنه غريب الأطوار هذا.

[29] شعر كل من داني ولوسيل بارتياح غريب تجاه هذا الشخص ممزوج بحافز للتعرف عليه. تبادلا النظرات التي أكدت لكلاهما أنهما يفكران في الأمر عينه، فبادر داني التعريف بنفسيهما للرجل

الغريب. أخبره أنهما صحفيان يقضيان عطلتهما في الغابة، ثم قص عليه ما شاهداه اليوم وكيف أن الموسيقى التي يسمعها هي ما قادهما اليه. وبما أن الظلام قد بات وشيكا وهما لم يأكلا أي شيء في ذلك اليوم، فبادره بسؤاله لو كان بإمكانهما أن يشاركاه العشاء وأن يقضيا هذه الليلة معه، على ان يتابعا رحلتهما في الصباح التالي.

[30] في الواقع لم يكن أمام الرجل الغريب خيار. فهو من جهة لا يتردد في تقديم المساعدة ما أمكنه ذلك، ومن جهة أخرى راوده شعور أن هذين الشخصين مثيران للاهتمام. فهما يستمعان الى موسيقى لم يعد معظم أبناء جيلهما يستمع إليها، كما أنهما قد اختارا قضاء عطلتهما هنا بدل قضائها في أحد الأماكن السياحية كما يفعل غالبية الناس. وقال لنفسه: "لابد أن الحديث معهما ممتع ومفيد. ثم ما الضير في أن يقضيا ليلة هنا؟ على الأقل يمكننا الاستماع الى الموسيقى سوية وتبادل بعض الأفكار". لقد علمته الحياة أن بإمكانه أن يتعلم شيئا جديدا من أي أحد يقابله. لكن بالمقابل، إنه قد عانى بما فيه الكفاية من الناس، وهو موجود هنا لسبب واحد فقط وهو الابتعاد عنهم قدر الامكان، أن يكون وحيدا. فهو يلجأ الى كهفه هذا، الذي جهزه بمشقة على مر السنوات الماضية، كلما شعر أنه بحاجة الى أن يختلي بنفسه لبعض الوقت، وها هو مضطر الآن لكسر خلوته هذه كي يكون لبقا مع شخصين غريبين لا يعرف عنهما شيئا. لكنه طمأن نفسه: "إنهما سيرحلان في الصباح على أي حال وكأن شيئا لم يكن".

[31] **الرجل الغريب**: بكل سرور. ادخلا واستحما وضعا ثيابكما في الغسالة ريثما انتهي من تحضير الطعام.

لوسيل "بابتسامة خجولة": شكرا لك يا سيدي. لكنك لم تخبرنا ما هو اسمك!

[32] **الرجل الغريب** "بوجهه الخالي من التعابير": رجل الكهف يا عزيزتي، رجل الكهف. لقد قلتِ إني رجل كهف حقيقي، ولقد أعجبني الاسم.

لوسيل "ضاحكة": تشرفت بلقائك يا رجل الكهف.

ودخل الاثنان، فيما انهمك رجل الكهف بتحضير المزيد من الطعام.

****

الباب الأول
برج المعارف الإنسانية

(بعد العشاء، يجلس ثلاثتهم داخل الكهف مجهزين أنفسهم للنوم)

[33] **لوسيل** "بحماس": لدي فضول كبير كي أستمع إليك. من الواضح أنك رجل لديه الكثير ليتحدث عنه. هلا أخبرتنا بقصةٍ ما قبل أن ننام؟

رجل الكهف "بوجهه الخالي من التعابير": يؤسفني أن أخيّب ظنّك، فليس في جعبتي أيّ من حكايات الجدات المناسبة لما قبل النوم. لكن لدي على العكس من ذلك، الكثير من القصص التي من شأنها أن تقلق راحتك وتذهب النوم من عينيكِ الناعستين.

[34] **لوسيل** "ضاحكة": إني أقبل المجازفة. أسمعني إحداها.

رجل الكهف "وهو يشعل غليونه": في مكان ما كان هناك أناس يعيشون كمجموعة واحدة، متعاونون فيما بينهم، يتقاسمون المهام التي يقومون بها، ويتقاسمون ما يجنون وما يمتلكون. كانت الحياة بسيطة جدا وهادئة. وعلى مر الأجيال زاد عددهم باطراد ملحوظ حتى شكلوا مجموعة سكانية مترامية الأطراف.

[35] **داني** "مقاطعا ومخرجا جهاز تسجيل صغير من حقيبته": عذرا يا سيدي، هل لي أن أقوم باستخدام جهاز التسجيل هذا؟

رجل الكهف "بانزعاج": لا مانع يا عزيزي، لكن لا تقاطعني.

داني "واضعا جهاز التسجيل في وضعية التشغيل": المعذرة.

رجل الكهف: بعد أن زاد عدد الناس وتفرعوا، أصبح يرأس كل مجموعة منهم ثلاثي سنسميه ثالوث القمع.

[36] **لوسيل** "بدهشة": ثالوث القمع! لماذا؟

رجل الكهف "بحزم": ستعرفين لاحقا إذا سمحتِ لي بإكمال القصة!

لوسيل "بخجل": اعتذر، كلي آذان صاغية.

رجل الكهف: قام كل ثالوث ببناء غرفة كبيرة جدا هي أشبه بزنزانة سجن هائلة المساحة، لا نوافذ لها، ولا يربطها بالعالم الخارجي الا باب يجلس ثالوث القمع عنده ليحرسه. فأصبح أولئك الناس كلهم موزعين داخل هذه الغرف، ولا يوجد أحد خارجها.

[37] **داني** "مستغربا": لكن لماذا؟

رجل الكهف: لقد أقنع كل ثالوث قمع رعيته أن من مصلحتهم العيش داخل غرفته لأن الآخرين يريدون بهم سوءا، وأنها المكان الآمن الوحيد لهم. ليس هذا فحسب، بل أقنعهم أنهم محظوظون لتواجدهم فيها، لأنها أفضل وأجمل غرفة في العالم.

[38] **لوسيل** "باستغراب": وهل صدقهم الناس بتلك السهولة؟

رجل الكهف: نعم بكل أسف، لقد صدق الناس لسذاجتهم تلك الحيلة. فاستقروا في تلك الغرف، شاكرين ثواليث القمع على حرصهم عليهم. واعتادوا بسرعة الحياة فيها ممضين أعمارهم يقومون فقط بالأعمال الروتينية اليومية، بينما يجلس كل ثالوث قمع دون عمل حقيقي إلا حراسة باب الغرفة خاصته، وتقديم التعليمات والمشورات والنصائح لساكنيها. وسرعان ما أصبح ثواليث القمع كل شيء بالنسبة للناس المساكين، فهم مصادر أخلاقهم، وهم المجيبون على تساؤلاتهم وهم المنظمون لحيواتهم. يلجؤون إليهم في كل صغيرة وكبيرة في أمورهم الخاصة والعامة. لقد عمل ثواليث القمع ببطء وخبث على جعل الناس مسحوبي القدرة على القيام بأي محاكمات عقلية سليمة، او اتخاذ أي قرار مهما كان بسيطا دون اللجوء إليهم.

داني "بحزن": يا لهم من مساكين!

[39] **رجل الكهف**: وبالطبع اختلفت طرق التنظيم في الغرف المختلفة، واختلفت التشريعات فيها. لهذا، فمع مرور الزمن أصبحت كل غرفة تشكل عالما خاصا بها. ولو رأيت شخصين من غرفتين مختلفتين لراودك الشك في أنهما من كوكب واحد، لا يجمعهما الا ثلاثة أمور هي: شكلهما البشري، ورضوخهما لسلطة ثالوثية، وأنهما لا يفكران مجرد تفكير بالخروج من غرفتيهما. "إن الخروج هو مهلكة مؤكدة" هذا ما بات مقتنعا به الجميع. أصبح الناس يولدون ويعيشون ويموتون على مر الأجيال داخل هذه الغرف دون معرفة ما يوجد خارجها، او حتى مجرد التفكير به.

لوسيل "بذعر": هذا أمر مريع!

[40] **رجل الكهف**: وعلى الرغم من أن ثواليث القمع قد أفهموا الناس أنه في حال خروجهم فانهم سيموتون او سيفقدون عقولهم أو ستحل عليهم اللعنات، فإن بعض الناس مدفوعين بروح المغامرة تارة، أو بروح التحدي تارة أخرى كانوا يستطيعون من حين لآخر مغافلة ثواليث القمع والخروج الى العالم الخارجي. والذين كانوا فور عودتهم يتم عقابهم بالقتل أو بالنفي أو بتسليط اراذل الناس عليهم او بأية عقوبة يراها ثالوث القمع مناسبة. لكن بالتأكيد لم يكونوا ليتركوا دون عقاب على تحديهم السلطة والخروج الى العالم الخارجي. لقد طور كل ثالوث قمع أيديولوجيته الخاصة بما فيها طرق عقابه الخاصة.

لوسيل "بألم": اللعنة على ثواليث القمع!

[41] **رجل الكهف**: شاءت الصدف أن يلتقي بعض الخارجين من الغرف ببعضهم البعض في ذلك العالم الخارجي الخالي، وكانت صدمتهم عنيفة جدا عندما كانوا يتبادلون الأفكار. فعلى الرغم من أن كل غرفة

أصبح لها لغتها الخاصة بسبب الانعزال الشديد على مر الأجيال، الا أنهم كانوا يستطيعون تبادل الأفكار الذي كان من شأنه أن يجعلهم يكتشفوا أن ثالوث القمع -الذي لم يكن معروفا عندهم بطبيعة الحال بهذا الاسم، بل يتخذ أسماء جميلة لها وقعها الرنان الرصين- في كل غرفة يكرر نفس العبارات الفارغة بقوله إن الاخرين يريدون بهم شرا، وإنه موجود فقط من أجل مصلحتهم و لحمايتهم، وإن غرفتهم هي أجمل وأفضل غرفة في العالم، وإن النظام الذي يفرضه في غرفتهم هو النظام الوحيد السليم. وعندما قام هؤلاء الغرباء بتبادل بعض التفاصيل وجدوا اختلافات صارخة في المبادئ والحلول التي يقدمها كل ثالوث لدرجة التعارض التام في بعضها. فعلى سبيل المثال، ما قد يعتبر سبب بلاء في هذه الغرفة هو نفسه يعتبر سبب الرخاء في الغرفة الأخرى. هذا وعلى الرغم من وجود قواسم مشتركة كثيرة خاصة فيما يخص جانب الأخلاق، فإن اكتشاف التعارضات الرهيبة والاختلافات الجوهرية بين حيوات سكان الغرف المختلفة ومبادئهم كانت صاعقة لهؤلاء الخارجين. الذين لم يطل بهم النقاش حتى وصلوا الى نتيجة واحدة بالإجماع، وهي أن ثواليث القمع هذه تكذب علينا وتقمعنا لمصلحتها الذاتية فقط لا غير. وسرعان ما قرر كل منهم العودة الى غرفته واخبار الآخرين بحقيقة الأمر.

داني "بحماس": جميل جدا، فليذهب ثواليث القمع الى الجحيم.

[42] **رجل الكهف**: رويدك يا عزيزي، ليت الأمر كان بتلك البساطة. ففور عودة هؤلاء الخارجين الى غرفهم كانوا يتعرضون الى العقوبات، لكنهم كانوا يستطيعون إيصال أصواتهم على أي حال، مما أثار بعض الشكوك في أذهان الناس، وحفز المزيد من الناس على المغامرة بالخروج. ولو أن أعدادهم لم تزل مجهولة بالنسبة لعدد السكان الكلي، لكنها كانت بازدياد مضطرد. ترافق ذلك مع ازدياد سخرية ثواليث القمع من كلام العائدين ونعتهم بالجنون أو المس الشيطاني أو العمالة للغرف الأخرى التي تريد بالرعايا شرا، كما ازدادت صرامة العقوبات، ومحاولة نشر موالين لهم بين الناس يتقصون الأخبار من جهة وينشرون الاشاعات من جهة أخرى.

[43] **لوسيل** "بحماس": وماذا فعل الشجعان الذين يخرجون؟

رجل الكهف: قرر الخارجون أن يوصلوا شبكة اتصال بين الغرف المختلفة، دعينا نتخيل أنها هواتف. حيث يتمكن سكان الغرف المختلفة من الحديث بحرية بين بعضهم البعض. لقد كان حلا لا مناص منه، لأن الناس كانت تصدق فعلا أن كلام هؤلاء الخارجين هو ضرب من الجنون او العمالة. وفعلا بدأ الناس بالتواصل فيما بينهم من داخل الغرف المختلفة، مما أدى الى حدوث اضطرابات حقيقية داخل هذه الغرف. فكل انسان وجد ان كلا من الآخرين يملكون منظومة حياتية مختلفة، وكل منهم يعتقد جازما أنها المنظومة الوحيدة السليمة لإدارة الحياة، وكل منهم يعتقد جازما أن حياته هي الأفضل وأن غرفته هي أفضل الغرف، وأن الآخرين الذين يعيشون في الغرف الأخرى حياتهم بائسة لا تطاق مليئة بالمشاكل. لقد بدأ الشك يتسرب الى قلب نسبة كبيرة من السكان بأن ما تعلموه منذ ولادتهم لا يقارب الحقيقة مطلقا، وأن من قال لهم هذا لابد وأنه يريد بهم شرا. لكن كيف يكون هذا وثالوث

القمع هو مصدر كل شيء بالنسبة لهم، هو الملهم والحامي والسند والقائد الذي يفني حياته لحمايتهم، لا يمكن ان يكون الثالوث كاذبا. هكذا بدأ الناس بالتفكير، تلك المفارقة الغريبة التي لا حل لها عندهم، بين تصديق ما اعتادوا تصديقه هم وأسلافهم، وبين تصديق ما يتداولونه حديثا بينهم من مقاربات واضحة مع ما باتوا يعرفونه عن الغرف الأخرى، والتي توحي بعكس ما كانوا يعرفون.

[44] **دالي**: وماذا فعل ثواليث القمع لحل هذه الإشكالية؟ هل قطعوا شبكة الاتصال؟

رجل الكهف: كلا، فقطعها سيؤكد شكوك الناس أكثر وسيحثهم على الخروج للتأكد بأنفسهم. اتفق ثواليث القمع فيما بينهم على حل خبيث لا يمكن، لشدة خبثه، ان يُدرك من قبل الرعايا البسطاء. قام كل ثالوث بفتح نافذة في أحد جدران غرفته فقط، ولم ينبس ببنت شفة. فبدأ الناس يتهافتون على مشاهدة ما هو خارج الغرفة للمرة الأولى، ويتابعون اتصالاتهم مع الغرف الأخرى بحرية. لكن الكارثة الحقيقية كانت أن ما يشاهدونه في الخارج مختلف من غرفة لأخرى، ففي غرفة يشاهدون بحرا، بينما في الأخرى يشاهدون جبلا، وفي ثالثة يشاهدون غابة، وفي رابعة يشاهدون صحراء وهكذا. وهنا بدأ كل ثالوث يقول لرعيته بضحكة صفراء واضحة: "هل رأيتم بأم أعينكم كيف أن الآخرين يكذبون عليكم لأنهم يريدون بكم شرا؟ أنتم ترون بحرا في الخارج وهم يقولون إن في الخارج جبلا او غابة او صحراء، لكنكم تشاهدون البحر بأعينكم. لقد قلنا لكم ولأسلافكم من قبلكم إن الآخرين يريدون بكم شرا، ونحن هنا لحمايتكم فقط، ووضعنا لكم النظام الأمثل، وجعلنا غرفتكم أجمل الغرف. لكن أولئك الخارجين قاموا بتقليبكم علينا، وها نحن قد أثبتنا لكم صدقنا وحسن نيتنا وكذب أولئك الصعاليك الذين يريدون بكم شرا". لقد نجحوا في تقليب الناس على الخارجين لدرجة أن والدة أحدهم ووالده كانوا ليعاقبوه او يقاطعوه على عمالته للآخرين، ليس هذا وحسب، بل نجحوا ولأول مرة في تاريخهم في بث عداء حقيقي وكراهية لا حدود لها بين سكان الغرف المختلفة، الذين لم يتقابلوا يوما بل تواصلوا فيما بينهم، وكان كل منهم يرى من نافذته ما لا يراه الآخر.

لوسيل "بألم": يا لمكرهم، فعلا انها حيلة خبيثة!

[45] **رجل الكهف**: بل إنهم قد قاموا بما هو أمكر من ذلك. فبدأوا باستئجار بعض الخارجين او بإرسال بعض اتباعهم المأجورين كي يقولوا كلاما يخالف ما يقوله الخارجون الاخرون. مما أدى الى تفاقم الانقسامات ين الرعايا وتفاقم عدم يقينهم من معرفة من هو على صواب.

دالي: إنهم يفعلون المستحيل كي يبقوا الرعايا مصدقين لهم.

[46] **رجل الكهف**: في تلك الأثناء بدأ الخارجون ببناء برج. الأشخاص من نفس الغرفة كانوا مسؤولين عن بناء الجدار الأقرب الى غرفتهم. كان برجا ذا مساحة قاعدية هائلة، فكان لكل جدار درجه الخاص الذي يتم بناءه بالتزامن مع بناء الجدار. كانت فكرة الجيل المؤسس لهذا البرج هو إيجاد منصة عالية تطل على جميع الاتجاهات، حيث يتمكن الواقف على سطحها من رؤية الجبل والبحر والغابة والصحراء. وبهذا يتمكنون من اثبات أن ثواليث القمع قد لعبوا على الرعايا في فتح النوافذ في اتجاهات

مختلفة.

داني "بحماس": فكرة رائعة.

[47] **رجل الكهف:** لكن ما حصل هو أن ثواليث القمع لم تترك الخارجين يقومون بعملهم دون إزعاج. فكانوا دائما ما يبثون أتباعهم بينهم، ليثنوهم عن العمل تارة، وليثيروا الضغينة بينهم تارة أخرى. والنتيجة هي أن الناس الذين كانوا يتابعون بناء البرج بعد الجيل المؤسس الأول قد تاهوا عن هدف بناء البرج، فكل ما يعرفه الخارجون من الأجيال الجديدة هو أن عليهم متابعة العمل على رفع الحائط الخاص بهم. بعضهم كان يعود كحال أسلافه متحديا قانون العقوبات ومتابعا إخبار أحبابه وأقاربه وأصدقائه عما يحصل في الخارج، وبعضهم كان يقرر ان يمضي بقية حياته في بناء الجدار دون عودة، وبعضهم كان يتكاسل ويقرر ان يبقى على مستوى معين من الارتفاع ويمضي بقية حياته هناك، دون عودة للغرفة ودون متابعة للصعود.

لوسيل "بحزن": هذا محزن.

[48] **رجل الكهف:** كلا ليس ذلك هو المحزن، بل المحزن حقا هو أن بنائي الجدران المختلفة من الأجيال اللاحقة بدأوا يختلفون فيما بينهم إذا ما التقوا مصادفة تحت البرج، فهذا يقول أنا لا أشاهد الا بحرا من اعلى نقطة وصلت إليها، والأخر يقول إنه يشاهد جبلا. هذا يقول إنه يرى الشمس تشرق من مستوى سطح الأرض وتغرب عندما تصل درجة الزاوية القائمة، بينما الآخر يقول إنها تشرق بزاوية قائمة وتغرب على مستوى سطح الأرض. وآخر يقول إنه لا يشاهد الشمس مطلقا، لا يوجد شيء اسمه شمس، إنها خرافة، هناك فقط ضوء دون مصدر محدد يضيء السماء كل يوم ويغيب معلنا قدوم الليل. وما تحجيم هذا النور بكرة ملتهبة يسمونها الشمس إلا استهزاء واضح بعقله! اختلافات من هذا النوع شقت صف الخارجين من الغرف المختلفة كما عززت الكراهية بين رعايا الغرف المختلفة. كل منهم يرى الآخر كاذبا رؤيا العين. لقد تعززت مصداقية كل ثالوث بل وزادت سطوته لتشريخ صف الخارجين. لقد نجح تحالف ثواليث القمع في مواجهة تحالف الخارجين الأوائل.

[49] **داني:** ثم ماذا حصل؟ لا تقل لي إنها النهاية. دعهم يتبادلون زيارة بعضهم على الجدران الأخرى ليتأكدوا. فهم هناك بالخارج، لا وجود لثواليث قمع في الخارج!

رجل الكهف "وهو ينفث دخان غليونه": نعم هذا صحيح، لا وجود لثواليث القمع خارج الغرف لكن أتباعهم المأجورون موجودون. وبسبب هذه الكراهية التي قاموا بزرعها بين بنائي جدران البرج المختلفين، فقد أقيمت حراسة من كل غرفة أسفل جدارها الخاص حيث لا يمكن لمن لا ينتسب لهذه الغرفة أن يصعد على ذلك الجدار ليشاهد منه شيئا. ليس هذا وحسب، بس امتثل الخارجون لتلك الاشاعات التي تعزز المخاوف في أن يتم الغدر بهم لو صعدوا على جدران الآخرين، ولو لمجرد زيارة ودية.

[50] **لوسيل**: إذا الآن هناك عدة جدران لكل منها درجه الخاص، وكل الخارجين من غرفة ما يحق لهم الصعود على جدارهم الخاص والذي يستطيعون منه النظر الى وجهة محددة فقط. ومن يعود إلى الغرفة من الخارجين فإما يتم عقابه أو يتم شراءه من قبل ثالوث القمع في غرفته. وقاربت علاقة الناس من الغرف المختلفة على الانقطاع من جديد، مع وجود عدم ثقة كبيرة بين الجميع وكراهية مبطنة وظاهرية حتى ولو التقوا في الخارج تحت البرج. هذا وإن بعض الناس قد قرروا البقاء على البرج وعدم المجازفة في العودة وبالتالي قد قرروا النفي إراديا كي يتجنبوا العقاب أو أن يتم شراؤهم، لكنهم ببقائهم على البرج كانوا غير قادرين على رؤية أي شيء الا ما يطل عليه جدارهم فقط.

رجل الكهف: نعم إنه توصيف جيد للوضع.

[51] **لوسيل**: وهل بقي الوضع كما هو حتى الأن؟

رجل الكهف: كلا، ففي وقت ما فكر المغامرون الذين تحملوا مشقة الصعود إلى أعلى البرج بأنه لابد من وجود سبب لهذا التعارض الظاهري بين ما يراه كل منهم من مكانه، أو أنه يجب ان نتأكد بطريقة ما أن هناك من يكذب. وكان الحل الوحيد هو تبادل المواقع، لكن هذا مستحيل نظرا للرقابة على الأدراج المختلفة. فقرر هؤلاء بناء سطح يربط الجدران ببعضها، وهكذا يمكن لجميع من على الجدران المختلفة الالتقاء على السطح ومشاهدة الوضع من هناك بصورة أكثر شمولية او حتى زيارة النقاط العليا من جدران الآخرين. لم يكن هناك من حل سوى هذه المجازفة. فبدأوا ببناء السقف، وعندما التقوا عليه كان المشهد يفوق جميع خيالاتهم. كان بإمكانهم النظر الى جميع الاتجاهات بمجرد المشي على السطح. واكتشفوا أن تلك الاختلافات في الرسائل المتبادلة بينهم، بين ما يراه كل منهم من موقعه على جداره، لم تكن إلا قصورا من وجهة نظره في رؤية الصورة الأكثر شمولية. لقد كان بإمكانهم ان يروا جميع الغرف والبحر والجبل والغابة والصحراء والشمس تشرق وتغرب مارة بكبد السماء، الذي كان الوقت الذي يودعها فيه أحدهم ويستقبلها فيه الآخر. وشاهدها لأول مرة من لم يصدق بوجودها مسبقا. لقد أعاد بناؤو السقف سيرة أسلافهم الخارجين الأوائل. وقرروا كما قرر أسلافهم أن لابد من إيصال خبر هذا الاكتشاف الذي يحل كل خلافاتهم الى الرعايا داخل الغرف. كان كل منهم يتحرّق شوقا ليحدث أحباءه عن حل اللغز.

لوسيل "مقاطعة": هذا رائع!

[52] **رجل الكهف**: ولكن هيهات، فإن الأوان قد فات. فعندما اتصل كل منهم بغرفته، قابله الناس بالسخرية والاستهزاء، "لابد أنك مجنون ومهلوس، لقد مللنا هذه الأمور، إن بقاءك في الخارج وصعودك البرج وبناء السطح قد أصابوا عقلك بلوثة لا يمكن شفاؤها. إننا نشفق عليك، لقد تكبدت كل هذا العناء لتقول لنا هذا الهراء. دعنا بسلام فنحن نعرف اعداءنا الحقيقيين فلازلنا لم نتأثر بلعنة الخروج مثلك". تلك كنت أبسط الإجابات التي سمعها الجالسون على سطح البرج، والتي كما جرت العادة تراوحت بين اتهامات بالجنون أو العمالة، الى سباب وشتائم ووعيد بأشد العقاب لو فكروا

بالعودة أو معاودة الاتصال لبث سمومهم داخل الغرف.

داني "بألم": أشفق عليهم، هم أفنوا حيواتهم لمعرفة الحقيقة ليقابلوا بهذه الإساءات.

[53] **رجل الكهف:** لم يتغير هذا الحال منذ جيل الخارجين الأوائل. لكن مشكلة سكان السطح أكبر من مشكلة الخارجين الأوائل، فمعارضة الخارجين الأوائل كانت محصورة بثواليث القمع فقط، في المرحلة الأولى. لكن سكان السطح لم يلقوا معارضة من ثواليث القمع ومن الرعايا في الداخل فحسب، بل من الموجودين على الجدران المختلفة للبرج في ارتفاعات مختلفة والذين تكاسلوا عن متابعة الصعود. لقد وجدوا أنفسهم نوعا ما حبيسي- سطحهم الجديد. مع متعتهم التي لا توصف بتمكنهم، ولأول مرة في التاريخ، من النظر من ذلك الارتفاع الشاهق، ومشاهدة ما لم يشاهده أحد قبلهم، إلا أن الألم الناتج عن ردة فعل أحبائهم لهم كان يفوق أي ألم قد اختبره إنسان قبلهم. ولقد أدى هذا الألم بالكثيرين منهم الى الجلوس على السطح في كدر، ومحاولة التمتع بما يشاهدوه كي ينسوا عناء الصعود وألم العزلة التي فرضت عليهم كمكافئة على جهدهم ذلك. بينما قرر قلة منهم أن يتابعوا بناء البرج، فقد وجدوا أن ذلك من شأنه أن يخفف عنهم كدرهم. فتمضية بقية حياتك في مكانك في حزن شديد ليس من الحكمة في شيء، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، كان لديهم فضول لمعرفة ما يمكن أن يشاهدوه من ارتفاع أعلى. "فإذا لم يكن هناك من طريق للعودة الى الأسفل، فلم لا نذهب الى الأعلى" هكذا فكر هؤلاء القلة. لكنهم قرروا الاستفادة من ذلك السطح الذي بنوه، وتجنبا لتكرار ما حصل في السابق مع رافعي جدران البرج المختلفة، فقد قرروا هذه المرة أن يتابعوا رفع البرج لكن على شكل درج حلزوني يرتفع من منتصف سطح البرج.

داني "متحمسا": ناهيك عن أن رفع الدرج الحلزوني أسرع بما لا يقاس من رفع جدران مختلفة لكل منها درجه الخاص.

[54] **رجل الكهف:** كلامك صحيح. وفعلا بدأ هؤلاء القلة برفع ذلك الدرج الحلزوني درجة درجة. وكلما ارتفعوا أكثر، كلما سلب ألبابهم سحر ما أمكنهم مشاهدته. لقد تمكنوا بسرعة قياسية من بلوغ ارتفاع شاهق في ذلك الدرج الحلزوني الذي مكنهم من المشاهدة بشكل كروي، فكان بإمكانهم مشاهدة جميع الغرف، وجدران البرج المختلفة بساكنيها المتقاعسين عن متابعة الصعود، المتناحرين فيما بينهم على صحة ما يشاهده كل منهم. لقد كان بإمكانهم مشاهدة ثواليث القمع من الغرف المختلفة وهم يعقدون اجتماعات فيما بينهم، بينما يقول كل منهم لرعاياه أن الآخرين أشرار. انهم يضحكون سوية ثم يعودون إلى غرفهم ليقولوا كلاما مشينا بحق بعضهم البعض. لم يعودوا يشاهدون البحر والجبل والغابة والصحراء كحال سكان سطح البرج فحسب، بل بات بإمكانهم رؤية ما وراء كل ذلك. ولطبيعة الدرج الحلزوني، كان بإمكانهم مشاهدة كل ما سبق مكتفين بإمالة رؤوسهم في الاتجاهات المختلفة دون ان يتحركوا مطلقا. لقد بدأ عناء بناء البرج وصعوده يعطي ثماره بالنسبة إليهم.

[55] **لوسيل:** وهل أعادوا محاولات الاتصال بالرعايا في الداخل؟

رجل الكهف: لقد اختلفوا في هذا الأمر. فبعضهم قد تملكه الغضب الشديد مما شاهد بأم عينه من حقائق قد تم تغييبها عن الرعايا، وكيف أن الثواليث يتفقون فيما بينهم لبث الكراهية بين سكان الغرف المختلفة، فعاد الى غرفته متجاسرا لإخبار أحبابه، وهناك تمت معاقبته بأشد العقوبات من قبل ثالوث القمع. لقد كانت عقوبات ثواليث القمع تتناسب طردا مع مستوى صعود الخارج على البرج، وبالتالي مع مدى الرؤية التي استطاع بلوغها وشموليتها. ومنهم من تملكه اليأس وبقي مستمتعا في مكانه في الأعلى حتى وفاته ومنهم من بقي يتابع الصعود حتى وفاته، ومنهم من اتخذ حلا وسطا، فكان يتصل بالرعايا ويتكلم معهم، لكن لم يتم تصديق أي منهم مطلقا بل كان ينعت بالجنون المطلق حتى من قبل أعز أحبابه.

[56] **لوسيل** "بلهفة": وماذا بعد؟

رجل الكهف: هذه هي النهاية يا عزيزتي، هذا هو ما استقر عليه الوضع الى اليوم. فحتى الساعة، لا يزال الغالبية الساحقة من البشر يعيشون كرعايا مغيبين داخل غرفهم، يتحكم بهم ثواليث القمع، الذين جندوا، من ضمن من جندوهم، بعض الناس ممن يخرجون خارج الغرف ليعودوا ويقولوا للرعايا كلاما يتوافق مع أهواء ثالوث القمع الخاص بتلك الغرفة. والمزعج في الأمر أن معظم هؤلاء لم يصعدوا درجة واحدة من درجات البرج، لكنهم بالنسبة للرعايا أشخاص قادمون من الخارج. وبسبب دعم وترويج ثالوث القمع لهم يتم اعتبارهم من قبل الرعايا على قدم المساواة مع جميع من هم بالخارج، إلا أنهم مصدر ثقة أكبر مقارنة بمن لم يعودوا، فمباركة ثالوث القمع لهم قد جنبتهم المس الشيطاني او الجنون. لم يدرك الرعايا حتى الان أن هناك جدرانا مختلفة للبرج، وأن هناك سطحا وأن هناك درجا حلزونيا. لا يمكنهم استيعاب الفكرة أساسا. كيف وهم لم يشاهدوا برجا ولا درجا في حيواتهم. هذه كلمات لا تحمل معنى بالنسبة إليهم. مفهوم النظر من ارتفاع عال بشكل شمولي لا يمكنهم تصوره، فلا وجود له في الغرف. وحتى اليوم ما برح سكان جدران البرج المختلفة متناحرين فيما بينهم، وغير مصدقين لمن وصل السطح وارتقى على الدرج الحلزوني.

لوسيل "بألم": هذه نهاية حزينة.

[57] **رجل الكهف**: غالبا ما تكون القصص الواقعية، ذات نهايات حزينة.

داني "بألم": صدقت.

رجل الكهف: أما الآن، فتصبحان على خير.

****

الباب الثاني
في أقسام الدماغ

(في صباح اليوم التالي، استيقظ داني ولوسيل ليجدا رجل الكهف يعد القهوة)

[58] **داني**: عمت صباحا يا رجل الكهف.

رجل الكهف: أتمنى أن تكونا قد نمتما بعمق الليلة الماضية، ولم تؤرقكما القصة التي قصصتها عليكما. على أي حال، اعتقد ان النوم في الكهف أكثر راحة منه في الخيمة، أليس كذلك؟

لوسيل: في الواقع إنه كذلك. لكننا -كما توقعت- لم ننم بسهولة، فقد كنا نتناقش في قصة البرج. وأعتقد أننا فهمنا معظم رموزها، لكن استعصى علينا فهم ثالوث القمع، لم هو ثالوث!

رجل الكهف "مقدما القهوة": لقد حذرتكِ من هذا، لكنك لم تأخذي تحذيري على محمل الجد. على أي حال، أخبراني بما توصلتما اليه.

داني: أرى أن الغرف المختلفة هي الثقافات المختلفة. والرعايا هم الناس البسطاء الذين يشكلون الغالبية الساحقة من البشر عبر كل العصور.

[59] **رجل الكهف** "وهو يشعل غليونه": عظيم. ومن هم الخارجون.

لوسيل: دعنا نقل أنهم المثقفون بالمصطلح المعاصر. وفي الواقع هذه النقطة بالتحديد اختلفنا عليها داني وأنا، لأن هؤلاء الخارجين كما يبدو لنا أنواع. فمنهم من اشتراه ثالوث القمع، ومنهم من خرج من الغرفة فقط دون صعود البرج ثم عاد. ومن صعد البرج منهم، فهم أنواع أيضا، فهم على مستويات مختلفة من الارتفاع، وعلى درجات متفاوتة من البصيرة، فمنهم قاصر النظر، ومنهم ذو الهمة العالية، ومنهم المتجاسر ومنهم المتخاذل وهكذا. لكن موضع الخلاف بيننا هو، لو كان تحليلنا صائبا وهؤلاء هم المثقفون، فهل يمكن ان يكونوا مختلفين بهذا الشكل في الواقع، على افتراض أن قصتك الرمزية، كما أشرت قبل خلودك إلى النوم، هي ترميز للواقع؟

[60] **رجل الكهف**: سأجيب على تساؤلاتكما لاحقا، لكن الآن أخبراني ما هو البرج؟

لوسيل: يبدو لنا أن البرج هو المعرفة الإنسانية المتراكمة عبر التاريخ. وجدرانه هي المدارس الفكرية المختلفة التي تم تطويرها، إذا أمكننا استعارة مصطلح "مدارس فكرية" وتطبيقه على كل الجهود البشرية في محاولات المعرفة على اختلاف طرائقها حول العالم.

[61] **داني**: لكن ما هو ذلك الدرج الحلزوني في أعلى البرج؟

رجل الكهف: إنه المنهج العلمي يا صاح. ألم ترى كيف تمكن المنهج العلمي من تغيير معرفتنا عن العالم بل وتغيير واقعنا في زمن قياسي، بأضعاف ما حصل من مجمل التغيير على مدى التاريخ البشري

السابق له كله؟ ألم ترى كيف أنه جعلنا نبصر الحقائق التي لم يعرفها السابقون، الذين كان كل منهم متمسكا ببعض الأفكار ويدعي أنها حقائق مطلقة؟ ألم ترى أنه قد أنهى الجدل التاريخي بين المدارس الفكرية المختلفة. هذا وأنه ليس حكرا على أحد، بل يستطيع أي شخص، من أي غرفة، أن يصعد عليه ويتابع بناءه؟

[62] **داني**: صدقت. لكن لم تخبرنا من هو ثالوث القمع؟

رجل الكهف: إنه السلطات السياسية والدينية والاقتصادية.

[63] **لوسيل** " متعجبة": ماذا! هل تريد أن تقول إن هذه السلطات الثلاث هي دائما متفقة مع بعضها على مصلحة الشعوب؟

رجل الكهف: نعم هذا صحيح. مع وجود استثناءات طفيفة -كاستبدال الدين بأيديولوجيا معينة مثلا- قد نبحث فيها إذا تحدثنا عن الموضوع بالتفصيل. لكن بشكل عام، إنهم دائما وأبدا يشكلون مثلثا زاويته العليا هي الاقتصاد، وزاويتاه القاعديتان هما السياسة والدين. هذا الثلاثي متضافر دائما وأبدا بشكل لا يمكن فصله. فكما للعملة المعدنية وجهان لا يمكن ان يختزلا، فهذا الثلاثي يشكل مثلثا لو سحبت إحدى زواياه لفقد ماهيته كمثلث، أي لما عاد له وجود. هذا وإن العامل الاقتصادي كان ولايزال رأس هذا المثلث، الذي يرتكز على زاويتين يحملانه، نسميها السياسة والدين. أو لنقل بدقة أكبر، إن الهدف الذي يجمع هذا الثلاثي هو الهدف الاقتصادي، ولولاه لما كان هناك من سلطة دينية ولا سلطة سياسية في أي مكان وفي أي زمان.

لوسيل "بذهول": لم أفكر بالأمر على هذا النحو مطلقا.

[64] **داني**: وماذا عن الخارجين؟ هل هم المثقفون كما أشارت لوسيل؟ وان كانوا كذلك فلم هم مختلفون هكذا؟

رجل الكهف: مع عدم وجود تعريف دقيق متفق عليه للمثقف، فإنه يمكنني أن أوافقكما الرأي، وأقول إن هؤلاء الخارجين كلهم، هم من يعتبرهم الرعايا البسطاء مثقفين. ولكنهم، كما هو واضح، ليسوا صنفا واحدا. فبعضهم عملاء فقط لثالوث القمع وهم ليسوا بمثقفين، غالبيتهم لم يصعدوا البرج، بل لم يقتربوا منه، هؤلاء الذين يخرجهم الثالوث الى خارج الغرفة ثم يعيدهم الى الداخل ليكسيهم حلة المثقف، ويسوقهم بين الرعايا على أنهم مثقفون. تراهم على شاشات التلفاز في كل مكان، يتكلمون بمصطلحات رصينة عصية الفهم على عامة الناس، يمتلكون كاريزما ودعاية إعلانية تجعل الرعايا يصدقون أقوالهم، وبالتالي يشكلون درعا يمنع الناس من تصديق من صعد البرج في الواقع. ولديك من صعد أحد جدران البرج ووصل الى ارتفاع ما وتوقف، هذا الذي قرأ بعض الكتب في مجال ما واعتبر نفسه امتلك الحقيقة، ولذا ترى أمثال هذا المثقف يتشاجرون فيما بينهم، كل منهم يدعي أنه امتلك الحقيقة. كيف لا وهو قد باشر فعلا صعود البرج! ومعظم هؤلاء أيضا يمكن أن يصبحوا بسهولة تابعين

لواحد على الأقل من أركان ثالوث القمع، أو أن يجندوا لحسابه، أو أن يكونوا مجرد داعمين له لقصورٍ في نظرهم.

[65] **داني**: ولهذا إذن إن أولئك الذين تابعوا الصعود ووصلوا سطح البرج وتمكنوا من رؤية مختلف الاتجاهات لم يعودوا يتصارعون فيما بينهم ولو كان كل منهم من غرفة مختلفة، أي من ثقافة مختلفة.

رجل الكهف: بالضبط، فكلما ارتقيت صعودا على البرج كلما اتضحت لك الصورة الكلية أكثر، ووصولك الى سطح البرج يجعلك ترى الصورة بشمولية أكبر في جميع الاتجاهات.

[66] **لوسيل**: والشجار بين من وصل سطح البرج وصعد الدرج الحلزوني، وبين من بقي معلقا على أحد الجدران، هو تلك النقاشات بين من اطلع على العلوم الحديثة، وذلك الذي لا يزال عالقا ببضعة كتب قديمة عفَّى عليها الزمان ويرفض الاطلاع على النتاج الإنساني اللاحق، أي على الارتفاعات الأعلى في البرج.

[67] **رجل الكهف**: صحيح، وكم هم كثر في عالمنا اليوم. فترى رجلا ما متمسكا بالمنطق الصوري أو بفلسفة أفلاطون المثالية أو بكتاب قديم يُقدّسه، ضاربا عرض الحائط كل النتاج الفكري منذ ذلك الزمن إلى اليوم، وكأن كل النتاج الإنساني اللاحق على أفلاطون أو أرسطو أو غيرهما هو بلا قيمة. فتجده قرأ كتابين أو ثلاثة عمرها بضعة مئات من السنين أو بضعة آلاف منها، وجلس في بيته رافعا أنفه معتبرا نفسه امتلك المعرفة الكاملة، وطبعا هو بالمقارنة مع العوام من الناس، لاريب مثقف نسبيا. فمن قرأ كتابا هو مثقف أكثر ممن لم يقرأ أي كتاب. لكنه حتما لا يملك أي وزن ثقافي مقارنة بمن تابع صعود البرج ووصل السطح ثم صعد الدرج الحلزوني. فمن تكلف عناء صعود البرج لمراحل أعلى، لا شك أكثر ثقافة ممن لم يفعل.

[68] **داني**: توصيفك دقيق، ويمكنني أن استحضر في ذهني أمثلة لا حصر لها لجميع النماذج التي ذكرت والتي لم تذكر. لكنني دائما ما أسأل نفسي- كيف يمكن للبشر- أن يكونوا بهذا الاختلاف في إدراكهم وجميعهم، إذا استثنينا ذوي الأمراض الدماغية، لديهم أدمغة يفترض أنها تعمل بنفس الكفاءة، كما يمكن لأمعائهم ان تهضم بنفس الكفاءة على وجه التقريب. أو لنقل إني اتفهم وجود اختلافات طفيفة في المحاكمات العقلية للبشر ناتج عن اختلافات تركيبتهم الجينية، لكن ليس أن تكون اختلافات صارخة في طريقة تفكيرهم. لا نجد هذه الاختلافات الصارخة في طريقة عمل أيديهم وأرجلهم وأمعائهم كما نجدها في أدمغتهم. هل لديك أي تفسير لهذا؟

[69] **لوسيل**: كلام داني صحيح، كيف نجد الناس مقتنعين تمام الاقتناع بأمور متناقضة، وكل منهم يدعي أنه استعمل عقله ووصل الى تلك القناعات؟ لن نجدهم متفاوتين بهذا القدر إذا ما سئلوا عن رأيهم في جمال منظر طبيعي أو عن المتعة الجنسية أو عن حب الأم لابنها مثلا. أليست كلها أمور عقلية؟ كيف تتشابه في أمور وتتباين في أخرى؟

[70] **رجل الكهف:** بداية لا يوجد شيء اسمه العقل، هذا مصطلح ميتافيزيقي، يوجد شيء اسمه الدماغ، وهو المسؤول بأقسامه المختلفة مع ملحقاته من التجهيزات الأخرى في الجهاز العصبي عن القيام بجميع الوظائف التي كان الناس يقسمونها تاريخيا بين أمور عقلية وأمور قلبية. لذا فجميع مشاعرك وذكرياتك وأفكارك وآمالك وأحلامك وتطلعاتك ومخاوفك وأحزانك وأفراحك وعشقك وكرهك واحباطك ونشاطك وجوعك وشبعك وشهوتك الجنسية وجميع ما تختبره في حياتك هو نتاج عمل دماغك. باختصار دماغك هو أنت. لو بترت جميع أعضائك تبقين أنت، لا يصبح اسمك "لوسيل ناقص كذا من الأعضاء". ولو استبدلت قلبك بقلب داني لا يصبح اسمك "لوسيل ناقص قلب مضافا له قلب داني"، بل تبقين انت نفسك. لكن لو سحب منك دماغك أو تم استبداله بدماغ داني فلن تعودي أنت نفسك في هذا الجسد، بل سيصبح داني يستخدم جسدك. وما الجسد كله إلا أدوات نستعملها للحفاظ على الدماغ حيا، ولإدخال البيانات له واخراجها منه.

داني "ضاحكا": كلا أرجوك، لا تضع دماغي في جسدها فإني أخشى آلام الطمث.

[71] **لوسيل** "منزعجة": لا تشتت الموضوع يا داني. ما قصدك بإدخال البيانات له واخراجها منه ؟

رجل الكهف: حسنا، دعونا نقارب الموضوع مع الحواسيب. في الحواسيب لدينا وحدات إدخال كلوحة المفاتيح، ووحدات اخراج كمكبر الصوت. وأحيانا لدينا وحدات إدخال وإخراج في نفس الوقت، كالشاشات التي تعمل باللمس. ولدينا وحدة معالجة مركزية. وذاكرة قصيرة الأمد تسمى ذاكرة الولوج العشوائي، وذاكرة طويلة الأمد وهي وحدة التخزين الرئيسية. ولابد من وجود وحدة إمداد بالطاقة كي تعمل المنظومة بكاملها. هل أنتما على دراية بهذه الأمور ؟

داني "بزهو": بكل تأكيد.

[72] **رجل الكهف:** عظيم جدا. وبالمثل عند البشر، كما جميع الحيوانات الأخرى. فيدي مثلا تعمل الآن كوحدة إدخال عندما أستشعر بها حرارة كوب القهوة ونعومة ملمسه، وكوحدة إخراج عندما أحركها الآن لألتقط الكوب ثم أرفعه كي أوصله إلى فمي فأرتشف منه. لساني يعمل الآن كوحدة ادخال ليعلم دماغي بمذاق القهوة، وكوحدة إخراج بتحركه الآن متفوها بالكلام الذي أقوله. جهازي الهضمي يعمل متكاملا، بالإضافة لبعض الأعضاء المساندة، لمد جسدي بالطاقة التي يستأثر دماغي لوحده بحصة الأسد منها. أذناي وعيناي يعملان كوحدات إدخال بحيث أسمعكما وأراكما. وهكذا بالنسبة لباقي الأعضاء. وما يحصل فعليا هو أن دماغي يقوم بعملية معالجة للبيانات التي تمدني بها وحدات الإدخال المختلفة، بناء على ما يوجد في ذاكرتي قصيرة الأمد، التي تحتفظ بنسخ عن كل المدخلات، أو لنقل إنها تمر من خلالها، تماما كما يحصل في الحاسوب، وعلى ما يوجد في ذاكرتي طويلة الأمد من معلومات مخزنة. وبذلك أستخلص حكما وأعطي الأمر لوحدات الإخراج لتتحرك بالطريقة التي أراها مناسبة. هذا ويمتلك الدماغ، خاصية تسمى نظام الترشيح. حيث يقوم بتجاهل معظم المدخلات التي تصله لحظيا، ويتعامل مع ما يراه مهما منها فقط. لكن الاستفاضة في هذا الموضوع ستأخذني بعيدا عن

الإجابة على سؤالك. على أية حال أتمنى أن تكون هذه الفكرة الاستطرادية قد اتضحت.

داني "مفكرا": أعتقد ذلك، دعنا نكمل لنرى.

[73] **رجل الكهف** "وهو يشعل غليونه": إذا كي لا نعقد الموضوع، دعنا نعود إلى الدماغ نفسه، بعيدا عن تعقيدات علم الأعصاب وتقسيمات الدماغ والجهاز العصبي التشريحية. ولغرض التبسيط، اسمح لي بتقسيم الدماغ ميتافيزيقيا لأغراض هذا البحث لثلاثة أقسام رئيسية: أولها قسم الغرائز، وهو القسم المسؤول عن إدارة جميع الوظائف الحيوية في الجسم. هذا القسم موجود بفعاليته الكاملة عند جميع الحيوانات، حيث إنه ضروري لبقاء الكائن الحي وتكاثره. ولو أصابه خلل أدى إلى إعاقته عن أداء تلك المهمة، فمصير الكائن الحي هو الهلاك المحتوم أو عدم نجاحه في التكاثر. لذا فإن الانتقاء الطبيعي حافظ عليه بدءا من أشكاله البدائية كعناقيد عصبية في اللافقاريات البسيطة، وصولا الى أشكاله المتطورة عند الرئيسيات. دعني أشبه لك هذا القسم ببرنامج التشغيل الأساسي لحاسوبك، فحاسوبك عبارة عن خردة دون هذا البرنامج. لذا فعندما تشتري أي حاسوب جديد لا بد وأن يكون عليه نظام تشغيل يتعرف على جميع تجهيزات الحاسوب ويتيح لك التعامل معه. لكن قسم الغرائز هذا عند الكائنات الحية لم تطوره مايكروسوفت ونظيراتها، بل طوره الانتقاء الطبيعي. وعليه، فكل كائن حي يولد ولديه قسم الغرائز هذا مكتمل -باستثناء ذوي الأمراض او التشوهات الدماغية ذات الصلة، والذين لولا الطب الحديث لقضى على حيواتهم الانتقاء الطبيعي الذي لا يرحم أحدا- وهكذا فأنت ترى الوليد يبكي ويلتقف ثدي أمه ولاحقا يضحك ويخاف وينام ويستيقظ ويأكل ويشرب، ثم يبلغ جنسيا فينجذب لفرد آخر ويعشق ويمارس الجنس ويحب أطفاله ويرعاهم، الى آخر ما هنالك من أمور نتشارك بها مع أفراد عائلتنا الحيوانية الكبرى، دون الحاجة فعليا لأن تعلمه أيا منها.

[74] **لوسيل** "بحماس": جميل جدا. وماذا عن القسم الثاني؟

رجل الكهف: القسم الثاني هو قسم الذاكرة. والذي بدوره ينقسم الى قسمين تماما كما في الحاسوب: ذاكرة قصيرة الأمد أستخدمها الآن لأتذكر مكان كوب القهوة بجانبي، وأتذكر سؤالك هذا كي أجيب عليه. وأخرى طويلة الأمد أخزن فيها المعلومات التي سأحتاجها لاحقا، كأن أخزن صورتيكما وصوتيكما وإسميكما وهذه الجلسة اللطيفة، وأخزن فيها الكتب التي أقرأها ومكان كهفي في الغابة. وعندما أراكما في المستقبل -إن لم يصب العطب ذاكرتي- سأتعرف عليكما ولن أعتبركما غرباء بعد اليوم. وهذه الذاكرة تتفاوت بين الكائنات الحية، فكلما اتجهنا نحو المراتب الأدنى في المملكة الحيوانية نجدها تقل كثيرا. ألا تلاحظ هذه الذبابة المزعجة، إني أحاول إبعادها عني منذ أن جلست هنا لكنها تأبى إلا أن تعود. إنها ليست عنيدة، ولا يوجد عداء شخصي بيني وبينها، لكنها ببساطة تمتلك ذاكرة محدودة جدا لدرجة أنه في اللحظة التي تلي إبعادي لها، تنسى ذلك وتحاول ان تعود من جديد وكأن شيئا لم يحدث. بالنسبة لها هي فعلا تراني للمرة الأولى في كل مرة تهاجمني بها، ولا يمكنني لومها على ذلك.

داني "ضاحكا": كنت دائما أقول إن الذباب كائنات تقصد إزعاج الناس. يبدو أني ظلمتهم!

[75] **لوسيل** "بتركيز": وما هو القسم الثالث في تقسيمك الميتافيزيقي للدماغ؟

رجل الكهف: إنه قسم المعالجة، أو بالمصطلح الحاسوبي "وحدة المعالجة المركزية". هنا نقوم بجميع المحاكمات العقلية التي تتضمن التفكير والتحليل والتفسير ومحاولة استخلاص النتائج. وكحال قسم الذاكرة، يتناقص هذا القسم لدرجة الانعدام كلما تدرجنا نحو الأدنى في المملكة الحيوانية.

[76] **لوسيل** "مفكرة": هل له أقسام أيضا؟

رجل الكهف: نعم، إنه يحتوي على ثلاثة مستويات: أحدها مسؤول عن المحاكمات السريعة، أو ما يسمى سرعة البديهة. والآخر مسؤول عن التحليل المعمق المركز في موضوع واحد. والثالث مسؤول عن التفكير الموسوعي، أي ربط أمور مختلفة ببعضها وإيجاد علاقات منطقية ودالية بينها للخلوص الى نتيجة مشتركة من تلك الأمور أو المجالات المختلفة. وليس بالضرورة مطلقا أن يكون الشخص نفسه بارعا بتلك الأمور كلها على قدم المساواة، بل يندر أن يكون كذلك. فكثيرا ما تجد شخصا ذا سرعة بديهة مثيرة للإعجاب، لكنه غير قادر على التفكير بمنهجية سليمة أو تحليل أي أمر تحليلا عميقا، والعكس صحيح. كما أنك قد تجد شخصا بارعا جدا في ربط أمور مختلفة ببعضها ربطا منطقيا واستخلاص نتائج مشتركة من ميادين معرفية مختلفة، لكنه لا يستطيع تركيز جهوده تلك بعمق في صميم أمر واحد بعينه. والأغلب أن جميع الناس لديهم نسب متفاوتة من تلك المستويات الثلاث ليشكل مجموع تلك النسب وحدة المعالجة المركزية الكلية لديهم.

[77] **داني** "مفكرا": لطالما عجبت من مقولة لتشارلز داروين يقول فيها: "أنا لا أتمتع بسرعة كبيرة للتفهم أو للبديهة... وقدرتي على متابعة سياق طويل وتام التجريد من الأفكار محدودة جدا... ولكنني أتفوق على النسق الشائع من الناس في مقدرتي على ملاحظة الأشياء التي تغيب بسهولة عن الانتباه، وعلى مراقبة تلك الأشياء بدقة" لم أكن أستطيع تصديقها، لكني أتوقع أني بت أفهمها الآن.

[78] **رجل الكهف**: صحيح، فالأشخاص مختلفون في مهاراتهم العقلية لأسباب بيولوجية وبيئة. فقطعا لم يكن داروين غبيا كما قد يتضح للوهلة الأولى من هذا الاقتباس، ولا شك في أنه من أذكى الأشخاص الذين مشوا على هذا الكوكب البائس. لكن قدراته الفكرية فائقة جدا في حدود معينة، وقد تكون ضئيلة جدا في حدود أخرى. وهذا ينطبق على نسبة كبيرة من الأعلام الذين خلدهم التاريخ، تماما كما ينطبق على العامة من الناس، وهو ناتج عن تفاوت في نسب المستويات المختلفة لقسم المعالجة لديهم.

[79] **داني**: هل يمكننا بالمثل تفسير وجود أشخاصا ذوي ذاكرة قوية لكنهم لا يستطيعون استخلاص أفكار أصيلة، وآخرون لديهم أفكار أصيلة لكنهم لا يملكون معرفة كبيرة؟

رجل الكهف: صحيح. فقد تجد شخصا عني بتدريب ذاكرته بشكل كبير، لكنه أهمل تماما قسم المعالجة. فتراه حافظا لقدر مهول من المعلومات بدقة بالغة، وإذا ما سألته عن شيء ما، فإنه بسرعة

يقلّب في أرشيف مكتبته الذهنية، ويعيد تكرار ما قرأ أو سمع عن الموضوع. فيقول لك ورد في الكتاب الفلاني الصفحة الفلانية كذا وكذا، وقال فلان في المكان الفلاني والتاريخ الفلاني كذا وكذا. إنه قادر على استحضار المعلومات المخزنة في ذاكرته بطريقة مثيرة للدهشة، لكنه غير قادر على استخلاص أي أفكار جديدة مما هو مخزن فيها. فهو لم يعنى بتدريب قسم المعالجة كما عني بقسم الذاكرة. فمثله كمثل حاسوب مزود بمعالج قديم من جيل بينتيوم الثاني لشركة إنتل، لكنه يمتلك قرصا صلبا ذا سعة مهولة. إن هذا الحاسب بلا ريب ليس حاسوبا سترغب في اقتنائه. فمع أن ذاكرته قد تحتوي على كل ما تريد، لكنك لن تستطيع العمل عليه بحريه، فمعالجه لا يستطيع مساعدتك في شيء. وفي المقابل تجد شخصا لديه قسم معالجة مثير للإعجاب، فتراه يفكر في أعمق الأمور أو يستطيع إيجاد روابط منطقية بين أمور متنوعة ببصيرة نافذة. لكنه، وللأسف، لم يعنى بقسم الذاكرة. فذاكرته فارغة لا توجد فيها معلومات، فتراه يتخبط في أفكاره ولا يصل الى أي مكان. كيف لا وهو لا يمتلك المعلومات ذات الصلة، التي يجب على قسم المعالجة العمل على الاستفادة منها للخلوص إلى أفكار مفيدة. فمثله كمثل حاسوب مزود بمعالج ثماني النواة ذو سرعة فائقة، لكن قرصه الصلب شبه فارغ، ما الذي ستستفيده من هكذا حاسوب لا يحتوي على أي معلومات أو برامج مفيدة؟

[80] **داني**: عمليا لن أستفيد شيئا من هذين الحاسوبين سوى التباهي باحتواء الأول على كم هائل من المعلومات، والتباهي بسرعة المعالجة التي يستطيع الثاني القيام بها. لكن كلاهما لن يكونا ذوي فائدة عملية تذكر.

[81] **رجل الكهف**: وبالمثل هذين الشخصين. لن يستفيد المجتمع منهما شيئا، سوى التباهي بما يحفظه الأول، والتباهي بما يستطيع الثاني التفكير فيه. وبالمثل أيضا من لديه سرعة بديهة عالية جدا، لكنه غير قادر على تبصر أي أمور تحتاج تفكيرا، والآخر البليد تماما لكنه قادر على معالجة أعمق الأمور وأعقدها، وهكذا دواليك. فأنت ترى أصنافا من الناس مختلفين في مداركهم وقدراتهم العقلية، بقدر اختلافهم في عنايتهم بما تحتويه ذاكراتهم والأقسام المختلفة من معالجاتهم الدماغية. قم بحساب المزيج الاحتمالي رياضيا، وسترى كم صنفا مختلفا يمكنك أن تقابل من الناس.

[82] **لوسيل** "بدهشة": كلامك هذا يفسر الكثير، لم أنظر له على هذا النحو مطلقا من قبل. لكن أي منهم هو المفضل برأيك؟ أي منهم هو المثقف الذي يحدث فرقا في المجتمعات؟

رجل الكهف: مزيج معتدل من العناية بجميع الأقسام. هذا ويمكنني استثناء سرعة البديهة على أنها ليست أساسية في بناء عقلية المثقف الموسوعي، فتلك الجزئية لها فائدتها القصوى في المفاوضات التجارية والمناظرات وغيرها من الأمور التي تهدف إفحام الخصم، لكن الباحث لا يهدف عمليا لإفحام أحد، هو يهدف الى المعرفة واستخلاص نتائج جديدة ذات فائدة للبشرية. لذا وجب عليه العمل أولا على جمع كل المعلومات ذات الصلة بموضوع بحثه، ثم العمل على معالجتها معالجة عميقة لكل منها، ثم معالجة موسوعية بربطها ببعضها. هذا وإن توافر دقة ملاحظة ضروري لاستبصار ما عمي عنه

الآخرون. وهنا فقط يمكننا الوصول الى فكرة أصيلة مفيدة.

[83] **داني** "مفكرا": هل لك أن توضح أكثر.

رجل الكهف: إن ذلك الذي يرشقنا بأفكاره "الأصيلة" دون أن يكون مطلعا على المعلومات ذات الصلة، فأفكاره بلا قيمة. ربما كان لهذا النمط من الأفكار قيمة ما في بداية التاريخ البشري، عندما لم يكن هناك من معلومات مسبقة على أي حال. لكن في المراحل اللاحقة، وجب على كل مفكر أن يطلع على النتاج البشري السابق له قبل أن يقوم باستخراج أفكار جديدة. فالدماغ البشري بقدراته الذاتية سيكون قاصرا في إنتاج الأفكار بناء على التجارب الشخصية، والتي لا يمكن بأي حال من الأحوال تعميمها كأفكار عامة. ومهما كان الانسان موضوعيا في بحثه، فإن القدرات الفكرية المتشابهة للبشر، والبيئات المحيطة بهم المتشابهة على كوكب الأرض ستعيد عند الأفراد المختلفين التفكير بنفس الأمور. فإن هم لم يطلعوا على النتاج الفكري السابق، فجل ما يفعلونه هو إعادة انتاج أفكار ومجادلات موجودة مسبقا، وغالبا قد تمت معالجتها ونقدها، لذا فإن جهده ذلك، هو بلا قيمة عمليا. فكم من فكرة قد وصلت إليها ذاتيا وكنت تطير فوق السحاب فرحا بما تبصرت، وإذ بك تصادف كتابا قديما قد عالجها منذ قرون! وكم من ابتكار، عظيم أو بسيط، قد حصل في مكانين مختلفين من العالم بتطابق شبه تام؟ ناهيك عن التطور العلمي الذي وصلنا إليه اليوم، والذي لم نصل اليه لا عن طريق التفكير العقلي المحض، ولا الجدالات الكلامية، بل عن طريق العمل الدؤوب في المخابر العلمية. ولا يمكن اليوم غض الطرف عن الرجوع الى النتاج العلمي أثناء تفكيرنا في أي أمر على الإطلاق. ولا نستطيع كذلك أن نغض الطرف عن الجدالات الفلسفية التي قامت بها أعظم العقول البشرية عبر التاريخ، وكذا بالنسبة للمنطق وتطوره، وتطورات نظرية المعرفة، والأخلاق. ولا ننسى الاكتشافات الأنثروبولوجية والأركيولوجية والإيكولوجية والجيولوجية والبيولوجية والفيزيائية والكيميائية والقائمة تطول لتشمل مختلف مناحي المعارف الإنسانية. من يقرر تجاهل كل هذه المعارف والخبرات المتراكمة والركون الى عقله معتمدا على قدراته الفكرية لاستنباط أفكار "يعتقد أنها" جديدة، فمن العدل أن يعامل بالمثل بأن يقرر المجتمع الإنساني تجاهله.

[84] **داني** "موافقا": فعلا هذا عادل تماما، فهو قد قرر تجاهل نتاج الفكر الإنساني في البداية.

لوسيل: صحيح، فهناك أكثر من سبعة مليارات إنسان يعيشون اليوم، ولو قرر المجتمع البشري أن يتعامل مع جميع الأفكار التي يولدها سبعة مليارات دماغ بشكل مستقل على قدم المساواة، لأوقف نشاطه كله في محاولة لتنظيم تلك الفوضى الفكرية.

[85] **رجل الكهف**: انظرا مثلا إلى رأي كارل بوبر في الطريقة الأمثل للمعرفة كما وضحها في "منطق البحث العلمي*": "... تقوم ببساطة على محاولة البحث عن تأملات الآخرين وأقوالهم حول المشكل المطروح. كيف اعترضتهم، وكيف صاغوه، وكيف حاولوا حله. يبدو لي هذا كخطوة أساسية في الطريقة العامة للمناقشة العقلانية. لأننا إذا كنا نجهل تفكير الآخرين، المعاصرين ومن سبقهم، فمعنى

ذلك توقف المناقشة العقلانية، واكتفاء كل منا بالحديث إلى نفسه..." ويقول في حق من يفعل ذلك "... يفتخر بعض الفلاسفة بمحادثاتهم الذاتية لاعتقادهم على ما يبدو بعدم وجود من يستحق التحاور معه. إلا أنه من الممكن كذلك النظر إلى هذا المستوى العالي من التفلسف كأحد أعراض تهافت النقاش العقلاني. ما من شك في أن الإله لا يخاطب إلا ذاته، على الأغلب لعدم وجود من يستحق التحاور معه. إلا أنه على الفيلسوف أن يعلم أن ليس فيه ما يؤلهه أكثر مما في سواه من الناس.".

داني "مذهولا": هذا نقد لاذع. وإن كان يصدق على كبار الفلاسفة، فمن باب أولى أن ينطبق على من هم دونهم.

[86] **رجل الكهف**: لا شك في ذلك. يقول محمد عابد الجابري في كتابه "المثقفون في الحضارة العربية": "المثقف شخص يفكر، بصورة أو بأخرى، مباشرة أو لا مباشرة، انطلاقا من تفكير مثقف سابق: يستوحيه، يسير على منواله، يكرره، يعارضه، يتجاوزه... إلخ. ليس هناك مثقف يفكر من الصفر. التفكيرُ تفكيرٌ في موضوع، والموضوع إما أفكار وإما معطيات الواقع الطبيعي أو الاقتصادي أو الاجتماعي... إلخ. فإذا كان الموضوع هو الأفكار والآراء والنظريات التي قال بها مثقفون في زمن مضى أو في الزمن المعاصر، فإن المثقف الذي يفكر في مثل هذا الموضوع يفعل ذلك داخل مرجعية ثقافية. أما إذا كان الموضوع من معطيات الواقع، فإن التفكير فيها يتم بتوسط مفاهيم ونظريات وآليات في التفكير ترتبط، ولابد، بمرجعيات معرفية معينة.".

[87] **داني**: إذا في كلتا الحالتين لابد من وجود مرجعيات ما. لكني لم أفهم قصده ب "... التفكيرُ تفكيرٌ في موضوع..." لا يبدو لي هذا تعريفا!

رجل الكهف: صدقت، إنه ليس بتعريف سليم، لكنه اتبع الفيلسوف إدموند هوسرل الذي بنى فلسفته على جملة منطلقات من أشهرها قوله: "الشعور هو دوما شعور بشيء". لذا يعقب الجابري: "أجل، (التفكير هو دوما تفكير في شيء). لكن يجب أن نضيف: (في إطار مرجعية فكرية ما أو استنادا عليها)، إذا كنا نقصد التفكير (العالم)، تفكير العلماء. وعندما يتعلق الأمر ب (المثقف) الذي مهنته (التفكير في الأفكار) فإن الأفكار التي يفكر فيها أو يوحي منها، معها أو ضدها، هي أفكار مثقفين آخرين، سابقين عليه أو معاصرين له، هم مرجعيتها..." ويضيف فكرة غاية في الأهمية وهي: "... وليس المقصود بالمرجعية أشخاص المثقفين، بل الإطار أو النسق الخاص الذي تناولوا داخله الفكرة التي ترتبط بهم بوصفهم مرجعية لها. ففكرة (كل شعور هو شعور بشيء) التي ترجع إلى هوسرل لا تكتسب دلالتها الخاصة من خلال نسبتها إلى هذا الرجل كشخص، بل من خلال موقعها (وضعها، ودورها) في فلسفته ككل...".

[88] **داني**: هل لك أن تشرح أكثر؟

رجل الكهف "وهو يشعل غليونه": في عالم الفكر، لا وجود للأفراد كأفراد بل وجودهم فقط كمنتجين للأفكار. فكما أنه في عالم الصناعة أنت تحاكم وتقيّم المنتجات وليس من شأنك محاكمة الآلات

التي تصنعها، فكذلك الأمر في عالم الأفكار، أنت تقيّم وتتعامل مع الأفكار بمعزل عن الشخصنة. فإن قال لك طبيب مدخّن أن التدخين مضر بالصحة، فإن فكرته هذه صحيحة طبيا ولو لم يطبقها على نفسه. ليس من شأنك إن كان يطبقها هو أم لا. ولو قال لك إمبراطور أن غزو مملكة أخرى هو عين الفضيلة، فإن مجرد كونه إمبراطورا لا يجعل كلامه هذا مقاربا لأي صواب، بل يُحتم عليك واجبك الأخلاقي الوقوف ضده. وإن قال لك فيلسوف أن المرأة أدنى من الرجل قيمة بطبيعتها، فإن كونه فيلسوفا لا يجعل رأيه هذا مقاربا لأي حقيقة علمية قد تم اكتشافها في هذا السياق، على انه قد يقول نفسه فكرة أخرى حكيمة جدا وصائبة، فكونه قد قال تلك الأولى لا يجعل بالضرورة الثانية غير حكيمة، بل تُعامل كل منهما على حدة مالم يكن أساس فلسفته كله مبنيا على وهم كأفلاطون. ومع ذلك، حتى في هذه الحالة، ستجد أفكارا لديه حكيمة قد تستأصلها وتثني عليها.

داني "موافقا": كلام مقنع إلى أبعد الحدود.

[89] **رجل الكهف**: إلا أنه يمكنك البحث عن سبب جودة منتج ما أو سبب إخراجه بهذه الحلّة أو تلك، فيمكنك لهذا الغرض أن تبحث في الآلة التي صنعته. وكذلك في عالم الأفكار، عندما تريد فهم لماذا وكيف برزت هذه الفكرة للوجود، فأنت تبحث في قصة صاحبها. باستثناء هذه الحالة، فقيمة الأفكار معزولة تماما عن أي مكانات إجتماعية لأصحابها وعن سيرهم الذاتية، لكنها مرتبطة بالضرورة بسياقها التاريخي والمكاني في قصة الثقافة الإنسانية ولا يمكن فهمها خارجه.

داني "بإعجاب": ملاحظة قيمة.

[90] **رجل الكهف**: وإذ ذاك قد قيل فيمن لا يريد الاطلاع على نتاج غيره، فلدينا الحالة المرفوضة أيضا والتي هي على النقيض من ذلك. لأن كل ما يقوم به من تركزت عنايته على الحفظ فقط، هو تكرار معلومات قديمة. وجهده ذاك هو بلا قيمة للمجتمع، ببساطة لأن تلك المعلومات موجودة مسبقا، وأي منا يمكنه الاطلاع عليها بالعودة الى مصادرها الأصلية، وبثقة أكبر بجودة ونقاء وصحة المعلومة من تلك الثقة التي قد نوليها للمعلومة التي يكررها الحافظ، فقد تتعرض المعلومة للتشويه المتعمد أو غير المتعمد من قبله.

لوسيل "مؤيدة": صدقت.

[91] **داني**: إذا نحن لا نريد شخصا حافظا لكل قوانين الرياضيات لكنه لا يعرف كيف يستخدمها، ولا شخصا يريد أن يفرض علينا ما يراه مناسبا لحل المسائل الرياضية، بل نريد شخصا يفهم قوانين الرياضيات ويعرف كيف يستخدمها وكيف يستنبط قوانين جديدة منها. وبالمثل لمختلف المعارف الأخرى.

[92] **رجل الكهف**: بالضبط يا عزيزي، فيجب على كل عاقل أن يطلع على جميع النتاج الفكري السابق له ذو الصلة بموضوع بحثه، قبل أن يتفوه بأي كلمة. وعندها فقط يجب أخذ أفكاره على محمل الجد.

وإلا، فنحن إما نقابل ببغاء يردد كلاما معروفا كان قد استظهره، أو نقابل رجلا قادما من عصور سابقة، يقول كلاما قد تمت معالجته.

لوسيل: منطقي جدا.

رجل الكهف: هيا بنا نعد طعام الإفطار.

****

الباب الثالث
في أهلية الدماغ لإصدار الأحكام

(أثناء تناول الطعام)

[93] **داني**: وهل نستطيع الاعتماد على الدماغ لاستنباط أفكار وقيم ومفاهيم ذات قيمة، إذا ما عني به بالطريقة التي خلصنا إليها قبل قليل ؟

رجل الكهف: في الواقع، قد أولي الدماغ البشري، الرائع دون أدنى شك، قيمة تفوق بكثير قيمته الحقيقية. لقد تم تحميله مالا يستطيع حمله، واعتبر من قبل الغالبية من الناس سيدا يمكن الاحتكام إليه. بل وصل الأمر بالبعض إلى تأليهه. لكن يمكنني أن أطرح لكما ثلاثة أسباب رئيسية على الأقل تدفعني إلى مخالفة ذلك.

[94] **داني** "متحمسا": هات ما عندك.

رجل الكهف: مهما أغرتنا ذواتنا للنظر إلى أنفسنا كبشر على أننا كائنات عاقلة، سادة الكوكب، بل دفعتنا عجرفتنا الساذجة تلك لنرى أنفسنا سادة الكون كله، فإن الواقع يقول إننا مجرد ثدييات أدى بنا عمل الانتقاءين الطبيعي والجنسي، قانونا الطبيعة الصارمين، للحصول على هذه الأدمغة عبر طريق طويل وشديد التعرجات من تاريخ نوعنا، منذ أن بدء أسلافنا بشق طريقهم مستقلين عن أبناء عمومتهم من الرئيسيات. فإذا كان ما يميز الأسد، كنتيجة للمسار التطوري لنوعه، هو قوته المهيبة. وما يميز ذكر الطاووس، ذيله الذي يسلب الألباب جمالا. وما يميز بعض الطيور، كالصقور، هو عيونها التي قد تصل لثماني أضعاف قدرة العين البشرية، والتي لو كنا نملك مثلها لأمكننا مشاهدة نملة تسير على الأرض ونحن نقف على سطح بناء من عشر طوابق، فبنفس المنظور، تميز الإنسان بدماغه الكبير.

[95] **لوسيل**: تقصد أن المسار التطوري للكائنات المختلفة واجه تحديات مختلفة، وبالتالي عملت الطبيعة على اتخاذ مسار تطوري مركز على ما فيه فائدة للكائن الحي في ظل ظروفه البيئية الخاصة. وهكذا حصلنا على تنوعات شديدة التباين بين الكائنات في مميزات تتراوح من قدرة البقاء على قيد الحياة بدرجات تفوق غليان الماء وتتدنى تحت تجمده، إلى كائنات تغير ألوانها، وأخرى ذات سرعة عدو فائقة، وأخرى ذات قدرة على البقاء دون غذاء لفترات طويلة، وهكذا حصل كل كائن على ما يمتاز به. وما امتاز به الإنسان هو الدماغ.

[96] **رجل الكهف**: ولو أن الأمر شديد التعقيد، لكن بما اننا لسنا بصدد البحث فيه الآن، لذا سأكتفي بموافقتك على أنك قد فهمتي ما أرمي إليه. وهو أن الدماغ البشري، كما لاحظ الفيلسوف توماس هوبز، عبارة فقط عن نسخة مطورة من نظيره لدى الحيوانات الأخرى. وكما شرح الأمر توماس بينك في كتابه *حرية الإرادة*: "إن ما تدور حوله نظرية هوبز هو أن البشر لا يختلفون عن الحيوانات

الأخرى إلا في كونهم نسخًا أكثر تعقيدًا من الشيء نفسه. فالاختلافات في الذكاء والقدرة بيننا وبين الحيوانات هي اختلافات في الدرجة، وليست اختلافات في النوع .وينكر هوبز أننا نمتلك أية ملكات نفسية تختلف اختلافًا جذريًا عن أي قدرات لدى الحيوانات... فهو يرى أن الفعل الإنساني مجرد صورة أكثر تعقيدًا من فعل الحيوان... الفرق الوحيد في حالة الفعل البشري، بفضل ذكائنا الأكثر تطورًا، أن الرغبات التي تحث على أفعالنا تكون أكثر تنوعًا وتعقدًا في محتواها." هل نحن متفقون على هذا؟

لوسيل "وهي تضع لقمة في فمها": بالتأكيد.

[97] **رجل الكهف**: إذن يتضح من ذلك أن أدمغتنا قد تطورت في الغابات لتتعامل مع الأمور التي تهم بقاء الانسان. كالبحث عن الطعام، وملاحظة وجود خطر ما، والقيام بمحاكمات عقلية للتصرف بشكل مناسب، كما والتعامل مع المجموعة التي ينتمي إليها الفرد ويعيش ضمنها، وصنع الأدوات، وتطوير اللغة، والتخطيط للمستقبل، الى ما هنالك من أمور تخدم الفرد والمجموعة التي ينتمي إليها. وعليه فنحن نستطيع وبسهولة مثلا تقدير الأعداد القليلة التي كان أسلافنا مضطرين للتعامل معها، والأحجام المتوسطة الموجودة في بيئة أسلافنا. وبنفس الطريقة، تقدير المسافات القصيرة والأزمنة التي تتناسب وحيواتنا كأفراد. لكن أدمغتنا تقف عاجزة تماما عن إدراك الأرقام والأحجام والمسافات والأزمنة الكبيرة جدا أو الصغيرة جدا. أدمغتنا تقف عاجزة تماما حتى عن مجرد تخيلها مهما حاولنا. وإن كنا قد اعتدنا تكرارها وتبدو لنا طبيعية تماما.

[98] **داني** "باستخفاف": أستميحك عذرا. لا يمكنني تصديق هذا.

رجل الكهف "وهو يشعل غليونه": أتفهم هذا، فنحن قد اعتدنا الحديث عن الذرات وما دونها، والمجرات وما فوقها، والأرقم الكبيرة في عصرنا الحالي هي أمر نتعامل معه بصفة يومية. لكن على سبيل المثال، كي تعد للميون بمعدل رقم واحد في الثانية دون انقطاع، فلن تتلفظ برقم مليون إلا بعد قرابة الأسبوعين من بدء مهمتك. ولو أردت متابعة مهمتك تلك بنفس الوتيرة التخيلية لتصل المليار، فأنت بحاجة لحوالي 32 سنة. وإن كانت همتك عالية وأردت الوصول للتريليون، بنفس الوتيرة التخيلية، فأنت تحتاج فقط إلى حوالي 32000 سنة. ولن أتابع فوق التريليون لأنه من النادر استعمال الأرقام الأكبر منه على نطاق واسع، لكن لك تخيل ملايين ومليارات وتريليونات السنوات اللازمة لعد تلك الأرقام الأكبر، بمعدل رقم واحد كل ثانية.

[99] **لوسيل** "بتعجب": لكن يستحيل عد هذه الأرقام بمعدل رقم في الثانية!

رجل الكهف: صحيح، فمن جهة إن الأمر يتعلق باللغة التي تعدين بها الأرقام، ومن جهة أخرى فإن الأرقام الكبيرة يستحيل نطقها، بأي لغة في العالم، بمعدل رقم في الثانية. كما أن الأمر يتعلق بسرعتك في عد الأرقام. ناهيك عن أنك، ككائن حي، بحاجة للنوم والأكل والشرب ودخول المرحاض على أقل تقدير للحفاظ على حياتك أثناء قيامك بتلك المهمة الجنونية. وهذا ما فعله شخص يدعى جيرمي هارير

في صيف عام 2007، حيث قام بالعد حتى المليون بمعدل بلغ 16 ساعة من العد يوميا، وتطلب منه الأمر 89 يوما لإنجاز تلك المهمة. وسجل إنجازه ذلك في موسوعة غينس للأرقام القياسية.

[100] **داني** "مازحا": إذا لدي فرصة لدخول موسوعة غينس لو قمت بالعد لأكثر من مليون، أو وصلت للمليون بأسرع منه.

رجل الكهف: هذا صحيح. لكن لدي قصة أكثر جنونا، قد تعجبك.

[101] **داني** "بفضول": أسمعنا ما لديك.

رجل الكهف: في مدينة واترلو، الواقعة في ولاية آيوا، في الولايات المتحدة الأمريكية، عاد طفل ذات مرة إلى والدته التي تدعى مارفا درو، وأخبرها أن مدرسه قد قال إنه لا يمكن لأحد أن يعد حتى المليون. فما كان من هذه السيدة، التي يبدو أنها أعند من اللازم، إلا أن قررت كتابة الأرقام حتى المليون، كي ترسل الورقة إلى ذلك المدرس الأبله. لكني لا أعتقد أنها قد فعلت هذا، لأن الأمر قد استغرق منها خمس سنوات، واستخدمت 2473 ورقة لكتابة الأرقام.

[102] **داني** "ضاحكا": لا بد أن تتوج هذه الامرأة كأعند امرأة في العالم. أشكر الآلهة أني لست زوجها. كلا يا صديقي، لن أكتب الأرقام، سأكتفي بالعد كي أدخل موسوعة غينس.

رجل الكهف: خيار حكيم. إذا دعنا نقل أنك تريد العد للمليار -آخذين بعين الاعتبار تجربة هاربر، كما وطول الأرقام التي هي أكبر من مليون، وبالتالي تستغرق زمنا أطول لنطقها- فأنت يا عزيزي بحاجة إلى حوالي 285 سنة لتصل إلى المليار. ذلك إرث مزعج ستضطر لتركه لورثتك كي يكملوه من بعدك على مر بضعة أجيال.

[103] **داني** "بيأس": إذا لا يوجد أمل لأي إنسان أن يعد حتى المليار، مهما بلغت سرعته في العد، وأيا كانت اللغة التي رغب في استعمالها، ومهما كرس من وقته لهذه المهمة.

رجل الكهف: قد يتمكن من خفض ال 285 سنة ببضعة عقود فقط، على أفضل التقديرات النظرية وبأكمل الظروف مثالية. وبالتالي، فعندما أقول لك أن عمر مجموعتنا الشمسية، بما فيها موطننا الأرض، هو أكثر من أربعة مليارات ونصف المليار عام، فأنت بحاجة لحوالي ألف وثلاثمائة عام كي تصل بعدك المتواصل لهذا الرقم. وإن أخبرتك أن عمر الكون كما نعرفه اليوم هو حوالي 13.7 مليار سنة، فلكي تعد هذا الرقم، أنت بحاجة لقرابة أربعة آلاف عام من العد الدؤوب. فلك أن تتخيل حجم هذه الأرقام آخذا بالاعتبار أن كل رقم تقوله يمثل سنة كاملة من سنواتنا التي نعرفها اليوم. بل إن الألف وثلاثمائة عام والأربعة آلاف عام هذين، هما قيمتان مهولتان لا يمكنك إدراك مداهما مهما حاولت.

[104] **لوسيل** "مفكرة": فعلا. أتخيلُ مثلا كيف كانت الحياة قبل مئة عام وكيف أصبحت اليوم، كم من أمور تغيرت. فعلا إن المئة عام لها قيمة ضخمة جدا، فما بالك بالآلاف منها.

[105] **رجل الكهف:** ولهذا يعاني الناس في فهم النظريات العلمية المختلفة، فهم لا يدركون القيمة الحقيقية

للزمن عند الحديث مثلا عن التطور، كما أشار كارل سيغان في كتابه *الكون*: "... ولكن جزءا من مقاومة ما جاء به داروين ووالاس يأتي من الصعوبة التي نعانيها في تصور مرور ألف سنة من الزمن... فماذا تعني سبعون مليون سنة للكائنات الحية التي تعيش جزءا من مليون جزء من هذه المدة؟ إننا هنا أشبه ما نكون بالفراشات التي تحلق يوما كاملا وتظن أنها ستحلق إلى الأبد." هذه خدعة ينخدع بها دماغنا بسهولة جدا. نحن ندفع ألفا من العملة النقدية لشراء شيء ما، بل ربما مليونا أو أكثر. لكن الألف والمليون هي أرقام مهولة في واقع الأمر.

لوسيل: صحيح تماما. كم هو بسيط أن يقول شخص أن عمره خمسون عاما، لكن كم من الأحداث قد احتوتها تلك الأعوام!

[106] **رجل الكهف**: ولهذا، فإن أردتِ شرح التطور للناس بقولكِ: "إن أول حياة قد برزت على الأرض قبل 3.7 مليار سنة، واحتاج الأمر حتى 1.2 مليار سنة خلت ليتطور التكاثر الجنسي." فيستحيل عليهم استيعاب كم أن الفارق الزمني بين هذين الرقمين مهول جدا. ومع ذلك فتتابعين لتقولي لهم: "إن أولى الفقاريات قد ظهرت فقط قبل 500 مليون سنة"، فأيضا لن يفهموا كم أن الزمن كبير جدا بين هذه وسابقتها. وتتابعين الشرح لتقولي: "إن تلك الفقاريات لم تخرج من الماء لتستعمر اليابسة الا قبل 365 مليون سنة من الآن فقط. وإن الثدييات احتاجت قرابة 165 مليون عام بعد ذلك، لتظهر فقط قبل 200 مليون سنة من الآن كقوارض صغيرة الحجم. وإن أول الرئيسيات منها لم يظهر إلا بعد ذلك ب 115 مليون سنة، أي قبل 85 مليون سنة من اليوم. والذي تابع مسيرته التطورية، من حجم صغير كالسنجاب تقريبا، لمدة 50 مليون سنة، حتى يصل لأولى القردة، فقط قبل 35 مليون عام من الآن. ولينتظر بعدها أكثر من 30 مليون سنة، ليتمكن أحد ذريته من المشي- منتصبا على قدمين، قبل 4.4 مليون سنة خلت من الان. وأن عليه الانتظار بدوره وهو يتطور ببطء مدة 2.6 مليون سنة، ليبدأ الإنسان المنتصب أول هجرة كبرى له خارجا من إفريقيا قبل 1.8 مليون سنة. وأن على سلالته بدورها الانتظار مليون عام ونصف المليون بعد ذلك ليظهر أول إنسان عاقل قبل حوالي 300 ألف سنة فقط من الآن، والذي بدوره احتاج معظم تلك السنوات تقريبا ليفكر في بناء أول مدينة له قبل بضعة آلاف من السنين من الآن فحسب، ليقف عندها صائحا بأعلى صوته في وجه الكون كله قائلا: أنا ربكم الأعلى!" فإن الأمر لن يفهم في أدمغتهم إلا كقصة عادية مثل قصص ما قبل النوم، لذا فهم سيستخفون فيه.

[107] **داني** "بحزن": وهل من طريقة لجعلهم يدركون الأمر؟

رجل الكهف: يجيبك نيل شوبين في كتابه *السمكة داخلك*: "... إن من يدرّسون علم المستحاثات غالبا ما يستخدمون تمثيل السنة الأرضية... لنأخذ تاريخ الأرض، الذي يبلغ 4.5 مليار سنة، ونقوم بتصغيره إلى سنة واحدة. بحيث يكون منشأ الأرض في الأول من يناير، ومنتصف ليلة الأخير من ديسمبر هو الحاضر. فحتى يونيو، كانت الطحالب، والبكتريا، والأميبا. وأول حيوان له

رأس لم يظهر حتى أكتوبر. وأول ظهور للإنسان الأول، كان في الحادي والثلاثين من ديسمبر. إننا كالعديد من الحيوانات والنباتات، التي عاشت منذ القدم، قادمون جدد إلى حفلة الحياة في الأرض فحسب.".

[108] **داني** "بتعجب": لم يظهر الإنسان إلا في اليوم الأخير من العام، هل هذا معقول؟

رجل الكهف: ربما كنت لتكون أسعد بكثير لو تركتك تعتقد ذلك، مقارنة بما سأقوله لك الآن. إن الدقيقة الواحدة في ذلك المقياس تعادل أقل بقليل من تسعة آلاف عام من أعوامنا. وبالتالي فإن أول ظهور للإنسان العاقل في إفريقيا كان فقط قبل نصف ساعة من منتصف الليل. وإن كل ما نسميه "الحضارة البشرية" محصور في الدقيقة الأخيرة قبل منتصف الليل. وإن كل الفلسفات والأساطير والعلوم والأفكار التي وصلتنا من أسلافنا محصورة في الثلاثين ثانية الأخيرة، قبل لحظة منتصف الليل التي هي الآن. وما نعتبره الحدث المعيار للتأريخ العالمي اليوم، أقصد ميلاد المسيح -على فرض وجوده- قد حصل عند الساعة 23:59:46، أي قبل أربعة عشر ثانية من بدء الاحتفال. وأترك لكما إسقاط جميع الأحداث في التاريخ البشري على هذا المقياس، كي تستطيعا تقدير زمن حدوثها نسبة إلى عمر الأرض. وتذكرا أننا نتكلم عن عمر الأرض فحسب، لا عن عمر الكون الذي يفوق عمرها بأكثر من ثلاثة أضعاف.

[109] **داني** "بعصبية": هذا أمر مريع، كل التاريخ البشري، كل الحضارات التي عاشت يوما، كل الملوك والأباطرة، كل الحكماء والفلاسفة، والأنبياء والآلهة، كل الحروب، كل الاختراعات، كل إنسان سمعنا عنه، كل الآثار التي تركتها الحضارات السابقة لنا، كل النتاج البشري، محصور في الدقيقة الأخيرة من عام كامل هو عمر الكرة الأرضية. وتذكرني أيضا أننا لا نقارن هذا الآن بعمر الكون، من يحتاج ذلك؟ لو فعلنا فسينحصر كل هذا في الثواني الأخيرة فقط!

[110] **رجل الكهف**: كلامك صحيح، وإن المقارنة نفسها بعمر الكون تسمى السنة الكونية، وفيها تعادل الدقيقة الواحدة أكثر من 26 ألف سنة من سنواتنا. وعليه، بالنسبة للكون المتأهب للاحتفال بعيد ميلاده الأول، فقبل دقيقة واحدة من منتصف الليل كان النياندرتال لا يزال يتجول على سطح الكرة الأرضية. وولد المسيح قبل أقل من خمس ثوان من الآن. بالنسبة للسنة الكونية، لا يبلغ عمر الواحد منا مهما طال، إلا أقل من عُشرين من الثانية فقط. ما قيمة عُشرين من الثانية، بالنسبة لسنة كاملة؟ تلعب وتدرس وتعمل وتدخر المال، وتشتري منزلا وتتزوج وتسافر وتنجب أطفالا وترى أحفادك وتبلغ من الكبر عتيا، بعد عقود من الزمن قضيتها لاهثا وراء المال، وفي أروقة المحاكم. كل أحلامك التي بنيتها وكافحت من أجل تحقيقها، كل ما حصل معك، وكل ما سيحصل معك، يحصل بالنسبة للكون في غضون عُشرين من الثانية فقط. طرفة العين تأخذ ضعف هذا الزمن! مهما بلغ بك العمر، فهو بالنسبة لعمر الكون المقدر بسنة واحدة، يشكل نصف طرفة عين. ليتها طرفة كاملة، بل نصف طرفة فقط. داني! هل تفهمني؟ أنت لن تعيش نصف طرفة عين بالنسبة للكون، وتريدني أن أعتقد

أن دماغك قادر على إدراك ماهية الوجود كله؟ هل تراني غبيا أمامك؟

داني "واضعا يديه على رأسه": نحن لاشيء. لاشيء!

[111] **رجل الكهف**: هل تريد أن تقنعني أن دماغك هذا قادر على تطوير منطق يؤهله ليحكم على الوجود ب "منطق عقلاني" ونحن لا نستطيع حتى مجرد إدراك الكون على كنهه الحقيقي، بل نقتصر على إدراك ما سمحت لنا حواسنا وأدمغتنا بإدراكه فقط؟ بل أكثر من ذلك، إننا نريد ان نسقط منطقنا العقلي على ما هو خارج الكون أيضا! هل ترى عجرفة طفولية أنانية أكثر من هذه؟

[112] **لوسيل** "بألم": كم هو ساذج هذا الإنسان الذي لا يدرك كم احتاج الأمر من عمر الكون حتى تشكلت المجموعة الشمسية، ثم كم تطلب الأمر من زمن على أحد كواكبها، عمل فيه الانتقاءان الطبيعي والجنسي عملا دؤوبا دون كلل أو ملل، مؤديان لظهوره مؤخرا. إنه فعليا لم يوجد في هذا الكون إلا منذ لحظات، يعيش فيها المحظوظ ذو العمر المديد، زمنا يقارب نصف طرفة عين، يفترض خلالها بكل صفاقة أن الكون كله قد وجد من أجله. هذا أتفه ما يمكنني التفكير به.

[113] **رجل الكهف**: ولأزيدكِ تعجبا، فإن جميع أنواع الكائنات الحية التي تعيش اليوم، تشكل أقل من واحد في المئة من تشكيلة مجمل الأنواع الحية التي عاشت يوما. أي إن معظم تاريخ الحياة على هذا الكوكب كان في المياه، والذي كان لمعظمه عبارة عن كائنات وحيدة الخلية. وإضافة لذلك، فإن أكثر من تسعة وتسعين بالمئة من الأنواع التي وجدت يوما على سطح هذا الكوكب، قد انقرضت. هل لكِ أن تتخيلي كم نوعا مختلفا من الكائنات الحية قد جرب الحياة على هذا الكوكب، ناهيك عن تعداد أفرادها. هل لكِ تخيل الأمر!

لوسيل "بحزن": يصعب على دماغي استيعابه.

[114] **رجل الكهف** "وهو يشعل غليونه": لننتفكر في أمر آخر إذا. حاولي تخيل سرعة الضوء مثلا، إنها تبلغ حوالي ثلاثمائة ألف كيلومترا في الثانية الواحدة، تجعله قادرا على الدوران حول الكرة الأرضة سبع مرات ونصف في غضون ثانية واحدة فقط، وتجعله يقطع المسافة بين الشمس والأرض، البالغة حوالي 150 مليون كيلومتر، في ثمان دقائق وعشرين ثانية تقريبا. وبسرعته تلك، يقطع الضوء حوالي 9.5 تريليون كيلومتر في السنة الواحدة، نسميها سنة ضوئية. إن الشمس هذه التي ترينها بعينك المجردة، بهذا الحجم المتواضع، هي في الواقع تتسع لمليون وثلاثمائة ألف كرة أرضية داخلها. وكل المادة في كامل المجموعة الشمسية هي أقل من 0.2 بالمئة من كتلة الشمس لوحدها. والتي بدورها، على الرغم من حجمها المهول هذا، تعتبر نجما متوسط الحجم، وشديدة التواضع أمام أصدقائها العمالقة.

لوسيل "بذهول": ماذا تقول!

[115] **رجل الكهف**: ثم إن دماغنا مقيد بعالم ثلاثي الأبعاد، وزمن رتيب بنسق معين على هذا الكوكب. كل شيء سهل وواضح، ثلاثة أبعاد، وزمن ألفناه ثابتا. لكن الفيزياء أخبرتنا أن الكون ليس ثلاثي

الأبعاد، مع أنه يستحيل علينا إدراك إلا ثلاثة منها فقط. كما أن الزمن ليس معيارا ثابتا كما نحب له أن يكون، بل هو يتباطأ كلما زادت السرعة. فلو رغبتما، في إجازتكما القادمة، السفر إلى مركز مجرتنا درب اللبانة لاكتشافه، بدل استكشاف الحياة البرية كما فعلتما هذا العام، فتلك رحلة ستستغرق منكما، في مركبة فضائية تسير بسرعة قريبة من سرعة الضوء، قرابة الواحد والعشرين عاما. لكن سفركما بتلك السرعة سيجعل الزمن يتباطأ جدا بالنسبة لكما مقارنة بالزمن الذي أعيشه أنا على الأرض. ويؤسفني أني لن أتمكن من مراسلتكما لفترة طويلة من رحلتكما، ولو قضيت البقية من عمري أفعل ذلك. فتلك الواحد والعشرون عاما التي ستمر عليكما في تلك الرحلة، ستعادل حوالي ثلاثين ألف سنة على هذه الأرض، لذا فلا يمكنني حتى أن أضمن أني سأتمكن من جعل ورثتي يتابعون مراسلتكما لتسليتكما ولنقل الأخبار إليكما. ولو قررتما أن تتابعا رحلتكما، بما أنها ليست فرصة قابلة للتكرار بسهولة، وأن تطوفا في جولة سريعة حول الكون المعروف، كتلك الجولات التي يقوم بها البعض حول العالم. فتلك الجولة ستأخذ منكما حوالي ستة وخمسين سنة، إذا قمتما بها من غير توقف بل ودون إبطاء لسرعتكما. هذا يعني أنكما ستقضيان ما تبقى من حياتيكما تقريبا في تلك الرحلة، وهذا شيء جيد. لأنه بغضون ذلك الزمن ستكون مليارات السنين قد انقضت على الكرة الأرضية. لن تجدا أحدا يستقبلكما عند عودتكما من تلك الرحلة مرحبا بوصولكما عجوزين سالمين، لن يحتفل بعودتكما أحد. لن تدخلا موسوعة غينس للأرقام القياسية، ولن يهرع المراسلون التلفزيونيون لمقابلتكما. لن يهلل أحد لإنجازكما البطولي، ولن يكتب عنه أي صحافي، ولا حتى في الصفحة الأخيرة من جريدة يومية ساخرة رخيصة. ببساطة، لن تكون الأرض موجودة في ذلك الوقت، بل ستكون الشمس نفسها قد ماتت.

[116] **داني** "بعصبية": ماذا تقول بحق السماء! ما هذه المفارقة؟

رجل الكهف: هذا هو الواقع يا صاح. إنكما ستكسبان عرضا مجانيا للسفر إلى المستقبل في تلك الرحلة. أليس هذا عرضا لطيفا تقدمه لكما قوانين الكون؟

داني "مفكرا": هذا عصي على الإدراك.

[117] **رجل الكهف**: يبدو لي أنك تخاف من المستقبل، لذا دعنا منه الآن، ولنتجه إلى الماضي. أنا متأكد أنك تملك ذكريات جميلة من أيام الطفولة، تلك الأيام التي كانت فيها أكبر همومك محصورة بتفكيرك بكيفية إقناع والدتك أن تعطيك قطعة من الشوكولاتة، أو أن تسمح لك بمشاهدة توم وجيري. من منا لا يحب توم وجيري؟ من منا لا يحن إلى تلك الأيام؟

داني "بابتسامة عريضة": دون أدنى شك. يا لك من مخادع، جعلتني أعيش تلك اللحظات الآن وكأنها حصلت بالأمس. كم أحن إلى أيام الطفولة تلك.

[118] **رجل الكهف**: إليك إذا ما كتبه ستيف غراند عن ذكريات الطفولة هذه في كتابه *الخلق*: "... على أية حال، أتمنى أنك تملك الآن ذكريات لتجارب من طفولتك. شيء يمكنك تذكره بوضوح، شيء

يمكنك رؤيته، ربما شمه أيضا، كما لو كنت هناك حقا. في الواقع، لقد كنت هناك حقا في ذلك الزمن، أليس كذلك؟ وإلا فكيف لك أن تتذكره؟ لكن هذه هي المفاجئة المذهلة: أنت لم تكن هناك. ولا ذرة واحدة من ذرات جسدك اليوم كانت هناك عندما حصل ذلك. كل جزء منك قد تم استبداله مرات عديدة (ولهذا أنت تأكل بطبيعة الحال) أنت لست بنفس الهيئة التي كنت عليها آنذاك أيضا. النقطة هنا هي أنك مثل غيمة: شيء ما يبقى ثابتا على طول الفترات الزمنية، بينما يتدفق في الوقت عينه. المادة تتدفق من مكان إلى آخر، ولحظيا تتجمع لتشكلك. أيا ما كنت، أنت لست نفس المادة التي هي تصنعك. إن لم يجعل ذلك شعر جسدك يقف في مؤخرة عنقك، اقرأه مرة أخرى حتى يحصل ذلك، لأن هذا ضروري.".

داني "بعصبية": عليك اللعنة. لقد دمرت لي لحظات حالمة كنت أعيشها.

[119] **رجل الكهف** "بحزم": ومن قال لك أن كهفي هو منتجع للاستجمام؟ هل قلت لك أن مجالستي هي وسيلة للإسترخاء الحالم؟ هل وعدتك بهذا؟ هناك عدد لا يحصى- ممن هم بارعون في هذا. هم موجودون في كل مكان، في كل حي، في كل شارع، في كل قناة تلفزيونية، لكن ليس هنا! إن كنت تريد أن تعيش في الأحلام فاذهب إلى أحد دور العبادة، ستجد أخصائيين في صنع الأحلام من كل صنف ولون، لكن لا تأتي إلي. أنا هنا لأهز أركانك من الداخل، لأوقظك من أحلامك الوردية ومن سباتك الدوغماطيقي. إن لم أستطع فعل هذين الأمرين، فمجالستي مضيعة للوقت. أنا أقول لك كلاما لا يوجد أحد خارج هذا الكهف يريدك ان تعرفه.

لوسيل "خارجة من المرحاض": على رسلكما. ألا أستطيع ترككما لدقيقة واحدة.

[120] **رجل الكهف**: داني قد أخطأ العنوان. هو يعتقد أن كهفي مركز Spa!

لوسيل "بابتسامة": أعتذر بالنيابة عنه، يبدو أنه يحب توم وجيري أكثر من اللازم.

داني "بخجل": أستميحك عذرا.

رجل الكهف "مشعلا غليونه": لا عليك يا صاحبي، أعرف أني قد أثقلت عليكما.

لوسيل "بابتسامة خجولة واضعة يدها على كتف رجل الكهف": كلا مطلقا. تابع أرجوك.

[121] **رجل الكهف** "متنهدا": إذا قمنا بجمع الأرقام من الواحد وحتى اللانهاية، ماذا تعتقدان أن يكون الناتج؟

لوسيل "ببساطة": لانهاية حتما.

[122] **رجل الكهف**: كلا. إنه -12/1.

[123] **لوسيل** "بدهشة": ماذا تقول! هل هذا يعني أني لو جمعت الأرقام 1+2+3... وصولا إلى رقم كبير جدا، فعندما أتوقف سأحصل على نتيجة -12/1؟

رجل الكهف: كلا، ستحصلين على رقم كبير جدا جدا، لكن لو وصلتي لللانهاية في جمعك، ستحصلين على رقم صغير جدا وهو 12/1، ليس هذا فحسب، بل إنه سالب -12/1. هذا يعني أنك إن جمعتِ الأرقام الموجبة وصولا لللانهاية الموجبة، ستحصلين على رقم سالب بالغ الصغر.

لوسيل "بذهول": هذا لا يُعقل.

[124] **رجل الكهف:** أعرف أنه لا يُعقل، دماغك لن يستوعبه. ليس فقط لأن دماغك لم يتطور ليتعامل مع اللانهائيات فحسب، بل لأن اللانهائيات هي رقم رياضي موجود ونتعامل معه لكن لا يمكن عده، وهذا ما يعجز أيضا دماغك على فهمه. وفي الواقع، لا أعتقد أن هناك شيئا ما لانهائيا داخل هذا الكون الذي نعيش فيه.

لوسيل: فهمت عليك.

[125] **رجل الكهف:** ماذا إذا لو أخبرتكما أيضا أن نواة الذرة أصغر من الحيز الذي تشغله الذرة بمئة ألف مرة. هذا يعني أن المادة كلها، بما فيها أنا وانتما، تتكون بغالبيتها الساحقة من فراغ عمليا. ولذا فإن النيوترينوات الآتية من الشمس مسافرة بسرعة تقارب سرعة الضوء، تمر عبر الكرة الأرضية وكأنها غير موجودة. ففي هذه اللحظة، وفي كل لحظة، يمر عبر كل سنتيمتر مربع من جسديكما حوالي مئة مليار نيوترينو في الثانية الواحدة. لكنكما لم ولن تشعرا بذلك.

داني "بتوتر": مئة مليار لكل سنتيمتر مربع! هل أنت مدرك لما تقول؟ ولا أشعر بذلك!

[126] **رجل الكهف:** لست مدركا لما أقول، لكنه أمر حقيقي أعرف أنه يحصل وإن لم أدركه. وعليك أن تعلم أنه ليست فقط هذه النيوترينوات هي ما يمر عبر جسدك كل الوقت.

داني "مقاطعا بعصبية": هذا كثير. أنت تريد أن تصيبني بالجنون.

[127] **رجل الكهف:** يبدو أني لم أجعلك تتوتر من سفرك إلى المستقبل فحسب، بل ومن الإشارة إلى ما يعبر خلال جسدك. لذا فإني أعتذر عن ذلك، وأطلب منك أن تنساه وتجيبني، هل أنت مستقر في مكانك الآن؟

داني "بتهكم": ما هذا السؤال! طبعا أنا كذلك. ألا تراني جالسا على الكرسي أمامك؟

[128] **رجل الكهف:** إذا كان الجلوس على الكرسي يعني أنك ثابت في مكانك، فهل أفهم من هذا أن جلوسك على مقعد السيارة أثناء سفرك يجعلك أيضا ثابتا في مكانك؟

داني "مفكرا": يجعلني ثابتا في مكاني بالنسبة لها، لكن في واقع الأمر فأنا والسيارة نتحرك معا. وبالتالي، لو اتصلت بي هاتفيا أثناء سفري وسألتني ذلك السؤال، فلن أقول لك إني ثابت في مكاني.

[129] **رجل الكهف:** لكنك اعتبرت نفسك مستقرا في مكانك، وانت تعلم أن الأرض تتحرك.

داني: لأني افترضت أنك تقصد ب "مكاني"، مكاني بالنسبة للأرض.

[130] **رجل الكهف:** ولم افترضت ذلك في كلتا الحالتين؟

داني "مفكرا": ربما لأن دماغي مبرمج اوتوماتيكيا على معايرة النسبية مع الأرض التي أفترض ثباتها.

[131] **رجل الكهف:** صحيح، فدماغك يفترض عادة معايرة حركتك نسبة للأرض، والتي يفترض، على خطأ، ثباتها. فمع أنك عمليا تتحرك بسرعة تفوق الأربع ملايين ونصف المليون كيلومتر في الساعة، كنتيجة لدوران الأرض حول نفسها ودورانها حول الشمس، ودوران المجموعة الشمسية حول مركز مجرة درب اللبانة، والتي هي بدورها تسبح متحركة في الفضاء. ناهيك عما يؤثر في كل تلك الكتل من جاذبية متبادلة مع الكتل الأخرى في الكون. إضافة للتسارع الذي ينطلق به كل شيء في الكون كنتيجة للانفجار الكبير. ومن يعلم، فقد يكون الكون نفسه متحركا أيضا لو نظرنا إليه نظرة خارجية. لكن كل تلك الحركة لا تهم دماغك البشري الذي تطور على سطح الأرض. فهو يهملها تماما مع أنها موجودة. بل هو غير قادر على إدراكها أساسا. لكنها بالنسبة لمراقب خارجي أمر لا يمكن تجاهله.

داني "مازحا": على هذا المراقب الخارجي أن يكون بمواصفات تفوق الخيال، لتمكن من مراقبتي وأنا أتحرك بهذه السرعة الفائقة.

[132] **رجل الكهف:** لا شك في هذا، يجب أن يكون بمواصفات تفوق الخيال. لكن دعنا منه واستمع لهذا أيضا، إن ملئ ملعقة شاي من مادة نجم نيوتروني يعادل وزن جبل عادي. ويستحسن بك أن تتمكن من حملها بقوة، فلو وقعت منك، فمن الممكن أن تخرق الكرة الأرضية بالكامل لتخرج من الطرف المقابل للعالم. ومن غير المستبعد أن تخرج من تحت سرير أحدهم وهو مستلق عليه، كرصاصة خارجة من باطن الأرض، ثم تعود بفعل الجاذبية الأرضية فتسقط مجددا، وتبقى على هذا المنوال من الحركة المتباطئة تدريجيا حتى يوقفها الاحتكاك في مركز الكرة الأرضية. ولن يتمكن رجال الشرطة من إيجاد الرصاصة التي قتلت سيء الحظ هذا. إن دماغك، كما دماغ رجال الشرطة، غير مؤهل لتخيل مادة بهذه الكثافة والتعامل معها، لأنها ببساطة غير موجودة على الأرض.

لوسيل "مازحة": إذا يستحسن بنا التأكيد على تعليم الفيزياء للمحققين.

[133] **رجل الكهف** "معطيا ورقتين للوسيل": خذي هاتين الورقتين وافصليهما عن بعض.

لوسيل "وهي تشد كل ورقة بإحدى يديها": تفضل، لقد قمت بذلك.

رجل الكهف: عظيم جدا. يمكنك فصل أي شيئين ملتصقين إذا طبقت قوة كافية لفصلها، كما فعلتِ الآن، وهو أمر نعتبره ثلاثتنا بديهيا تماما. لذا لم نفاجئ عندما نجحت بالقيام به. لكن لو أعطيتك كواركين مثلا، بدل الورقتين، وطلبت منك فصلها، فإن الطاقة التي كانت ملصقة لهما، ستتحرر أثناء قيامك بشدهما لإبعادهما عن بعض، مشكلة كواركين جديدين يلتصقان بالكواركين القديمين. فستبدئين مهمتك تلك بمحاولة لفصل الكواركين بكلتا يديك، لينتهي بك المطاف بكواركين في كل يد. تماما كما لو انتهى بك المطاف الان بأربع ورقات كاملة، اثنتان في كل يد، بعد فصلك

للورقتين التين أعطيتك إياهما. هذا أمر واقعي، وليس خدعة سحرية. لكنه أمر يستحيل على دماغك اعتباره منطقيا، لأنه لا يحصل معنا في خبراتنا اليومية. لكن لو كان ثلاثتنا عبارة عن كواركات، بدل أن نكون بشرا، لكان هذا منطقيا تماما بالنسبة لنا، بل ولكان لدينا مدارس فلسفية ورجالات دين يذكروننا كم نحن محظوظون بهذه النعمة الإلهية.

[134] **لوسيل**: بدأت أشعر بالضياع.

رجل الكهف: أعرف هذا، فإن نيلز بور قد قال: "أي شخص لم يصعق بواسطة نظرية الكم، هو لم يفهمها."، أما ريتشارد فاينمان فكان أكثر دقة في تعبيره: "إذا كنت تعتقد أنك تفهم نظرية الكم... أنت لا تفهم نظرية الكم".

[135] **داني** "بتعجب": لكن لماذا؟

رجل الكهف: لأنه كما أشار ريتشارد دوكنز في كتابه *وهم الإله*: "... نحن حيوانات متأقلمة تطورنا في العالم المتوسط، وهذا يحد مما نحن قادرون على تخيله. النافذة الصغيرة في برقعنا تسمح لنا... بأن نرى العالم المتوسط فقط." لماذا؟ يجيب بقوله: "... نافذة برقعنا العقلية ضيقة لأنها لم تكن بحاجة لأن تكون أوسع في سبيل مساعدة أسلافنا على البقاء..." وهذا ما دفع جون هالدين ليقول في مقالة له بعنوان *عوالم ممكنة*: "... إن اعتقادي الشخصي هو أن الكون ليس فقط أغرب مما نفترض، لكنه أغرب مما يمكننا أن نفترض... أنا أعتقد أن هناك أشياء أكثر في السماء والأرض مما تم الحلم به، أو يمكن ان يتم الحلم به، في أي فلسفة.".

لوسيل "موافقة": يبدو أنه مصيب.

[136] **رجل الكهف** "مشعلا غليونه": يمكنني أن أبقى حتى المساء أزودكم بحقائق يستحيل على أدمغتنا استيعابها، حتى في أبسط الأمور التي نتعامل معها في حياتنا اليومية بشكل جد طبيعي، غير مدركين لماهيتها بشكل فعلي، لكني أعتقد أن الفكرة قد وصلت. فأدمغتنا، كما حواسنا كلها، محدودة النطاق جدا. فعيوننا مثلا لا ترى إلا جزءا تافها من الطيف الكهرومغناطيسي، نسميه الطيف المرئي. وآذاننا لا تدرك إلا قسما لا يكاد يذكر من الموجات الصوتية. فمن وجهة نظر كونية، نحن صم بكم تماما. والمدى الذي نتمكن فيه من الشعور بالاختلافات في درجات الحرارة، هو مدى لا يكاد يذكر على الاطلاق ضمن المدى الكلي الذي تتدرج فيه درجات الحرارة في الواقع. في الماضي لم نكن ندرك هذه الحقائق، لأن كل معارفنا كانت مستمدة بشكل حصري بما أمدتنا به حواسنا البشرية فقط، فاعتقدنا أنفسنا مميزين بأدمغتنا. لكن وكما أوضح كل من نيل دي غراس تايسون ودونالد جولد سميث في كتابهما *البدايات*: "... المشكلة هي أنه لم يتحقق أي اكتشاف علمي تقريبا خلال القرن الماضي بفضل الاستخدام المباشر لحواسنا، بل تحققت هذه الاكتشافات بفضل التطبيق المباشر للرياضيات والمعدات التي تتجاوز نطاق حواسنا. هذه الحقيقة البسيطة تفسر لنا لماذا -من وجهة نظر الشخص العادي- تبدو فيزياء الجسيمات ونظرية الأوتار ذات الأحد عشر بعدا أمورا غير منطقية. أضف إلى

هذه القائمة الثقوب السوداء والثقوب الدودية والانفجار العظيم. في الواقع هذه المفاهيم تبدو غير منطقية للعلماء أنفسهم أيضا..." لكن الكون ببساطة لا يكترث لما تدركه كائنات ضئيلة، ذات حجم لا يذكر مطلقا بالنسبة لعظمته. وهو ليس مضطرا أبدا ليتماشى مع ما تفهمه أدمغتنا التي لم تطورها الطبيعة أساسا لفهم الوجود، بل لتحافظ على حياتها فقط. ولا فهم نشأة الكون ومصيره، ولا اختراع التكنولوجيا وتطويرها، ولا تسخير موارد الكرة الأرضية لمصلحة هذا الكائن الأناني قد كانت من ضروريات بقاءه أثناء صراعه من أجل البقاء والتكاثر، وعليه لم تتطور أدمغتنا لاستيعاب هذه الأمور ولا التعاطي معها، وبالتالي فهي غير منطقية بالنسبة لها. لذا فإني أرى أن الاحتكام الى العقل في الانطولوجيا مثلا يعتبر ضربا من العبث الطفولي الصرف. بل علينا كما أشار لورانس كراوس في كتابه *كون من لا شيء*: "... إذا رغبنا في أن نستقي استنتاجات فلسفية عن وجودنا، وأهميتنا، وأهمية الكون ذاته، لابد أن ترتكز استنتاجاتنا على المعرفة الإمبريقية. إن العقل المتفتح حقا يعني إجبار خيالنا على التوافق مع دليل الواقع وليس العكس، سواء استحسنا تضميناته أم لم نستحسنها." فالواقع هو المعيار، لا ما نريد له أن يكون كما تشتهي أدمغتنا القاصرة.

لوسيل: أنت محق في ذلك.

[137] **رجل الكهف:** ليس هذا فحسب، بل إن أدمغتنا لم تتطور لتعيش ضمن مجموعات كبيرة من الأشخاص. إن التجمعات البشرية التي تضم آلاف الأشخاص هي مجموعات حديثة جدا في تاريخ جنسنا، فما بالك بالتجمعات التي تضم الملايين منهم. هذا وإن الفرد يعيش اليوم ضمن مجموعة هي من الكبر لتشمل سكان العالم كله، الذي يفوق اليوم السبعة مليارات، يتفاعلون جميعا مع بعضهم البعض بطريقة أو بأخرى. هذا أمر لا نستطيع مطلقا الاحتكام إلى دماغنا البشري في تسييره. وما الركون إلى أدمغتنا القاصرة عن التعامل بشكل جيد مع أعداد ضخمة من الشركاء، إلا السبب المباشر لتاريخنا الدموي كجنس بشري. وهذا هو بالضبط ما لعب عليه ثواليث القمع تاريخيا. وبديهي أن الركون إلى ما يمكن للعقل قبوله، هو أسهل بما لا يقاس من محاولة كبح ما يدفعنا إليه. وهكذا تمكن ثواليث القمع من جعلنا بشرا أنانيين، عنصريين، كارهين للغير. في الواقع هم قاموا فقط بتغذية ما برمجت الطبيعة أدمغتنا عليه.

دالي: ملاحظة قيمة!

[138] **رجل الكهف:** يجب علينا أن نفهم أننا نعيش في مجتمع بشري غير طبيعي، وأعتقد أن لا أحد منا يريد مقايضة ذلك والرجوع للعيش في مجتمع طبيعي بسيط، كما كان يعيش أسلافنا للمدة الأطول من تاريخنا في حقب ما قبل التاريخ. على أي حال، سواء رغبنا بذلك أم لم نرغب، فإننا في الواقع قد بلغنا نقطة اللاعودة. وعليه، فيجب أن نقوم بكبح ما قد تدفعنا اليه غرائزنا، إن أردنا الخير لأنفسنا وللأجيال القادمة. وهذا ما أشار اليه ريتشارد دوكنز في كتابه *الجين الأناني*: "... إن شعوري الشخصي هو أن مجتمعا بشريا مبني فقط على القانون الكوني الأناني عديم الشفقة للجين، سيكون

مجتمعا كريها جدا لنعيش فيه... كن حذرا إذا كنت، مثلي، ترغب في بناء مجتمع يتعاون فيه الأفراد بسخاء بعيدا عن الأنانية لصالح الخير العام، فإنه يمكنك توقع القليل من المساعدة من جانب الطبيعية البيولوجية. فلنحاول تعلم الكرم والايثار، لأننا ولدنا أنانيين...".

[139] **داني** "مجففا عرقه": إذن فالدماغ قاصر بشكل كبير لأسباب طبيعية بحتة. وهذا سببك الأول.

رجل الكهف: صحيح، وهذا ما أوضحه ريتشارد دوكنز في كتابه "وهم الإله": "ما نراه في العالم الحقيقي هو ليس العالم الحقيقي الغير مصقول، لكنه نموذج عن العالم الحقيقي تم تنظيمه وتنسيقه بواسطة معلوماتنا الحسية. نموذج مبني بطريقة تجعله مفيدا من أجل التعامل مع العالم الحقيقي، طبيعة ذاك النموذج تعتمد على نوعنا كحيوانات...".

[140] **لوسيل** "باهتمام": ملاحظة جميلة. وما هو السبب الثاني؟

رجل الكهف: سببي الثاني هو خليط من أسباب طبيعية وأسباب بيئية، أو ثقافية. أو لنقل هو حلقة الوصل بين السببين الأول والثالث. فهو يتعلق بطريقة عمل الدماغ، والتي تتأثر دائما بالمخزون الثقافي، والذي هو السبب الثالث.

لوسيل "بحماس": هل لك أن توضح.

[141] **رجل الكهف:** باستثناء الأوامر التلقائية التي يقوم الدماغ بإصدارها بناء على برنامج قسم الغرائز، فإن الدماغ يحتاج دائما للرجوع إلى محتويات الذاكرة لفهم أي بيانات قادمة له من وحدات الادخال كي تحمل معنى ما بالنسبة له. وعليه فإن الدماغ يقوم بمقاربة أي مدخلات تأتيه، مع محتويات الذاكرة، كي يستطيع إدراك وتمييز الأشياء وتثقيل قيمة المعلومات المدخلة، وفهم محتوياتها، ثم إعطاء الأوامر للتصرف بناء على ذلك. كما أن لديه نزعة كبيرة لمحاولة إدراك كل ما يحيط به، وتحميل تلك المضامين معنى ما، ومحاولة إيجاد علاقات منطقية -من وجهة نظره- بين تلك الأمور المختلفة. كما وأنه يتمتع بميزة المقاربة. فليس من الضروري أن تكون المدخلات مطابقة تماما لما تحتويه الذاكرة من معلومات، بل يكفي أن تكون مشابهة لها كي يعتبرها متطابقة. وهو في هذه الأخيرة يشبه ماسحات البصمات التي تستعملها الشركات لمراقبة دوام موظفيها. فحين يتم حفظ بصمة الموظف لأول مرة في الجهاز، يتم السماح لهامش تقريبي أثناء المقارنات اللاحقة. ولو لم يُسمح بهذا الهامش، فلن يتعرف الجهاز على بصمة الموظف في المستقبل، إذا كانت يده متسخة أو مخدوشة. لهذا يعمد المدراء للسماح بهذا الهامش من عدم الدقة، والذي ان تمادوا في رفعه، سيصلون مرحلة تختلط فيها على الجهاز بصمات بعض الموظفين التي شاءت الصدفة أن تكون متقاربة.

داني "مقاطعا": لقد حصل معي موقف من هذا النوع في السابق.

[142] **رجل الكهف:** كما أن الدماغ يعمد للتعميم تلقائيا، فمن المعروف أن المعلومات الموجودة في البيئة هي لانهائية، وإن لم يكن الدماغ قادرا على التعميم فإنه سيكون مضطرا لتحمل تكلفة التعرف على

المتشابهات كلما تعرض لجديد منها، بما يتضمن ذلك من مخاطرة. كما وأنه ينزع تلقائيا إلى وضع افتراضات والتعامل معها على نحو يقيني. ويقوم دوما بإصدار أحكام مسبقة لكل شيء دون إدراكنا.

[143] **لوسيل** "مقاطعة": لكن لم كل هذا؟

رجل الكهف: لأن الانتقاء الطبيعي قد فضل هذه المواصفات في الدماغ. تخيلي مثلا واحدا من أسلافنا قبل ملايين الأعوام وهو مستلق في مكان مكشوف في الغابة يستمتع بدفء شمس الصيف ونسمات الهواء العليل وزقزقة العصافير. وبينما هو في قمة الاسترخاء، حيث لا هموم تثقل كاهله، ولا فواتير تنتظر منه دفعها، ولا رجل كهف يزعجه بأفكاره، إذ يلحظ أن العشب يتحرك في مكان محدد. فإن قام بتجاهل ذلك وأغمض عينه تاركا الهواء العليل يداعب جسده، فإن هناك احتمالا أن يفتحهما وهو يصرخ من الألم، لأن نمرا كان كامنا في ذلك العشب وقد انقض عليه وبدأ بافتراسه. لكنه لو قام بافتراض أن خطرا ما كامن هناك بسبب اهتزاز العشب، وقفز مذعورا متسلقا أقرب شجرة، مضحيا بتلك السكينة التي كان ينعم بها، والتي يحسده داني عليها، فإنه قد ضمن الحفاظ على حياته بنسبة مئة بالمئة. وحتى إن لم يكن هناك نمر كامن في العشب، يبقى الخيار الأكثر سلامة أن تفترض وجوده وتتصرف بناء على ذلك، طالما أنك غير متيقن بنسبة مئة بالمئة من عدم وجود النمر.

[144] **داني** "بحماس": صحيح، هذا يشبه أنه من الأسلم أن تفترض وجود طفل سيقطع الشارع من أمام سيارة متوقفة وتتصرف بناء على ذلك. ففقط أولئك السائقون الذين يفترضون هذا في كل مرة يصادفون فيها سيارة متوقفة، يتعذر عليهم رؤية ما قد يكون كامنا وراءها، هم اللذين لا يدهسون أي طفل في حياتهم.

[145] **رجل الكهف**: تماما. ولنفرض الآن أنه وفي اللحظة التي قفز فيها جدنا القديم متسلقا الشجرة، إذ بنمر يهرع من ذلك العشب محاولا الوصول اليه، لكنه يتمكن من تسلق الشجرة وينجو بحياته. عندها فإن من الأسلم أن يتعلم من درسه هذا وأن يفترض دائما أن أي عشب يتحرك، هو بالضرورة يحتوي على نمر كامن وراءه. وإن لم يصادف هذه الحالة مرة أخرى في حياته كلها، إلا أنها تبقى الخيار الأكثر موائمة عندما تكون حياتك هي الثمن في ذلك الرهان. وعليه، فإن الانتقاء الطبيعي قد حافظ تلقائيا على حيوات الأفراد الذين جنحت أدمغتهم إلى وضع افتراضات وتعميمات، وبالتالي فقد تكاثروا وسيطرت سلالاتهم تدريجيا على الحوض الجيني حاملين معهم تلك النزعات. وما أنا وأنت إلا أفراد من سلالة ذلك الذي قفز على الشجرة لأنه وضع افتراضات، وقام بتعميمها لاحقا في حياته. فنحن في الواقع ندين بوجودنا إلى تلك اللحظة التي قرر فيها جدنا قطع جلسة الاسترخاء تلك. وقد ورثنا عنه تلك النزعة. لذا فإن أدمغتنا تجنح للتصرف على تلك الشاكلة في كل النواحي تقريبا، وإن بشكل غير مبرر، بل وغير مقبول أحيانا. ونحن بحاجة إلى تدريب حثيث لكبح هاتين النزعتين من العمل تلقائيا في المجالات التي لا يجب أن ينشطا فيها. فكما أوضح كارل بوبر في كتابه *منطق البحث العلمي*: "... إنه من غير الواضح إطلاقا إن كان من الصواب منطقيا أم لا، استخلاص قضايا عامة من قضايا خاصة

مهما بلغ عددها. إذ من الممكن أن يكون هذا الاستتباع خاطئا. فمن المعروف أنه مهما بلغ عدد البجعات البيضاء التي رأيناها فإنه لا يسمح لنا بالقول إن كل البجع أبيض.".

[146] **لوسيل**: وماذا عن قولك إن الدماغ يحتاج إلى محتويات في الذاكرة ليقوم بتقييم الأمور، وباقي الأشياء التي أشرت إليها قبل قليل؟

رجل الكهف "وهو يشعل غليونه": كي لا أستفيض كثيرا، سأحاول الاختصار ما استطعت، دامجا السببين الثاني والثالث.

دالي "وهو يصب القهوة": تفضل.

[147] **رجل الكهف**: لقد جادل مارك توين، ببصيرة ثاقبة، في كتابه *ما الإنسان* أن: "... دماغ الإنسان مبني بطريقة لا تجعله قادرا على ابتداع أي شيء مطلقا. لكن يمكنه فقط استخدام مواد حصل عليها من الخارج". وهو في ذلك يشبه الآلة التي تقوم على تحويل مدخلات ما، إلى مخرجات مغايرة بالشكل. لكن هذه الآلة لن تستطيع إعطاءك أية مخرجات، مالم تزودها بالمدخلات في بداية الأمر. وإن طبيعة ونوعية وجودة وقيمة مخرجاتها محكومة بالضرورة، بطبيعة ونوعية وجودة وقيمة المدخلات التي زودت بها. فيقول في ذلك: "إن دماغك هو مجرد آلة، ولا شيء أكثر من ذلك. أنت لا تملك السيطرة عليه، وإنه لا يملك السيطرة على نفسه. إنه يعمل فقط بواسطة مؤثرات خارجية. هذا هو القانون الذي صنع به. إنه قانون الآلات." ويضيف: "... الآلة البشرية، المحرك المجرد من الشخصية. أيا ما كان الانسان، فإنه كذلك بناء على الطريقة التي صنع بها وعلى التأثيرات الوراثية والبيئية والمجتمعية التي أثرت بصنعه، إنه متحرك وموجه ومأمور بواسطة مؤثرات خارجية فقط. إنه لا يبتدع أي شيء. ولا مجرد فكرة واحدة." وهذا صحيح، فجميع مفاهيمنا وقيمنا ومبادئنا قد قمنا بتعلمها من محيطنا، ويستحيل على دماغنا ابتداع أي مفهوم غير مستوحى من محيطنا الملموس. لذا فلن تجد في أي ثقافة صحراوية أو استوائية قديمة مفهوما للثلج مثلا، لأنهم لم يصطدموا به في حيواتهم كلها. وبالمقابل لن تجد مفهوم الصحراء بحرها اللاهب عند سكان الأسكيمو القدماء. لن يستطيعوا تخيل الأمر مهما حاولت شرحه لهم، سيضطرون للقيام بمقاربات تخيلية في محاولة لإدراكه. وإنك مهما حاولت تخيل كائن عجيب الشكل، فلن يسعفك دماغك في تخيل كائن بمواصفات غير أرضية بالكامل. قد تتمكن من جعله غريبا جدا، بخلط مفاهيم لا تتمازج عادة في الطبيعة مع بعضها البعض في كائن واحد. لكن أن يكون مغايرا جدا لكل المفاهيم التي نعرفها، فإن ذلك مستحيل.

[148] **لوسيل** "بحماس": هل لك أن تعطيني مثالا؟

رجل الكهف: كلا بالطبع، فلو أعطيتك مثالا لناقضت نفسي. فمهما حاولت التفكير بمثال يحتوي بالكامل على مفاهيم غير معروفة من قبل فإني سأفشل، ولو تخيلت لك مثالا من أغرب ما يكون، فهذا يعني، بالضرورة، أني قمت ببنائه في مخيلتي بناء على مفاهيم أعرفها مسبقا، وكل ما قمت به هو إعادة خلطها بطريقة غير مألوفة. ولنفرض جدلا أني تمكنت من ابتداع فكرة أصيلة بالكامل لشيء ما

أو كائن ما، فأنا لن أفلت من قبضة أن ما ابتدعته يبقى شيئا أو كائنا، وهما مفهومان أرضيان. وهذا ما أكد عليه العديد من الفلاسفة منذ زمن طويل، كديفيد هيوم مثلا. وبكلمات جون كيرتشر في كتابه *كيف صُنِعَت الآلهة*: "... الدماغ يتصرّف بصورة كبيرة كمرآة... لا توجد صور فكرية في الدماغ إلا تلك التي يوجد لها نظير في مكان ما خارجيا..." وكما شرح الأمر بيرتراند راسل في كتابه *ما وراء المعنى والحقيقية*: "تنطبق قاعدة هيوم بأنه، لا توجد فكرة بدون انطباع سابق، على تعلم معاني كلمات الأشياء.... وبالتالي فلا كلمة ضرورية في قائمة مفرداتنا يمكن أن يكون لها معنى مستقل عن الخبرة. بالتأكيد، إن أي كلمة يمكنني فهمها، لها معنى مشتق من خبرة ما." ويشرح كيفية تعلمنا بقوله: "معنى كلمة من كلمات الأشياء يمكن فقط تعلمها بسماعها عند نطقها متكررة في وجود الشيء. الارتباط بين الكلمة والشيء هو مجرد علاقة مثل أي علاقة اعتياد. مثل العلاقة بين النظر واللمس، فعندما يتم الارتباط، فإن الشيء يقترح الكلمة والكلمة تقترح الشيء تماما مثلما يوحي الشيء المرئي بإحساس اللمس، والشيء الذي يلمس في الظلام يوحي بإحساس الرؤية... ما إن تتم إقامة العلاقة بين الشيء وبين ما تعنيه الكلمة، فإن الكلمة تكون مفهومة في غياب الشيء، أي توحي بالشيء تماما بالطريقة نفسها التي يوحي بها النظر أو اللمس أحدهما بالآخر.".

[149] **لوسيل** "مفكرة": هكذا إذن يقوم دماغنا بتعلم الأشياء وإدراكها لاحقا.

رجل الكهف "وهو يلتقط قلماً بيده": بالطبع، فعندما كنتِ صغيرة قام أهلك بتعليمك الكلمات ومدلولات كل منها، كأن تمسك والدتك القلم هكذا وتقول لك إن هذا اسمه قلم. ولاحقا كلما تعلمتي كلمة جديدة تضعينها في أرشيفك، لذا فأنت تفهمين ما أقول، أو هكذا أتمنى. على أي حال، إنك في الواقع تفهمينه بناء على المعاني التي تحملينها أنتِ في ذاكرتك للكلمات المختلفة، لا كما أفهمها أنا بالضبط. ولو أردنا التأكد من أن كلانا يحمل مفاهيم متطابقة لكل كلمة نتفوه بها، سيصبح حوارنا أكثر من ممل. لهذا، فطالما أننا نتكلم نفس اللغة، نتكلم دون توقف آملين أن الآخر يشاطرنا نفس المفهوم للكلمات التي نقولها، أو على الأقل مفهوما قريبا بما يكفي ليفهم فكرتنا بعد أن نستعرضها له كما نفهمها نحن. لكن في الواقع، يستحيل على شخصين إدراك نفس الفكرة بتطابق تام، فالتشويش دائما موجود. لأن كل شخص قد تعلم معاني الكلمات والمفاهيم بشكل مستقل عن الآخر، كما أن عقلية كل شخص قد بنيت عبر خوضه معتركا في الحياة، يخالف المعترك الذي خاضه الآخر. وهذا ما أشار إليه الآن سنايدر بقوله: "البنية المعرفية تقوم على الطريقة التي ننظر بها إلى العالم، والأفكار المسبقة التي تبنيناها عن الأشياء المألوفة بالنسبة إلينا".

[150] **لوسيل** "بتعجب": هل لك أن توضح؟

رجل الكهف: إن الذي يحصل هو أن دماغك يقوم بمقاربة كل الاهتزازات الصوتية التي تصله بما يحتويه من قاعدة بيانات، باستخدام ميزتي الترشيح والمقاربة التين أشرت إليهما سابقا. وطالما أنه يدرك معاني هذه الاهتزازات الصوتية، فأنت تعتقدين أنك فاهمة لها، وبالتالي فاهمة لما أقول، لكن فقط

عندما لا تجدين معنى لما أقول في قاعدة بياناتك، ستطلبين مني التوضيح بكلمات أخرى تعرفين معناها.

[151] **داني** "مفكرا": هل لي بمثال أكثر تفصيلا؟

رجل الكهف: لك ذلك. خذ النظر على سبيل المثال، عندما تنظر إلى شيء ما، تدخل حزمة الضوء المرتدة عن ذلك الشيء إلى عينيك وتصطدم بالشبكية. ثم تشفر البيانات إلى ملايين النبضات العصبية التي تتسارع في العصب البصري، لتصل بعد خمسين ميلي ثانية إلى الخلايا العصبية في المهاد ليقوم بفلترتها. تقوم خلايا عصبية خاصة بتحليل الألوان والأشكال والتباينات ثم ترسل نتائجها، عبر قواعد بيانات تجاربك السابقة، من القشرة البصرية في الخلف إلى الفص الأمامي. هناك وبلمح البصر يعاد تجميع كل الأجزاء لتشكل صورة واحدة ذات معنى، ثم ترسل مجددا إلى القشرة البصرية، وعندها تستطيع رؤية الصورة بشكل واعي. لذلك يقول غيرهارد روث: "بشكل عام، أهم وسائل الإدراك لدينا هي الذاكرة. تسعة وتسعون بالمئة مما نراه نتصوره من ذكرياتنا. الواحد بالمئة المتبقية تمثله الأعضاء الحسية" وعليه فإن ما تحتويه الذاكرة هو أمر حاسم تماما لإدراكنا للأمور. فلو أني عرضت على شخص ما شيئا لم يشاهد مثله من قبل، فدماغه سيحاول تقريب تلك المعلومات الجديدة إلى أقرب شيء موجود في أرشيفه، أو يصنفها في خانة من الخانات على أقل تقدير.

[152] **لوسيل** "بحيرة": أريد مثالا!

رجل الكهف: هل أنت خبيرة في السيارات؟

لوسيل: لست بمهارة داني في ذلك، فأنا لا أفهم شيئا في ميكانيك السيارات، لكنه خبير بها.

داني "مزهوا بنفسه": بالتأكيد إنها هوايتي المفضلة، فوالدي كان خبيرا ميكانيكيا. لذا فقد ترعرعت بين أجزاء المحركات، قبل أن أتخذ مسارا مغايرا في حياتي.

[153] **رجل الكهف**: عظيم جدا. إذا أخبرني، لو أعطيتك الآن عبوة فيها زيت معدني، هل ستستطيع تمييزه إن كان زيتا للمحرك، أم لعلبة التروس الأوتوماتيكية، أم لعلبة التروس اليدوية، أم للفرامل، أم للمقود الهيدروليكي؟ وهل تستطيع الحكم على كونه صالحا للاستعمال أم لا؟

داني "بزهو": بكل سهولة، وفي لمح البصر.

[154] **رجل الكهف**: وماذا عنك يا لوسيل؟

لوسيل: ليس بتلك الدقة طبعا، لكنني سأعرف أنه زيت للسيارات.

[155] **رجل الكهف**: وماذا لو أعطيت تلك العبوة لجدنا الذي فقز على الشجرة، كجائزة مني على تصرفه الحكيم ذاك؟

لوسيل "مفكرة": أعتقد أنه لن يفهم ما هو هذا الزيت على الإطلاق.

[156] **رجل الكهف**: بل لن يطلق عليه مسمى زيت مطلقا. فهو لا يعرف البترول ولا السيارات ولا أي شيء من هذا القبيل. جل ما أتمناه هو أن تسعفه غرائزه ليحكم أن هذا السائل غير صالح للشرب.

داني "مازحا": هذا عمل شرير من قبلك.

[157] **رجل الكهف**: في الواقع، أعتقد أن غرائزه ستساعده بسهولة على تقرير أن هذا سائل لا يصلح للشرب، وأعتقد أنه سيجده بلا قيمة، وسيرميه رامقا إياي بنظرة احتقار على هديتي عديمة القيمة تلك. هل لاحظتما الإختلاف بين ثلاثتكما؟ فأنت يا داني، لديك مخزون مفصل لأنواع الزيوت في دماغك. فعندما ترى الزيت وتشمه وتلمسه برؤوس أصابعك، فإن دماغك سيستقبل تلك الإشارات وسيقوم باستخراج محصلة لها بلمح البصر، ويقارنها بالأرشيف الموجود عنده، ثم سيقوم بالإشارة إلى هذا الزيت بسهولة. وكلما كنت خبيرا أكثر، أي تملك معلومات أكثر تفصيلا، سيحكم دماغك على الزيت بصورة أكثر دقة وبسرعة أكبر. وأنت يا لوسيل، ستعرفين أن هذا الزيت هو زيت للسيارات، لكن لن تستطيعي تقديم إجابة أكثر دقة، فلا يوجد لديك أي تبويبات تحت عنوان "زيوت للسيارات" الموجود في دماغك. أما جدنا، الغاضب مني حاليا، لا يوجد لديه أساسا ذلك العنوان في دماغه، وبالتالي فإنه لن يميز ماهية هذا السائل الذي بيده.

لوسيل "مفكرة": منطقي جدا.

[158] **رجل الكهف**: فلتتمكني يا لوسيل من الحكم على الزيت كما فعل داني، أنت بحاجة ليتم تعليمك، تماما بالطريقة التي ذكرتها اقتباسا من بيرتراند راسل قبل قليل. وإن أردت تبرير موقفي لجدي، فالطريق أمامي طويل جدا في تعليمه حتى أجعله مقاربا لداني في قدرته على تمييز الزيت المذكور وتقدير قيمته الحقيقية. ولا أعتقد أن لدي الصبر على ذلك. لذا فربما سأعطيه ورقة مئة دولار أمريكي كاعتذار مني على سوء تصرفي، وليشتري بها ما يشاء.

داني "بتهكم": ما هذا الهراء! هو لن يفهم قيمتها.

[159] **رجل الكهف**: صحيح تماما. لا يوجد أي قيمة لهذه الورقة في أرشيفه الدماغي. هل لاحظت؟ نحن نحدد ماهية الأشياء بناء على ما يوجد في أدمغتنا من معلومات مسبقة فقط. ما ذكرته كأمثلة على الأمور المادية، ينطبق أيضا على تقييمنا للأمور الاجتماعية من قيم ومبادئ وأخلاق وما نعتبره صوابا أو معيبا، أو شائنا او ممدوحا أو مذموما. كما وللأفكار وما نجده منها منطقيا أو غير قابل للتصديق. كل هذا نستمده من محتويات ذاكراتنا، وليس بالضرورة مطلقا، أن تكون لهذه المحددات الذاتية التي نملكها، أي صلة بموضوعية القيم والمفاهيم وماهياتها المجردة.

[160] **لوسيل**: كلامك منطقي جدا. والآن أخبرني ما هي أهمية نظام الترشيح؟

رجل الكهف: إن الدماغ البشري قادر على امتصاص أحد عشر مليون وحدة من المعلومات في الوقت نفسه، غير أننا لسنا واعين إلا إلى أربعين وحدة منها كحد أقصى. تخيلي لو كان عليك التعامل

مع كل الأصوات التي تسمعينها الآن على قدم المساواة دون إهمال ما هو غير ذي فائدة، إن تلك الضوضاء ستجعلكِ غير قادرةٍ على التركيز فيما هو مهم منها. لو كان كلامي، وصوت الماء الذي يغلي الآن معلنا أنه جاهز ليصب في فناجيننا، وزقزقة العصافير، وحفيف الأشجار، وصرير الرياح، التي نسمعها كلها على قدم المساواة بالأهمية، فسيستحيل عليك التركيز فيما أقول. في الواقع، لو كان عليّ أنا التركيز في كل الإشارات التي ترد إلى دماغي الآن، لاستحال عليّ بناء جملة مفيدة واحدة.

[161] **داني** "مفكرا": هذه ميزة عظيمة إذا.

رجل الكهف: لذا فإن نظام الترشيح، إضافة إلى قدرة دماغنا اللاواعي على إدارة الكثير من مهامنا، هما ميزتان لا تقدران بثمن، يعملان جنبا إلى جنب على مدار الساعة. ومن دونهما لأصبحت حياتنا جحيما، ولأمست أبسط مهامنا تتطلب قدرات استثنائية.

[162] **داني** "بفضول": كيف ذلك؟

رجل الكهف: بما أنك محب للسيارات، فتخيل لو أن على دماغك التركيز على قدم المساواة في كل ما تراه وتسمعه وتحس به وأنت تقود سيارتك بسرعة مئة وعشرة كيلومترات في الساعة. في تلك السرعة أنت تقطع أكثر من ثلاثين مترا ونصف المتر كل ثانية. إن كمية المعلومات الواردة لحظيا إلى دماغك في تلك السرعة مهولة جدا. ليس هذا فحسب، بل أنت تقوم، إضافة إلى استقبال ذلك الكم الهائل من البيانات ومعالجته لحظيا، بالتفكير بما عليك فعله أثناء القيادة، وبما يفعله السائقون المحيطون بك، والنظر في المراءِ الثلاث، ومراقبة جهاز تحديد المواقع، وربما التفكير بما قالته لك لوسيل بالأمس، وبتلك المخالفة المرورية التي قمت بها، وبذلك المقال الذي رفض رئيس التحرير نشره لك، وإلى ما هنالك من أمور يعمل دماغك على إدارتها في الوقت عينه أثناء قيادتك للسيارة. حاول أن تفكر بوعيك في كل هذه التفاصيل عندما تقود سيارتك في المرة القادمة كي تفهم قصدي. دون نظام ترشيح، أو فلترة، لما هو مهم وما هو غير مهم، ودون مساعدة القسم اللاواعي من أدمغتنا، سنكون عاجزين عن القيام بأبسط الأمور في الواقع. لكن بسبب هذه المساعدة الجليلة فإننا متعددو مهام بسهولة. نحن نترك لعقولنا اللاواعية مهمة القيام بالكثير من الأمور التي نقوم بها فعليا، ونركز نحن بعقولنا الواعية على بعض الأشياء المهمة منها فقط. وهكذا يمكنك يا داني القيام بأكثر من أمر في الوقت عينه، كأن تمشي ذاهبا إلى مكان ما وأنت تأكل شطيرة تحملها في إحدى يديك، بينما تحمل في اليد الأخرى حقيبتك، وتجري مكالمة هاتفية مع لوسيل عبر سماعة في أذنك. هل لك تخيل كم من أمر يتحكم به دماغك أثناء ذلك، وكم من بيانات ترد إليه لحظيا، وكم من أمر يقوم بإصداره في الوقت ذاته؟ ولأكون صريحا معك، فإن الدماغ يقوم بإدارة تسعين بالمئة مما نفعله دون علمنا على مدار الساعة دون توقف.

[163] **داني**: لكن هذا يعني أننا غير واعون لمعظم ما نقوم به.

رجل الكهف: صحيح، فإن الوعي يشكل قسما صغيرا جدا من الدماغ. فالعقل الواعي يقع في

القشرة المخية، وهي طبقة متجعدة تبلغ سماكتها ميليمترا واحدا فقط، تغلف الدماغ. وفي الواقع إن اللاوعي لا يتحكم منفردا في إدارة الكثير مما نقوم به، والتحكم بفهمنا وإدراكنا للأمور فحسب، بل كل قراراتنا تتم في اللاوعي، ثم ندركها فنعتبر أننا قررناها. تماما كما وصف غيرهارد روث: "نشعر بالمهانة لأننا كالدمى بين يدي عقلنا الباطن، الذي يقرر متى يصبح الوقت مناسبا لنا للقيام بأمر آخر، أو التفكير بأشياء أخرى. حتى الأفكار الواعية الجديدة يمليها علينا عقلنا اللاواعي." وكما شرح آلان سنايدر: "القرارات التي نتخذها لا تكون قائمة على أفكار واعية، القرارات التي نأخذها تكون من العقل الباطن، يكاد الوعي أن يكون بمثابة فكرة مستدركة. يجادل البعض بأننا لا نملكه حتى، وأنه يبدو كتمرين للعلاقات العامة في الدماغ يوحي لك بأنك معني بالأمر".

[164] **لوسيل** "بدهشة": هذا مذهل. لكن لماذا؟

رجل الكهف "وهو يشعل غليونه": إن كنتِ تقصدين "كيف حصل ذلك؟"، فإن جون بارغ يجيبك بقوله: "التأثيرات لعقلنا الباطن موجودة في كل وقت وفي كل مكان، ويظهر تقدم الأبحاث مدى اتساع سيطرتها. إذ لم نجد أن الأشياء التي كنا نظن أنها باطنية هي أشياء تتم في العقل الواعي، بل العكس تماما، ففعليا تقلص الوعي تدريجيا وتحول إلى رجل صغير الحجم داخل رؤوسنا... لا يعني ذلك أنه مع الوعي تم التخلص من العقل القديم، بل أضيف الوعي إليه وتوجب حينها أن يتعلم كيفية التعامل مع العقل الباطن. هكذا يعمل الانتقاء الطبيعي. إنها عملية تدريجية، فهو ليس تغييرا جذريا. إذا لا يصبح لدينا دماغ جديد فجأة، فالأشياء القديمة لاتزال موجودة ولا يزال تأثيرها علينا قويا... معظم تصرفاتنا هي مزيج من العمليات الواعية واللاواعية، فبطريقة ديناميكية تكافلية، تدعم هذه العملية بعضها بعضا. تطور الوعي وتأخر بالتطور، لكنه تطور عبر استغلال البنى الموجودة مسبقا في الدماغ، والتي كانت غير واعية...". وإن كنتِ تقصدين بسؤالك "ما الفائدة من ذلك؟"، فيجيبك آلان سنايدر بقوله: "التفكير البطيء ومحاولة التوصل الى حلول جديدة غير مفيد للتطور. نريد أن نكون سريعين تجاه ما هو مألوف".

[165] **داني** "مفكرا": وكأني أفهم من كلامك أننا لا نملك إرادة حرة.

رجل الكهف: صحيح، ولو أني لم أهدف لنقاش هذا الموضوع الآن. فلو أني أردت ذلك، لكنت نهجت نهجا مختلفا في الحوار. لكن تسليط الضوء على عدم امتلاكنا لحرية إرادة، هو أمر جوهري في تدعيم موقفي من عدم أهلية الدماغ لإصدار الأحكام، وهو ما نبحث فيه اليوم.

[166] **داني** "متحمسا": ومع ذلك، هل لك أن تشرح أكثر، فأنا أفكر في هذا الأمر منذ مدة؟

رجل الكهف: لم لا! لقد أثبت علم الأعصاب أن جميع قراراتنا يتم اتخاذها في عقلنا اللاواعي قبل أن ندركها بعقلنا الواعي. يذكر سام هاريس في كتابه *حرية الإرادة* إحدى التجارب ذات الصلة: "استخدم عالم الفيزيولوجيا بينيامين ليبيت تخطيط أمواج الدماغ ليري أن النشاط في القشرة الحركية للدماغ يمكن أن يلاحظ قبل ثلاثمئة ميلي ثانية من شعور الشخص أنه قرر التحرك." كما أن مخابر

أخرى وسعت العمل باستخدام التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي. فكانت النتيجة، كما وصفها أحد من قام بهذه التجارب وهو جون ديلان هاينز: "وجدنا أن نشاط الدماغ يشير إلى القرار الذي سيتخذه الشخص قبل سبع أو عشر ثوان من اتخاذ القرار الواعي. إذن يبدو أن الدماغ يحث على القرار ويبرمجه. وفي هذه اللحظة، عندما يعترينا هذا الشعور الذي يقول: أنا الآن اقرر، يكون القرار قد اتخذ منذ فترة طويلة." وهذا لا ينطبق على القرارات البسيطة أو الروتينية فحسب، كما أشار أنطونيو رافغيل: "الحد الأدنى من السرعة التي يستطيع الدماغ فيها اتخاذ قرارات مهمة، أي غير عشوائية، يقارب المئتين وأربعين ميلي ثانية، إنها سرعة كبيرة جدا. وفي العديد من الحالات، يكون العقل قد اتخذ قراره في حين لايزال الشخص يفكر بالموضوع." ولذا يؤكد سام هاريس: " أنا، كمراقب واعي لخبرتي، لا يمكنني تخليق الأحداث في القشرة الجبهية لدماغي، أكثر مما أتحكم في نبض قلبي.".

لوسيل "بحماس": لقد شاهدت فيديوهات عن هذه التجارب على الإنترنيت، إنها مثيرة للاهتمام حقا.

[167] **رجل الكهف**: إنها أمر أجمع عليه تقريبا جميع علماء الأعصاب، بعد دراسات وتجارب مطولة. فإن اللحظة التي تقرر فيها أمرا ما، هي فقط تلك اللحظة التي يدرك فيها وعيك القرار الذي اتخذه دماغك مسبقا في القسم اللاواعي منه، وكما يصف سام هاريس الأمر: "هناك الآن حقيقة واحدة تبدو غير قابلة للجدل: ببعض لحظات قبل أن تصبح واعيا بما سوف تفعله لاحقا -وهو الوقت الذي تبدو فيه لذاتك ممتلكا مطلق الحرية للتصرف على النحو الذي تريد- يكون دماغك قد قام مسبقا بتحديد ما ستفعله لاحقا. بعدها تصبح أنت واعيا لذلك القرار مؤمنا أنك من قام باتخاذه... إن القول إنه كان بإمكاني فعل خلاف ذلك إن أردت، هو كالقول إنه كان بإمكاني العيش في عالم آخر، لو كنت أعيش في عالم آخر." في الواقع، أنت لا تملك حرية تقرير الفكرة التالية التي ستخطر على بالك، فأي حرية إرادة تعتقد بها! وباختصار، فإن علم الأعصاب اليوم قد أثبت أن ما قاله توماس هوبز: "إني أقر بهذه الحرية، بأني أستطيع أن أفعل إذا أردت. ولكن أن أقول: أستطيع أن أريد إذا أردت، فهذا في رأيي كلام سخيف." صحيح تماما.

[168] **لوسيل** "مفكرة": إن هذا يدفع للتفكير العميق في الموضوع. لكن أخبرني الآن، ماذا عن ميزة المقاربة؟

رجل الكهف: لولاها لكان علينا التعرف من جديد على كل شيء وكأننا نصادفه للمرة الأولى. فذلك القلم الذي استخدمته والدتك لتعلمك أن هذا الشيء يسمى قلما، لم يعد موجودا الان. ومع ذلك، فدماغك يقارب كل ما يشبه ذلك الشيء ليفترض أنه مثله، وبالتالي فأنت تلقين اسم "قلم" على كل واحد من الأقلام في العالم. ولولا هذه الميزة أيضا، لما فهمتي عليّ أني أقصد القلم، عندما أقول "قلم". لأن صوتي لا يشبه صوت والدتك، ونبرة صوتي، بل ولهجتي، قد يختلفان عنها كذلك. فعمليا، الموجة الصوتية التي تصلك عندما أقول "قلم"، تختلف تماما عن تلك التي وصلتك من والدتك. ورغم

ذلك، فدماغك قد ألغى هذه الاختلافات، وقارب ما وصله مني اليوم، بالمخزون الذي لديه، وفهم أنني ووالدتك قد تكلمنا عن الشيء ذاته. بل عن مفهوم واحد، هو مفهوم القلم، لا ذاك القلم بعينه. وبنفس الطريقة، إذا أعطيتك ورقة لتقرئيها مكتوبة بخط يدي، قطعا خط يدي لا يشبه إطلاقا الأحرف والكلمات المطبوعة التي تقرئينها في الكتاب، لكن دماغك سيهمل هذا الاختلاف بسهولة وعندها يسمى خط يدي "خط مقروء". وإن كان خط يدي يبتعد كثيرا عن الطريقة القياسية التي نكتب بها الكلمات على الآلة الكاتبة، لدرجة يتعذر فيها على دماغك مقاربة ما كتبتُ مع محتوياته السابقة من المفردات، فعندها لن تستطيعي تمييز كتابتي وستقولين إن لي "خط غير مقروء".

لوسيل "بابتسامة": أعتقد أن خطك مقروء.

[169] **رجل الكهف**: شكرا. بالمناسبة، أنتِ لا تقرئين الكلمات حرفا حرفا. كنتِ تفعلين ذلك أثناء تعلمك الكتابة والقراءة. لكن لاحقا، أصبح دماغك يتخيل الكلمات، كما يرى أنه يجب عليها أن تكون، من السياق العام. ولن تتوقفي لتقرئي حرفا حرفا، إلا إذا كانت هناك كلمة جديدة عليك، كمصطلح لم يمر معك من قبل. وعليه، لو كنت قد وقعت في أخطاء إملائية، طالما كانت في حدود المعقول، فدماغك سيتجاهلها تماما، وربما لن تشعري بوجودها على الإطلاق. بل إنه قادر على تصويبي لو أخطأت باستعمال بعض المفردات. أو لأكون دقيقا، إنه يقوم بفهم الجملة كما يرى، من وجهة نظره، أنها يجب أن تكون. فربما أنا لم أخطأ بأي كلمة، لكني استعملت كلمة غير موجودة في خزينة مفرداتك، لكنها قريبة من إحداها، عندها فمن وجهة نظر دماغك، سيعتبرها كلمة خاطئة بحاجة للتصويب، وعليه فإنه سيقوم بالتصويب المناسب تلقائيا دون أن تشعري. وفي هذا يقول آلان سنايدر: "دماغنا قادر على تزييف المعلومات التي تصل إلى شبكية العين. بعبارة أخرى، إذا أمكننا تجاهل ما هو موجود فعليا أمامنا والتشديد على ما نظن أنه يجب أن يكون أمامنا فإن ذلك سينجح. الدماغ قوي جدا." وتؤكد على تحكم الدماغ بما يصله من بيانات سوزانا مارتينيز كونديه بقولها: "نختبر الأوهام في جميع الأوقات. نادرا ما يحصل تطابق تام بين الخيال والواقع. إذن بطريقة ما، كل ما نراه تقريبا هو مجرد وهم".

[170] **لوسيل**: لكن تخيل كم ستكون الحياة صعبة بدون هذه الميزات، لن يفهم أحد منا الآخر مطلقا، وسيتعرف كل منا على كل شيء مرة جديدة في كل لحظة.

[171] **رجل الكهف**: ولذا فإننا ما إن تعلمنا شيئا ما، فإن دماغنا سيضعه في ذهنه كمفهوم عن هذا الشيء، مالم يقصد عامدا حفظ بيانات الشيء لذاته لغرض ما. لذا فعندما تم تعريضك لمفهوم القلم، فهمه دماغك، وراح يطلق على كل ما يشبه ذلك الشيء، ويقوم بنفس وظائفه، الاسم ذاته. لكن لو حفظه لذاته فقط، فعندها لن تستطيعي إطلاق مسمى "قلم" على أي قلم آخر، ولو اختلف عن ذلك القلم في لونه فحسب.

[172] **لوسيل** "مفكرة": الآن بت أفهم ما قلته لنا بالأمس: "لم يدرك الرعايا حتى الآن أن هناك جدرانا مختلفة للبرج، وأن هناك سطحا وأن هناك درجا حلزونيا. لا يمكنهم استيعاب الفكرة أساسا. كيف وهم

لم يشاهدوا برجا ولا درجا في حيواتهم. هذه كلمات لا تحمل معنى بالنسبة إليهم. مفهوم النظر من ارتفاع عال بشكل شمولي لا يمكنهم تصوره. فلا وجود له في الغرف. ".

[173] **رجل الكهف**: ملاحظتك جيدة. فبالمثل أيضا في مثالنا الحالي، لو أعطيت القلم لجدنا كاعتذار مني على قلة أدبي معه، فلن يدرك ماهيته. فهو لا يملك ذلك المفهوم في دماغه، ووجب علينا تعليمه إياه كما نعلم الطفل الصغير.

داني "مازحا": دع جدنا وشأنه، ألا يكفيه ذعره من النمر. أعطه شطيرة شهية أو كعكة لذيذة بدل هذه الخردة التي تقدمها له من حين لآخر.

[174] **رجل الكهف**: في الواقع ليس عليّ ذلك. إن عليه تحمل مشاكستي، كما نتحمل نحن مشاغبات أبنائنا وأحفادنا. ثم هل تعتقد أني أقدر له تصرفه ذاك؟ إني أعتقد أنه لو كان ذا بصيرة نافذة وحكيما بما يكفي ليكون محط تكريم، لبحث هو عن النمر بدل أن يهرب منه معطيا الفرصة لنسله كي يدمروا هذا الكوكب بكل ما عليه. ولو فعل ذلك، فإني أؤكد لك أن جميع الأجناس الحية، كانت لتشكره حتى آخر لحظة من عمر هذا الكوكب.

داني "بحزن": لا أستطيع سوى تأييدك يا صاحبي، فما فعله نسل ذلك الرجل، لا يمكن التكفير عنه بأي شكل من الأشكال.

لوسيل "بعيون دامعة": أرجوكما، لا أريد تذكر البؤس الذي سببه البشر، فأنا هنا الآن كي أنساهم.

[175] **رجل الكهف**: على أية حال، وكما تخطأ ماسحات البصمات أحيانا، فإن لميزة المقاربة وجهها المرح. فلو كنت تسمعين أشخاصا يتكلمون بلغة لا تفهمينها، فإن دماغك سيعمل جاهدا كل الوقت، لا إراديا، على محاولة مقاربة ما يسمع. وليس من النادر أن تلتقطي كلمة مشابهة لكلمة في لغتك، ويقوم دماغك بتأويلها على أنها تلك الكلمة. بل ليس من النادر أن يكون صوتا غير بشري مطلقا، ويحوله الدماغ إلى كلمات بشرية.

[176] **داني** "بحماس": لقد خبرت هذا مرات عديدة، كأن أستمع لآلة تصدر صوتا ذو تواتر ثابت، فأشعر وكأن الآلة تردد كلمة ما أو جملة ما. وكلما ركزت في ذلك الصوت أكثر، كلما زاد يقيني أنها تقول ما يتهيأ لي.

[177] **لوسيل** "بمرح طفولي": وأنا حصل معي موقف مشابه في أيام طفولتي. كنت في رحلة مع ثلاثة أو أربعة من الأشخاص المتدينين في إحدى الغابات، وإذ بصوت قصير يصدر، لا أعرف مصدره، بدا لي كأنه نعيق غراب. لكن أحد الجالسين، وهو أكثرهم تدينا، قال: "هل سمعتم كلمة يا رب؟"، ثم بدأ الآخرون على التوالي بتأييده. لا أذكر إن أيده الجميع، لكني أذكر يقينا شخصا واحدا قام بذلك على الأقل. ثم وضعوا افتراضا أن جنيا ما موجودا في المكان وقد قال "يا رب"، وقاموا بتصديق فرضيتهم تلك بسرعة، وتصرفوا على أساسها، مما جعلني متذكرة لهذه الحادثة الغريبة حتى اليوم.

[178] **رجل الكهف**: إن ما حصل هو أن دماغ ذلك الشخص، والذي كما أشرت كان أكثر الموجودين تدينا، قارب نعيق الغراب، أو أيا كان الصوت، لكلمة "يا رب"، فهي تتكرر على مسامعه أكثر بكثير من نعيق الغربان. وعندما قال ذلك، حفز قوله أدمغة المتدينين الآخرين لتقوم بنفس المقاربة. فبالنهاية، هم لم يتعرضوا لنعيق الغربان في حياتهم اليومية، بنفس التكرار الذي تعرضوا به لكلمة "يا رب". وإن هذه الحادثة ليست غريبة كما وصفتها. فهذه الأخطاء في المقاربات الدماغية تحصل بتكرار عال مما يدفع الناس إلى التيقن بما يؤمنون به، لأنهم يعتقدون أنهم يرون أو يسمعون أشياء تؤيد إيمانهم. فكم من مسلم قد وجد اسم الله أو اسم محمد مكتوبا على بيضة دجاج، أو حبة بطاطس. وكم من مسيحي قد شاهد مريم العذراء متجسدة في غيمة في السماء، وكم منهم من قد شاهد المسيح مرسوما على رغيف للخبز. وكم من بوذي قد شاهد البوذا في صخور الجبال. فما يشاهده هؤلاء الأشخاص، هو مقاربة خاطئة حصلت في الدماغ لشيء اعتباطي تماما في الطبيعة، قام الدماغ، النهم لإعطاء معاني لكل شيء، بإعطائه معنى عن طريق تقريبه لمحتوى ما من مفاهيمه المسبقة. وكلما كنت متدينا أكثر، كلما زاد احتمال أن تشاهد وتسمع ما يزيد من إيمانك، مما يقوي إيمانك أكثر، فتشاهد وتسمع ما يقويه وهكذا.

[179] **داني** "مفكرا": إذا لهذا لم يحصل مطلقا أن شاهد شخص إشارات من دين لا يعتنقه. كأن يشاهد بوذي المسيح، أو مسلم مريم العذراء.

رجل الكهف: صحيح، فذاكراتهم غير مملوءة بهذه المفاهيم، فكيف لأدمغتهم أن تصبغ هذه المعاني على هذه الأشياء الاعتباطية، إلا لو كانوا متعرضين لها بشكل مكثف. كشخص مسلم يعيش في بيئة مسيحية أو يفكر في اعتناق المسيحية، عندها قد يشاهد او يسمع ما من شأنه حثه على قراره ذاك. دماغه سيخدعه بإشارة ما ويجعله يعتقد أنها حقيقية. لقد شاهد أو سمع شيئا ما، هل تريده أن يكذب عينيه أو أذنيه؟

داني "بحزن": فعلا إنها مهمة صعبة.

[180] **لوسيل** "بحماس": وهذا يفسر إذا، أن الأشباح لا تظهر إلا لمن يؤمن بها، والجن كذلك. وقصص تناسخ الأرواح، لا تتداول إلا في المجتمعات التي تؤمن بذلك، وهكذا بالنسبة لباقي الأمور التي لا يراها ويسمعها ويعيشها إلا أناس مؤمنون بها. كما أن جميع من عاش تلك التجارب التي تسمى الاقتراب من الموت، أو أولئك الذين يعتقدون أنهم قد ماتوا فعلا ثم عادوا للحياة، لم يشاهدوا في رحلاتهم تلك سوى ما يعتقدونه مسبقا عن الموت، أو ما يتداوله أبناء مجتمعاتهم عنه. لم يحصل قط أن روى أحدهم رواية ليست مطروقة، أو شاهد أشياء لا يمكن وصفها، أو أنها لم توصف فعلا من قبل.

[181] **رجل الكهف**: صحيح تماما. مع أنه غالبا سيكرر عبارة "أشياء لا يمكن وصفها، ولا يمكن تخيلها" - لأن هذا ما يفترض أن يكون عليه العالم الآخر- لكنه عندما يستفيض في حديثه ترينه يصف كل شيء، كما وسيتخيله بدقة كل من يستمع له.

[182] **لوسيل** "ضاحكة": ناهيك عن أن كل معتقد يؤكد على أنه المعتقد الوحيد الصحيح، وباقي

المعتقدات خاطئة. كما أن المنطق يقول إنه يستحيل أن يكون الجميع على صواب، وبالتالي يجب ان يكون هناك على الأكثر معتقد واحد هو الصحيح. وبما أن ما بعد الموت هو واحد لجميع البشر، فعليه يجب أن يكون معتقد واحد على الأكثر من تلك المعتقدات هو الذي سيثبت الرواة صحته. لكن المضحك في الموضوع أن رواية كل منهم تؤكد معتقده بالذات. ولذا فنحن لدينا روايات عن تجارب شخصية بعدد تلك المعتقدات.

[183] **رجل الكهف:** كلامك صحيح. لكن الحقيقة على أي حال هي أنه لم يمت أحد منهم فعليا. كل ما حصل هو محض اختلاق أدمغتهم التي خدعتهم ليعتقدوا أنهم يعيشون رحلة ما، تماما كالحلم. وعليه، فلن تستطيع أدمغتهم ابتكار شيء ما لم يتم إدخاله فيها مسبقا. وبالتالي، لن يرى شخص ما في "رحلة الموت" العالم الآخر بمنظور لم يألفه مسبقا عن ذلك العالم. تماما كما أنه يستحيل على الحالم أن يرى أشياء لم يسمع بها من قبل في حلمه، وإن قام بدمجها بطريقة بالغة الغرابة. قد تكون الصورة الكلية أغرب من الخيال، لكن عناصرها المنفردة هي عناصر مألوفة.

داني "مازحا": أتمنى أن أعيش تلك التجربة يوما.

[184] **رجل الكهف:** اسمعا قول باروخ سبينوزا، ذو البصيرة النفّاذة في *رسالة في إصلاح العقل*: "ليس هناك... أي وهم، بل هناك فقط ادعاءات صادقة." هذا لأن "... الوهم لا يبدع شيئا، ولا يقدّم للفكر جديدا. وإن الذكريات الكامنة في الدماغ وفي المخيلة هي وحدها التي يقع استذكارها، فينتبه إليها الفكر جميعا، دونما تمييز. فقد يتذكر المرء مثلا كلاما منطوقا وشجرة، فيخلط فكره بين هذه الذكريات ويُسلّم بوجود شجرة تتكلم..." ثم يشرح أمرا بالغ الأهمية "... أول ما ينبغي أن ننتبه إليه هو أن قدرة الفكر على التوهم تكون أعظم بقدر ما يكون فهمه للأشياء أقل وإدراكه الحسي- لها أكثر، وتكون قدرته أقل بقدر ما يزداد فهمه للأشياء. فكما لا نستطيع مثلا... طالما كنا نفكر، أن نتوهم أننا نفكر ولا نفكر، فكذلك لا نستطيع، بعد معرفة طبيعة الأجسام، أن نتوهم ذبابة لا متناهية... رغم أننا نستطيع التلفظ بكل ما نشاء التلفظ به. لكن، كما قلنا، كلما ضعفت معرفة الناس للطبيعة، سهل عليهم إنشاء أوهام أكثر، كأن يتوهموا أشجارا تتحدث، وأناسا يُمسخون فجأة حجارة أو ينابيع، وأشباحا تظهر في المرايا... وأمورا كثيرة أخرى من هذا القبيل." هذا لأنه "... لا شيء مما يوجد في الطبيعة يناقض قوانينها، وكل ما يحدث إنما يحدث وفقا لقوانين طبيعية محددة، فينتج عنه، وفق قوانين محددة، معلولات محددة تربط بينها علاقات ثابتة، وبالتالي فكلما تصورت النفس شيئا من الأشياء تصورا صحيحا، كشفت لا محالة عن آثاره الموضوعية..." وعليه "... إذا تمت لنا معرفة طبيعة الدائرة وطبيعة المربع مثلا، فإننا لن نستطيع بعد ذلك المزج بينهما وتكوين فكرة دائرة مربعة...". ويخلص مُصيبا إلى "لاحظوا أن الوهم، متى اعتُبر في ذاته، لا يختلف كثيرا عن الحلم. بيد أن الحلم يفتقر إلى تلك الأسباب التي تُقدمها الحواس إلى الإنسان اليقظ، كما أن الصور التي تظهر لهذا الانسان في المنام لا تصدر عن أشياء تشغل حيزا خارجا منه. أما الخطأ، فهو يتمثل... في أن يحلم المرء وهو في حالة يقظة.

ويُسمى الخطأ هذرا إذا كان بارزا جدا.".

داني: إنه لا شك يتمتع بذهن حصيف كي يصل إلى كل هذه الدقة من الاستنتاجات قبل قرون من تطور علمي النفس والأعصاب.

[185] **رجل الكهف**: إن لسبينوزا أثرا لا يمكن إغفاله في توجيه الفكر الإنساني نحو العقلانية. بالمناسبة يا داني، لقد تذكرتُ شيئا آخر. بما أنك محب للسيارات، هل لاحظت كيف نرى السيارات على أنها غاضبة، مرحة، ضاحكة، أو أنها مصبوغة بتعبير ما. الأطفال لا يتورعون عن التصريح بذلك، بينما يخجل الكبار عادة منه، فيلجئون إلى وصف السيارات بتعابير أخرى أكثر شمولية كأن يقولوا مثيرة، متوحشة، راديكالية، ناعمة وهكذا.

داني "بحماس": بالطبع لاحظت ذلك. ودائما ما كنت أعتقد أنه أمر مثير للسخرية مع أني أشعر به.

[186] **رجل الكهف**: مرد هذا هو أن دماغنا تطور في بيئة لا توجد فيها سيارات، بل حيوانات. والآن فإن تصميم مقدمة السيارة يخدع دماغنا. فمن السهولة بمكان أن يرى دماغنا مصابيحها الأمامية على أنها عيون، وفتحة المشعاع على أنها فم. وهكذا سيجنح دماغنا لا إراديا إلى ملاحظة تعبير وجه هذا الكائن الغريب.

داني "بحماس": تأكيدا لكلامك، ليس من النادر أن يقول الأطفال عن مصابيح السيارة أنها عيون السيارة.

[187] **رجل الكهف**: كلنا قد قرأ كلمة ما على ورقة فيها خربشة لا تمت لأي كلمة بصلة، أو سمع كلمة ما من صوت اعتباطي تماما. الدماغ يقوم بعمل مثير للإعجاب ليستخلص أمورا يفهمها من كل شيء.

لوسيل "وهي تصب المزيد من القهوة": إذن دماغنا يخدع نفسه بسهولة جدا.

[188] **رجل الكهف**: بسهولة أكثر مما تعتقدين. دعينا نجرب أن نخدع أنفسنا الآن. فكري في طعام ما تشتهينه كثيرا، ركزي في الأمر لبعض الوقت وستشمين رائحته، بل وستشعرين بمذاقه. لم يقدمه الإله لك لأنك اشتهيته كما فعل مع مريم العذراء في محرابها. فلا معجزات تحصل في هذا الكهف بكل أسف. إن دماغك قد خدع نفسه. فكري بأغنية ما وستسمعينها، وهكذا. هذا وإني لا أتكلم في كل ما سبق عما يعرف بالهلوسات السمعية والبصرية. ولو أنها أمور تثبت بشكل واضح كم أن الدماغ قادر على خداع نفسه، حيث أنه ليس من النادر ان يعاني أحدهم من هلوسات والتي يقنعه دماغه أنها آتية من العالم الواقعي بينما هي محض اختراع وتأويل الدماغ نفسه.

داني "مؤيدا": صحيح، كلنا مررنا بتجارب من هذا النوع، وإن لم تصل للحالة المرضية التي ذكرتها.

[189] **رجل الكهف**: وبالمقابل، فإنك دماغك ما إن يعتاد على الإشارات التي تأتيه، فإنه يعمد لتجاهلها كي يتيح لنفسه التعامل مع غيرها من مستجدات. فعندما تلبس ساعة يدك، سرعان ما ستفقد الإحساس بوجودها، وربما ستفتقدها إن لم تنظر بعينيك أو تلمسها باليد الثانية لتتأكد من وجودها.

وعندما تضع عطرا، فإنك ستشم رائحته موقتا وبعدها لن تشعر بها، ستعتقد أن الرائحة قد زالت. لكنك ما إن قابلت شخصا ما، فإني آمل أن تكون قد وضعت عطرا لطيفا يجعله يثني على رائحته التي لا تشمها أنت. وعندما دخلتما كهفي لابد أنكما شممتما رائحة مميزة فيه، لكنكما لا تميزانها الآن مطلقا. وإن انتقلتما للعيش في مدينة مكتظة، فسيتصدع رأساكما أثناء التجوال فيها للمرات الأولى، لكثرة ما يستقبل دماغاكما من مدخلات بصرية وسمعية وسواها. لكن مع الوقت، سيعمد دماغاكما على تجاهل هذه المؤثرات الكثيرة المتكررة، وتصبحان قادرين بسهولة على التجول في المدينة شاردي الذهن أو مشغولين بأمر ما متجاهلين كل ما حولكما تماما.

[190] **لوسيل** "بحماسها الطفولي": صحيح جدا، لطالما سألت نفسي عن السبب.

رجل الكهف: لأن دماغك يريد أن يتيح لك التركيز على ما قد يوجد من مستجدات، فطالما أن التنبيهات التي كان قد أعطاك إياها قد حازت على التجاهل المتعمد من قبلك، فيدرجها في خانة الأمور الغير مهمة، ليتيح لك التنبه لما قد يكون مهما من مستجدات. فبتجاهله لرائحة العطر ورائحة الكهف، يسمح لنا الان بالانتباه الى رائحة حريق مثلا، ستكون الرائحة الوحيدة التي نشمها. وبالمثل، فإنك في المدينة ستلفت نظرك الأمور التي تستجد فيها فقط، بعد أن بات كل ما فيها من مؤثرات اعتياديا لك.

داني: منطقي جدا.

[191] **رجل الكهف**: إن المهاد يعمل بشكل لا واعي دون توقف لفلترة المدخلات ومشاركة المهم منها معنا. نحن عمليا تحت رحمته، فما يراه المهاد ضروريا لنا كي ندركه، فسندركه. وما يراه غير ذلك، فسيتم التعاطي معه في لاوعينا ولن نشعر به مطلقا. ولذا فإن للخبرات السابقة والتدريب ومحتويات الذاكرة دور حاسم فيما يلتفت إليه وعينا. ألا تلاحظان كيف ينتبه الأشخاص المختلفون لأمور مختلفة في الموقف ذاته؟

لوسيل "بحماس": بالطبع.

[192] **رجل الكهف**: لأن كلا منهم قد برمج دماغه على الاهتمام بأشياء تختلف عن الآخر، وعليه فإن كلا منهم سينتبه إلى أمور يرى دماغه أنها تهمه وسيتجاهل الأخرى. نحن بالكامل نخضع لأهواء أدمغتنا اللاواعية. ليس هذا فحسب، بل إن أدمغتنا تضع الافتراضات التي تراها مناسبة وتجعلنا نعتقد بها، كما أوضحت مسبقا. ولذا فنحن نخطأ كثيرا لأننا عبيد بالكامل لما تعتقده أدمغتنا، والذي ليس بالضرورة مطلقا أن يكون هو الواقع. انظرا لهذه التجربة اللطيفة التي قام بها بيرتراند راسل وأوردها في كتابه *ما وراء المعنى والحقيقة*: "... في وقت ما كنت أربي الحمام، ووجدت أنه نموذج للفضيلة الجنسية. ولكني في إحدى المرات أدخلت عليه حمامة جديدة تشبه تماما إحدى الحمامات السابقة المتزوجة. أخطأ الزوج معتقدا الحمامة الجديدة أنها زوجته وبدأ الالتفاف حولها. فجأة، إكتشف خطأه وبدا محرجا كرجل في مثل موقفه..." لم يتوقع دماغ ذكر الحمام ذاك أن من الممكن أن تدخل أنثى

مشابهة لزوجته، فاعتقد تلقائيا أنها زوجته. لم يكترث للتدقيق بحواسه قدر أكتراثه بتوقعاته المسبقة. ونحن كبشر نواجه هذا النوع من الأخطاء على نطاقات واسعة جدا، وإن كنت آمل ألا يُخطأ أي منا زوجه كذكر الحمام سيء الحظ ذاك.

داني "ضاحكا": كم كان موقف ذلك المسكين محرجا.

[193] **رجل الكهف** "مشعلا غليونه": وعليّ الإشارة، قبل أن أنسى،- إلى أن وضع افتراضات وأحكام مسبقة هو أمر لا يقتصر فقط على فهم الواقع وإدراكه فحسب، بل يتعداه إلى وضع افتراضات عن الأشخاص الذين نقابلهم للمرة الأولى أيضا. هذا ما أوضحه أليكس تودوروف بقوله: "عندما نلتقي بشخص جديد للمرة الأولى، فإن أقل من مئة ميلي ثانية كافية لنتخذ قرارا عن الوجه الجديد، ولتحديد ما إذا كان الشخص يبدو جديرا بالثقة أو كفوءا. لا يعني ذلك أن هذه الاستنتاجات صحيحة، ولكننا نقوم بها بسرعة على كل حال." وأظهرت دراسات ألكس أننا نطلق الأحكام على الوجوه بسرعة لدرجة لا تتيح معها أي فرصة لعقلنا الواعي بالتدخل، وعندما يبدأ المنطق بالعمل نشعر بمزيد من الثقة حيال افتراضاتنا حتى ولو كنا على خطأ، فيوضح: "حتى ولو لم نكن ننوي إطلاق الاحكام المسبقة. حتى ولو لم تكن لدينا أية نية لتقييم الوجوه، يقوم دماغنا بتصنيفها في خانات محددة، لذلك يعتبر جزء كبير من هذه العملية اوتوماتيكيا".

لوسيل "مقطبة حاجبيها": إن من المعيب وغير المنطقي أن نقوم بهذا.

[194] **رجل الكهف**: بالنسبة لوعيك إنه كذلك، لكن تذكري أن وعيك هو عبد عند لاوعيك، والأخير لا يكترث لآراء الأول. فعندما شاهدتماني للوهلة الأولى، قام دماغاكما بمحاكمات عقلية لاواعية، قاما فيها بتقييم مظهري، ووجهي، والموسيقى التي أسمعها، والطعام الذي أعده. وقاما بحساب ما يجب عليكما التصرف به، آخذين بعين الاعتبار جوعكما، وحاجتكما للطعام فورا، وإمكانية ان تأويا عندي مقارنة باحتمالية ايجادكما الطعام ومكانا مناسبا لنصب الخيمة في الوقت القصير الذي كان متبقيا لكما قبل حلول الظلام الدامس. وأرسل محصلة كل هذه التقييمات إلى وعييكما على شكل قرار قام باتخاذه آمرا وعييكما بتقريره. ولو أن محصلة هذه الموازنة قد إختلفت جذريا بين دماغيكما، مما كان من شأنه أن يعطي نتائج مختلفة، لوجدتكما تتنازعان بين راغب بالحديث معي، وراغب بالهرب ذعرا مني. وهكذا تختلف آراء الناس.

داني "بتهكم": ودماغك أيضا قد قام بهذا.

رجل الكهف "بوجهه الخالي من التعابير": دون أدنى شك.

[195] **لوسيل** "متعجبة": ماذا تقصد بلو إختلفت هذه الموازنة بين دماغينا؟

رجل الكهف: لو كنتِ مثلا قد مررت بتجربة سلبية مع شخص ذو مواصفات شكلية تشبهني، أو شخص يستمع إلى بينك فلويد، لأعطاكِ دماغكِ تحذيرا أني أشكل مصدر خطر محتمل. مع أني بريء

تماما من التهمة التي وجهها دماغك إليّ، إلا أن القاضي القابع في رأسك لن يهتم لهذه الحقيقة. وسيعتبرني مدانا، ويصدر الحكم عليّ فورا. ولوجدتك والحالة هذه، تتنازعين مع داني الذي قد يكون، على عكسك تماما، قد ارتاح كل الإرتياح لي. ولو استطاع داني، أن يقنعك بأن تُجربا على الأقل حديثا معي لمدة دقائق، لوجدتك ترتعدين خلالها خوفا مني، مع أنه لا علاقة لي لا من قريب ولا من بعيد بذلك الشخص الذي قد مررتِ بتجربة سلبية معه في السابق. والجدير بالذكر، أنك قد لا تتذكرين مطلقا تلك التجربة، لكنها مخزنة هناك، في مكان ما في أعماق دماغك اللاواعي. ولو ارتاح داني تماما للحديث معي، ولم يجد أي مبرر كي لا تبقيا عندي الليلة الماضية. لوجدته قد أخذك جانبا وهو يحاول إقناعك بالأمر. لكن بالنسبة لك، لن تكترثِ لكلامه، لأنه سيكون عندك كل المبررات كي لا تبقي. ولو طلب منك تبريرا لموقفك السلبي هذا، فإنك على الأغلب، إن كنت صادقة، ستقولين لا أعرف، لكني لست مرتاحة لهذا الشخص. وإن كنت غير صادقة، فستخترعين عددا لا يحصى من المبررات كلها غير حقيقية، لكنك ستصرين عليها. وستتوقف درجة عنادك تلك على درجة السلبية في تجربتك القديمة التي لا تذكرينها. ربما ستصل إلى مرحلة أن تهربي مذعورة في اللحظة التي شاهدتِني فيها، وأنتِ تشدين داني معك، محاولةً ألا أشعر بكما. ربما سيصل بك ذلك الذعر درجةً تتخيلين فيها أنه من الممكن لي أن أتقفى أثركما ليلا وأصيبكما بسوء على حين غفلة من عيون كل البشر الآخرين. ومن المحتمل جدا ألا تكوني قد مررت بتجربة شخصية سلبية، بل فقط قد سمعت شيئا سلبيا عن أشخاص بمواصفات تنطبق علي، فسيجنح دماغك إلى الحكم علي بناء على ذلك. رغم أنك على الأغلب لا تذكرين ذلك على الإطلاق، لكن عدم تذكرك لما قد سمعته منذ طفولتك مثلا، لا يعني أنه غير موجود داخل جمجمتك. إن وعيك لا يتذكره، لكنه لا يزال فاعلا في قرارات لا وعيك. لكن الذي حصل، لحسن الحظ، كما قصصتماه علي بالأمس، كان عكس ذلك تماما. ولذا فنحن مجتمعون الآن.

[196] **لوسيل** "مفكرة": إن ما قلته يفسر الكثير من تعارضات البشر في شعورهم حيال أمر ما أو شخص ما. كل منا قد خبر هذا التعارض في الشعور الداخلي مع الآخرين. لكن كيف لدماغي أن يتصرف بهذه الحماقة ليصدر حكما عن شخص لا يعرفه؟

رجل الكهف: هل نسيتِ جدنا المذعور؟ قلت لك إن الوعي بطيء جدا لتقرير الأحكام مقارنة باللاوعي. وعندما تكون حيواتنا على المحك في اتخاذ قرار ما، كالتعامل مع شخص غريب، فإنه ليس من الحكمة أن يتيح دماغنا لوعينا الوقت الكافي للتعرف على هذا الشخص، كي يقرر بعدها بوعي فيما إذا كان هذا الشخص جديرا بالثقة أم لا، هل سيقتلنا أم سيساعدنا. فربما سندفع حياتنا ثمنا لمعرفة الإجابة. وهكذا عمل الانتقاء الطبيعي على حفظ سلاسلات الأشخاص الذين جنحت أدمغتهم إلى القيام بتلك المحاكمات اللاواعية والتصرف على أساسها، وإن كانت غير منطقية. بينما أولئك المنطقيون، دفعوا حيواتهم ثمنا لرجاحة عقولهم، ولم يتركوا أي ذرية تذكر في الحوض الجيني.

[197] **لوسيل** "بتعجب": لكننا لم نعد نعيش في تلك العصور!

رجل الكهف: لكن أدمغتنا كذلك. يقول ديفيد بوس في كتابه *علم النفس التطوري*: "إن البشر- الحاليين مصممون بالضرورة للبيئات السابقة التي هم نتاجها... إننا نحمل دماغا يكاد يكون من العصر- الحجري في بيئة حديثة..." ويقول آلان ميلر و ساتوشي كانازاوا في مقالة لهما في * Psychology Today*: "... أفكارنا ومشاعرنا وسلوكنا يتم إنتاجها ليس فقط من خلال تجاربنا الفردية وبيئاتنا في حيواتنا الخاصة فحسب، وإنما أيضا بسبب ما حدث لأجدادنا منذ ملايين السنين..." فكما أن أجسادنا هي نتاج تلك السنوات الطويلة من التطور، فإن أدمغتنا كذلك، وجهازنا النفسي- أيضا. وهكذا فإن الافتراضات والتعميمات التي كانت مفيدة لأسلافنا للحفاظ على حيواتهم، كما وانتقائيتهم في التعامل مع الأفراد حسب درجة الشبه بهم مما يعني أنهم من الأقارب لا من الغرباء الذين قد يشكلوا مصدر خطر، وغير ذلك من أمور لا مجال لذكرها الآن، قد ورثناها عنهم وبتنا نقوم بها في عالم يجتمع فيه الناس اليوم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم في غرفة واحدة. وكما أشرتُ سابقا، فإن ثواليث القمع قد عملوا تاريخيا، ومازالوا يعملون إلى الآن، على تغذية هذه النزعات فينا. ونحن نتقبل ذلك بسهولة لأنه متأصل في لاوعينا مع أنه غير منطقي على الإطلاق كما أشار جون براغ: "يخطئ حدسنا ودوافعنا في بعض الأحيان. توجد على سبيل المثال الصورة النمطية الثقافية المرتبطة بأشخاص مجتمعات معينة كالاعتقاد أنهم ليسوا أذكياء أو أنهم كسالى. ومنذ الصغر نتعرض لهذه التأثيرات الثقافية من التلفاز أو الأصدقاء أو أهلنا، لتشكل لاحقا تأثيرات ضمنية تتحول الى انحياز لا يجب أن يكون موجودا في دماغنا".

لوسيل "بحزن": هذا صحيح. إنه موجود في كل مكان.

[198] **رجل الكهف**: ويستغل رجالات ثواليث القمع كل هذه القابليات الدماغية عندنا ليروجوا لما يريدون. يستخدمها رجل السياسة ورجل الدين ورجل الاقتصاد كي يلعبوا في قرارات البشر- هناك أفرع متخصصة في علم النفس لكل مما سبق، يتعلم فيها الناس كيف يخدعون العامة ويؤثرون في لاوعيهم لدفعهم إلى تبني أفكار معينة، أو شراء منتجات معينة، أو القيام بصفقات ما، أو أي شيء من هذا القبيل. ناهيك عن أن تكرار فكرة ما على أدمغتنا سيجعل أدمغتنا تعتقد بهذه الفكرة على أنها مسلمة، دون أن نتقصى- وراء حقيقتها. أدمغتنا تجنح إلى الكسل والتراخي. ألا ترين الثقافة الاستهلاكية المنتشرة اليوم؟ ألا ترين نتائج جهود الحملات التسويقية والإعلانية في جميع المجالات وفي كل الأماكن؟ وما من كلام في هذا أصدق مما قاله بيرتراند راسل في كتابه *النظرة العلمية* بفكاهته المعهودة: "إن أموالا باهظة تدفع لمن يبتكر إعلانات حسنة، وهو بهذا جدير. لأن المقدرة على جعل أعداد كبيرة من الناس تصدق ما تؤكده، هي مقدرة قيّمة جدا. تأمل أهميتها مثلا عند مؤسسي الأديان. لقد كان عليهم في الماضي إتباع أقصى- صور الدعاية. وكم كانت حياتهم تصير أمتع وأهنأ، لو أنهم استطاعوا الذهاب إلى وكيل، فاشترى منهم حقوق احترام أتباعهم إياهم، وأعطاهم في مقابل ذلك نسبة

مئوية من الإيرادات الدينية المترتبة على ذلك. ويبدو أنه في ضوء فن الإعلان، يمكن أن يُستنتج أنه عند الغالبية الساحقة، تُدق أية قضية إذا كررت على نحو يثبتها في الذاكرة. فمعظم ما نصدقه لأننا سمعناه مؤكدا، ولسنا نذكر أين أُكد بتصديقنا، وحتى لو كان التوكيد قد قام به مُنتفعٌ بتصديقنا، وحتى لو كان القول غير مؤيد بأي دليل...".

داني "بحزن": صدقت في هذا أنت وراسل.

[199] **رجل الكهف**: إن البشر يختلفون جدا في طرق إدراكهم للواقع، بحسب تجاربهم في الحياة. فلو فصلت أخين توأمين حقيقيين، وجعلت كلا منهما يربى في بيئة مختلفة. فإنهما عندما يكبران سيصبحان متشابهين بالشكل فقط، ولا شيء فيما عدا ذلك. ستختلف تفضيلاتهما للطعام والشراب واللباس، ستختلف نظرتاهما لما هو مشين وما هو معيب وما هو مقبول وما هو غير ذلك، ستختلف نظرتاهما للعالم وتعاطيهما معه وحكمهما على الأمور المختلفة فيه. إن التأثير الجيني المشترك الذي سيؤثر في سلوكهما وأفكارهما ومهاراتهما سيكون أقل وضوحا بكثير من التأثيرات البيئية المختلفة التي خبرهما كلاهما، والتي ستؤثر فيما سبقت الإشارة إليه. لهذا كتب فريدرخ هايك: "ليست كل المعرفة... هي جزء من أعمالنا الذهنية، ولا أعمالنا الذهنية هي الكلُّ لمعرفتنا..." لكنه يضيف إلى المعرفة "كل التأقلمات البشرية للبيئة التي اشتُقّت من التجارب السابقة.".

[200] **لوسيل** "بدهشة ": هل هذا معقول!

رجل الكهف: بكل تأكيد. فالإنسان يصبغ رؤيته على الواقع من خلال دماغه، ويتصرف بناء على هذا الأساس. وهذا الأخير يبني صورة عن العالم محدودة وقاصرة بناء على تكوينه البيولوجي من جهة، ومن جهة أخرى بناء على كل ما مر في حياته من معارف وتجارب وخبرات. إن كلا منا يعيش داخل جمجمته فقط. ولا أريد أن أطيل النقاش عليكما لأثبت لكما فيزيائيا أنه لا يمكن لشخصين أن يشاهدا نفس المنظر على الإطلاق، أو أن يسمعها نفس الصوت على الإطلاق. إضافة إلى أن كلا منهما سيدرك ذاك المنظر أو هذا الصوت بناء على منظوره العقلي الخاص فقط. لكني لا أجد في هذا تعبيرا أكثر دقة مما قاله بيرتراند راسل في كتابه *عبادة الإنسان الحر*: "الحقيقة التي يجب مراعاتها هي أنه في حدود ما أمكن اكتشافه، لا يوجد معطى معينا يدركه اثنان من الناس في نفس اللحظة. الأشياء التي يراها اثنان مختلفان من الناس عادة ما تكون متماثلة وشديدة التماثل بحيث يمكن استعمال نفس الكلمات في الإشارة إليها، وبدونها ستكون الاتصالات بآخرين فيما يتعلق بالأشياء التي يتم إدراكها مستحيلا. ولكن على الرغم من هذا التماثل، يبدو أن هناك بعض الفروق، وهي عادة ما تنجم عن الفروق في وجهة النظر. وبالتالي فإن كل شخص في حدود معطيات حواسه، يعيش في عالم خاص، هذا العالم الخاص يحتوي على فضائه الخاص أو فضاءاته الخاصة، حيث يبدو أن الخبرة تقودنا إلى الربط بين فضاء النظر مع فضاء اللمس والعديد من الفضاءات التي للحواس الأخرى...".

داني "مفكرا": هذا مثير للتفكر.

[201] **رجل الكهف:** قلت لكما، نحن عبيد أدمغتنا التي بنت مفاهيمها عبر سنوات خبراتنا الماضية، وكل ما ندركه من هذا العالم، وكل ما نتصرفه، يتم من خلال ذلك، وفقط من خلال ذلك. خارج حدود غرائزنا، وما يترتب عليها من تصرفات، وأخلاقيات، ومشاعر نشترك بها لأنها ضرورية لحفظ النوع، لا يوجد برنامج مشترك في أدمغتنا يحدد لنا المقبول والمرفوض، الجيد والسيء، المنطقي وغير المنطقي، الحسن والمعيب، وكل ما هو مختلف بين البشر في تلك التقييمات. تلك أمور تمدنا بها ثقافاتنا، أهلنا، مدارسنا، محيطنا، أصدقاؤنا، فلاسفتنا، حكمائنا، رجالات ديننا، قنواتنا التلفزيونية، مجلاتنا، وكل من زرع فكرة أو مفهوما في رؤوسنا، لتتجول لاحقا بحرّية في لاوعينا متحكمة في منظورنا للعالم، وما نطلقه من أحكام وما نصوغه من أفكار. لهذا يقول آلان سنايدر: "ليس لدينا منفذ واعي للطريقة التي يقوم فيها دماغنا بصياغة الأفكار، ما نراه أساسا هو المعلومات بعد أن يتم دمجها لتتشكل أفكارا ومبادئ وتسميات كاملة متكاملة".

داني "مفكرا": هكذا إذا نصنع الناس على مختلف طباعهم وطرق تفكيرهم المختلفة.

[202] **رجل الكهف:** بالضبط. نحن نصنع المجرم ثم نعاقبه، ونصنع الجاهل ثم نسخر منه، ونصنع الفاشل ثم نهزأ به، ونصنع نسخا من الأتباع ثم نتباهى بعددهم. "ماذا؟ أتسعى إلى أن تتضاعف عشر مرات، مئة مرة؟ أتبحث عن مريدين؟ فتّش إذن عن أصفار!" كتبها فريدريك نيتشة في *أفول الأصنام*.

لوسيل "بألم": صدقت.

[203] **رجل الكهف:** لهذا السبب عندما يقول لي شخص ما: "لقد فكرت بعقلي وتوصلت إلى هذا"، فإن ما أسمعه هو: "لقد توصل دماغي لهذه الفكرة بناء على العمل الذي قام به القسم اللاواعي منه، بقدراته البيولوجية المحدودة، بكل ما تحتويه من ميزات تجعل تفكيري غير موضوعي، معالجا الأفكار التي زرعت فيه، بناء على كل ما تم تلقيني إياه سابقا، وكل ما مررت به من تجارب في الحياة." هل هذا يعني بالنسبة لكِ أن هذا القرار هو قرار يجب أن يُؤخذ به على أنه موضوعي، سواء كان هذا القرار تصرفا يقوم به، أم فكرة يقوم بتقديمها؟

لوسيل: كلا بالطبع.

[204] **رجل الكهف:** هذا ينطبق أيضا على الوزن الذي أعطيه لرأي أحدهم عندما يقول لي إن هذا أمر منطقي، أو غير منطقي. مستهجن، أو محبب. معيب، أو شائن. مقبول أو غير مقبول. بديهي، أو طبيعي. صحيح، أو خاطئ. وإلى ما هنالك من أحكام يصدرها الناس على مختلف الأفكار التي قد تطرح عليهم. ومن الجدير ذكره، أنه مهما بلغ عدد من يقومون بالإجماع على رأي ما تجاه قضية معينة، فإن هذا لا يعني، لا من قريب ولا من بعيد، أن رأيهم صائب. وإنما يعني شيئا واحدا فقط، وهو أنه قد تمت برمجتهم بطريقة تجعلهم يجمعون على هذا الرأي. سواء تمت تلك البرمجة بواسطة الانتقاء الطبيعي لقسم الغرائز. أو البرمجة بواسطة الثقافة بالتلقين، أو بواسطة البيئة بالخبرات، لما هو سواه.

داني "موافقا": ملاحظة قيمة.

[205] **رجل الكهف**: إذن نحن لدينا دماغ قاصر جدا في قدراته المنطقية والتخيلية لأنه تطور في الغابات، ليعيش مدة أقصاها نصف طرفة عين، يقوم فيها بالغالبية الساحقة من عملياته في قسمه اللاواعي، معتمدا اعتمادا شبه كامل على ما تحتويه الذاكرة من بيانات. وإن ما يقوم به في قسمه الواعي هو فقط تلك الأفكار والقرارات التي قرر القسم اللاواعي إملائها على القسم الواعي. وإن كل ما يقوم به من عمليات فكرية، ومحاكمات عقلية، محكوم بالضرورة بما تم إدخاله فيه من بيانات سابقة، بغض النظر عن صحة أو موضوعية هذه المعلومات والمفاهيم. دماغ لا يمكن لوعيه أن يقرر منفردا ما إذا كان يريد شرب القهوة أم الشاي، بل هو مضطر للامتثال لما سيمليه عليه لاوعيه حتى في قرار تافه كهذا. هل ترى أية أهلية لهكذا دماغ كي يكون الحكم والفيصل في تقييمه لأي شيء؟ هل ترى أية قيمة للأفكار والخواطر التي سينتجها هكذا دماغ على المستوى الكوني؟

داني "بحزن": كلا على الإطلاق.

[206] **رجل الكهف**: إذن هذا هو جوابي باختصار على سؤالك: "وهل نستطيع الاعتماد على الدماغ لاستنباط أفكار وقيم ومفاهيم ذات قيمة، إذا ما عني به بالطريقة التي خلصنا إليها قبل قليل؟".

داني "بابتسامة": أشكرك.

رجل الكهف: هيا بنا نخرج لنتمشى قليلا في هذه الطبيعة الساحرة.

****

الباب الرابع
في برمجة الأدمغة

(بعد العشاء، جلس ثلاثتهم داخل الكهف يشربون النبيذ ويستمعون إلى موسيقى البلوز)

[207] **لوسيل** "بابتسامة": أعتقد أننا أثقلنا عليك على رجل الكهف. لقد قلنا لك أننا سنغادر في الصباح ولم نفعل. سننام هنا هذه الليلة، وسنغادرك صباح الغد شاكرين حسن ضيافتك ورحابة صدرك.

رجل الكهف "وهو يملأ الكؤوس": ما هو مخطط رحلتكما.

لوسيل: ليس لدينا وجهة محددة، أردنا فقط تمضية الإجازة في الغابة.

رجل الكهف: وها أنتما في الغابة!

[208] **داني:** صحيح، ونحن مسروران جدا بلقائك، إن الحديث معك لا يشبه الحديث مع أي أحد آخر. لكن كما أشارت لوسيل، فنحن لا نريد أن نثقل عليك، ونقتحم خلوتك.

رجل الكهف "وهو يشعل غليونه": إذا كنتما ترغبان في الرحيل من أجلي، فأنا مستمتع بوجودكما معي. لكن إن كان لسبب في نفسيكما، فأنتما بلا ريب أحرار.

لوسيل: في الواقع كلا، فنحن نرغب في الحديث معك أكثر. فرغبتنا كانت تجربة متعة الاستكشاف في هذه الرحلة، والحوار معك هو استكشاف أيضا، لكنه من نوع آخر أكثر ثراء.

رجل الكهف "نافثا الدخان": إذا لا داعي للتفكير في استعمال الخيمة بعد الآن.

لوسيل "بخجل": أنا ممتنة للطفك.

[209] **داني** "مازحا": لكن هل تعدني ألا تسافر بي إلى المستقبل حيث أتوه في الفضاء، وألا أن تذكرني بما يعبر في جسدي ؟

رجل الكهف "رافعا كأسه": أعطيك كلمتي بذلك.

داني "رافعا كأسه بسعادة بالغة": فلنشرب إذا نخب صداقتنا.

(يطرق ثلاثتهم كووسهم قائلين: نخب صداقتنا)

[210] **لوسيل:** كنت أفكر هذا المساء، إذا كانت كل تلك الأسباب التي تحدثنا فيها منذ الصباح تؤثر في طريقة تفكير كل الناس بما فيهم من يُعتبر مثقفا بطريقة او بأخرى، وهنا فكرت ماذا عن الرعايا ؟

رجل الكهف: أولئك المساكين خاضعون بالكلية لكل تلك التأثيرات التي سبقت الإشارة إليها دون أي تحكم واع فيها من قبلهم، إضافة إلى خضوع أدمغتهم المطلق لسيطرة ثالوث القمع. والذي قام ببرمجتها محولا إياهم إلى كائنات غرائزية فقط. عبر تطويره لاستراتيجية معقدة، ذاتية العمل، وتلقائية،

يخضع لها كل إنسان منذ ولادته بشكل آلي.

[211] **لوسيل** "بدهشة": كيف؟

رجل الكهف: هل تذكرين أننا كبشر نمتلك قسم الغرائز بشكل أساسي نتشاركه مع باقي الكائنات، وما يميزنا نحن كبشر في حقيقة الأمر هو قسما المعالجة والذاكرة الكبيران نسبيا.

لوسيل: كيف لي أن أنسى!

[212] **رجل الكهف:** جميل جدا. منذ لحظة ولادتنا يكون قسم الغرائز عاملا بشكل أوتوماتيكي. وفي مراحلنا المبكرة يبدأ لدينا حب التعلم، فضول الأطفال الذي نتشاركه مع غالبية الثدييات. فلو كان لديك رضيع في المنزل وحيوان أليف، لوجدت كلاهما يثار انتباهه لبعض الأمور على قدر المساواة، ويثار فضوله ليتعرف على ما يوجد حوله بنفس القدر تقريبا. إن طفلك الذي يرمي كأسا زجاجيا فيكسره هو ليس بشرير، إنه يتعلم. ويستغرب أشد الاستغراب كيف أن الكأس قد انكسر، بينما الكرة المطاطية، على سبيل المثال، لم تنكسر. هذا المستوى الذي نتشاركه مع الثدييات الأخرى، قبل أن نبدأ بالافتراق عنهم ويبدأ الطفل بالمراحل الأكثر ازعاجا للأهل، وهي طرح الأسئلة المتكرر. أسئلة الماهية والكيفية وغيرها بمراحلها المختلفة التي خبرها كل من رعى طفلا. هنا يبدأ قسما المعالجة والذاكرة الناميان بالعمل دون توقف. وهنا يبدأ الدور الفعلي للقمع الفكري. كم هي نسبة الآباء والأمهات الذين يتعاطون مع هذه الأسئلة بموضوعية وبروح علمية حقيقية؟ كم هي نسبة أولئك الذين يجيبون أبناءهم إجابات صحيحة مبسطة تتناسب ومستوى إدراكهم؟ كم هي نسبة أولئك الذين يقولون لأبناهم "إن سؤالك هذا ذكي حقا وأنا لا أعرف إجابة له، سنذهب غدا الى المكتبة او الى المتحف او الى فلان من الناس لنبحث عن الإجابة سويا"؟ كم نسبة هؤلاء مقارنة بنسبة من سيجيبون أبناءهم إجابات نمطية ساذجة، وعلى الأغلب غير صحيحة او سيسكتون أبناءهم بمنعهم عن اثارة المزيد من الأسئلة، أو حتى يقومون بعقابهم إذا كان السؤال محرجا او يمس ما يعتبره ذلك المجتمع خطا أحمر؟

لوسيل "بتعجب": إذن إنها غلطة الأهل وليست مسؤولية ثالوث القمع.

[213] **رجل الكهف:** من جهة يمكنني التأكيد أنها مسؤولية الأهل المباشرة. فالفرد منهم يتعلم استعمال أي جهاز يشتريه، لكنه يقوم بإنجاب إنسان جديد إلى الحياة بقمة اللامبالاة كأي حيوان آخر، دون أن يتعلم أي شيء عن الأطفال وأسس تربيتهم ورعايتهم. أقل ما يمكنني أن أصف به هذا التصرف هو أنه أشنع جريمة يقوم بارتكابها الأفراد. إنها أشنع جريمة قد يقوم بها أي منا، وببساطة لا يوجد قانون حتى الآن يجرم هذا الفعل. إنها جريمة قانونية، بل ومباركة ومؤيدة من الجميع تقريبا. إن هذا ضرب من الجنون الخالص.

لوسيل "مقاطعة": أوافقك الرأي.

[214] **رجل الكهف:** لكن من جهة أخرى، كيف تضعين اللوم على الأهل وكأنهم آلهة؟ هل نسيتِ أنهم هم

الرعايا داخل الغرف؟ إنها مسؤولية ثالوث القمع الذي يقوم بشكل ممنهج، على مر الأجيال، بالعمل على تقييد قسمي الذاكرة والمعالجة، اللذان يميزاننا كبشر عن باقي الحيوانات، وتغذية قسم الغرائز وتوجيه طاقة الدماغ الكلية نحوه. والنتيجة أننا نعيش عبر الأجيال في مجتمعات من الحيوانات البشرية. لذا فإنه من النادر أن تسمعي شخصا يقول لك إنه يريد دراسة كل ما يتعلق بالأطفال، وتجهيز كل المستلزمات المادية لهم، والتخطيط لمستقبلهم، قبل التفكير بمجرد إنجابهم. لكنه هو نفسه يتعلم قيادة السيارة، ويتدرب على القيادة وقتا طويلا، ثم يجهز للسيارة موقفا آمنا، قبل التفكير بشراء واحدة. إنك غالبا ما تسمعين شغف الناس بإنجاب الأطفال ضاربين بعرض الحائط أي اعتبار آخر. وإذا ما سالتِ أحدهم كيف سيربى ذلك الطفل، سيكون الجواب التقليدي: "سيربى كما ربينا وكما ربي جميع الأطفال من حولنا"، أليس هذا الجواب يعني ضمنيا "ليس لدي أدنى فكرة عما تتكلم عنه"؟ أليس هذا هو بالضبط ما سيقوله لك أي حيوان آخر، لو قُدّرت له إمكانية الإجابة على ذات السؤال؟ إنه يجيبك وكأنه قد رُبّي أفضل تربية في العالم. ولذا فتقليديا ستكون الجدات والعمات والخالات والأمهات هن مستشاراته، وكأنهن مختصات بتربية الأطفال بالخبرة التي كسبنها سابقا. ولو أشرتِ لهذه النقطة، فأنت ستضعين نفسك في مأزق. حيث سيتضح ضمنيا أنكِ غير موافقة على طريقة تفكير هؤلاء، وأنكِ تعتقدين أنهن غير مؤهلات كفاية، وأنهن يقمن بتكاثر حيواني. وهنا سيقف الجميع ضدك بدعم من ثالوث القمع شخصيا. فإفهام الناس هذه النقطة ستجعلهم يشعرون بسيطرة ثالوث القمع عليهم وأنه قد قام بتجهيلهم وجعلهم كائنات غريزية فقط.

[215] **داني**: بكل تأكيد، إنه من المعيب جدا أن تشير إلى ذلك. فهذا يشير ضمنيا الى عدم ثقتك بمن يفترض فيك أن تحترمهم، وأنك تراهم غير كفؤ. لا يوجد إنسان يقبل بسهولة أن يشار إليه على أنه غير قادر على تحمل مسؤولية إنجاب طفل وتربيته التربية السليمة.

[216] **رجل الكهف**: لكن أحدهم لن يتحرج في الاعتراف أنه لا يستطيع إجراء عملية جراحية أو حتى قيادة حافلة، او غيرهما من الأمور التي تعتبر مهنا تحتاج إلى دراسة متخصصة. لكن ولأن إنجاب الأطفال لم يعتبره ثالوث القمع أمرا يحتاج إلى رخصة، فبات الجميع يعتقد أنه مؤهل للقيام به كأي أمر بيولوجي آخر كالأكل وممارسة الجنس. فكما أن هذين الأمرين لا يحتاجان -من وجهة نظرهم- إلى تدريب ورخصة، فكذلك إنجاب الأطفال.

لوسيل "مقاطعة": تحليل صائب.

[217] **رجل الكهف**: هذا ناهيكِ عن أن ثواليث القمع، قد عمدت تاريخيا لتشجيع إنجاب الأطفال، ولم يحصل العكس في بعض المناطق إلا مؤخرا جدا. هناك أدلة واضحة على ذلك عبر التاريخ كله منذ أقدم الكتابات التي حصلنا عليها. خذي مثلا نصا سومريا معروفا باسم *جلجامش وإنكيدو والعالم الأسفل* ففيه إشارة واضحة إلى أن حال الميت مرهون بعدد أطفاله. فنجد أن "... الذي أنجب ولدا واحدا... ساجد عند الجدار يبكي بحرقة." بينما "... الذي أنجب ولدين... يسكن في بيت من الآجر

ويأكل الخبز." أما "... الذي أنجب ثلاثة أولاد... إنه يشرب من ينابيع الأعماق." و "... الذي أنجب أربعة أولاد" فإن " قلبه مبتهج..." وإن "... الذي أنجب خمسة أولاد" فإن "يده مبسوطة كالكاتب الطيب" ويتابع العد ويزداد تحسن حال الميت في العالم الأسفل بزيادة عدد أبناءه، دون وجود أي إشارة إلى أن ذلك مرهون بتربيتهم تربية جيدة أو ضمان معيشة حسنة لهم، بل فقط تكاثر كالحيوانات تماما.

[218] **لوسيل** "بتعجب": لكن لماذا؟

رجل الكهف "وهو ينفث دخان غليونه": لأن زيادة عدد الأبناء تعود بمزايا عديدة على ثالوث القمع تبدأ من إلهاء الرعية بهم، وتنتهي بزيادة أعداد من سيدافعون عنه ويضحون بحيواتهم من أجله.

[219] **داني** "مفكرا": لكن ألا تؤدي تلك السياسة المستهترة إلى مجتمعات أقل جودة، مما يحمّل ثالوث القمع تكلفة إضافية؟

رجل الكهف: نعم بالطبع، لكن لا يمكنك الحصول على كسب مالم تدفع ثمنا. وهذا ثمن زهيد بالنسبة لثالوث القمع، مقابل الكسب الكبير الذي يحصل عليه من خلال التحكم بالناس بتوجيههم غرائزيا كما وزيادة أعدادهم. لم يكن بإمكان ثالوث القمع التحكم بالناس عبر طريق آخر، كما أنه أقل الطرق تكلفة وأسهلها. فنحن بالنتيجة كائنات بيولوجية، وقسم الغرائز عندنا يعمل بالضرورة، وتنشيط هذا القسم هو أسهل بما لا يقاس من كبحه.

[220] **داني**: إذا تبدأ المشكلة مع التكاثر الحر، وقيام الرعايا بتنشئة المواليد بواسطة تربية عشوائية.

[221] **رجل الكهف**: لا يقف الأمر هنا، بل نجد لكل مجتمع عادات وتقاليد صارمة، كثير منها قد تم تطويره من قبل الأسلاف لكنه لم يعد مفيدا مطلقا للأجيال اللاحقة. وهنا يجد الوليد نفسه مكبلا بقيود من الأعراف والعادات والتقاليد والطقوس الدينية لا يفهم لها معنى، بل وتكرر على مسامعه أمثال وحكم شعبية كثيرها يحوي معاني مدمرة. كما أن قسما كبيرا من كل ذلك قد فقد معناه لدرجة أن يسأل الطفل أهله عن معنى هذا الأمر أو الحكمة منه، فيراهم غير عارفين للإجابة. ومع ذلك فهم جميعا مضطرون للامتثال لهذه التقاليد والأعراف. فكم يصدق فيهم قول ديفيد أركوهارت في كتابه "كلمات مألوفة": "... الرجال عندما يربطون عقدا لا يفكونها أبدا. لكنهم يوثقون أنفسهم بها وأبناءهم من جيل إلى جيل." وهكذا يجد هذا الكائن المسكين نفسه مكبلا بعدد لا ينتهي من الأفكار، والتي لا يحق له التساؤل عنها، وإن فعل فسيتم قمعه وإسكاته. وهكذا يقوم الأهل، عن جهل منهم، بتجهيز الطفل كما يريد ثالوث القمع.

[222] **لوسيل**: ولا ننسى التلفاز وغيره من الأمور التي تقوم ببرمجة عقول الأطفال.

رجل الكهف: هذه أدوات مثالية حديثة العهد يستعملها ثالوث القمع لبرمجة عقول الناس. ونحن نساعده كأهل في مهمته تلك بتعويد أطفالنا عليها منذ نعومة أظفارهم. فأصبحنا نرى غالبية الأطفال

يقضون جل وقتهم جالسين كالبلهاء متلقين ما يعرض لهم على الشاشات، فيعتادون أن يكونوا متلقين لأي شيء يعرض لهم، وبهذا نكون قد دققنا آخر مسمار في نعش عقولهم الفتية الشغوفة للمعرفة، ببرمجتها على أن تصبح بالوعة تستقبل ما يدخل إليها بجبور دون القيام بأي تفكير.

[223] **لوسيل** "بحزن": صحيح تماما. كيف سيفكر الطفل إذا كان أهله يجبرونه على القيام بأمور لا يفهم لها معنى وإذا ما سألهم فسيقمعون سؤاله، وإذا ما حاول اللعب والاستكشاف فسيجلسونه ويضعون أمامه شاشة يتلقى منها دون أن يستطيع التفاعل معها، كما ويجبرونه على القيام بتصرفات او الالتزام بقوانين لا يفهم لها مغزى. حتما سينشأ هكذا إنسان بليدا محدود التفكير يصدق كل ما يسمع، وينفذ كل ما يطلب منه. لا يجرؤ على التفكير واثارة التساؤلات، ولا على التجريب والاكتشاف.

[224] **داني** "بحماس": لكنه سيدخل المدرسة! وهناك سيتعلم أمورا مختلفة، ويغدو إنسانا واعيا.

رجل الكهف: تقصد أنه سيبدأ في برنامج متكامل لقولبة عقله كما يريد ثالوث القمع، وحشوه بالمعلومات التي يرى الثالوث انه يجب حشوها في عقول الرعايا.

[225] **داني** "بتعجب": هل انت ضد التعليم المدرسي؟

رجل الكهف: كلا مطلقا، بل على العكس، أريد أن يدخل جميع الرعايا الى المدارس وبعدها الجامعات والتعليم العالي. ولا أشجع مطلقا أي شخص أن يتجاوز هذا في حياته مهما كلفه الأمر. لكن أن تعتبره بسذاجة على أنه تثقيف للرعايا ومساعدتهم على بناء عقلية حرة شغوفة بالمعرفة واعية مثقفة. فهذا ما أراه مثيرا للسخرية، فهو بالضبط ما يروج له ثالوث القمع بين الرعايا.

داني "بعصبية": لم أفهم تناقضك هذا.

[226] **رجل الكهف:** النظام المدرسي هو أداة طورها ثالوث القمع ليبرمج عقول الناس. حيث يقوم بتعليمهم ما يراه مناسبا لمصلحته هو، لا لمصلحتهم هم. على سبيل المثال، هل تعتقد أنك تدرس التاريخ الحقيقي في المدرسة، أم التاريخ كما يُراد لك أن تعرفه؟ هل تعتقد أنه يتم اطلاعك على النظريات العلمية بحيادية، أم على العلوم بما يتوافق وما يُراد لك معرفته عنها؟ لا شك أن ثالوث القمع يريد تعليمك. فهو يريد أشخاصا قادرين على العمل في المجتمع لخدمة مصالحه، فهو يعلمك في حدود ما يخدم هذا الغرض فحسب. إنه يريد أناسا من مختلف الاختصاصات، فلا بد من تعليم هذه التخصصات للرعايا، وإلا فمن أين له بمهندسين وأطباء ومصرفيين وما الى هنالك. وكيف له أن يقوم بأدلجة الرعايا إن كانوا لا يستطيعون قراءة ما ينشره بينهم من مطبوعات، وإن لم يتعلموا التاريخ والسياسة ومختلف الأفكار كما يُراد لهم أن يعرفوا منها. هل نسيت أن الخارجين ينشرون بينهم أفكارا يريد ثالوث القمع مواجهتها؟ لقد فرضت الحتمية التاريخية على ثواليث القمع إقامة النظام التعليمي الممنهج لمواجهة التعلم الحر ولمواجهة الأفكار التي لا يرغب بها. إنها ضرورة تاريخية وليست خيارا حرا بالنسبة له. فهو قد كان في السابق يعمد إلى تعليم حفنة من المهنيين الاختصاصات التي تحتاج إلى دراسة، بينما يغرق باقي

المجتمع في أمية وجهل مطبق. لكن تدريجيا لم يعد دوام هذا الحال ممكنا منذ أن بات الرعايا قادرين على الاتصال بالغرف الأخرى بحرية والتعرض لمفاهيم جديدة لم يعتادوها، ومقارنة أنفسهم بغيرهم. لأنه كما قال جورج أورويل في رواية *1984*: "... الجماهير لا تثور من تلقاء ذاتها مطلقا، كما أنها لا تثور لمجرد تعرضها للاضطهاد. ومالم تتح لها إمكانية المقارنة بين أوضاعها الراهنة وبين أوضاع أخرى، فإنها لن تدرك أبدا حقيقة كونها مضطهدة...".

لوسيل "بدهشة": نقطة هامة فعلا.

[227] **رجل الكهف**: فطور ثواليث القمع تدريجيا استجابة ذكية لذلك بتأسيس برامج لغسيل الأدمغة أكثر تطورا من مجرد ترك المهمة للأهل ولبعض المربين، وأخضعوا لها الغالبية الساحقة من الرعايا إلزاميا. وعندما طُوِّرت هذه المنظومة، طُوِّرت تماما كما نصح الفيلسوف يوهان فيتشة، بان تكون برنامجا متكاملا يهدف إلى تدمير المشيئة الحرة للفرد، كي يُضمن أنه لن يستطيع أن يفكر في حياته كلها بطريقة تخالف ما بُرمج عليه. ناهيك عن أن هذه الاستراتيجية قد آتت أُكلها من ناحية أخرى أيضا، فالتعامل مع أميين مغرقين في ظلمات الجهل هو أمر لا يطاق في ظل التقدم الحضاري، إن هؤلاء عالة على سيدهم. تخيل لو كان جميع من في المجتمع أميين، كيف يمكن لثالوث القمع أن يستفيد، في مجتمع معاصر، من أشخاص جل ما يمكنهم فعله فقط هو الأعمال البدائية اليدوية؟ إن البراعة الحقيقية تكمن في أن تجعل هؤلاء الأميين يتعلمون ما تريد لهم أن يتعلموه، فيعتقدوا أنفسهم فاهمين، بينما هم في الحقيقة قد تمت برمجتهم تماما كما تبرمج الروبوتات.

داني "مذهولا": ملاحظة قيمة.

[228] **رجل الكهف**: انظر ما قاله نيكولاي بوخارين وأوجين بريوبراجنسكي في كتابهما *ألف باء الشيوعية*: " ومن بين وسائل القمع الفكري التي تملكها الدولة الرأسمالية، ثلاث تستحق الذكر: المدارس الرسمية والكنيسة الرسمية والصحافة الرسمية أو شبه الرسمية. البرجوازية تدرك تماما أنها لا تستطيع السيطرة على الجماهير الكادحة بواسطة العنف الخالص. يجب السيطرة على عقل العمال، حتى كأنه في شباك العنكبوت. الدولة البرجوازية تنظر إلى العمال وكأنهم دواب تكدح. ويجب على هذه البهائم أن تعمل ولكن بشرط ألا تعض. لهذا السبب، لا يمكن الاكتفاء بضرب هذه البهائم أو قتلها إذا حاولت أن تعض، وإنما تدريبها وترويضها أيضا، تماما كما تروّض الحيوانات المفترسة على يد المدربين. بنفس الطريقة، تملك الدولة الرأسمالية مدربين وظيفتهم أن يخدروا ويدجنوا البروليتاريا. وهؤلاء هم الأساتذة والمعلمون والإكليروس والكتاب والصحفيون البرجوازيون. في مدارس الدولة، يتولى هؤلاء الاختصاصيون تعليم الأطفال منذ الصغر إطاعة رأس المال والنفور من «المتمردين». وهكذا تُحشى أدمغة الأطفال بالخرافات عن الثورة والحركة الثورية. ويمجدون الأباطرة والملوك وكبار الصناعيين. وفي الكنائس، يبشر القساوسة الذين يتلقون مرتباتهم من الدولة بأن الله هو مصدر كل السلطات. ويوما بعد يوم، تردد الصحف البرجوازية هذه الأكاذيب بينما تعمد الدولة الرأسمالية إلى منع

الصحافة العمالية في معظم الحالات... الدولة البرجوازية، باختصار، ترمي إلى تثقيف العمال بحيث يشبهون الحيوانات الداجنة التي تعمل كالأحصنة وترتضي بأقل قدر ممكن من الغذاء." وإني إذ أقتبس هذا بحرفتيه، إلا أنني لا أريد حصر- نفسي- بها. بل إني أرمي إلى الإشارة إلى أن ما ذكر فيه، هي استراتيجيات يستخدمها ثواليث القمع على اختلاف أشكالهم، وإن لم يكن جناحهم الاقتصادي موسوما بالرأسمالية المقيتة، والديني موسوما بالمسيحية. فثواليث القمع موجودة بمختلف الأشكال والألوان. وما نماذجها المتنوعة عنا ببعيدة. فعليك، لكي تكون أكثر موضوعية وشمولية، وأقل تحيزا وقصورا، استبدال المفردات الملائمة ب "ثالوث القمع" والأخرى الملائمة ب "الرعايا".

دالي "شارد الذهن": فهمت مقصدك تماما، إلا أني أفكر في الكلام، فهو عميق جدا وواقعي.

[229] **رجل الكهف**: ثم إن هذا النظام المدرسي مبني على حشو دماغ الطفل بمعلومات كي يقدم بها امتحانا يجيب فيه على الأسئلة كما يراد منه كي ينتقل للمرحلة الأعلى، حيث ينسى- كل ما تعلمه في تلك المرحلة السابقة. فهو مبني على طريقة تشبه ألعاب الفيديو، الهدف هو الانتقال الى المرحلة الأعلى فقط، وليس الهدف هو التعلم من أجل التعلم لبناء المجتمع. وإن قواعد هذه اللعبة بسيطة جدا، احفظ ما هو مكتوب هنا، كرره في الامتحان، مبروك لقد نجحت. وهذه شهادة تثبت أنك استطعت تكرار ما قلنا لك بنسبة مئوية من الدقة قدرها كذا، هيا بنا الى المرحلة الأعلى، ويستمر هذا الوضع إلى أعلى المراحل. مما يخرج من الجامعات، من ضمن من يخرج منها، أساتذة يقومون بتدريس الطلاب بنفس الطريقة، معظمهم لا يفقه ما يتكلم عنه، يردد للطلاب ما هو مكتوب في الكتاب ويطالبهم بإعادة ذلك على أوراق الامتحان، وهكذا دواليك جيلا بعد جيل.

لوسيل "بتركيز": هذا توصيف دقيق.

[230] **رجل الكهف**: ناهيك عن أن المدرسين بمعظمهم يقومون بعملهم هذا من أجل حفنة من المال يقتاتون منها، المال هو حافزهم، لا بناء أجيال المستقبل. دعكِ من العبارات الفارغة التي يرددها الجميع، انظري إلى الواقع. الطالب بالنسبة للمدرس حفنة من المال، ليس رجل المستقبل. والمريض في نظر الطبيب حفنة من المال، ليس إنسانا يستحق الشفقة والرحمة. ويرى كل من المحامي والقاضي ورجل الشرطة المظلومَ حفنةً من المال، ليس مسكينا يحتاج إلى مساعدة. عندما تسألين التاجر عن نصيحته في أي المنتجات هي الأفضل من بين الخيارات المتاحة في متجره كي تشتريه، فإن ما يسمعه منكِ هو "أي منتج من بين هذه البدائل المختلفة يحقق لكَ هامش ربح أعلى، أو إنكَ تريد التخلص منه قبل غيره؟" ويجيبكِ على هذا الأساس، وهكذا دواليكِ بالنسبة للجميع. هذه إحدى تجليات النظام التعليمي المبني على التنافس بأنانية بطريقة ألعاب الفيديو. ولها أسباب أخرى كثيرة طبعا. هذا ولا بد توجد استثناءات، فلا يجوز التعميم في كل ما أتكلم عنه، لكني أتكلم عن الحالات العامة.

[231] **لوسيل** "بتعجب": أليس هذا سببه الرأسمالية التي استشرت في العالم كالسرطان؟

رجل الكهف: لا شك مطلقا في ذلك. لقد قلت للتو أن له أسبابا أخرى، لكن ما رميت إليه هنا

هو أننا ننهج في تعليمنا الأطفال نهجا تنافسيا، وهذا ما أرفض تأسيسه في الرعايا. لأنهم إن شبوا عليه في مدارسهم، فمن الطبيعي أنهم سينهجونه لاحقا في حيواتهم، وعليه تكون النتيجة الطبيعية لذلك ما وصفته قبل قليل. ولقد أشار ألبرت آينشتاين لهذا في كلمة عن التربية ألقاها في نيويورك، عام 1936 بقوله: "... إن العمل على ان ينال إنتاجنا استحسانا وتقديرا، حافز سليم، ولكن أن نتحدى زميلا باعتبارنا أفضل أقوى وأكثر ذكاء منه، أمر يؤدي إلى معايرة سيكولوجية غاية في الأنانية، قد تكون وخيمة العاقبة على الفرد والمجتمع. ولذلك ينبغي على المدرسة ألا تلجأ إلى هذه الوسيلة الرخيصة لخلق الطموح وحمل التلاميذ على الاجتهاد في العمل.".

[232] **داني**: أوافقك الرأي في هذا، لكن عودة إلى ادعائك أنه برنامج لغسيل الأدمغة وبرمجتها، إني لازلت أذكر أن بعض الأسئلة في الامتحان كانت تقول ما هو رأيك، أو علل رأيك في هذا الأمر.

رجل الكهف: نعم هذا الفخ اللطيف، هل كنت تجرؤ على الإجابة بما هو خارج الكتاب وتنال النجاح؟ وإن كان الموضوع فيه ما قد يمس أحد أركان ثالوث القمع، هل كنت تجرؤ على التفكير بكتابة ما قد يجول في ذهنك من رأي خاص لم يقال لك في المدرسة؟

لوسيل: كلا، لازلت أذكر كيف كان المدرس يخبرنا بما يجب علينا الإجابة به على هذا النمط من الأسئلة كي نضمن النجاح. وحتى ان كان الموضوع علميا خالصا، كالرياضيات على سبيل المثال، لم نكن نجرؤ أن نقوم ببرهنة الإجابة بغير الطرق التي تم تدرسيها لنا، والا فنحن نخاطر بالنجاح في الامتحان.

[233] **داني** "بحماس": لقد ذكرتني إشارة لوسيل الآن الى الرياضيات، بتلك القصة الشهيرة لجورج داتنزيج عام 1939 في جامعة بيركلي. عندما تأخر مرة عن محاضرة للبروفيسور جيرزي نيمان، ليجد مسألتين مكتوبتين على السّبّورة، فاعتقد انهما واجبان منزليان على الطلاب حلهما. ليكتشف بعد قيامه بحلها أنه قد حل مثالين على مسائل رياضية مفتوحة، أي لم يحلها أحد من قبل.

[234] **رجل الكهف**: فعلا إنها قصة مثيرة للتأمل جدا، وقد تم تسويقها كثيرا على أنها مثال للتفكير الإيجابي، لكني أراها من زاوية أخرى. فليس التفكير الإيجابي هو ما دفعه الى حلها. لقد كان يعتقد "أن عليه حلها"! ولم يكن يعرف أنهما من أكثر النماذج الإحصائية شهرة، التي لم يتمكن أحد من إثباتها رياضيا، وعندها قال لنفسه "أنا أثق أن بإمكاني حلها". لو أن ذلك هو الذي حصل، لاعتبرته تفكيرا إيجابيا وثقة بالنفس. ألم يقل مصطفى خليفة في *القوقعة*: "... البطل لا يمكن أن يكون بطلا لسلوكه طريقا بالإكراه."؟ وداتنزيج بنفسه قد قال أكثر من مرة إن قصته يتم المبالغة في طرحها للجمهور وإعادة صياغتها مرارا وتكرارا.

[235] **داني** "مفكرا": إذا لو أنه حضر مبكرا، وسمع ما قاله البروفيسور نيمان، لما فكر بحلها على الأرجح.

رجل الكهف: هذا ما أعتقده. في الواقع لا أحد يعرف، ولا حتى داتنزيج شخصيا، فيما كان يمكن أن

يحصل لو أنه لم يتأخر. لكن الواقع يقول، أن هناك عددا لا يحصى من الطلاب والمدرسين قد كرروا نفس هذين المثالين تكرارا أعمى، على أنهما مسائلتان غير قابلتان للحل. بينما اتضح أنهما ليسا كذلك. فلك أن تتخيل كم من أمور يتم تناقلها على نحو أعمى داخل السلك التعليمي.

[236] **داني** "بحماس": تذكرت مثالا آخر في الرياضيات أيضا. وهو اكتشاف الطالب روبرت غاريستو من جامعة شيكاغو عام 1987 لخطأ ارتكبه نيوتن في عمله العظيم، المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية.

[237] **رجل الكهف** "مشعلا غليونه": هل لاحظت يا عزيزي، لقد ذكرت مثالين فقط، أحدهما من جامعة بيركلي حصل في سنة التخرج بدرجة الدكتوراه، والآخر في جامعة شيكاغو بعد ثلاثمائة عام بالتمام والكمال، من نشر كتاب يعد من أشهر وأهم ما أنتج الفكر الإنساني على الإطلاق. فكيف لم يلحظ هذين الأمرين، ومثلهما أمثلة كثيرة، عدد لا يحصى ممن قد اطلع عليهما مسبقا من أهم العقول في هذا المجال أو ذاك في العالم؟ السبب ببساطة هو أن النظام التعليمي تلقيني. وإذا كنتَ قد ذكرتَ مثالين من الرياضيات والتي لها من الحياد والتجرد ما ليس لأي فرع آخر من فروع المعارف الإنسانية، فلك أن تتخيل كمية ما قد يتم تحريفه ثم تلقينه في الفروع المعرفية الأخرى، الأقل تجريدا وحيادية، وخاصة عندما تكون أمورا تلامس أحد أركان ثالوث القمع. وإذا كانت مثل هذه الأمور تحصل في أرقى جامعات العالم، وفي أعلى المستويات الدراسية، كالمثالين المذكورين، فلك أن تتخيل ما يحصل في المدارس العادية والجامعات التقليدية في الدول النامية. هل لك أن تتخيل حجم الكارثة؟

داني "بحزن": لا أريد أن أتخيل.

[238] **رجل الكهف** "بحزم": بل عليك ذلك إن كنت تريد أن تفتح عينيك! اسمع ما ذكره أحد أعظم العقول التي عاشت يوما، وأكثرها ثقافة وموسوعية، وهو بيرتراند راسل، في سيرته الذاتية عن أيام دراسته في كامبردج: "كانت كامبردج هامة في حياتي، لأني أدين لها بما كونت من صداقات، وبما اكتسبت من خبرة بالمناقشة الفكرية. ولكنها لم تكن هامة من ناحية التعليم الأكاديمي الفعلي. ولقد تكلمت فيما سبق عن تعليم الرياضيات وفساده، كما أن كل ما تعلمته من فلسفة يبدو لي الآن خطأ. ولقد قضيت سنوات طويلة بعد تخرجي أحاول أن أتخلص بالتدريج من عادات التفكير التي اكتسبتها هناك. وكانت العادة الوحيدة في التفكير التي اكتسبتها والتي كان لها قيمة حقيقية هي الأمانة الفكرية... فلست أذكر مثلا واحدا لمدرس استاء عندما أوضح له تلميذ من تلاميذه أنه كان على خطأ..." فإذا كان هذا ما قاله فيلسوف بقيمة راسل عن تجربته الشخصية في أحد أهم الصروح التعليمية على وجه الأرض قاطبة، فماذا تتوقع مني أن أقول عما دون ذلك من مراكز تعليمية بسيطة، والتي تنتفي فيها الميزة الوحيدة التي وجدها راسل في كامبردج؟

داني "بحزن": إن مجرد التفكير فيما تقول يصيبني بالدوار.

[239] **رجل الكهف**: لهذا قلت لكما إن النظام التعليمي هو منظومة تقوم بتجهيز الأفراد ليصبحوا نسخا

متشابهة بما يتوافق ومصلحة ثالوث القمع، تم إلباسها لباس اللعبة، تكون إلزامية في نصفها الأول، ثم يتم تسليم إلزاميتها إلى قسم الغرائز في نصفها الثاني.

[240] **لوسيل** "بدهشة": ماذا تقصد؟

رجل الكهف: السباق من أجل الألقاب والمناصب. ألم تري كيف أن الألقاب والفرص الوظيفية هي ما يحفز الناس على متابعة الدراسة الأكاديمية. ألم تري أن معظم الأهل الذين يريدون لأطفالهم متابعة التعليم، يقومون بحثهم منذ نعومة أظفارهم على الظفر بلقب ما في شبابهم؟ ولهذا السبب تجدين قلة منهم يبدعون في مجالاتهم لاحقا، فهم قد أصابوا الهدف. وما عملهم اللاحق الا وسيلة لكسب المال والتنافس عليه. المال هو الحافز الذي يبقى لديهم بعد الظفر بذلك اللقب. وهنا يتساوى الجميع في حوافزهم، ويمضي جميع أفراد المجتمع في سباق محموم في محاولة للحصول على قسم أكبر من الكعكة.

[241] **داني** "وهو يصب المزيد من النبيذ في الكؤوس": تقصد كسب المزيد من المال.

رجل الكهف: طبعا، لكن أوراق البنكنوت المطبوعة محدودة بالنتيجة، هي ليست لانهائية. فهي كالكعكة والجميع يحاول أخذ ما أمكنه منها. فيقضون حيواتهم يتبادلون فتات الكعك ويكتنزون ما أمكنهم اكتنازه، ليأكله النمل والجرذان لاحقا.

[242] **داني** "باستغراب": لكنك في نفس الوقت قلت إنك تشجع الجميع على متابعة الدراسة إلى أعلى المراحل الدراسية الممكنة!

رجل الكهف: صحيح، فهي الطريقة الوحيدة المتاحة للتعلم أمام الأطفال، وأن يتعلم الأطفال خيرٌ من ألا يتعلموا. كما أني أريد لأبناء المجتمع أن يُجيدوا أعمالهم، التي وإن كانوا يقومون بها على الأغلب بهدف المال لا لأي هدف آخر، فإن أقل الأضرار هو أن يقوموا بها بإتقان، وهذا ما قد يكسبهم إياه التعليم المنظم. ناهيك عن أن الفرص قد تتاح أمام من تابع دراسته لمراحل متقدمة في أن يصادف ما قد ينير عقله ويجعله يخرج من الغرفة ويصعد البرج. وإن كان هذا ليس شرطا، لكنه يزيد من الاحتمال نظريا. وهناك العديد من العوامل الأخرى التي تدفعني للحث على متابعة التعليم. لكن لا التربية ولا النظام التعليمي هما موضوعانا لهذه السهرة. لذا ولكيلا يساء فهمي أقول اختصارا: أنا لست ضد التعليم المدرسي، أنا ضد أساليبه التي تتبع في أماكن كثيرة، وضد اعتباره تثقيفا للرعايا. إنه تعليم مهني بأفضل أحواله لا أكثر.

[243] **لوسيل** "بتعجب": لكين كيف للألقاب أن تكون جزءا من قسم الغرائز، لم أفهم هذا.

رجل الكهف: عندما نرى الشاب يعمل جاهدا على ادخار المال لبناء منزل جميل، وتجهيزه بأفضل حال ممكن، هو يفعل ذلك، دون وعي منه على الأغلب، ليجتذب قرينة ذات مستوى أعلى مما كان بإمكانه اجتذابه لو لم يملك منزلا فاخرا، أو هو يفعل هذا ليحافظ على قرينته الحالية. هذا بالضبط ما تفعله العديد من فصائل الطيور التي تعتمد الزواج الأحادي. حيث يبني الذكور أعشاشهم محاولين بذل

أفضل جهد ممكن فيها، لتأتي الإناث وتقبل التزاوج مع ذوي الأعشاش الأفضل. وذلك الشاب الذي يحاول أن يلبس أعلى الثياب ويركب أجمل السيارات، يفعل ذلك لنفس السبب، وهذا بالضبط ما يفعله الطاووس والديك على سبيل المثال. نحن لدينا تراتبية هرمية نفهمها تمام الفهم، وكذلك الشمبانزي.

[244] **لوسيل** "مقاطعة": ما هي الحكمة من ذلك؟

رجل الكهف: عدد الرعايا في أي غرفة محدود، ولذا فإن سباقا محموما بينهم، تدفعهم إليه جيناتهم، للحفاظ على بقائهم ولزيادة فرصهم في التكاثر. هذا ما تفعله جميع الكائنات على هذا الكوكب البائس، إنه الصراع من أجل البقاء لغرض التكاثر، قانون الطبيعة القاسي. ونحن عندما نقوم بتوجيه جميع قدرات الدماغ البشري المهولة للعمل بما يدفع اليه قسم الغرائز من الدماغ، فنحن عمليا نصنع وحوشا لا وجود لمثلها في الطبيعة. وهذا حال الرعايا، يقضون حيواتهم في صراع لا مبرر له من وجهة نظر عقلانية وإن كان مبررا غريزيا. وكحال الطاووس الذي يتفاخر بذيله رائع الجمال، ليجذب الاناث، يتفاخر البشر بالمناصب والألقاب. وكما ان الطاووس والأيل والرنة لا يخفون ميزاتهم التنافسية حتى عند عدم الحاجة إلى إبرازها -كما تفعل العصافير المغردة أو الضفادع مثلا- فكذلك الرعايا الذين يحوزون ألقابا، أو يعملون بمهن يعتبرها المجتمع مهنا جديرة بالاحترام، أو يحصلون على بعض المناصب التي هي مناصب محدودة العدد في ذلك المجتمع. فترى تلك الألقاب ملتصقة بأسمائهم وكأنهم ولدوا بها، ولو أمكنهم لما تورعوا عن إدراجها في بطاقاتهم الشخصية وجوازات سفرهم. فهم يستعملونها كميزة تنافسية يحملونها معهم أينما رحلوا، كالطاووس جارا ذيله وراءه كيفما تحرك جاهزا لرفعه والتفاخر فيه أينما لاحت أنثى أمامه، أو كالأيل والرنة الحاملين لقرونهما على رؤوسهما أينما ارتحلا، ولو أنهما لا يحتاجانها بشكل دائم.

[245] **داني** "مفكرا": وهل الكنية التي تستعمل في بعض المجتمعات تستخدم لنفس السبب برأيك؟

رجل الكهف: طبعا، فالشخص البسيط الذي لم يتابع دراسته لمرحلة متقدمة يحصل منها على لقب يضيفه لاسمه، ولم يفز بلقب ما أو منصب ما، ومهنته لا تعد مهنة تكسبه ميزة تنافسية في المجتمع، يلجأ الى التفاخر أنه قد نجح في الاقتران وإنجاب الأطفال. لقد كان فائزا في ذلك الصراع الغرائزي بين أقرانه، فيتفاخر بفوزه ذاك بكنية يناديه الناس بها لإظهار الاحترام، وغالبا ما يحب أن يكني نفسه باسم ابنه الذكر في المجتمعات الذكورية والمرأة كذلك. بل قد يقوم محيطه بتكنيته منذ طفولته أو شبابه، وذلك كي ينحصر تركيزه في الحياة على استحقاق تلك الكنية عن جدارة. كما أن أداء بعض الطقوس الدينية قد تعطيه لقبا يضيفه إلى اسمه ليتباهى به، وهكذا دواليك.

[246] **لوسيل** "مفكرة": وماذا عن المثقفين الحقيقيين، الذين خرجوا من الغرفة وصعدوا البرج، ألا يتفاخرون أيضا بألقابهم؟

رجل الكهف: باستثناء الحاجة اللازمة لذكر اللقب هم لا يستعملونه، بل لا يهتمون له. فالطريق

الى الألقاب سهل وواضح وقصير ولا يحتاج الخروج من الغرفة. إن من يتحمل تبعات مغامرة الخروج من الغرفة، ومشقة صعود البرج هو شخص لا يبحث عن الألقاب. الألقاب يوزعها ثالوث القمع داخل الغرفة. لا توجد ألقاب على البرج. ومن يصعد البرج لا يصعده بحثا عنها، فهو يعرف أنها غير موجودة هناك. الألقاب للرعايا، لأولئك المساكين المتنافسين داخل الغرف المظلمة، لا لمن يبحث عن الحرية خارجها. فها هو تشارلز دارون يرفض شهادة الدكتوراه الفخرية من اوكسفورد. بالنسبة له، إنها حط من قيمته، أو على الأقل هي بلا قيمة على الإطلاق. لم يبني دارون برجه ليأتي بعض رجالات أوكسفورد ويعطوه لقبا. لو أراد ذلك اللقب لحصل عليه منذ شبابه. فالطريق لهذا اللقب أسهل بما لا يقاس من الطريق الذي سلكه دارون في حياته ليصل الى المرتبة التي وصل اليها في التاريخ البشري. هذا تحقير واضح لكل جهوده التي بذلها عبر حياته رافعا البرج حجرا حجرا، ولقد كافأه التاريخ على ذلك الجهد. فاسم دارون نفسه قد اضحى أهم من أهم لقب قد يحوزه أي إنسان.

[247] **داني** "مفكرا": ملاحظة قيمة. فهناك عدد كبير من حاملي إجازة الدكتوراه من أوكسفورد، لكن هناك دارون واحد في التاريخ الإنساني كله.

رجل الكهف: ولقد كسب احترامه هذا عن جدارة بجهده وعرق جبينه، واقفا في وجه العالم أجمع. لا لأن أحدا ما قد تكرم عليه ووافق على منحه تلك الصفة. تماما كما وصف الأمر أحد أعز أصدقاءه وأشد المدافعين عنه، توماس هكسلي في مقال نشره بعد وفاة دارون في مجلة *الطبيعية*: "لم يحارب أحد بشكل أفضل، ولم يكن أحد أكثر حظا من تشارلز دارون. فإنه قد عثر على حقيقة عظيمة، تحت وطء الأقدام، ملعونة من قِبل المتعصبين الدينيين، وموضع سخرية من قِبل جميع العالم. وقد امتد به العمر لكي يراها، بشكل رئيسي عن طريق مجهوداته، وطيدة في العلم بشكل لا يمكن دحضه، ومندمجة بشكل لا يمكن فصله مع الأفكار الشائعة للناس، ومكروهة ومُهابة من قِبل هؤلاء الذين من شأنهم أن يلعنوا، ولكنهم لا يجرؤون. ماذا يمكن لرجل أن يريد أكثر من ذلك؟ ...".

لوسيل "بإعجاب": لا شيء على الإطلاق يمكن أن يريده إنسان أكثر من ذلك.

[248] **رجل الكهف**: و لأزيدك في هذا، إن الإغراء بالجوائز والمكافئات والألقاب هو أحد وسائل ثالوث القمع لشراء المثقفين الخارجين من الغرف. "... لا أتذكر سارتر قائلا أبدا إن المثقف يجب أن يبقى خارج الجامعة بالضرورة. هو بالتأكيد قال إن المثقف لا يكون مثقفا إلا عندما يتم إحاطته وتَمَلُّقُهُ وتطويقه والغطرسة عليه من قبل المجتمع ليكون على هذا النحو او ذاك، لأنه عندها فقط على ذلك الأساس يمكن لعمل المثقف أن يتم إنشاؤه. وعندما رفض جائزة نوبل في 1964 كان يتصرف بالضبط حسب مبادئه" هكذا أشار إيدوارد سعيد لجان بول سارتر في كتابه *تمثيلات المثقف*. وهذا حرفيا ما كتبه جان بول سارتر في كتابه *ما الأدب؟*: "... إنها تطوقه، وغطرستها أو مطالبها الخبيثة، رفضها وهروبها هي المعطيات الحقيقية التي يمكن بناء العمل على أساسها." فلولا توافر هذه الإشارات لكانت المؤشرات تدل على أن هذا المثقف إنما هو مثقف سلطة، لا باحث حر.

[249] **لوسيل**: لكن أليس هؤلاء الخارجون بشرا؟ أليسوا كائنات غرائزية أيضا؟

رجل الكهف: بالطبع هم كائنات بيولوجية لديها غرائز، لكنك تنسين أنهم موجودون على البرج، وليس داخل الغرف المكتظة. فكلما ارتقى الإنسان صعودا على البرج، كلما ابتعد عن غرفته التي خرج منها. وبالتالي كلما انخفضت لديه الحاجات الغرائزية وصولا إلى حدها الأدنى. لقد أصبح يرى أمورا لا يراها الآخرون، وهمومه مختلفة عن همومهم، بل إن احتياجاته وتطلعاته مختلفة أيضا، باستثناء الحد الأدنى اللازم للبقاء على قيد الحياة ككائن بيولوجي.

[250] **لوسيل** "بتعجب": لِمَ؟

رجل الكهف: لسببين. يقول باروخ سبينوزا في *علم الأخلاق*: "... بقدر ما تكون معرفة النفس للأشياء واسعة، يكون خضوعها للانفعالات المترتبة على هذه الأشياء أقل، ويكون تأثرها بالأشياء ذاتها اقل." هذا من جهة. ومن جهة أخرى يقول سيغموند فرويد ووليم شتيكل في كتابهما *الكبت*: "... إن نشاط الإنسان يتوقف على ما عنده من طاقة حيوية، فإن أفرط في الناحية الجنسية قل نشاطه في الحياة والعكس." فبالمثل أقول لا يمكن للإنسان أن يوجه طاقته لإشباع غرائزه ولإعمال فكره مفرطا في الأمرين معا. لا بد أن يكون الإفراط في أحدهما يحصل على حساب الإقلال من الآخر. لأن طاقة الإنسان محدودة. وإن الذي يحصل هو أنه إن قرر نقل طاقته من قسم الغرائز إلى القسمين الآخرين، فإنما هو لاإراديا ينقل معها ماهيته وكينونته. وبذلك دون أن يشعر لا يعود فردا من الرعايا، جسدا من الأجساد. شرط ألا يكون جهده في بناء ثقافته وسيلة في إشباع غرائزه فحسب، أي للتنافس الجنسي والتباهي بثقافته.

داني "مفكرا": هكذا إذن تتشكل ماهية المثقف.

[251] **رجل الكهف**: القاعدة البسيطة الواضحة تقول: بالقدر الذي تنقل فيه ماهيتك من قسم الغرائز إلى القسمين الآخرين، بالقدر الذي تقل فيه ماهيتك الغريزية وتزداد ماهيتك الثقافية. حتى تبلغ درجة الكمال عندما تفقد أي اهتمام بقسم الغرائز. فهذا سقراط -على فرض وجوده التاريخي- يقول في *محاورة الدفاع* لأفلاطون: "... برؤني أو لا تبرؤني، ولكني لن أفعل، على اليقين، شيئا آخر غير هذا، وحتى لو وجب علي أن أموت مرات عديدة." هل كان سقراط انتحاريا، أو مريضا نفسيا يريد الموت؟ كلا مطلقا، لكن ماهية سقراط قد أصبحت فكر سقراط لا جسده. لقد حاول رفع الإدانة عن نفسه دون التنازل عن فكره، فنجده يقول مثلا: "... ما أفعله ليس إلا محاولة إقناعكم شبابا وشيوخا بألا تعنوا بأجسامكم وبثرواتكم فوق عنايتكم، وبنفس الحماس، بالنفس من أجل أن تصير أحسن... الفضيلة لا تأتي من الثروة، وإنما بالفضيلة تصير الثروة وكل شيء آخر من خيرات للبشر، سواء في حياتهم الخاصة أو العامة..." أليس كلامه هذا يوضح ما أقوله؟

لوسيل: مثير للإعجاب.

[252]　**رجل الكهف**: وعندما لم ينجح نجده يقول في آخر تلك المحاكمة بعد صدور القرار النهائي بإعدامه: "... إنني لا أحمل في قلبي ضغنا كبيرا ضد من صوتوا بإدانتي ولا ضد متهمي... والذي أطلبه منهم يقينا هو أنه حينما يكبر أطفالي فعاقبوهم، أيها الأثينيون، بأن تقلقوهم كما أقلقتكم أنا، وذلك إن بدا لكم أنهم يعنون بالثروة أو بأي شيء آخر فوق عنايتهم بالفضيلة. وإذا بدا لهم أنهم شيء بينما هم ليسوا كذلك، فلوموهم، كما فعلت أنا معكم، على عدم العناية بواجِبِ العناية، وعلى الاعتقاد بأنهم شيء بينما هم بغير قيمة. إن فعلتم ذلك فسأكون قد عوملت منكم بالعدل أنا وأبنائي.".

[253]　**لوسيل** "متعجبة": كيف لإنسان ألا يحقد على قاتليه؟

رجل الكهف: انت لا تحملين مشاعرا إلا تجاه الأمور التي تهمك. وبالنسبة لسقراط جسده لا يهمه قدر أهمية فكره، لذا فهو لم يحقد على قاتليه. هم يقتلون جسده فقط، وليس فكره. ناهيك عن أنهم رعايا من وجهة نظره، أناس مساكين، أطفال صغار، لا يُلامون على ما يفعلون. هل لاحظتِ آخر همومه في هذه الحياة؟ هل لاحظتِ بم يفكر بعد صدور قرار الإعدام النهائي بحقه؟ هذه آخر كلمات سقراط للعامة قبل ايداعه السجن انتظارا لتنفيذ حكم الإعدام. وخلال تلك المدة رفض جميع محاولات أصدقاءه لتهريبه والنجاة بحياته. من يكترث لهذا الجسد الفاني مقابل ما قد يقال عن سقراط الفكرة الذي فر من السجن لخوفه من أذية ذلك الجسد!

لوسيل "بألم": لقد تفطر قلبي وأنا أتخيل الأمر.

[254]　**رجل الكهف**: ونجد بعده بألفي عام جوردانو برونو الذي أوقعت به الكنيسة لتسجنه بتهمة الهرطقة، ويقضي سبع أعوام في السجن يذاق فيها صنوف العذاب وهو يأبى التراجع عن أفكاره العلمية التي رفضتها الكنيسة. وحين يأسوا منه وأصدروا حكم الإعدام بحرقه حيا قال بكل جسارة للقاضي: "ربما أنت تقول هذه الجملة بخوف منها أكبر من خوفي أنا متلقيها". هل من بسالة أعظم من هذه؟ وعندما تم اقتياده إلى ساحة الإعدام، سحل في الشوارع ليكون عبرة لغيره، مكبل الفم -بطريقة بشعة أربأ بنفسي أن أصفها لك- لخوفهم من كلماته. ثم علق عاريا رأسا على عقب وحرق حيا حتى صار رمادا، دون أن يرف له جفن. هل كان مازوشيا؟ أم أنه كان يحافظ على بقاء كينونته كما يفعل أي إنسان آخر، لكن كينونته تتمثل في فكره لا في جسده؟

[255]　**لوسيل** "بعيون دامعة": هذا مقزز جدا، دون أن أعرف التفاصيل. لكن ألهذا الحد يخاف ثالوث القمع من الخارجين الأحرار؟ وألهذا الحد يمكنهم أن يتخلوا عن خوفهم من الموت في سبيل كلمتهم؟

رجل الكهف: هكذا يكون من صعد البرج، ينقل ماهيته من جسمه الفاني إلى فكره. وما هذان إلا مثالان يفصلهما ألفا عام، والنتيجة واحدة في كل الأزمان وكل الأماكن. من يصعد البرج، يخافه ثالوث القمع ويحاول عقابه، لكنه يكون قد تجرد من جسده الفاني على أية حال وتحول إلى فكرة. ماهيته أصبحت تفوق حدود جسده المحدود، لذا فهو لا يمكن أن يكون غرائزيا بعد الآن، ولهذا هو مستعد لتقبل الموت في سبيل عدم التنازل عن فكره. وما يزعج ثالوث القمع هو أنه لا يمكنه إلا قمع

الجسد، والذي يصبح تدريجيا بلا قيمة عند صاحبه على أي حال كلما ارتقى البرج صعودا. وبالتالي لا قيمة حقيقية لهذا العقاب الذي لا يخشاه إلا الرعايا العالقون في ذواتهم الحيوانية، المنقادون وراء غرائزهم، لذا يعمل ثالوث القمع على تنمية هذا الأمر فيهم كي يتمكن من تهديدهم بعقوباته. لقد رحل جسدا سقراط وبرونو، الآيلين إلى الفناء على أية حال، ورحل جلادوهما إلى مزبلة التاريخ، لكن بقي سقراط وبرونو الفكر، وسيبقيان ما بقي إنسان على قيد الحياة. وإن كان هناك من دَرس قد علمنا إياه التاريخ، فهو أن الفكرة لا يمكن قمعها، فهي خالدة بعد فناء جسد صاحبها، رغم أنوف ثواليث القمع. هذا هو إكسير الخلود الحقيقي. هذا هو سر الخلود الذي بحث عنه جلجامش. تحرر من غرائزك واصعد البرج، وتابع الصعود حتى آخر رمق في حياتك. انقل ماهيتك من جسدك الفاني، الى رسالة لا يمكن لها أن تفنى.

داني "بجدية": هذا خطير ما تقوله يا رجل الكهف.

[256] **رجل الكهف**: هذا هو الواقع، بل جانب فقط من الواقع. ولذا فالرعايا تتم برمجتهم إلى أقصى الدرجات على أن يبقوا كائنات غريزية، مبرمجة بشكل كامل، وهم في هذا أدنى مرتبة من الحيوانات كما أشار عبد الرحمن الكواكبي في كتابه *طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد* واصفا الرعايا بأسراء الاستبداد، قائلا: "... فالأسير إذن دون الحيوان لأنه يتحرك بإرادة غيره لا بإرادة نفسه... يعيش خاملا خامدا ضائع القصد، حائرا لا يدري كيف يميت ساعاته وأوقاته، ويدرج أيامه وأعوامه، كأنه حريص على بلوغ أجله ليستقر تحت التراب... أما ملذات هؤلاء التعساء، فهي مقصورة على لذتين إثنتين: الأولى منهما لذة الأكل، وهي جعل بطونهم مقابر للحيوانات إن تيسرت، وإلا فمزابل للنباتات. أو بجعلهم أجسامهم في الوجود، كما قيل، أنابيب بين المطبخ والكنيف، أو جعلها معامل أعدت لتجهيز الأخبثين. واللذة الثانية هي الرعشة باستفراغ الشهوة، كأن أجسامهم خلقت دمامل جرب على أديم الأرض، يطيب لها الحك ووظيفتها توليد الصديد ودفعه. وهذا الشره البهيمي في البِعال هو ما يعمي الأسراء ويرميهم بالتزاوج والتوالد... فإذا بلغ الشاب ربطه أولياؤه على وتد الزواج كي لا يفر من مشاكلتهم في شقاء الحياة، ليجني هو على نسله كما جنى عليه أبواه، ثم هو يتولى التضييق على نفسه بأطواق الجهل وقيود الخوف، ويتولى المستبدون التضييق على عقله ولسانه وعمله وأمله. وهكذا يعيش الأسير من حين يكون نسمة في ضيق وضغط، يهرول ما بين عتبة هم ووادي غم، يودع سقما ويستقبل سقما إلى أن يفوز بنعمة الموت مضيعا دنياه مع آخرته فيموت غير آسف ولا مأسوف عليه.".

داني "مفكرا": يا له من كلام بليغ تقشعر له الأبدان. لا عجب إذن في أن الشكوك تحوم على أنه قد اغتيل بالسم ولم يمت موتا طبيعيا.

[257] **لوسيل** "باستغراب": وكيف يبقيهم ثالوث القمع عالقين في غرائزهم هكذا؟

رجل الكهف: الأساليب كثيرة، وهي تتطور دائما وأبدا، فتمنية الثقافة الاستهلاكية بين الرعية أحد جوانبها. والموضة التي باتت مسيطرة على كل صغيرة وكبيرة من جوانب الحياة، والتي هي متغيرة

بشكل دائم، كي يبقى البشر في سباق محموم على العمل الدؤوب لشراء المنتجات الجديدة أولا بأول، لا لأنهم بحاجتها، بل فقط لأن عليهم شراؤها. ولتري كم أنهم مسلوبو الارادة، فقد تمادت الموضة لتطال أشكال أجساد البشر، فباتوا يقومون بعمليات جراحية لا مبرر طبي لها على الإطلاق، بل فقط كي تتماشى أشكالهم مع الموضة الدارجة. فلم يكتفوا بأن يكونوا نسخا في عقولهم وطرق تفكيرهم فحسب، بل باتوا يتسابقون في أن يكونوا نسخا في ملبسهم وطريقة كلامهم ونمط معاشهم وشكل أجسادهم أيضا.

لوسيل "بحزن": كلامك صحيح.

[258] **رجل الكهف**: كما يعمد ثالوث القمع دائما إلى ابتداع الأعداء ظاهريا، ليُبقي رعاياه في خوف، فينصب نفسه حاميا لهم، كما كان واضحا في الحكاية التي قصصتها عليكما الليلة الماضية. وهذا يعود على الثالوث بفوائد عظيمة، من ضمنها -فيما يخص ما نتكلم عنه الآن- أن تتمسك الرعية بهذا الحامي ويخضعوا لأوامره برضوخ كامل عن طيب خاطر. وعليه فإن أي إجراء يراه الثالوث مناسبا للتحكم بمصادر المعلومات المتاحة للرعايا يصبح سهل التنفيذ بحجة حمايته لهم. فقد تتم الرقابة على المطبوعات والمنشورات وما يعرض على الشاشات وما يقال في الخطب، بل وبحرية الولوج الى الانترنيت وغيرها من الوسائل التي قد يرى الثالوث أن من مصلحته إجراءها لتوجيه المعلومات التي يُسمح للرعايا الاطلاع عليها، سواء الصحيحة منها أو الكاذبة، فالمعيار هو فقط مصلحته الشخصية، لا جودة المعلومات ودقتها وأهميتها. وكما قال آرثر سولزبيرجر: "احجب المعلومات الصحيحة عن أي إنسان، أو قدمها إليه مشوهة أو ناقصة أو محشوة بالدعاية والزيف، إذن فقد دمرت كل جهاز تفكيره ونزلت به إلى ما دون مستوى الإنسان".

لوسيل "بحماس": هذا ما يفعلونه فعلا. يقيدون مصادر المعلومات، ويقومون بتوجيه ما يعرض منها بما يتناسب وأهواءهم.

[259] **رجل الكهف**: وبهذا، لا يبقى للرعية الا ثالوث القمع كمصدر أساسي للمعلومات. فيقوم مرتزقته، الذين يتم الترويج لهم على أنهم النخبة المثقفة في المجتمع، بنشر المعلومات بعد تشذيبها بين الرعية، فيشرحون لهم الأنظمة الاقتصادية والسياسية المتبعة في الغرف الأخرى والأديان الأخرى والعلوم المختلفة والتاريخ والآداب والفلسفات وأخبار العالم وهكذا في كل الأمور. فيظن الرعية أنهم باتوا يعرفون شيئا حقيقيا، بينما هم لا يعرفون إلا ما يُراد لهم أن يعرفوه وإن كان من محض خيال قائله، لكن يؤخذ به بسذاجة على أنه أمر حقيقي. تماما كما يُصدّق الطفل الصغير أي شيء يقوله له أبواه وإن كان خاطئا أو من ابتداع مخيلتيهما.

لوسيل "وهي تصب المزيد من النبيذ": صدقت. هذا ما يحصل فعلا.

[260] **رجل الكهف** "وهو يشعل غليونه": كما أنه من المعروف أن لكل إنسان وقتا محددا في هذه الحياة. ولذا فإن توجيه طاقات أدمغة الرعايا لتنحصر في قسم الغرائز يجعلهم مبرمجين ليقضوا حيواتهم لاهثين وراءها. فالمغريات لا نهائية، لأن رجالات الاقتصاد خلاقون دائما بإيجاد المزيد والمزيد من الأمور

المادية التي يجذبون الرعايا إليها بأساليبهم وحيلهم الماكرة في الإعلان والتسويق، فيقضي المساكين حيواتهم يدورون في حلقات مفرغة من العمل لتحصيل المال للوصول إلى ما أمكن من تلك المغريات. ومن يصيبه اليأس ويعجز عن مقارعة أقرانه، يلتقطه رجالات الدين ليعدوه بإعطائه بعد مماته كل ما اشتهته نفسه ويئس من إمكانية تحصيله إن هو كرس حياته لهم. فيقع المسكين في شركهم، فهو لا يملك شيئا ليخسره على أية حال.

داني "مقاطعا بحماس": هذا يفسر التناسب العكسي بين مستويي الثروة والتدين عند الرعايا حول العالم بصورة عامة.

[261] **رجل الكهف**: بالتأكيد هو واحد من أسباب عديدة. لكن مقصدي هنا أن جهود الثالوث تتكامل بما لا يتيح للرعايا أي وقت فراغ لرفاهية التفكير بأي شيء يخرج عن نطاق ذواتهم. فتراهم يقضون حيواتهم بين مسكين لاهث وراء لقمة العيش، يفني عمره فقط محاولا البقاء على قيد الحياة وتأمين أبسط متطلباتها، إلى أن تأتيه ساعة الموت التي كان يعمل جاهدا كل حياته فقط لتأخيرها. إلى آخر لاهث وراء تجميع المزيد من المال لزيادة ثروته وبالتالي زيادة رفاهيته وإشباع غرائزه التي لا تشبع. وآخر باذل جل وقته في محاولة للحصول على مبتغاه بعد الموت. وهكذا، فهم جميعا في سباق محموم، هومهم تثقل كواهلهم، مغرقون في ذواتهم الأنانية، باحثون عن مصلحتها، متناحرون بين بعضهم كلما تعارضت مصالحهم، يتشاجرون لأتفه الأسباب كالأطفال الصغار، فلا يبقى لديهم لا الوقت ولا الجهد لترف التفكير فيما هو خارج الغرفة، ناهيك عن التفكير في الخروج منها ثم صعود البرج.

لوسيل "بعيون سارحة": فيما أنت تتكلم، أنا أتذكر أناسا أعرفهم ينطبق عليهم ما تصف.

[262] **رجل الكهف** "نافثا دخان غليونه": هذا لأني أصف الواقع، ولا أتكلم بأفكار من مخيلتي. أنظري مثلا إلى المشاهير من الأعلام الذين يتم الترويج لهم ليضحوا محط إعجاب الجماهير، غالبيتهم أناس فارغون تماما. تتم صناعة بعضهم بأفضل المعايير كي يكونوا جذابين غريزيا، ويتم ترويجهم في المجتمع على أنهم مثال للشخص الناجح. فيمسون قدوة للأجيال الناشئة. اسألي أي طفل او مراهق عن قدوته ومثله الأعلى في الحياة، وراقبي الإجابات. كم هو عدد العلماء والفلاسفة والباحثين والمثقفين الذين سيتم الإشارة إليهم؟

لوسيل "بحزن": أعتقد أن النسبة لا تكاد تذكر.

[263] **رجل الكهف**: هذا مؤكد. فغالبية الرعايا لم يسمعوا بمعظمهم أساسا، فمن خرج من الغرفة قد حلت عليه اللعنة، ولن يتم الترويج له بين العامة. وإن اضطروا لذكره في وسائل الإعلام، فسيشيرون إليه غالبا على أنه مارق. في مقابل ترويج وإشهار الناس الفارغين أو المرتزقة من أشباه المثقفين، وأدعياء الثقافة، ونشرهم في كل مكان في الإذاعة والتلفاز والمجلات والانترنيت، كي يصبحوا قدوة الرعايا ومثلهم الأعلى، ومصدر ثقافتهم. والتلفاز أشهر وسيلة لفعل هذا. هذا الجهاز الكريه الذي بات يعد من أهم متطلبات كل منزل، بل ويسبق السرير والثلاجة في الأهمية بالنسبة للكثيرين. يتجمهر حوله أفراد

الأسرة طيلة الوقت، يتلقون ببلاهة ما يعرض لهم، والذي تتم صياغته وإخراجه بأبهى حلة ليعطي أقوى تأثير ممكن. وما من توصيف لهذا أكثر دقة مما قاله مورتيمر آدلر وتشارلز فان دورن في كتابهما *كيف تقرأ كتابا*: "... وإن مشاهد التلفزيون ومستمع الراديو وقارئ المجلة يتلقى مركبا كاملا من العناصر -من البلاغة اللغوية البارعة إلى البيانات والإحصاءات المنتقاة بعناية- لتجعل من السهل عليه أن يقرر رأيه بأدنى حد من الجهد والصعوبة. وهذا الجمع غالبا ما يكون فعالا حتى إن المشاهد او المستمع أو القارئ لا يقرر رأيه أبدا. وعوضا عن ذلك، فإن المتلقي يُدخل هذه الآراء مجتمعة في رأسه، كما يدخل شريط الكاسيت في آلة التسجيل. وبعد ذلك يضغط المفتاح المناسب ليكرر الآراء حيثما وجد ذلك مناسبا، وبذلك يكون قد قام بأداء مقبول دون الحاجة إلى أن يفكر." لقد كتبا هذا عام 1972، فلكِ أن تتخيلي التطور الحاصل في فعالية هذه الأدوات منذ ذلك الوقت وحتى اليوم.

داني "بحزن": يا له من توصيف دقيق. فعلا إن هذا هو ما يحصل بالضبط. فالناس يكررون ما يسمعون فقط.

[264] **رجل الكهف**: هذه جوانب فقط، وليست كل شيء مما يقام به لبرمجة عقول الناس والتحكم بأفكارهم. وبعدها يغدو الناس نسخا متشابهة، يرددون كالببغاوات ما قد تم حشوه في أدمغتهم معتقدين بسذاجة أنهم يقولون آراءهم حول هذا الأمر أو ذاك.

[265] **داني** "بحزن": فعلا، بعد كل غسيل الدماغ هذا، والذي لم نأتِ على ذكر كل أساليبه، يقال للرعايا فكروا بعقولكم.

[266] **رجل الكهف** "بغضب": تماما. بعد كل ما تحدثنا عنه طوال اليوم، وبعد هذه البرمجة التي قضينا السهرة نتناقش فيها، يقال لك: فكر بعقلك. أي عقل هذا الذي ستفكر به بحق السماء؟ ما الذي بقي لك من دماغك الحر الذي ولدت به لتستعمله في التفكير؟ بماذا ستفكر؟ مالذي ستصل اليه؟ إذا كانت المدخلات مقيدة وموجهة، وطريقة المعالجة قد تم إحكام برمجتها وتقييدها فحتما ستكون مخرجاتها سهلة التنبؤ بها. لا توجد أفكار تهبط من السماء على الناس، الأفكار يتم توليدها في الأدمغة. وإذا كان لدينا مليون دماغ، قد بُرمجوا بذات الطريقة، وأعطيتهم المعلومات ذاتها، فحتما سيصلون إلى ذات النتيجة. وبالتالي هي عملية سهلة التنبؤ بنتائجها لأي ناظر خارجي. تماما كما يقوم صانعوا الروبوتات ببرمجتها، وعليه فهم قادرون على التنبؤ بما ستقوم به.

لوسيل "بألم": إنهم مخدوعون بشدة.

[267] **رجل الكهف** "بحزم": بالتأكيد هم كذلك، يعتقدون أنهم يفكرون ويصلون الى النتائج باستخدام أدمغتهم وما هم الا ببغاوات، يكررون ما قد حُشي- داخل رؤوسهم. بل واعتقادهم أنهم قد فكروا بعقولهم، يجعلهم وبصفاقة يحسبون أنفسهم جديرين بمقارعة عظماء الفلاسفة والمفكرين والعلماء، وكأنهم على قدر المساواة معهم فكريا، وبالتالي فيمكنهم الحكم على نتاجهم الفكري. كيف لا وهم قد استعملوا عقولهم أيضا!

[268] **لوسيل:** كلامك صحيح، أراهم يملؤون مواقع التواصل الاجتماعي ضجيجا. فقد أصبح المراهق يعتقد ان بإمكانه الحكم على اهم الأعمال الفلسفية والعلمية، ويقوم بتقييم هذا وذاك من العلماء والفلاسفة والمفكرين والباحثين.

داني "بألم": إنه أمر مخجل.

[269] **رجل الكهف:** بل إنه أمر كارثي. هذه الفوضى الفكرية لا تبشر بأي خير. فكما أن المريض لا يمكنه أن يطلب العلاج إلا إذا اعترف بمرضه أولا، وكذلك الرعايا، لا يمكنهم أن يحرروا عقولهم، الا إذا اعترفوا أنهم بحاجة لذلك. ولهذا السبب، يبرمج ثالوث القمع عقولهم بطريقة يجعلهم يعتقدون أنهم أحرار، فهم كحال المريض الذي لا يعلم بمرضه، وبالتالي لن يفكر مجرد تفكير بعلاجه.

[270] **داني:** لكني بالمقابل اراهم يلجؤون الى ثالوث القمع في أتفه أمور حيواتهم، انظر الى الفضائيات أو مواقع الانترنيت مثلا، وشاهد مدى تفاهة الأسئلة أو المشاكل التي يطرحونها ويريدون حلا لها.

رجل الكهف: بالتأكيد. هل نسيت أنهم مغرقون في ذواتهم ومسلوبو الإرادة مقيدو التفكير؟ لذا لا يمكنهم اتخاذ أبسط القرارات الحياتية لوحدهم دون الرجوع الى ثالوث القمع. لقد قلت لكما هذا بالأمس. همومهم ومشاكلهم قد تم تقييدها بسفاسف الأمور ليشغلوا أنفسهم بالتفكير فيها. فهذا المراهق نفسه الذي أشارت اليه لوسيل، وهو يحاكم عظماء العقول البشرية ويقيّم إنتاجهم الفكري والعلمي، تجده يسأل رجل الدين عن الطريقة الصحيحة لدخول المرحاض مثلا، أو عن الطريقة الأفضل للنوم، أو للجماع. وعلى هذا فقس.

داني "بحماس": هذا ما قصدته.

[271] **رجل الكهف:** لقد تمت برمجته أن دخول المرحاض، أو النوم او الجماع بطريقة ما قد تكون ذات عواقب وخيمة عليه، لذا فهو يكترث لهذه التفاصيل ويسأل عنها. وبنفس الوقت، قد تم افهامه أن ذلك الفيلسوف ما هو إلا مجرد مجنون، لذا فهو يستهزئ بأفكاره بسهولة. كما تم إفهامه أن ذلك العالم ما هو إلا شخص قد استخدم عقله، تماما كما يفعل هو، لذا فهو مؤهل للحكم على أفكاره بندية. ناهيك عن أنه قد تم إعماء بصيرته ليرى الأفكار العظيمة، ماهي إلا مجرد أفكار، لا تلامس واقعه وحياته، بينما الأكل والنوم ودخول المرحاض أمور تلامسها.

لوسيل "بحزن": عجيب هذا التناقض.

رجل الكهف: ليس عجيبا، بل هو مفهوم ومنطقي إلى أبعد الحدود. فكري به بتمعن.

[272] **لوسيل:** كما يحزنني أن أرى نِسب مشاهدة أي مادة معروضة سواء على التلفاز أو على الإنترنيت، تتناسب طردا مع مستوى تفاهة محتواها. وكذا الأمر بالنسبة للكتب والمجلات الأعلى مبيعا، والأغاني الأكثر رواجا.

[273] **رجل الكهف:** ألا يُعتبر هذا مؤشرا خطيرا؟ ألا يوضح لك أن غالبية البشر على هذا الكوكب هم

كائنات غرائزية فقط، فارغون فكريا؟ ألا يوضح لك أن الناس يعيشون في غيبوبة بانتظار الموت؟ ألا يجعلك هذا تحكين رأسك وأنت تقولين: "أي نوع من الأشخاص هذا الذي أعيش بينهم بحق السماء؟"

[274] **داني:** لا شك في ذلك. لقد برمجهم ثالوث القمع كما شرحت تماما، لدرجة أن كلا منهم قد لبس درعا واقيا يحميه مما قد يصله ممن صعد البرج.

[275] **رجل الكهف:** بالتأكيد. فهذا سقراط المسكين، لم يصدر قرار إعدامه عن قاضٍ تابعٍ لثالوث القمع بشكل مباشر. فالنظام هناك كان يقضي بإجراء قرعة كل عام لجمع ستة آلاف رجل من عامة الشعب، ليكونوا القضاة في ذلك العام، يتم توزيعهم على عشرة محاكم لكل منها ستمائة رجل. ولقد تغيب عن محاكمة سقراط نحو مئة منهم، فهو قد مثل أمام خمسمائة -أو خمسمائة وواحدا- من عامة الشعب كان مصيره معلقا بين أيديهم. كما أنه من المرجح جدا أن حشدا غفيرا من الناس قد حضر المحاكمة، ولو أرادوا الحفاظ على حياة ذلك العجوز المسكين لفعلوا. لقد فهم سقراط هذا، لذلك قال في *الدفاع*: "... ما سيجعلني أدان، إن حدث وأدنت، ليس هو مليتوس ولا أنيتوس، بل هو افتراء هذه الكثرة وقدحهم فيّ، وهي أمور أدانت، وستدين فيما أعتقد، كثيرين من الآخرين من الرجال الفضلاء، فمن المتوقع ألا ينتهي الخطر عندي." من قتل سقراط هم الأثينيون أنفسهم الذين أفنى سبعين عاما محاولا تعليمهم الحكمة "... وذلك ليس فقط بغير أجر، بل وكذلك دافعا من جيبي في سرور لمن يرغب في الاستماع إلي" كما قال في محاورة *أوطيفرون*. هذا أكثر ما يفطر فؤاد المثقف: أن يُحارب من قبل من يفني حياته من أجل تنويرهم. وتماما كما تنبأ سقراط، أدين بذات الطريقة بعده عدد لا يحصى من الرجال الفضلاء حتى يومنا هذا. يبدو أن ما قاله في محاورة *أوطيفرون* حقيقة عبر تاريخية عبر ثقافية ولا تنطبق على الأثينين وحدهم ولا سقراط وحده: "... فالأثينيون في الحقيقة، على ما أعتقد أنا، لا يبالون كثيرا بأن يعتبر المرء نفسه ماهرا حكيما، وذلك مادام لا يقوم بتعليم حكمته. ولكن ما إن يعتقدوا أن أحدا يريد جعل الآخر على مثاله، هنا هم يثورون...".

[276] **داني** "بألم": فعلا هذه حقيقة يترتب عليها ألم لا أريد تخيله. أن تتكلف مخاطرة الخروج من الغرفة، وعناء صعود البرج، وبعدها تقضي حياتك محاولا إنارة عقول الرعايا، بكل شفافية. لا دافع لك إلا واجبك الأخلاقي نحوهم الذي ألزمك به ضميرك. ثم تلاقي منهم صنوف الإذلال والعقاب. لا يمكن أن يوجد ألم يفوق هذا. لكن ألا يجب أن يرد المثقف عليهم؟ أليس من العدل أن يثور ضدهم؟ هم سيقتلونه، الأمر ليس مزاحا!

رجل الكهف: قال سقراط قبيل موته في محاورة *أقريطون*: "... لا يجب... رد الظلم بالظلم، ولا فعل السوء في حق أي شخص من الناس، مهما يكن ما نعانيه على أيديهم... إنه ليس من الصواب على أي شكل لا ارتكاب الظلم ولا رد الظلم بالظلم ولا، عندما نعاني الظلم، أن نثأر بالرد بالشر..." ولا اجرؤ أنا على مخالفته في ذلك.

(يلاحظ رجل الكهف أن عيون لوسيل مغرورقة بالدموع، فعرف أنه قد أثقل عليها بأفكاره، وانتبه

أنه كان منفعلا جدا. فتنهد، ونظف غليونه، وملأه بالتبغ وأشعله)

[277] **رجل الكهف** "بهدوء": هل كل ما تحدثنا به منذ الصباح حتى الآن كافٍ ليجيب على سؤاليكِ: "لم المثقفون مختلفون هكذا؟" و"كيف نجد الناس مقتنعين تمام الاقتناع بأمور متناقضة، وكل منهم يدعي أنه استعمل عقله ووصل الى تلك القناعات؟" يا لوسيل؟

لوسيل "بألم": أجل لقد أجبت على سؤاليّ، وليتك لم تفعل.

[278] **رجل الكهف:** وأنت يا داني، قلت ونحن نشرب قهوة الصباح: "دائما ما أسأل نفسي- كيف يمكن للبشر أن يكونوا بهذا الاختلاف في إدراكهم وجميعهم، إذا استثنينا ذوي الأمراض الدماغية، لديهم أدمغة يفترض انها تعمل بنفس الكفاءة، كما يمكن لأمعائهم ان تهضم بنفس الكفاءة على وجه التقريب. أو لنقل إني اتفهم وجود اختلافات طفيفة في المحاكمات العقلية للبشر- ناتج عن اختلافات تركيبتهم الجينية، لكن ليس أن تكون اختلافات صارخة في طريقة تفكيرهم. لا نجد هذه الاختلافات الصارخة في طريقة عمل أيديهم وأرجلهم وأمعائهم كما نجدها في أدمغتهم. هل لديك أي تفسير لهذا؟" والآن، هل وجدت لدي تفسيرا لذلك؟

داني: بالطبع.

رجل الكهف: عظيم جدا. طابت ليلتكما.

****

الباب الخامس
في المركزية العرقية

(يفتح داني عينيه وينظر حوله ليجد نفسه وحيدا داخل الكهف. وإذ بصوت جون لينون يتناهى إلى مسامعه وهو يغني Imagine. فتبسم قائلا لنفسه: "ما هذا الرجل! إنه لا يكل ولا يمل. وكأنه يحمل هموم البشرية كلها على كتفيه" ثم غسل وجهه وحمل جهاز تسجيله وخرج من الكهف ليجد لوسيل ورجل الكهف جالسين يشربان القهوة ويغنيان الأغنية)

[279] **داني** "مبتسما": لن تكون نهايتك أفضل من نهايته.

رجل الكهف "بلا مبالاة": ومن يكترث!

[280] **داني** "ضاحكا": عليك أنت أن تكترث إن كنت لا تريدني أن أنعتك بالجنون.

رجل الكهف "مقدما فنجان القهوة": "... على هذا سأرد بكلمة الحق التالية: أنت لم تُصب، أيها الصاحب، إن كنت تعتقد أنه وجب على رجل ذي قيمة مهما ضئلت أن يحسب حساب إمكان أن يحيى أو أن يموت. إنما عليه ان يعتبر شيئا واحدا في سلوكه: وهو إن كان يسلك سلوكا عادلا أم ظالما، وإن كان عمله عمل رجل فاضل أم شرير..." هكذا كان سقراط ليجيبك كما قال في محاورة "الدفاع".

داني "ممتعضا": ها قد بدأنا!

[281] **رجل الكهف:** نحن لم ننته حتى نبدأ. في الواقع نحن لا ننته أبدا. لكن يبدو أن النبيذ قد أوقف عقلك تماما، وتحتاج وقتا كي تجعله يعمل بكفاءة وكأنه محرك ديزل قديم.

داني "مبتسما": بل إن الحوار معك هو ما أوقظ عقلي طوال الليل.

رجل الكهف: لماذا؟ هل كنت تتذكر توم وجيري، أم كنت مسافرا إلى المستقبل تائها في الفضاء؟

داني "ضاحكا": أتوسل إليك دعني أستيقظ أولا. ألا يوجد فترة استراحة! أعترفُ أن دماغي محرك ديزل قديم.

[282] **رجل الكهف:** ألم تقرأ الرسالة التي أرسلها تشارلز داروين لأخته سوزان من البرازيل عام 1836؟

داني "ساخرا": لقد أرسلها إلى سوزان وليس إليّ. على أي حال، ماذا قال فيها؟ هل سيعود قريبا؟

[283] **رجل الكهف** "مُربتا على كتف داني": "... الشخص الذي يجرؤ على إضاعة ساعة واحدة من الوقت، لم يكتشف قيمة الحياة..." إنها نصف طرفة عين يا صاح، أي استراحة تريد في غضون نصف طرفة عين؟ عندما تموت، سترتاح إلى الأبد.

[284] **داني** "متنهدا بخجل": في الحقيقة، بعد خلودكما للنوم ليلة أمس، بقيت مستيقظا أراجع كل ما

تحدثنا فيه طوال اليوم. لقد كان دماغي يعمل، دون أن أستطيع كبحه، على ربط كل ما أشرنا إليه بأمور أعرفها وقد لاحظتها مسبقا في حياتي، وخلال أسفاري الكثيرة. كنت أتذكر كيف يقوم الناس من كل ثقافة بالنظر إلى الثقافات الأخرى، فيقومون بتقييم عادات وتقاليد وأخلاق الآخرين، بل وحتى أطعمتهم وأزيائهم من خلال منظورهم الثقافي الخاص. مع أن حكمهم هذا عار تماما عن أي موضوعية.

لوسيل "موافقة": وما أكثرهم!

[285] **داني**: بل إن الأمر ليتجاوز ذلك. فإن الناس غالبا ما ينظرون إلى ثقافتهم، بكل ما تحتويه من ملابس تقليدية، وأصناف للطعام، وعادات، ودين، على أنها أفضل من كل أقرانها من الثقافات الأخرى. ويتباهون بإرثهم الثقافي ذاك، مهما بدت سذاجته، ودائما ما يرددون كم أنهم محظوظون بما تحتويه تلك الثقافة. مع أن الواقع يقول إنها مجرد إحدى الثقافات في العالم، لا تمتاز عن غيرها. بل ربما قد تكون في الواقع أسوأ من نظيراتها. لكنهم دائما ما يصرون على أفضليتها. وهذا ما عصي علي تفسيره. كيف لهم، والحالة هذه، أن ينظروا إلى مجتمعات قد سبقتهم في سلم الحضارة، تمتاز عنهم بكل شيء، ومع ذلك لا يرون فيها إلا أشياء سلبية متجاهلين عمدا كل الإيجابيات، أو أن يقوموا بالاستخفاف بأهميتها. بينما يرون في مجتمعاتهم المتأخرة عن ركب الحضارة، الغارقة بالجهل والتخلف والفقر والفساد، كل ما هو جيد. متعامين عما هو واضح فيها من أمور كارثية لا يمكن تقبلها، أو أنهم يقومون بالاستخفاف المتعمد بوزن هذه السلبيات وتأثيرها عليهم. أليس هذا غير منطقي؟ أليس من المنطقي أن يسارع أبناء كل ثقافة في نقل كل ما تمتاز به الثقافات الأخرى كي يحسنوا من واقعهم المعاش، بدل هذا التمسك العنيد بما يملكون من نواح ثقافية بالية أكل عليها الدهر وشرب؟ أليس هذا ما تفعله الشركات حول العالم؟ لم لا تقوم به الثقافات أيضا؟

رجل الكهف: لقد أجبتك عن كل هذا، لكن يبدو أن طول الحوار قد جعلك تنسى بعضا مما فيه.

داني "بخجل": هذا متوقع جدا، ولهذا أنا أسجل كل محاوراتنا، كي أعود إليها مستقبلا.

[286] **رجل الكهف** "بابتسامة": لا عليك يا صديقي. بدايةً، إن مقارنتك الثقافات بالشركات مقارنة غير عادلة. فالشركات هي مؤسسات مالية يديرها أفراد بهدف الربح فقط، والذي يحصلون عليه كفارق بين الإيرادات الإجمالية والنفقات الإجمالية. وعليه، فهم دائما ما يهدفون إلى رفع الأولى قدر الإمكان، وخفض الثانية قدر الإمكان. وفي بيئة تنافسية، فإن التعلم من الآخرين أمر ضروري إن أردت لشركتك ألا تعلن الإفلاس عاجلا أم آجلا. أما إن كنت تدير شركة احتكارية، فلن يهمك ذلك الأمر كثيرا، حيث لا يوجد منافسون لك. ولن تلجأ إلى الاستفادة من تجارب الآخرين الا في حدود الضرورة القصوى، عندما تدعو الحاجة إلى ذلك. وإن الثقافات التي طُورت تاريخيا في رقع جغرافية منفصلة، لهي أشبه بالشركات الاحتكارية، لا التنافسية. ولهذا يسمى انتشار أفكار ثقافية غريبةٍ عن مجتمعٍ ما في ذلك المجتمع، الغزو الثقافي. فما لم تكن تلك الأفكار قد اضطر ثالوث القمع إلى تبنيها نقلا عن

تجربة شركة احتكارية أخرى، لأنه وجد فيها ما يحفظ بقاءه أو يدعم من سلطته، فإنه غالبا ما يكون سبب انتشار هذه الأفكار هو محاولة ثالوث آخر مد أذرعه إلى رقعة جغرافية تقع خارج نطاق نفوذه الأصلي. وعليه سيحاول الثالوث، المُعتدى على مملكته، محاربة هذا التمدد الذي يهدد بقاءه.

داني "مقاطعا بخجل": لم أنتبه لهذا.

[287] **رجل الكهف**: أما الخطأ الكارثي الذي وقعت به في مقارنتك تلك، هو ظنك أن الرعايا هم الذين يترتب عليهم نقل الإيجابيات إلى ثقافتهم. متناسيا أن الرعايا ما هم إلا البروليتاريا في تلك الشركة -بغض النظر عن الجدل في تصنيفها- وليسوا مجلس إدارتها. مجلس إدارتها هو ثالوث القمع.

داني "مفكرا": كلامك صحيح تماما.

[288] **رجل الكهف**: على أي حال. عودة إلى نقطتك الرئيسية. فإن توصيفك الذي بدأت به كلامك يمكن التعبير عنه بكلمة واحدة، صكها ويليام سومنر عام 1906 في كتابه *أساليب شعبية*: "**استعراقية** هي الاسم التقني لهذه النظرة للأشياء التي تكون فيها مجموعة الفرد هي المركز لكل شيء، وكل الآخرين موزونون ومقيّمون بالإحالة لها...".

داني "بتعجب": استعراقية! ما هذه الكلمة القبيحة. أيا تكن، إن قبحها يوازي قبح ما تصفه.

[289] **رجل الكهف**: في الواقع إن المصطلح الذي صكه هو "Ethnocentrism" والذي أفضل أن أعبر عنه ب "مركزية عرقية". وما استعمالي ل "استعراقية" -وهي إحدى المرادفات التي تستعمل لذلك المصطلح- إلا لأني وعدتك أن أعبر عنه بكلمة واحدة، لا كلمتين.

داني "ضاحكا": على أي حال، لم أسمع بهذا المصطلح من قبل، وأنا سعيد لوجوده.

[290] **رجل الكهف** "وهو يشعل غليونه": هناك دائما أول مرة.

داني "مبتسما": صدقت.

[291] **رجل الكهف**: وسواء كنا نتحدث عن مركزية عرقية، أي عن قيام الأفراد بتقييم كل الثقافات الأخرى بناء على معاييرهم الثقافية الخاصة والتي يرونها صوابا مطلقا، أم عن تحيز لدى الأفراد للنظر إلى إيجابيات ثقافتهم متعامين عن سلبياتها، وقيامهم بعكس ذلك مع الثقافات الأخرى، دونما استعراقية، فإن كلا الحالتين مردهما إلى عاملين رئيسيين.

[292] **داني** "متلهفا": ما هما؟

رجل الكهف: هل نسيت أن ثالوث القمع يروج بين الرعايا أن غرفتهم هي أفضل الغرف في العالم؟ وهل نسيت ما قاله بيرتراند راسل في كتابه *النظرة العلمية*: "... إنه عند الغالبية الساحقة، تُدق أية قضية إذا كررت على نحو يثبتها في الذاكرة. فمعظم ما نصدقه لأننا سمعناه مؤكدا، ولسنا نذكر أين أُكد بتصديقنا، وحتى لو كان التوكيد قد قام به مُنتفعٌ بتصديقنا، وحتى لو كان القول غير مؤيد بأي

دليل..."؟ ناهيك عن المعلومات المغلوطة التي يروجها ثالوث القمع عن الغرف الأخرى، والتي بدورها عندما يتناقلها الناس، ستصبح حقيقة في أذهانهم أيضا. كيف سيتمكن ثالوث القمع من ضمان استقرار الرعايا حسبما برمجهم عليه لدرجة أن يكونوا مستعدين للتضحية بحيواتهم في سبيله، إن لم يكونوا مقتنعين تمام الاقتناع أن غرفتهم هي أجمل الغرف وأكملها وأكثرها مثالية؟ لن يتركهم مطلقا دون أن يضمن تأكده من انهم قد اقتنعوا بذلك، وإلا فهو يضحي بوجوده تماما إن هو تهاون في هذا الأمر. إنه ليس أمرا ثانويا، بل مسألة بقاء أو فناء بالنسبة له.

داني "بخجل": صحيح، لقد نسيت هذا.

[293] **رجل الكهف**: وإن نتيجة هذه البرمجة تكون كما وصفها مارك توين في كتابه *ما الإنسان* أن: "... الأمم لا تفكر، إنما تشعر فقط. ومن جهة ثانية، تأتيهم مشاعرهم من خلال أمزجتهم، لا أدمغتهم. كل أمة يمكن أن تُجلب -بواسطة الظروف، لا المجادلات- على موائمة نفسها لأي نوع من الحكومات أو الأديان التي يمكن ابتكارها. مع الوقت إنها ستلائم نفسها مع الظروف المطلوبة. لاحقا، ستفضلهم وستقاتل بشراسة من أجلهم. ولمثل هذه الحالات، لديك التاريخ كله: اليونان، الرومان، الفرس، المصريون، الروس، الألمان، الفرنسيون، الإنكليز، الإسبان، الأمريكيون، الأمريكيون الجنوبيون، اليابانيون، الصينيون، الهندوس، الأتراك. ألف من الأديان الهمجية والوديعة، كل نوع حكومةٍ يُمكن أن تخطر على بال، من نَمِرٍ إلى قِطةٍ منزلية. كل أمة تعرف أنها تملك الدين الوحيد الصحيح، ونظام الحكومة العقلاني الوحيد. كلٌ منهم يحتقر كل الآخرين. كلٌ منهم هو حِمارٌ، ولكنه لا يشعر بذلك. كلٌ منهم فخور بتفوقه الخيالي. كلٌ منهم يعتقد جازما أنه الطفل المدلل للرب، كلٌ منهم بدون أدنى شك واثق وهو يدعوه كي يدعمه في وقت الحرب. كلٌ منهم يُدهش عندما يذهب دعم الرب إلى الأعداء، لكنه بحكم العادة قادر على تبرير ذلك واستئناف الثناء عليه. باختصار، كل الجنس البشري راضٍ. راضٍ دائما. راضٍ باستمرار. لا يمكن لشيء أن يخرّب رضاه. سعيد، ممتن، فخور، بغض النظر عن دينه، وسواء كان سيده نمرا أم قطة منزلية...".

لوسيل "بحزن": فعلا إن كلامه صحيح تماما. إنه يصف الواقع.

[294] **رجل الكهف**: ما من تعبير يصف بدقة حال الناس كتوصيف بينيامين فرانكلين عندما قال: "كل طائفة تفترض أنها تمتلك كل الحقيقة، وكل الآخرين الذين يختلفون عنها مغرقون في الخطأ. كرجل يسافر في طقس ضبابي، يرى أولئك الذين أمامه على مسافة ما من الطريق ملتفين بالضباب، وأيضا الناس في الحقول على جانبي الطريق. لكن كل من هو قريب منه يظهر له بوضوح. مع أنه في الحقيقة غارق في الضباب تماما كحال أي أحد منهم".

لوسيل "بألم": إنه توصيف دقيق.

[295] **رجل الكهف**: وبما أن الإيمان كما عرفه أمبروز بيرس في *قاموس الشيطان* هو: "... اعتقاد من دون دليل، فيما قد قيل من قبل من شخص يتحدث بدون معرفة، عن أشياء لا نظير لها" أي غير

موجودة، أو لا مناظر لها حقيقي على أرض الواقع. فإنه بكلمات كارل سيغان: "لا يمكنك إقناع مؤمن بأي شيء، لأن إيمانه غير مبني على دليل..." وهذا يجعل الأمر كما وصفه توماس باين: "إن النقاش مع شخص تخلى عن استعمال سلطة العقلانية، وفلسفتهُ تتضمن النظر إلى الإنسانية باحتقار، هو أشبه بإعطاء دواء لميّت، أو محاولة هدي ملحد بواسطة الكتاب المقدس" وبرأي آرثر كلارك "ليس هناك شيء على الإطلاق، مهما كان سخيفا، لم تكن أعداد ضخمة من الناس مجهزة لتؤمن به، وغالبا بحماس شديد لدرجة أنهم سيفضلون القتال حتى الموت على تغيير أوهامهم. بالنسبة لي، هذا تعريف عملي جيد للجنون".

داني "مقاطعا": هذا واقع مؤلم.

[296] **رجل الكهف:** فلا عجب إذن أن ينتهي مارك توين في آخر *ما الإنسان* إلى نظرة تشاؤمية من محاولة إصلاح الأمم: "... آخذا بعين الاعتبار ما يمكن لهم تحمله، ومع ذلك يبقون سعداء. فأنت تُجلّني زيادة عن اللزوم عندما تعتقد أن بإمكاني أن أضع أمامهم نظاما من الحقائق البسيطة الباردة التي تأخذ منهم بهجتهم. لا شيء يمكنه فعل ذلك. كل شيء قد تم تجريبه، دونما نجاح. أتوسل إليك ألا تقلق نفسك.".

[297] **داني** "متعجبا": ولماذا تقلق نفسك إذا؟ كل الناس سعيدون ومتأقلمون مع واقعهم. وهم لا يفكرون. هم لم يفكروا عندما قبلوه، فكيف لهم أن يفكروا في تغييره؟

رجل الكهف "مشعلا غليونه": ما رأيك أن أنتهي من الإجابة على سؤالك الأول وبعدها نبحث هذا الأمر؟

داني "بابتسامة": صحيح. أكمل من فضلك.

[298] **رجل الكهف:** إذن كان ذلك هو السبب الأول. أما عند النظر إلى السبب الثاني، فإننا نجد أن الطبيعة تساعد ثالوث القمع مرة جديدة في مهمته. وكأن الطبيعة تأبى إلا أن تجهزنا كي نكون رعايا تحت إمرته.

[299] **داني** "بدهشة": كيف ذلك؟

رجل الكهف: لقد قلت لك إن إدراكنا للواقع محكوم بإدراك أدمغتنا له. بكلمات أخرى، محكوم بما تريد لنا أدمغتنا أن نراه في هذا الواقع. وما من إنسان يستطيع أن يمضي- في حياته دون أن يكون معتقدا أنها حياة جيدة تستحق أن تعاش. إن ذلك الذي يجنح دماغه للنظر إلى واقعه بسوداوية، مركزا على السلبيات فيه لا الإيجابيات، فإنه سيقع بسهولة فريسة للاكتئاب، مهما كانت حياته جيدة إن نظرت إليها كمراقب خارجي.

[300] **لوسيل** "مقاطعة بحماس": صحيح، فما قصص اكتئاب وانتحار المشاهير بقليلة، مع أن حياة الواحد منهم يحسده عليها الغالبية الساحقة من الناس. وهذا ما كان يثير استغرابي دائما.

رجل الكهف: لأن دماغ هذا المسكين، لسبب أو لآخر، لم يركز إلا على السلبيات في واقعه. سيكون خلاقا في ابتكار السلبيات، غير مبصر لأي إيجابيات ولو كان يملك كنوز الأرض كلها. فليست الوقائع هي ما يحكم نظرتنا إلى الحياة، بل ما يريد دماغنا أن نرى ونفهم منها. فكما أنه في النظام الرأسمالي تجدين أن التكلفة الفعلية للمنتج أو للخدمة لا يكون لها وزن هام في تحديد سعره، قدر وزن وأهمية عوامل أخرى، فكذلك الواقع الخارجي بالنسبة للدماغ، لا أهمية حقيقة له مقارنة بأهمية عوامل أخرى. وعليه، فإن شخصا كهذا قد يؤدي به اكتئابه المزمن إلى الانتحار، كما أشرتِ، أو على الأقل اعتزال الناس ما أمكنه.

لوسيل: صحيح. لقد تحدثنا عن هذا مسبقا.

[301] **رجل الكهف**: وعلى النقيض تماما لهذا، سيكون الآخر الذي قد قام دماغه بالتعامي عن كل السلبيات في حياته، مهما بلغ بؤسها، والتركيز على الإيجابيات فيها، أو اختراع إيجابيات وهمية يرضي بها دماغه الجَذِل. أمثال هذا هم الذين تصخب بهم الحياة في المجتمعات. يخلقون أوهاما تجعلهم محبين للحياة، ويتعامون بالكامل عن كل ما من شأنه أن يُنغصها عليهم. وهذا ما يفضله الانتقاء الطبيعي في البشر. ولأتوخى الدقة، إن هذه الحالة المتطرفة نادرة جدا. لكن الانتقاء الطبيعي يفضل كل ما اقترب منها أو لامسها.

[302] **داني** "بحماس": لماذا؟

رجل الكهف: لأن الحياة عبر كل تاريخها، لم تكن تلك الحياة السعيدة الهانئة. بل دائما ما كانت حياة تعسة صعبة. ولولا هذه الميزة، لانقرض الجنس البشري منذ أن تفتق الوعي لديه. هل نسيت جدنا؟

[303] **داني** "ضاحكا": كلا أرجوك، هل عدنا إليه.

رجل الكهف: نحن لم نتركه حتى نعود إليه. لقد سمحنا له بالنوم فحسب. هل لك أن تتخيل حياة هذا البائس، الذي كلما اهتز عشب أمامه، سيفترض أن هناك نمرا يستعد لافتراسه. هل تستطيع تحمل الحياة ليوم واحد على تلك الشاكلة؟ أليس هو أجدر بالاكتئاب والانتحار من ذلك المراهق الذي لم يشتري له والده هاتفا جديدا، أو من ذاك العاشق الذي هجرته محبوبته، أو من ذاك التاجر الذي خسر صفقة تجارية؟

لوسيل: لا مجال للمقارنة.

[304] **رجل الكهف**: لذا فإن هذه الميزة، الغير منطقية، جوهرية لبقائنا كأفراد في هذه الحياة الصعبة. وعليه فقد سيطرت سلالات الأفراد الذين جنحت أدمغتهم للتأقلم مع واقعهم، مهما بلغ بؤسه، بل وعلى التمسك بحيواتهم مهما بلغ شقاؤها. لأنهم هم الذين استطاعوا البقاء على قيد الحياة والتكاثر. لا أمثال ذاك المسكين المتشائم المكتئب. وبين هذا وذاك، درجات لا حصر لها.

داني "مفكرا": تحليلك منطقي.

[305] **رجل الكهف**: ولذا فإن دماغك قادر على جعلك تتأقلم على العيش في أصعب الظروف وأشدها قسوة. بتعاميك عن كل ما قد ينغص حياتك، والتركيز على أشياء تدفعك للتعلق بها. والآن أنتقل إلى النقطة التالية وهي أن أدمغة البشر تجنح إلى الرتابة. ترتاح لما هو مألوف. فالجديد دائما ما كان مصدر قلق للدماغ. وعليه، تجنح أدمغة الناس عادة للتأقلم مع واقعها بحكم العادة. ثم ما تلبث أن تأبى تغييره، وإن كان هذا التغيير للأحسن. فالتغيير دائما ما يتضمن تحدياتٍ جديدةً الدماغُ بغنى عنها. فيحث الناس على رفض هذا الجديد المبهم، والركون إلى البالي المألوف بسعادة وحبور. وكلما تقدم الإنسان بالعمر، أي كلما اعتاد دماغه على نمط ثقافي معين، كلما زادت صعوبة تقبله لأي تغيير مهما كان طفيفا. ولو كان صنفا من الطعام أو أي شيء تافه من هذا القبيل. فما بالك بالأمور الأكثر أهمية!

داني "مفكرا": هذا يفسر الكثير.

[306] **رجل الكهف**: ولمزيج مما سبق، يجنح الناس عادة إلى التركيز على إيجابيات ثقافاتهم، والتركيز على سلبيات غيرها. فمن يريد أن يفتح عينيه ليقول إن واقعي يحتاج إلى تغيير؟ إن هذه جملة يترتب عليها عمل عظيم. وأدمغتنا تجنح للكسل والتراخي.

لوسيل "مفكرة": لهذا إذن يقاوم الناس التغيير. بل لا يفكرون فيه.

[307] **رجل الكهف** "وهو يشعل غليونه": ليس من الغريب إطلاقا، أن تجدي شخصا قد اضطر لتغيير شيء ما في حياته، كتغيير مسكنه أو عمله، أو اضطر للعيش في ثقافة مختلفة، يتحرق شوقا إلى ماضيه الغائب، ويتفتق قلبه حنينا إلى ما اعتاد عليه في السابق. حتى وإن كان واقعه الذي يعيش فيه، من وجهة نظر موضوعية، أفضل بما لا يدع مجالا للمقارنة بما يحن إليه هذا التعس. بل قد تكون تلك المقارنة ضربا من الجنون بتفكير منطقي. لكن دماغ هذا المسكين، لا يهتم للموضوعية ولا للمنطقية، فترينه كدرا غير قادر على تبصر إيجابيات واقعه الحالي، وغير قادر على التنعم بما بين يديه، يمضي أيامه في ألم الحنين إلى ماضيه البائس. قد يبدو هذا لك بنظرة سطحية أمرا لا يمكن تبريره، وقد تقولين إن هذا الإنسان مختل عقليا أو أبله. إلا أنه ليس كذلك. هو فقط أسير ما ألفه دماغه سابقا، ويفقده حاليا.

[308] **لوسيل** "بحماس": هذا يفسر إذن تشكيل المهاجرين عادة لمجموعات ثقافية داخل البلدان المضيفة، ينقلون إليها ما أمكنهم من إرثهم الثقافي، مقاومين الاندماج في هذه الثقافة الغريبة. وقد يبقون على ذلك الحال أجيالا عديدة.

[309] **داني** "مقاطعا": لكن بالمقابل هناك كثيرون ممن يغيرون طباعهم وعاداتهم، ويحاولون تقليد الثقافات الأخرى بل ويبالغون في هذا التقليد. ويتمردون على كل ما تحتويه ثقافتهم، ويستهزئون به.

[310] **رجل الكهف**: قلت لك إن بين الناقم على ثقافته بالكامل، وبين من يهيم بعشقها، درجات لا حصر لها. هل تريد لكل البشر أن يكونوا صنفا واحدا أو صنفين؟ ألا تذكر أنني قلت إن البشر تشكلهم

حيواتهم المختلفة بكل ما مروا بها من خبرات وتجارب. وأنه لا يتشارك اثنان في تفاصيل حياتيهما، وبالتالي فكل منهما ستُشكِلُ دماغه ظروفٌ مختلفة تجعله أسيرا لها؟

داني "بخجل": صحيح.

[311] **رجل الكهف**: وبالتالي، فإذا ما حفز سبب ما شخصا ما على النقمة على ثقافته، أو حفزه سبب ما على عشق ثقافة أخرى بعينها، فإنه قد ينساق وراء ذلك. وبشكل عام، إن احتمالية استجابة الشخص لهذا المؤثر تبلغ أوجها في مرحلة المراهقة، ثم تتراجع بوتيرة ثابتة. وليس من الضروري أن يكون هذا التغيير نقلة كاملة في الثقافة، بل قد يكون محصورا في جزئية معينة منها، أو تفاصيل بعينها نتيجة موثر ما سبب له عقدة نفسية معينة، أو كبت تعرض له في الطفولة. وهنا تزداد احتمالية أن يستجيب هذا الشخص للمؤثر ذي الصلة استجابة إيجابية. وستجد والحالة هذه، أن الشخص سيعمد إلى المبالغة في القيام بما قد كبت عنه. أو المبالغة في النهج منهجا يثبت لنفسه فيه أنه على عكس العقدة التي قد تشكلت في دماغه. في الواقع، إنه من السهل جدا على العين الخبيرة أن تقرر فيما إذا كان تصرف ما من تصرفات الشخص ناتج عن عادة أم عن ردة فعل.

[312] **داني** "بدهشة": هل تريد أن تقول إن كل تفضيلاتنا وتصرفاتنا محصورة بين عادة وردة فعل؟ ألا يوجد مَن يغير مِن عادة ثقافية، أو يخالف بعض النواحي في ثقافته، فقط لأنه قد اقتنع أن ذلك هو الصواب؟

رجل الكهف: بلى طبعا. لكن من الواضح أنك لم تستيقظ بعد! كفاك تعميما فيما لا يعمم فيه إلا جاهل. لا تطالبني بتعميمات لا يمكنني القيام بها. لست ساذجا لأضع التعميمات هنا. أنا أجيبك على الحالات التي تشير إليها فحسب. عندما نتحدث عن أمور كهذه، فهناك عدد لا نهائي من مزيج الاحتمالات الرياضية. علينا دراسة كل حالة بعينها لفهم سبب سلوكها هذا المسلك أو ذاك. وأحيطك علما أنه ما من سلوك يقوم به إنسان على وجه الأرض غير مبرر. أي لا يمكنك تقصي- الدافع وراءه، والسبب الكامن الذي حفز عليه، لو أتيحت لك المعلومات الكافية عن هذا الشخص، كما والوقت اللازم للتحليل. لكن بما أننا اتفقنا بالأمس على أن الأفكار لا تهبط على الناس من السماء. فبالتالي عندما يقوم شخص ما لسبب أو لآخر بكسر قاعدة ثقافية، أو ربما هجر الثقافة بأكملها، فإن ذلك يكون نتيجة حافز ما قد دفعه إلى ذلك. صحيح أن هذا الحافز قد يكون مؤثرا خارجيا صادفه في مسيرة حياته، لكن هذا المؤثر عينه لن يؤثر بذلك الذي لا يملك عقدة أو كبتا ذو صلة، قدر تأثيره بمن يملك ذلك. هل نسيت نظام الترشيح في الدماغ؟ الأول لا توجد عنده مشكلة أساسا، فعلى الأغلب سيدع ذلك المؤثر يمر مرور الكرام، ولن يلقي له بالا. ولكي تجعله يشكل استجابة إيجابية لهذا المؤثر، فعليك أن توجهه كي ينتبه له أولا، ثم عليك القيام بعمل جاد كي تقنعه به، وبعدها فقط قد يستجيب له، أو قد تجد أن جهدك قد ذهب هباءً. لا يوجد لديه حافز للاستجابة لمؤثر من شأنه أن يغير عادة لديه، ذلك التغيير سيقلق دماغه. أما الثاني فعلى العكس، سيكون يقظا منتظرا هذا المؤثر. أو ربما

كان يبحث هو عنه في الأصل، وإن كان غير واع للسبب الذي أصبح دفينا في لاوعيه كما أوضحت لكما بالأمس.

داني "بابتسامة خجولة": لقد توسلت إليك أن تتيح لي المجال كي أستيقظ قبل ان نبدأ حوارنا. لكنك أبيت.

[313] **رجل الكهف**: أتحمل مسؤوليتي في ذلك. على أي حال، بشكل عام يلجأ الناس إلى الالتزام بإطار ثقافي محدد تمت برمجتهم عليه منذ الطفولة. وهكذا فإنهم سيختلفون في طباعهم وتصرفاتهم ونظراتهم للأمور حسب اختلاف تجاربهم في الحياة، لكنهم يبقون عادة ضمن ذلك الإطار العام. ولذا يمكنك أن تجمعهم في ثقافة واحدة، فاختلافاتهم تلك غير جذرية ثقافيا. وإن تعرض أحد ما، أثناء برمجته في فترة الطفولة، إلى تشديد عال على جانب، أو عدة جوانب من هذا البرنامج الثقافي العام، فإنه عندما يكبر قد يميل إلى أن يكون متشددا فيه أكثر من اللازم. أو إنه سيميل، غالبا مع وجود محفز ما، للانقلاب على ذلك الأمر بعينه، والقيام بعكسه، كردة فعل. وكأنه بذلك يعاقب من جعل من هذا الأمر عقدة لديه. إنه كالقنبلة اليدوية التي سحب مسمار أمانها، جاهز للانفجار حالما تتاح له اللحظة المناسبة للقيام بكل ما منع عنه سابقا. ولذا فإنك ستجده عادة يبالغ في القيام بما منع عنه عندما لا يستطيع أحد منعه، مقارنة بمن يفعل الأمر ذاته بحكم العادة.

داني: فهمت عليك.

[314] **رجل الكهف**: والآن، هل حللت لك المعضلة التي جعلتك مستيقظا الليلة الماضية؟

داني "بابتسامة": أعتقد ذلك.

رجل الكهف: إذن قم واستحم ودعنا نأكل شيئا، قبل أن نناقش أي موضوع آخر، كي تستيقظ تماما.

داني "ضاحكا": وهو كذلك.

****

الباب السادس
في ماهية الثقافة

(تمشي ثلاثتهم قاصدين الشاطئ بعد أن استحموا وتناولوا فطورهم)

[315] **لوسيل:** كنتما تتكلمان عن الثقافة منذ أن استيقظ داني، لكن هل لنا أن نحدد ماهية الثقافة ؟

رجل الكهف: يجيبكِ عن هذا روبرت بيرسدت في كتابه *النظام الاجتماعي*: "إنه ليس من السهل القول على وجه التحديد ماهي الثقافة..." فغالبا يقوم كل باحث بتعريفها من زاوية ما، بما يتوافق ونوع بحثه كما وغرضه من استعمالها فيه. وهذا ما فعله روبرت بيرسدت نفسه في موضع لاحق من الكتاب المذكور: "... على أي حال، كي نتجنب قدر الإمكان الصعوبات التي تعلق بالمصطلحات الفنية، وكي نحتفظ بمزايا البساطة والشمولية، سنقوم بتعريف الكلمة على النحو التالي: الثقافة هي ذلك المركب الكامل الذي يحتوي على كل طرائق تفكيرنا وأفعالنا وكل شيء نحصل عليه كأفراد في مجتمع ما..." وفي الحقيقة، لا أجد ما يمنعني من موافقته على هذا التعريف إلا أن تُفهم العبارة الأخيرة على نحو مادي لا ثقافي.

لوسيل "وهي تتعثر": فهمت قصدك.

[316] **رجل الكهف:** ومع ذلك، فكما أنه لا يمكن تجاوز تشارلز داروين عند الحديث عن البيولوجيا، فإنه لا يمكن تجاوز ايدوارد تايلور، المتأثر بداروين لسخرية المقارنة، عند الحديث عن الأنثروبولوجيا. والذي يقول في كتابه *الثقافة البدائية*: "الثقافة أو الحضارة، مأخوذة بمعناها الأنثروبولوجي الواسع، هي ذلك المركب الكامل الذي يحتوي المعارف، العقائد، الفنون، الأخلاق، الأعراف، وأي مقدرات أو عادات أخرى يتم اكتسابها بواسطة الفرد لكونه جزءا من مجتمع ما..." يعتبر هذا التعريف تقليديا هو التعريف الكلاسيكي الأشمل لمفهوم الثقافة، ولن تجدي أي تعريفات شمولية لاحقة تخرج كثيرا عن إطاره. إن الثقافة كما أعنيها يا لوسيل، تشمل كل ما يتناقله الأفراد لا جينيا، باستثناء الأموال والممتلكات. وبتعبير أكثر اختصارا وتحديدا، هي مجمّع كل الميمات المنتشرة والتي تنتقل من فرد إلى آخر.

[317] **داني** "بتعجب": الميمات! ماهي الميمات ؟

رجل الكهف: الميمات هي مصطلح صكه ريتشارد دوكنز، ونشره لأول مرة في كتابه *الجين الأناني* عام 1976 ليعني به: "...اسم يجسد فكرة الوحدة القائمة على الانتقال الثقافي، أو الوحدة القائمة على التقليد..." وعرّفه بقوله: "...كيان قادر على الانتقال من دماغ إلى آخر...". فكما أن الحياة قائمة على جينات تنتقل عبر الأفراد من جيل إلى آخر بواسطة التكاثر البيولوجي، فكذلك الثقافة قائمة على ميمات تنتقل عبر الأفراد في الجيل نفسه، كما ومن جيل إلى آخر. فكل فكرة هي ميم، وكل معلومة هي ميم، وكل لحن موسيقي هو ميم، وكل طريقة عمل شيء ما هي ميم. كل ما ابتدعه الدماغ البشري هو ميمات. كل ما تكتسبه كفرد، منذ لحظة ولادتك هي ميمات.

[318] **لوسيل** "مفكرة": هل المقطوعة الموسيقية هي ميم، أم كل علامة موسيقية داخلها هي ميم؟ وهل كل نظرية علمية أو فكرة فلسفية أو منظومة دينية هي ميم، أم أنها تجمّعٌ لميمات أصغر؟

رجل الكهف: في الواقع تصدى صاكك المصطلح نفسه للإجابة على هذا السؤال، وإن إختلفت الآراء حوله. لكني أميل إلى تأييده عندما قال في كتابه المذكور: "...إن كانت جملة موسيقية واحدة من سمفونية بيتهوفن التاسعة متميزة وخالدة في الأذهان على نحو كاف يسمح بتجريدها من سياق السمفونية كلها... يمكن القول عندئذ إن هذه الجملة الموسيقية تشكل ميما..." ويقول: "إن ميم نظرية دارون، هو القاعدة الأساسية للفكرة المشتركة بين مختلف الأدمغة التي تفهم النظرية... وإن كان بالإمكان تقسيم نظرية دارون إلى مكونين فرعيين، بحيث يؤمن بعض الأشخاص بالمكون A ولا يؤمن بالمكون B، فيما يؤمن بعضهم الآخر بالمكون B ولا يؤمن بالمكون A، لابد عندئذ من النظر إلى المكونين A و B باعتبارهما ميمين مستقلين. أما إن كان تقريبا كل من يؤمن بالمكون A يؤمن أيضا بالمكون B، أي إذا كان الميمان مرتبطان على نحو وثيق... فيصبح من الملائم أن نجمعهما في ميم واحد.".

[319] **داني**: إذن المهم أن يكون للميم معنى مميز، فإن كانت علامة موسيقية واحدة أو حرف واحد أو كلمة واحدة تحمل معنى مميز إذا تم تناقلها بمفردها فذلك ميم. وإذا كانت جملة كاملة قد تفقد معناها الخاص إن حذفت منها كلمة، فتصبح بكاملها ميما. وإن طريقة صنع شيء ما هي بكاملها ميم. وكل فكرة مميزة بذاتها هي ميم، وكذلك كل معلومة، وهلم جر.

[320] **رجل الكهف**: صحيح، فكل التفاصيل في حيواتنا هي ميمات بدءا من الميم الذي يحدد لك طريقة التحية المناسبة، وذلك الذي يحدد لك طريقة جلوسك المناسبة في كل مقام، والآخر الذي يحدد لك طريقة الأكل المناسبة، إلى ذلك الميم الذي يحدد لك ما هو الإله، والآخر الذي يحدد لك ما هو الوطن، وهكذا.

لوسيل "مبتسمة": شكرا للتوضيح.

[321] **رجل الكهف**: هذا وإن مجموع الميمات الموجودة في دماغ فرد ما تشكل ثقافته، تماما كما أن مجموع الجينات في حمضه النووي تشكل جسده.

[322] **داني** "مفكرا": إذا الثقافة كلمة واسعة جدا، تشمل كل شيء غير مادي!

[323] **رجل الكهف**: بالضبط. فأنت تشمل بهذه الكلمة جميع الأفكار، والأسماء، والمعلومات، واللغات، والأديان، والعادات، والتقاليد، والأعراف، والايديولوجيات، والحكم، والشعارات، وأساليب المعيشة، والرياضات المختلفة، والفنون المختلفة، وآداب المائدة، وطرق طهي الطعام، وصناعة الأشياء، وأنماط البناء، وفنون العمارة، وفنون القتال، والنظريات السياسة، والنظريات الاقتصادية، والعلوم، والفلسفات، والموضات، والأزياء، وما إلى هنالك من أمور يتناقلها البشر فكريا، أو يقومون

بأكتشافها أو ابتكارها أو تعلمها.

[324] **لوسيل**: إذا هي اختصارا جميع النتاج الفكري للجنس البشري. كل الأفكار والمعارف.

[325] **رجل الكهف**: تماما. وعليه، تكون ثقافة الفرد الواحد مقدرة بمقدار ما يحوزه من تلك المعارف، وثقافة مجموعة ما هي ما يتناقلون من معارف مختلفة، وتسمى ثقافة محلية. والثقافة بشكلها العام، هي مجموع كل ذلك.

[326] **داني**: وهل يمكن تقسيم المعارف الإنسانية في مجموعات مستقلة، أم أنها لا بد أن تترك كمجموعة واحدة عشوائية المحتوى؟

رجل الكهف: في الواقع لن تجد تصنيفا متفقا عليه للمعارف الإنسانية، فغالبا ما اعتاد الباحثون تقسيمها حسب ما يخدم أغراض بحثهم، هذا لأن تلك المعارف متداخلة ببعضها البعض سواء من حيث تطورها التاريخي، أو تشاركها بالمهمات. فيندر أن تجد فرعا منها مستقلا بذاته لا يؤثر ولا يتأثر بغيره. أو إن هذا ما أراه. فمع وجود هيكليات محددة لكل فرع منها، كما يعرف أي طالب جامعي، لكن تصنيف هذه الفروع، أو قل التخصصات، في بوتقات جمعية هو أمر متروك لكل باحث كي ينظمه حسب الطريقة التي ينظر بها الى الأمر. ومع ذلك، إن كنت مهتما، يمكننا النظر إلى الموضوع نظرة علوية متجردة، لا نظرة من زاوية معينة، ونرى ما يمكننا أن نصل إليه.

[327] **داني** "متحمسا": يبدو أن ذلك ممتع. فلنقم به.

رجل الكهف "متكئا على شجرة ناظرا إلى الأفق": يا له من منظر ساحر. من المؤكد أن هذه كانت أول جملة في تلك الحكاية.

[328] **لوسيل** "متعجبة": أتفق معك أن جمال الطبيعة يسلب الألباب. لكن عن أي حكاية تتحدث؟

رجل الكهف: إنها قصة الإنسان. رحلته بحثا عن المعرفة.

[329] **داني** "بحماس": اقصصها علينا.

رجل الكهف "شارد الذهن مركزا نظره على الأفق": ليس الآن يا أصحاب، ليس الآن. فتلك قصة طويلة متشعبة جدا. كما أنه لا يجوز لي تدنيس طهارة هذا المكان، بقذارة الإنسان.

[330] **داني**: إذن أجبني على سؤالي، كيف يمكننا تقسيم المعارف الإنسانية؟

رجل الكهف "وهو يخرج غليونه من جيبه": إني مقتنع تماما بأن نظرية المعرفة هي المحور الرئيسي- الذي يتحكم بنظرتنا لكل شيء. هي الأساس الذي يجب أن ننطلق منه دائما، ونتأكد من سلامته قبل أن نبحث في أي أمر. وعليه، فإني أجد نفسي مدفوعا لتقسيم المعارف الإنسانية بنظرة ابستمولوجية. أي تجميع المعارف ضمن مجموعات حسب طريقة معرفتنا بها، وتقييمنا لها.

داني "بحماس": جميل جدا.

[331] **رجل الكهف:** وبالتالي فإني أرى المعارف الإنسانية اليوم مقسمة إلى ثلاثة أقسام رئيسة. أولها من الجهة اليمنى هو ذلك القسم الذي يحتوي الأديان والفنون بأنواعها والعادات والتقاليد وما الى هنالك من أمور نحكم عليها من وجهة نظر ذاتية لا موضوعية. حيث لا توجد قوانين موضوعية مجردة للحكم على ما تحتويه هذه المجموعة، بل إن القوانين التي تحكمها هي قوانين ذاتية. أي قوانين وضعها الأفراد حسب ما ارتأوا هم، لا لسبب آخر. ففيها نجد اختلافات صارخة بين تقييمات الناس لمحتوياتها، ولا يمكنهم العودة إلى مرجعية موضوعية للاحتكام. ويترك فيما تحتويه هذه المجموعة هوامش كبيرة للناس، وآراؤهم لها أهمية كبرى في قيمة محتواها.

[332] **لوسيل** "بلهفة": هذه هي المجموعة التي يتشاجر الناس على تقييمات محتوياتها إذن. ولا يمكن لهذا الشجار أن ينتهي لانتفاء وجود مرجعية موضوعية يمكن الاحتكام إليها.

[333] **رجل الكهف:** صدقتِ. أما في الجهة اليسرى نجد المجموعة التي تحتوي عكس ذلك. وهي مجموعة العلوم الطبيعية، بقسميها النظري والعملي، وكل ما تحتويه من فروع ومجالات مرجعيتها قوانين علمية مجردة وموضوعية. حيث تنتفي الذاتية في التقييم هنا أو التحيز أو حتى إبداء الآراء. فيجب أن يُحتكم دائما إلى القوانين الطبيعية التي تكون لها الكلمة الفصل. لا آراء الناس وما يرغبون أو يفضلون.

[334] **داني:** إذا تحتوي هذه المجموعة على كل العلوم وتطبيقاتها، حيث لا مكان للآراء الفردية وللنزاع حول صحة الأمور حسب ما يرى كل فرد من منظوره، أو حسب ما يرغب أن تكون عليه القوانين والقواعد. بل الكل مضطرون للامتثال للقوانين الطبيعية الصارمة الحيادية التي هي المرشد والحاكم.

[335] **رجل الكهف:** أصبت. وبين هذا وذاك مجموعة ضخمة جدا من المعارف قد خرجت من عباءة الأحكام والتفضيلات الذاتية التي تخضع لها عناصر المجموعة اليمنى، لكنها في الوقت عينه لم تصل بعد إلى إتباع المنهج العلمي بالكامل وأن تخضع للسلطة اللامحدودة لصرامة القوانين الطبيعية، بل لا يزال للعامل الشخصي تأثير فيها وإن كان يتناقص تدريجيا مع الوقت بتناسب عكسي- مع زيادة صرامة القوانين التي تتطور فيها يوما بعد يوم. يمكننا تسميتها بمجموعة العلوم الإنسانية والاجتماعية. هذا لأنها لا تحتوي علوما طبيعية، بل تحتوي كل العلوم التي تهتم بدراسة الإنسان والمجتمعات البشرية. على رأسها الفلسفة وعلم الاجتماع، ثم تأتي باقي العلوم الأخرى كالأنثروبولوجيا، والديموغرافيا، والتاريخ، والسياسة، والاقتصاد، والأديان، واللغات، وما إلى هنالك وما ينضوي تحت كلٍ من هذه العلوم من فروعٍ هي أكثرُ من أن تحصى. وكما هو ملاحظ، فإن دراسة هذه العلوم تختلف تماما عن دراسة العلوم الطبيعية، التي يمكن فيها تحييد كل المؤثرات أثناء دراسة ظاهرة ما، كما ولا تأثير للباحث في نتيجة بحثه. ويمكن القيام بالتجربة وتكرارها ثم تعميمها، إلى ما هنالك من أساليب تصبغ البحث العلمي. وهذه الأمور لا تزال متعذرة على أعضاء هذه المجموعة، لذا فإنها لم تصل إلى تلك الموضوعية المطلقة التي وصلت إليها العلوم الطبيعية.

[336] **لوسيل** "بتعجب": مهلا. لقد قلت أن الأديان تنتمي إلى هذه المجموعة، ألم تكن في المجموعة الأولى

قبل قليل؟

رجل الكهف: الدين من حيث هو دين بطقوسه وأساطيره ومعتقداته، ينتمي للمجموعة الأولى، أما دراسة الأديان، وفلسفاتها، ومقارنة الأديان وما شابه ذلك، تنتمي للمجموعة الوسطى، كحال الفنون بأنواعها. فكل فن من الفنون ينتمي للمجموعة الاولى، أما دراستها فلا ينبغي أن تخضع لأهواء الدارس، بل لها قواعد وقوانين. لذا فهي في المجموعة الوسطى، وهكذا. كما أن الفلسفة من حيث هي فلسفة لا تنتمي لهذه المجموعة، لكن دراستها تنتمي إليها.

[337] **داني** "متعجبا": ولأي مجموعة تنتمي الفلسفة إذن؟

رجل الكهف: الفلسفة من حيث هي فلسفة، موجودة كمظلة تظلل البوتقات الثلاث. مدارسها تتدرج على هذه المظلة. وأوضح لونين يصبغان هذه المظلة هما المثالية المسيطرة على القسم الأيمن منها، والمادية أو الواقعية المسيطرة على القسم الأيسر. بمدارسهما المختلفة، إضافة إلى كل التوجهات الفلسفية والمدارس المتنوعة.

[338] **داني** "بتعجب": لماذا؟

رجل الكهف: لأن الفلسفة تتدخل في كل المعارف الانسانية. في كل فروع المعرفة، كما وفي المباحث الثلاث الرئيسة لها. باختصار، لا يمكن الهروب من الفلسفة. لا يمكن لإنسان أن يهرب من الفلسفة، ولا يمكن لفرع من المعارف الإنسانية أن يهرب منها.

[339] **لوسيل** "مفكرة": وماذا عن علم النفس؟ لم تشر إليه.

رجل الكهف: علم النفس كما أراه اليوم، هو في اللحظة الحالية يضع قدما في العلوم الإنسانية والأخرى في العلوم الطبيعية. وإني أراه متجها بسرعة، بالتزامن مع تطور علم الأعصاب، ليصبح بعد بضعة عقود علما حقيقيا بشكل كامل.

لوسيل "بتعجب": لم أفهم عليك.

رجل الكهف "وهو يشعل غليونه": سأوضح لك الأمر.

[340] **داني** "بفضول": تفضل.

رجل الكهف: في الماضي السحيق كانت كل معارف البشر مادية صِرفة. كانت بسيطة جدا وهزيلة، لكنها كانت مادية بالكامل.

[341] **داني** "متعجبا": لماذا؟

رجل الكهف: انظر اليوم إلى الناس البسطاء الفقراء، هل لديهم وقت ليتفكروا في أي شيء فكري؟ هل يبدعون فنونا وأفكارا فلسفية ونظريات سياسية واقتصادية وهلم جر؟ أم إن جُل اهتمامهم هو العمل بكد كي يُحصّلوا لقمة عيشهم؟

داني: بالطبع هؤلاء المساكين لن يهتموا إلا بتأمين قوتهم.

[342] **رجل الكهف:** وهكذا كان الانسان الأول. يكدح كل وقته في تأمين قوته والحفاظ على حياته. فلم تكن لديه الرفاهية اللازمة للتفكر بأي شيء أو ابتداع أي شيء لا يخدم الحفاظ على بقاءه بشكل مباشر. لكن مع بدء الاستقرار النسبي، وبالتدريج، بدأت الأفكار المجردة والميتافيزيقية بالظهور. لتتطور تدريجيا ببطء شديد لتصل عظمة سيطرتها في أيام أفلاطون ساحبة البساط بالكامل من تحت أقدام المادة، لتصبح الأخيرة ماهي إلا تجليات لعالم مثالي ميتافيزيقي. لكن في البداية، فإن كل معارف الناس على بساطتها، كانت محصورة بأمور مادية، ويستمدونها بواسطة ما نطلق عليه اليوم بالمصطلح المعاصر "المنهج العلمي التجريبي".

[343] **لوسيل** "بدهشة": كان للإنسان البدائي علوم تجريبية! كيف ذلك؟ العلوم معقدة جدا!

رجل الكهف: يجيبك عن ذلك بيرتراند راسل في كتابه *النظرة العلمية* بقوله: "لئن بدت الطريقة العلمية معقدة في شكلها النهائي المهذب، فهي في جوهرها غاية في البساطة. فهي تتلخص بملاحظة تلك الحقائق التي تُمكن من يلاحظها من اكتشاف قوانين عامة تسري على حقائق من نفس النوع. فالمرحلتان، وهما الملاحظة أولا، واستنتاج قانون ثانيا، كلتاهما ضروريتان، وكلتاهما قابلتان للتهذيب إلى غير حد تقريبا. ولكننا نجد أن أول رجل قال (النار تحرق) إنما كان يستخدم الطريقة العلمية في جوهرها، إن كان قد سمح لنفسه بأن يحرق عدة مرات. فهذا الرجل قد مر فعلا بمرحلتي الملاحظة والتعميم..." وهكذا بالنسبة لباقي معارف عصرهم، كانت كلها أمورا بسيطة من هذا النوع. لذا فإني سأعتبر المعارف الإنسانية في ذلك العصر كلها، على ضحالتها، حيث لا فنون ولا آداب ولا أديان ولا خيال خصب، تنتمي إلى مجموعة العلوم الطبيعية.

داني "بابتسامة": ملاحظة لطيفة.

[344] **رجل الكهف** "وهو يتابع المسير": لكن بكل أسف، في وقت لاحق، انتشرت الخرافة في العقول انتشار النار في الهشيم لتصل تدريجيا إلى سيطرة مطلقة. لدرجة أن كل المعارف، بما فيها أكثر المعارف تجريدا كالرياضيات، أصبحت قابعة تحت سيطرة المجموعة اليمنى حاليا. في تلك المرحلة لم يكن هناك تقريبا من مجموعات أيضا، كحال المرحلة السابقة عليها، لكن مع تغيير عنوان المجموعة. لم يكن هناك من مرجعيات موضوعية يمكن الاحتكام إليها، لأن الفكرة التي سيطرت كانت تقضي، بكلمات بيرتراند راسل في كتابه *أثر العلم في المجتمع*: "... إن العالم الطبيعي ليس ذاتي المحتوى سببيا..."، وعليه فإن كل ثقافة قد صاغت قوانينها الخاصة. فأمسى المرض عقوبةً على تصرفٍ ما قام به المريض آنفا. والخسوف سببه موت الملك. والكسوف نذير شؤم. والجفاف غضبٌ من الآلهة. وتشوه المولود مرده إلى فكرة ما راودت الأم أثناء الحمل. والعقم سببه لعنة ما، لسبب ما. وهطول الأمطار هو نتيجة لدعاء الناس. والموت سببه خروج الروح. والصرع سببه الأرواح الشريرة التي تلّبست المريض، وهكذا كان لكل أمر طبيعي سبب خرافي ما. وكانت هذه الأسباب تختلف من ثقافة إلى أخرى ومن وقت إلى

آخر. فكان الطب شعوذة، والفلك تنجيما، والكيمياء خيمياء، وانتشر السحر والدجل والخرافات وربطت الماورائيات في كل ما يمس حيوات الناس. وبكل أسف لا يزال أثر هذا الإرث الخرافي مستشريا كالسرطان في أدمغة معظم الناس حول العالم حتى هذه اللحظة.

[345] **لوسيل**: ومتى بدأت العلوم تحصل على مجموعتها المنفصلة إذا؟

رجل الكهف: القصة طويلة، ففي الحقيقة كان الشامانات والكهنة والسحرة والمشعوذون قد قاموا بتطوير شيء من العلوم في الواقع، وإلا لمّا يكن بإمكانهم الاستفادة من الظواهر الطبيعية للتأثير على الناس وإقناعهم بما يريد ثالوث القمع أن يقنعهم به. لكنهم كانوا يخفونها عن الرعايا وينشرون بينهم تلك الخرافات، وهكذا كانوا يتمكنون من إقناعهم بما عليهم إقناعهم به، مما من شأنه تدعيم سطوتهم عليهم. لكن المنهج العلمي كما نعرفه اليوم تعود بدايته إلى غاليليو، وبكلمات بيرتراند راسل في كتابه *أثر العلم في المجتمع*: "ربما كان أهم عامل في القضاء على النظرة التي سبقت النظرة العلمية هو قانون الحركة الأول، الذي ندين به إلى غاليليو، وإن كان ليوناردو دافنشي قد سبقه إليه إلى حد ما.".

[346] **داني** "بجماس": مالذي تغيّر؟

رجل الكهف: يجيبك بيرتراند راسل في كتابه *الدين والعلم*: "... إن العصور الوسطى اعتقدت أن بعض الأشياء تحدث بطريقة منتظمة مثل شروق الشمس وتعاقب الفصول، في حين إنها اعتبرت الأشياء الأخرى علامات ونذرا تشير إلى أحداث آتية، أو أنها دعوة إلى الناس كي يتوبوا عن خطاياهم. ولكن منذ أن جاء غاليليو ورجال العلم ينظرون إلى القوانين الطبيعية على أنها قوانين متغيرة وليست ثابتة. فهذه القوانين تخبرنا كيف أن الأجسام تتحرك في ظروف معينة، وبذلك تستطيع أن تمكننا من حساب ما سوف يحدث في المستقبل، دون أن يعني هذا أن ما حدث لا بد وأن يستمر في الحدوث... مثل هذا المفهوم كان أصعب من أن يستوعبه العقل في العصور الوسطى، الذي فهم قوانين الطبيعة على أنها تأكيد لاستمرار حدوثها. فضلا عن أن هذا العقل نسب الظواهر غير المعتادة وغير المتكررة إلى إرادة الرب مباشرة وليس إلى أي قانون طبيعي." ولهذا عندما قال باروخ سبينوزا في *رسالة في إصلاح العقل*: "يبدو كأني استخلص هنا نتيجة من التجربة، وقد يقول بعضهم إنني لم أثبت شيئا، نظرا إلى كوني لم أقدم برهانا، فإذا أصررتم على ذلك، ها هو ذا البرهان: لا شيء مما يوجد في الطبيعة يناقض قوانينها، وكل ما يحدث إنما يحدث وفقا لقوانين طبيعية محددة، فتنتج عنه، وفق قوانين محددة، معلولات محددة تربط بينها علاقات ثابتة، وبالتالي فكلما تصوّرت النفس شيئا من الأشياء تصورا صحيحا، كشفت لا محالة عن آثاره الموضوعية..." فإن القارئ العادي في ذلك الزمان، كحال كثيرين ممن يعيشون في هذا الزمان، لن يعتبر ذلك برهانا لما خلص إليه سبينوزا، بل فرضية استخدمها ليثبت بواسطتها فرضية أخرى . فإذا كنا حتى اليوم نعاني في إقناع الكثيرين من عامة الناس بأن ذلك مقدمة أساسية، وذلك لاحتوائها على الخاصيتين التين يجب أن يكونا للمقدمة الأساسية كما حددهما بيرتراند راسل في *ما وراء المعنى والحقيقة* وهما أنها تحدث نتيجة لوقائع محسوسة، وأن

تكون بالصورة التي لا يمكن لمقدمة أساسية أخرى أن تتناقض معها، فلك أن تتخيل العامة في زمني غاليليو وسبينوزا. قد تعتبر أنت كإنسان متعلم ومتنور هذا بديهيا، لكنه لم يكن كذلك في الماضي، كما أنه ليس كذلك حتى اليوم بالنسبة للكثير من الرعايا.

[347] **داني** "بإثارة": إذا يعود الفضل إلى غاليليو في وجود الطريقة العلمية.

رجل الكهف: بالتأكيد ليس لغاليليو فقط، لكنه كان من أهم مسببات تلك القفزة في الفكر الإنساني. إن بيرتراند راسل يؤكد بكل وضوح في كتابه *النظرة العلمية*: "... أعتقد أن العالم الحديث ما كان ليوجد لو أن مئة من رجال القرن السابع عشر قد قتلوا في طفولتهم. وعلى رأس هؤلاء المائة، غاليليو." هذا وأحيطكما علما أن أول صرح علمي تم بناءه في العالم هو الجمعية الملكية في لندن، على يد الملك تشارل الثاني عام 1660.

[348] **لوسيل** "مقاطعة": وماذا عن الفلاسفة، ألم يكن لهم يد في هذا الأمر؟

رجل الكهف: هل تمزحين معي! كيف لا. وهل يقوم صرح فكري دون فلسفة؟ كنت للتو سأتكلم عن هذا لو لم تقاطعيني. إن الفضل يعود لفرانسيس بيكون في تأسيس المذهب التجريبي. ولمعاصره، المتأخر عنه قليلا، رينيه ديكارت في تطوير المذهب العقلاني. ليلتحق توماس هوبز بالأول والتعس باروخ سبينوزا بالثاني. وفي عصر الأنوار لدينا جون لوك وجورج بيركلي وديفيد هيوم على التوالي. ولديكِ فلاسفة حلقة فيينا أصحاب التجريبية المنطقية أو الوضعية المنطقية، ولديك بيرتراند راسل، وكارل بوبر في القرن العشرين والقائمة تطول.

لوسيل "بخجل": أعتذر عن المقاطعة، إنه اللّهفُ للمعرفة.

[349] **رجل الكهف**: لا عليكِ. على أي حال، فإنه منذ أواخر القرن السادس عشر، أو لنقل القرن السابع عشر، بدأت بشكل جدي ترتسم ملامح المجموعة اليسرى من المعارف الانسانية، والتي أخذت متوسعة منذ ذلك الوقت بتسارع مضطرد، لتضيف إلى جعبتها مزيدا من الفروع المعرفية. يشير علي شريعتي إلى بروز هذه المجموعة في كتابه *مسؤولية المثقف*: "في القرنين الرابع عشر والخامس عشر عندما كان يقال في أوروبا: جاء العلماء. إن ذلك كان يعني علماء الدين... لأن كل النشاطات العلمية مقتصرة على المراكز الدينية...وكانت كل العلوم تحت إشراف الدين ورجال الدين. وفجأة في القرن السابع عشر حينما يقال: جاء العلماء. كان السؤال الذي يُطرح هو: أي علماء؟ علماء الدين أو العلماء غير الدينيين؟".

داني "مبتسما": ملاحظة لطيفة.

[350] **رجل الكهف**: وفي وقت متأخر عن ذلك برزت ملامح المجموعة الوسطى، وذلك بانسحاب بعض الفنون من المجموعة اليمنى لتؤسس قواعد منهجية لها مقلدة بذلك العلوم الطبيعية. وهكذا تشكلت لدينا المجموعات الثلاث. لكنها مجموعات غير مستقرة.

[351] **داني** "متعجبا": ماذا تعني؟

رجل الكهف: إن المجموعة اليسرى تتضخم مجتذبة فروعا علمية جديدة، محولة إياها من علوم إنسانية إلى علوم طبيعية. والمجموعة الوسطى تجتذب المزيد من مكنونات المجموعة اليمنى محولة إياها من فنون إلى علوم إنسانية. وهذا ما قصدته عندما قلت عن علم النفس أنه اليوم في مرحلة وسطى من الانتقال من العلوم الإنسانية إلى العلوم الطبيعية. وبالمثل فإن باقي الأفرع تحذو حذوه بسرعات متفاوتة. وشيئا فشيئا فإني أعتقد أن المجموعتين اليمنى والوسطى سيتضاءلان حتى يختفيا في المستقبل. ليصبح كل شيء مرهونا بقواعد وقوانين منطقية مضبوطة بحيادية وموضوعية، وعليه تكون موحدة عالميا.

[352] **لوسيل**: وماذا عن الرياضيات؟

رجل الكهف: الرياضيات لغة. لكنها ليست لغة حرفية، بل هي لغة رقمية. وبالتالي حالها كحال الفلسفة واللغات الأخرى. هي كالمظلة التي تظلل كل شيء. فلا يوجد فرع من أفرع المعارف الإنسانية لا يستخدم اللغات. لكن لكونها لغة طبيعية لا لغة مبتدعة بشرية، فإن دراستها تنضوي تحت قائمة العلوم الطبيعية. مخالفة بذلك اللغات الحرفية والفلسفة، اللتان تنضويان تحت قائمة العلوم الإنسانية حتى الساعة.

داني "مفكرا": هذه نظرة مثيرة للاهتمام.

[353] **رجل الكهف**: إذا أنت ترى هذا التقسيم للمعارف الإنسانية منطقيا.

داني "بسعادة": منطقي جدا. فنحن ننظر للمعارف حسب القواعد التي تحكمها. وهذا تصنيف حيادي شمولي يتجاوز الكثير من العثرات.

[354] **رجل الكهف**: لكن تنبّه إلى أنه شمولي جدا. إنه كنظرة علوية من نافذة طائرة. كما أنه ديناميكي. ولقد طرحته عليكما باختصار شديد. فإننا لو أردنا الخوض في التفاصيل فلن ننتهي منها حتى المساء.

داني "بابتسامة رضى": لكنه أكثر من كاف الآن. شكرا لك.

[355] **رجل الكهف**: وأنتِ يا لوسيل، هل عرفتِ ماهية الثقافة؟

لوسيل "بابتسامة": بالتأكيد، شكرا لك.

رجل الكهف: دعونا نحث الخطى إلى وجهتنا إذا.

****

الباب السابع
في الخطوات العشر نحو المعرفة الموسوعية

(الثلاثة جالسون على الشاطئ جانب موقد الشواء يتناولون الطعام)

[356] **رجل الكهف:** فيم تفكر يا داني ؟

داني "مستغرقا بأفكاره": إني أنظر إلى البحر وأرى فيه الثقافة الإنسانية. إنها كالبحر في اتساعها. وأفكر في نفسي، هل يمكن لي إدراكها ؟ تبدو لي مهمة مستحيلة. أشعر أني ضائع تتقاذفني أمواج بحر الثقافة.

[357] **رجل الكهف:** ألم تسمع ما قاله الشاعر الروماني سكستوس بروبرتيوس في إحدى قصائده: "يكفي في الأمور العظيمة أن تريد" ؟

داني "ضاحكا": هذا كلام شعراء. الإرادة وحدها لا تكفي للقيام بشيء.

[358] **رجل الكهف:** أتفق معك، ويتفق معنا جورج هيجل في *أصول فلسفة الحق* فيقول: "... لكن ينبغي علينا أيضا أن نكون قادرين على تحقيقه، وإلا فإن الإرادة تكون تافهة باطلة...".

داني "بيأس": هل رأيت. قلت لك هذه هي المشكلة. أنا غير قادر على تحقيق ما أريد.

[359] **رجل الكهف:** لِمَ ؟

داني "بقنوط": ألا ترى المعارف الإنسانية متسعة اتساع البحر ؟ هل تستطيع شرب البحر كله ؟

[360] **رجل الكهف:** على رسلك يا صاح. صحيح أنه يستحيل على إنسان أن يحيط بالثقافة الإنسانية كلها. لكن ألم تسمع بالحكمة التي تقول: ما لا يُدرك كله، لا يُترك جله ؟

داني: بالطبع.

[361] **رجل الكهف:** أريد أن أقوم بتعديل هذه الحكمة، لتصبح "ما لا يدرك جله، لا يترك كله". والآن أريد أن أستخدم الحكمتين بالتزامن مع بعضها، الأصلية والمستحدثة. لتصبح الحكمة الكاملة "ما لا يدرك كله لا يترك جله، وما لا يدرك جله لا يترك كله".

[362] **داني** "بتعجب": ماذا تعني بهذا ؟

رجل الكهف: ما لا يمكنك أن تحيط به بمعرفة تامة، كحال بحر المعارف الإنسانية، لا تتركه بالكامل، بل اعرف منه معظمه. وفي أثناء ذلك، ما لا تستطيع ان تعرف عنه الكثير، كأحد فروع المعارف الإنسانية التي تحتاج تخصصا، فلا تتركه بالكامل دون أن تعرف عنه شيئا واحدا على الأقل، لُبّه، أو أهم ما فيه.

[363] **داني** "بدهشة": وكيف لي أن أقوم بذلك؟

رجل الكهف: الأمر بسيط. اتبع نصيحة توماس هكسلي.

[364] **داني** "بتعجب": أي نصيحة؟

رجل الكهف: "حاول أن تتعلم شيئا عن كل شيء، وكل شيء عن شيء".

داني "ضاحكا": نصيحة لطيفة. لكنك تقولها ببساطة وكأنها أمر سهل المنال.

[365] **رجل الكهف**: دعنا نفكر سوية في خريطة طريق نضع فيها برنامجا قد يساعدك في الوصول إلى أفضل ما يمكن إنجازه من تلك المهمة. وبهذا تكون قادرا على تحقيق ما أردت كما اشترط هيجل، فيكون لإرادتك معنى.

داني "بحماس": دعنا نفعل ذلك أرجوك.

[366] **رجل الكهف**: قبل أن تفكر يا داني في أن تحوزَ المعارف الإنسانية كلها، عليك أن تتأكد أنك مُلِمٌ إلى أبعد الحدود بواحد على الأقل من مجالاتها، وكل ما يحيط به ويتفاعل معه من مجالات أخرى. وليكن هذا المجال هو نفسه مجال عملك.

داني: هذا بديهي، لا بد أن أعرف كل شيء يتعلق بمجال عملي.

[367] **رجل الكهف**: قد يكون بديهيا بالنسبة لك، لكن الغالبية من الناس لا تتقن أعمالها. ومعظم الباقين مغرقون في التخصص لدرجة العمى الكامل فيما يخرج عن النطاق الضيق الذي هم متخصصون فيه، والذي يقومون به بشكل روتيني كالآلات.

لوسيل "بتركيز": صدقت.

[368] **رجل الكهف**: إذا، لا يجوز لك أن تفكر في أن تصبح مثقفا وتهدف إلى تغيير العالم، إن لم تكن قادرا على إفادة المجتمع في مجال واحد على الأقل بكفاءة عالية. وإن قلة قليلة من الناس تقوم بذلك. فمعظم الناس يعملون لهدف واحد فقط هو كسب المال. لذا فهم لا يكترثون لأي شيء سوى هذا الأمر. لكن إن أردت أن تصبح مثقفا، عليك أن تكون متحررا من عبودية المال، وتنظر إلى مجال عملك كفرع من فروع الثقافة، وهذا ما سيحفزك على تعلم المزيد والمزيد فيه.

داني: أصبت كبد الحقيقة.

[369] **رجل الكهف**: إذن إن فعلت هذا، تكون قد انتهيت من الشق الثاني من نصيحة هكسلي، ويبقى علينا فقط الشق الأول منها.

داني "ينفجر ضاحكا": وكأنك تقول لي أني قد قطعت نصف الطريق، وأنا لم أغادر مكتبي بعد.

[370] **رجل الكهف**: لأنك لا تعي كم يتطلب من جهد كي تحيط بمجال واحد وبكل ما يتعلق به. على أي

حال، أتمنى أن تكون قد أدركت مقصدي بعمقه وشموليته كما أقصده أنا، لا بالمعنى السطحي لعبارة "أنا ملم بعملي وماهر به" كما يعنيها معظم الناس.

داني: أعتقد أني فهمتك.

[371] **رجل الكهف:** إذا لنتابع الرحلة. إن اللغة هي ما يميزنا عن غيرنا من الرئيسيات. وإن الثقافة تنتقل بواسطة اللغة. لذا فعليك أن تكون ضليعا بلغتك الأم، واللغة العالمية السائدة، ولغة البلد الذي تقيم فيه.

[372] **داني** "متعجبا": أليس هذا بديهيا أيضا؟

رجل الكهف: قد يكون بديهيا بالنسبة لك، لكن كثيرا من الناس لا يجيدون حتى لغتهم الأم.

[373] **لوسيل** "باستغراب": إذا كنت قد انتقلت إلى بلد جديد، فلم عليّ أن أتقن لغة بلدي الأم؟

رجل الكهف: لأنها اللغة التي استُخدِمت لبرمجة عقلك. وهي لغة الثقافة التي بُرمجتِ عليها. فلكي تتمكني من تحرير نفسك، عليكِ إتقانها أولا.

[374] **داني** "مفكرا": وماذا عن اللغة العالمية السائدة، ماذا تقصد؟

رجل الكهف: في الوقت الراهن إنها اللغة الإنجليزية. هذه اللغة التي يمكنك استخدامها أينما تجولت في العالم. كما أنها اللغة التي تنشر فيها كل الأبحاث العلمية، وتترجم لها كل الكتب الهامة، ومحتوى الإنترنت بهذه اللغة هو ثري جدا. يمكنك البحث عن أي شيء تريده بواسطة اللغة الإنجليزية. لهذا فهي ضرورية. إن تعلمها يفتح للإنسان آفاقا لا حدود لها.

داني "مؤيدا": لا شك في ذلك.

[375] **رجل الكهف:** ثم إن تعلم أي لغة هو وسيلة لتطّلِعَ على ثقافة جديدة. فإن اللغة هي أهم عامل في تمييز الثقافات. لا يمكن أن تجد اختلافات جذرية بين ثقافتين يتكلمان نفس اللغة. وبالمقابل، لن تجد ثقافتين متطابقتين يتكلمان لغتين مختلفتين. وأنت إذ تتعلم لغة جديدة، فإنما تتعرض لثقافة جديدة كانت محجوبة عنك مسبقا. ولذا إن كنت تعيش في بلد ما، سواء كان بلدك الأم أو بلد آخر، فتعلم لغته لن يفيدك فقط في الحديث إلى الناس وإجراء التبادل الثقافي معهم وقراءة الكتب فحسب، بل سيفتح لك الباب على تعلم ثقافة هذا البلد أثناء مسيرتك في تعلم هذه اللغة.

[376] **لوسيل** "مفكرة": لكن إلى أي حد يجب على الإنسان أن يتقن هذه اللغات؟

رجل الكهف: ليس المطلوب أن يصبح الإنسان من فطاحل اللغة. فهذه قد تكون مرحلة أعلى إن أراد الشخص أن يتخصص في إحدى اللغات أو الآداب أو مقارنة اللغات أو تاريخها أو فلسفتها. لكن المطلوب أن يكون الإنسان قادرا على ممارسة المهارات اللغوية الأساسية بسهولة، أي القراءة والكتابة والسماع والمحادثة. إضافة إلى إتقانه للقواعد التي هي العمود الفقري لأي لغة. لا يمكن أن يصبح

الإنسان مثقفا ما لم يكن قادرا على قراءة الكتب وكتابة النصوص بثبات، دون أخطاء إملائية أو نحوية، ومستخدما علامات الترقيم كما ينبغي أن تُستخدم. هذا المستوى الذي يجب أن يكون عليه في هذه المرحلة.

لوسيل "بابتسامة": فهمت قصدك.

[377] **رجل الكهف:** وأنا إذ أقول هذا، فإن هذا المستوى لا يجعل الإنسان مثقفا. بل يُملِكه الأدوات اللازمة كي يصبح مثقفا. تماما كما أن تملُّكك لكاميرا تصوير احترافية لا يجعلك مصورا محترفا، لكنه يجعلك تمتلك الوسيلة اللازمة لتصبح كذلك.

داني "مبتسما": تشبيه جميل.

[378] **رجل الكهف:** أما الآن وما إن أتقنت اللغات المذكورة، واللاتي قد يكنّ واحدة أو إثنتين أو ثلاثة على حسب الحالة الخاصة بكل إنسان. فعلى الإنسان أن يُلِمَّ بثقافة بلده الأم، والثقافة العالمية السائدة، وثقافة البلد الذي يعيش فيه.

[379] **داني** "مستفهما": هل لك أن تشرح؟

رجل الكهف: عليك أولا تعلّم ثقافتك الأم، حتى وإن كنت قد انتقلت للعيش في بلد آخر، فتلك الثقافة هي التي برمجت عقلك. ألا تذكر أن طريقة عمل دماغك محكومة بما مررت به من تجارب وما تمت برمجته عليه، وأن ذلك كله مزروع في لاوعيك ويتحكم في أفكارك وسلوك ومشاعرك وإن كنت قد قررت بوعيك العيش في نمط ثقافي مختلف؟

داني: صحيح، أتذكر هذا.

[380] **رجل الكهف:** إذن إن أردت إبطال عمل البرنامج القديم، عليك أن تتعلم تلك الثقافة بوعيك هذه المرة، لا بالتلقين كما تعلمتها مسبقا. وذلك بدراسة تاريخ المنطقة، والحضارات التي تعاقبت عليها، وعاداتها وتقاليدها، والأديان المنتشرة فيها والأديان السابقة على أرضها، وكل مكوناتها الثقافية. وهكذا ستستطيع أن تفك شيفرات البرمجة لديك، كما وستستطيع تفهّم طريقة تفكير الرعايا في بلدك الأم والأسباب التي أدت لذلك.

لوسيل "بإعجاب": صدقت.

[381] **رجل الكهف:** وعليك فعل الأمر نفسه بالنسبة لثقافة البلد الذي تعيش فيه. وعليك فهم مكونات الثقافة العالمية السائدة، والتي هي في المرحلة الراهنة، الثقافة الغربية.

[382] **داني** "متعجبا": لكن ما أهمية ذلك؟

رجل الكهف: عليك أن تعرف أن كل إنسان يتصرّف بناء على منظوره الثقافي. وبالتالي فعليك أن تتعلم الثقافات المختلفة، وأهمها هذه الثقافات الثلاث التي ستتعرض لها أكثر من غيرها، كي تستطيع أن

تفهم تصرفات الناس من حولك. وأن تستطيع لبس نظاراتهم لتنظر للأمور من منظورهم، لا أن تكون عالقا بنظاراتك الأصلية فحسب. كما ويمكنك ذلك من أن تفهم خلفيات الأمور التي تعرض عليك عبر وسائل الإعلام المختلفة، والأحداث الدولية والثقافية والتاريخية التي تؤثر في واقعك.

داني "مفكرا": هذا صحيح.

[383] **رجل الكهف:** إذا، فقبل أن تصبح مثقفا، عليك أن تفهم مكونات مجتمعك الثقافي وخلفياتها، ومكونات الثقافة السائدة في العالم والتي تؤثر عليك رغما عنك. عندما تدرك هذه الأمور، تستطيع أن تحرر نفسك من التأثيرات الغير مرغوب بها، كما وستستطيع قراءة الواقع بموضوعية أكبر.

[384] **داني** "بشغف": ماذا عن الحضارات الأخرى؟

رجل الكهف: إن تمكنت من أن تُحيطَ بما سبقت الإشارة إليه فذلك خير عظيم لا يحوزه غالبية الناس. ومهمتك تلك قد تكون محصورة بثقافة واحدة أو اثنتين أو ثلاثة حسب حالتك الفردانية. وكلّما كنت فاهما لهذه الثقافات أكثر، كلما كان ذلك أفضل. وكحال اللغات، التي يمكنك أن تتعلم المزيد منها حسب رغبتك أو حاجتك، بعد ان تنتهي من تلك التي أشرتُ إليها، فإن الأمر ينطبق على الثقافات. لكن يمكنني تأجيل ذلك لمراحل لاحقة لأن هناك أمورا أكثر أهمية الآن.

[385] **داني** "بحماس": ماهي؟

رجل الكهف: قبل أن أشير إليها، أريد أن أكون صريحا معك. إني أعتقد أن ما سبقت الإشارة إليه، هو فرض عين على كل إنسان، سواء أراد أن يصبح مثقفا ام لا. فهي كلها أدوات ثقافية أساسية لا بد أن يحوزها أي عاقل يعيش داخل مجتمع ما. فهي ضرورية لتحقيق تفاهم متبادل منطقي بين أبناء المجتمع، كما وتحقيق منفعة متبادلة بينهم. واعلم أن الإنسان عدو ما يجهل. وعليه، فعندما يتشارك أبناء مجتمع ما العيش فيه وهم لا يدركون خلفيات بعضهم الثقافية، فإن من السهل أن يلعب بهم ثالوث القمع ويجعل بعضهم أعداءً لبعض. ولا بد من فهم الثقافة العالمية التي دخلت كل منزل رغما عن أنوف ساكنيه للغرض نفسه.

لوسيل "بحزن": صدقت.

رجل الكهف: وبهذا أنتقل إلى أول خطوة لا تتعلق بضرورة وجودك كفرد داخل المجتمع، بل تتعلق بكونك محبا للتعلم.

[386] **داني** "بلهفة": ماهي؟

رجل الكهف: عليك أن تكون ملما بالعلوم الحديثة على المستويين النظري والتطبيقي. وهذه الخطوة لا يمكن تجاوزها بحال من الأحوال.

[387] **داني** "بتركيز": لماذا؟

رجل الكهف: أولا، لأن المنهج العلمي مختلف كل الاختلاف عن أي منهج فكري آخر. فعليك أن تتعلم هذا المنهج بشكل مستقل. إن الطريقة التي ينهجها العلماء مختلفة بالكلية عن الطريقة التي ينتهجها عامة الناس. عليك ان تكون مدركا تماما للفرق بينهما. كما وإن التطبيقات العلمية تتدخل في كل شيء في حياتنا المعاصرة، كل شيء على الإطلاق. فبدون إدراكك للعلوم المختلفة وفهمك لها، لن تفهم أي شيء من واقعنا المعاش. إضافة إلى أنه، كما أشرتُ بالأمس، لا يجوز لك اليوم أن تقوم بأي بحث دون أن تأخذ بعين الاعتبار رأي العلم فيما يخص بحثك، لأن "... المشكل المركزي في نظرية المعرفة، كان ولا يزال نمو المعرفة. ولكي نستطيع دراسة هذا النمو لا بد من دراسة نمو العلم." كما أشار كارل بوبر في "منطق البحث العلمي" وبالتالي إن لم تكن مطلعا على العلوم، فإن بحثك ذاك سيكون بلا معنى تماما.

داني "بتركيز": أكمل من فضلك.

[388] **رجل الكهف** "وهو يشعل غليونه": هل لدينا شيء ما يُشرب؟

لوسيل "تبحث في حقيبتها": تفضل هذه الجعة.

[389] **رجل الكهف:** شكرا لكِ. وثانيا، إن العلوم قد قدمت إجابات على معظم تساؤلاتنا. لا يمكن لك اليوم أن تفهم العالم والكون والحياة والظواهر الطبيعية. بل لا يمكنك فهمُ نفسِكَ دون أن تبحث عن الإجابة العلمية والتفسير العلمي للظاهرة موضوع البحث، ألا تذكر تلك الحقائق الصادمة التي حدثتكما عنها بالأمس؟ كيف لك إدراكها دون أن تكون قد اطلعت على العلوم الأساسية؟

داني "ضاحكا": كلا أرجوك، لا نريد العودة لذلك الآن.

[390] **رجل الكهف:** وثالثا، بما أن تطبيقات العلوم تحيط بنا تماما من كل الاتجاهات، بل هي تلامس جسدنا، فملابسنا هي إحدى منتجاتها، كما وطعامنا وعلبة الجعة هذه. فبالتالي إنك عندما تطلع على العلوم المختلفة، فإنما أنت تُعلِّم نفسك كيف تَعملُ الأشياء، وكيف تُصنع، وكيف يتم إصلاحها. فلا يجوز لمثقف أن يكون منفصلا عن واقعه الملموس. وما أكثر أنصاف المثقفين، من مثقفي المقاهي الذين يعيشون في بروج نظرية منفصلين عن واقعهم لا يفقهون منه شيئا.

[391] **لوسيل** "بتعجب": ولم أسميتهم أنصاف المثقفين؟

رجل الكهف: لأنهم يملكون الشق النظري فقط من الثقافة، لكنهم لم يقتربوا من الشق العملي منها.

[392] **داني** "مفكرا": هذه نقطة مهمة. إن أغلب المثقفين هم هكذا في الواقع. ما هو السبب برأيك؟

رجل الكهف: دعنا لا نشتت الموضوع، ولنكمل خارطة الطريق التي نرسمها لك أولا.

داني "ضاحكا": صحيح، دعني أكن أنانيا الآن وأهتم بنفسي.

[393] **رجل الكهف:** عليك يا صاحبي أن تكون مُلِمّا بالأعلام. سواء المعاصرين منهم أو الأسبقين.

[394] **داني** "بتعجب": ماذا تقصد؟

رجل الكهف: إن الحضارة الإنسانية هي طريق طويل يرصّفه الناس عبر التاريخ. بعض أولئك الناس كان لهم الفضل في تغيير مسار ذلك الطريق. لذا، فعليك أن تكون على دراية بهم. عليك ان تعرف أسماءهم، والحقب الزمنية التي عاشوا فيها، أهم أعمالهم وآثارهم، والمجالات التي نشطوا فيها. لا يجوز أن تكون مثقفا وأنت لا تعرف هؤلاء الأشخاص. ستمر أسماءهم عليك في الكتب وفي المحاضرات وغيرها، وسيفترِض من يشير إليهم أنك عارفٌ بهم. كما وإن الحضارة الإنسانية لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا عبر النقاشات والجدالات العبر ثقافية عبر تاريخية التي دارت بينهم، وكنتيجة مباشرة لأعمالهم. فالعالم الذي تعيش فيه اليوم، لم يكن ليكون كما هو عليه دون وجودهم. فلا يجوز مطلقا تجاوزهم أثناء مسيرتك الثقافية بأي حال من الأحوال.

[395] **لوسيل:** فعلا، إنه من المخجل جدا ألا يعرف هؤلاء الأعلام معظم الناس اليوم، بينما يعرفون أتفه الراقصين والمغنين والممثلين الاباحيين.

رجل الكهف: لقد شرحت لكما السبب في الأمس.

داني: صحيح.

[396] **رجل الكهف:** عليك أيضا أن تكون مُلِمّا بالخريطة الطبيعية والسياسية للعالم. سواء كنت متفقا معها أم لا، إنها أمر واقع. وكما كان الأمر مع الأعلام، فإن عليك أن تكون عارفا للخرائط السياسية لدول العالم، وعارفا لطبيعة نظام الحكم في كل دولة، ونظامها الاقتصادي، وعملتها والدين السائد فيها ولغتها وما إلى ذلك. عليك أن تكون واعيا للديموغرافيا العالمية، وانتشار الأديان الكبرى واللغات الكبرى، والأنظمة الاقتصادية والسياسية المختلفة. عليك أن تعرف أسماء ومواقع البحار والمحيطات والقارات والدول الهامة والمدن الشهيرة وتوزع الثروات الطبيعية والاقتصادية في العالم.

لوسيل "مقاطعة": هذا كثير. أشعر ان عليّ دراسة الجغرافيا كما كنت أدرسها في المدرسة.

[397] **رجل الكهف:** كلا يا عزيزتي، أنا لا أطالبك بذلك. عليكِ معرفة الدول العظمى في البداية، ثم الدول المحيطة بكِ، ثم تنتشري باتجاه الأبعد والأقل وزنا عالميا. عليك معرفة المعلومات الرئيسية بحيث أنك عندما تسمعين اسم دولة، أو تمر عليك في كتاب تقرئينه أو مقال أو أي كان، ستكونين على دراية بالمعلومات الرئيسية عنها، ومع الوقت ستزداد معلوماتك تبعا لأهمية الدول وما يحدث فيها وما تحتويه من ثروات وأثرها الحضاري، بعد أن تكوني قد صنعتِ هذه التبويبات في دماغك. لا يمكن أن تكوني مثقفة وأنتِ لا تعرفين اين تقع دول العالم، أو أين تقع القارات والمحيطات. إن هذا غير مقبول على الإطلاق. سيجعل المعلومات عشوائية تماما في دماغك. ولن تستطيعي استخلاص أي نتائج سليمة منها.

لوسيل "بخجل": أنت على حق.

[398] **رجل الكهف:** والآن عليكِ أن تكوني مطلعة على المدارس الفلسفية الكبرى، والديانات الكبرى، والأنظمة الاقتصادية والسياسية الرئيسية. عليكِ أن تكوني فاهمة لها لأنها هي من ترسم خريطة العالم الثقافية وتؤثر في كل الثقافات.

داني: لم أفهم قصدك.

[399] **رجل الكهف:** بكلمات أكثر تبسيطا، عليك أن تقرأ وتبحث حتى تصبح قادرا على فهم معاني كلمات مثل: شيوعية، رأسمالية، اشتراكية، ثيوقراطية، أوتوقراطية، تكنوقراطية، أوليغاركية، ديموقراطية، أناركية، علمانية، وجودية، مثالية، وضعية، مادية، عدمية، لا أكترائيه، لا دينية، لا أدرية، ربوبية، إلحاد، وهلم جر. كما والأديان الرئيسية في العالم، مسيحية، إسلام، بوذية، هندوسية، يهودية، وهكذا. على أن تبدأ في كل ما سبق مما هو يلامس واقعك ومجتمعك والمجتمعات المحيطة فيك، ثم الأكثر انتشارا في العالم ثم الأبعد والأقل أهمية. عليك الاطلاع على كل هذه التوجهات حتى تصبح مألوفة لك، وأنت تفهمها تمام الفهم.

داني "بيأس": هذه مهمة كبيرة.

[400] **رجل الكهف:** لكنها مهمة لا يمكن التنازل عنها. فهذه التوجهات هي ما رسم خريطة العالم الثقافية وهي ما يتحكم بها. إن لم تدرك تماما ما تعنيه كل منها لن تستطيع التعمق في فهم وإدراك أي أمر ثقافي، ولن تمتلك الأدوات التحليلية الازمة. ستكون نظرتك للأمور ضحلة جدا، وستختلط عليك المفاهيم، ولن تستطيع فهم أي أمر ثقافي، ولا تحليله تحليلا صائبا، ولا تفسيره تفسيرا سليما. ولا يمكنني أن أقول إلا ما قاله كارل ماركس في مقدمة الطبعة الفرنسية لكتابه الشهير *رأس المال*: "ولا أستطيع أن أساعد هنا إلا بشيء واحد: تنبيه القارئ المتعطش للحقيقة وتحذيره منذ البداية من هذه الصعوبة. ليس في العلم طريق واسع وممهد، ولا يستطيع بلوغ ذراه المشرقة سوى ذلك الذي لا يخشى-عناء تسلّق مسالكه الوعرة.". هل كنت تعتقد أن ارتقاء البرج هو كالمشي في الحديقة؟ أو أن خوض غمرات البحر، هو كالسباحة في بركة السباحة؟

داني "بخجل": كلا طبعا.

[401] **رجل الكهف** "مشعلا غليونه": هل تتم دعوتك عادة إلى بوفيه مفتوح؟

داني: نعم كثيرا، بسبب طبيعة عملي.

[402] **رجل الكهف:** وكيف تتصرف هناك؟ هل تأكل صنفا واحدا أم ماذا؟

داني: يختلف الأمر، حسب الموجود على المائدة. فما لا أعرفه لا أقترب منه عادة.

[403] **رجل الكهف:** ما رأيك في أن تتذوق قليلا من كل صنف، ثم بعد ذلك تحدد الصنف الذي يعجبك، أو الأصناف التي اشتهتها نفسك، فتكمل وجبتك منها. وبهذا تكون على دراية بجميع الأصناف الغريبة، وعليه فإنك لن تفوت على نفسك فرصة تذوق صنف لم تكن تعرفه وقد يعجبك

كثيرا، وإن سألك أحد ما عن أي صنف، ستكون قد تذوقته مسبقا وبذلك تستطيع إبداء رأيك فيه عن خبرة. أليس هذا تصرفا حكيما؟

داني "ضاحكا": بالتأكيد إنه كذلك. لكن عليّ أن آمل أن يتبقى لي المزيد من الطعام عندما أعود لأستزيد مما أعجبني.

[404] **رجل الكهف:** إذا كان ذلك مضمونا، هل ترى هذا التصرف حكيما؟

داني: ليس هناك أفضل منه.

[405] **رجل الكهف:** عظيم جدا. بعد أن تسلّحت بكل ما سبق، فأنت مؤهل الآن للدخول إلى البوفيه الثقافي المفتوح.

[406] **داني** "متعجبا": أي بوفيه هذا؟

رجل الكهف: لقد ساعدتك بتصنيف المعارف الإنسانية في مجموعات ونحن في طريقنا إلى هنا، هل لازلت تذكرها؟

داني: بكل تأكيد.

[407] **رجل الكهف:** أريدك الأن أن تتخيل تلك المعارف الإنسانية كأصناف طعام على المائدة المفتوحة. فعليك أن تتذوق من كل مجموعة منها، وأن تدرك مكونات كلٍ منها، وترابطاتها وبعضها البعض. ثم بعد ذلك، استزد تعمقا فيما يجذبك منها. وبهذا، فأنت تتعمق في فرع أو أكثر من فروع المعارف الإنسانية، لكنك في الوقت نفسه لست غريبا عن الفروع الأخرى، كما أنك مدرك لترابطات وتداخلات وتفرعات هذه المعارف. وهكذا تكون قد أقحمت نفسك في المائدة الثقافية. ما رأيك بهذا؟

داني "ضاحكا": فكرة عظيمة. ولو أن لعابي يسيل على تخيل الأمر كمائدة طعام عليها أصناف الطعام الشهية، لا المجلدات الضخمة.

[408] **رجل الكهف:** إن من يتحرر من غرائزه ويمارس هواية الثقافة، يشعر بلذة تفوق لذة الطعام والشراب والجنس وغيرها من ملذات الرعايا. ألم يقل أفلاطون في *الجمهورية*: "... ليس هناك من لذة حقيقية صافية فعلا ماعدا لذة العقل..."؟ لكن لا يُمكن للإنسان أن يبلغ لذة المعرفة هذه، إلا عندما يبلغ دماغه.

[409] **لوسيل** "بتعجب": يبلغ ماذا؟

رجل الكهف: يبلغ فكريا لا جسديا.

[410] **لوسيل:** هل لك أن توضح.

رجل الكهف: إن اللذة يا لوسيل مرتبطة ببلوغ القدرة. فلا يمكن للرضيع أن يتلذذ بأشهى الأطعمة، قبل أن يبلغ سنا يتمكن فيه من أكلها. وقبل ذلك السن، قد يتقيأ ألذ الأطعمة إذا ما

وضعت في فمه، فلا هو قادر على التمتع بأكلها، ولا جسمه قادر على هضمها.

لوسيل: صدقت.

[411] **رجل الكهف**: والطفل غير قادر على إدراك معنى اللذة الجنسية قبل أن يبلغ جنسيا. مهما وصفتِ له متعة الممارسة الجنسية فلن يستطيع تخيلها. وغالبا ما سيرى الأمر مقززا ولا معنى له تماما. قطعةُ شوكولاتةٍ ألذُ منه.

لوسيل "ضاحكة": صحيح تماما.

[412] **رجل الكهف**: وبالمثل فاللذة العقلية لا يدركك كنهها إلا من خَبِرها، ولا يختبرها إلا من عمل على تحرير دماغه ثم تطويره بالشكل الصحيح. وعندها فقط، سيستطيع التمتع بالملذات الفكرية، التي تضاهي جميع ملذات الجسد. فكما أن الرعشة الجنسية التي يستلذ بها البالغون أكبر من ملذات الطعام والشراب التي يستلذ بها الأطفال، فكذلك الرعشة الدماغية أعظم لذة من الرعشة الجنسية. وأعتقد أن نسبة الفرق بين هاتين الاثنتين يوازي نسبة الفرق بين أدناهما والتي هي أدنى منها. لقد قالها بصراحة آلدوس هكسلي: "المثقف هو الشخص الذي وجد شيئا واحدا أكثر إثارة للاهتمام من الجنس" ولذا يا داني، إن عملت جاهدا على تطوير دماغك لتصل لمرحلة المائدة الفكرية هذه، فسيكون تذوقها أكثر إمتاعا وأعظم لذة بالنسبة لك، مما لو كانت عليه كمائدة طعام، وإن كنت لا تستطيع إدراك هذا الآن، كما لا يستطيع الطفل إدراك كنه اللذة الجنسية.

داني "مفكرا": لا يمكنني مخالفتك طالما أنني لم أجرب ذلك!

[413] **رجل الكهف**: "لقد قمت، لبعض الوقت، بتفحص مختلف الأعمال التي يتعاطاها الناس في هذا العالم، وحاولت أن أختار أفضلها... يكفيني أن أقول إنه لم يبد لي شيء أفضل من الإتمام الدقيق لما عزمت عليه، أي استغلال حياتي كلها لتطوير عقلي وتقصي جذور الحقيقة... لأن الثمار التي ذقتها وأنا في سبيل ذلك من الحلاوة بمكان بحيث أرى أنه لا شيء في هذه الحياة يمكن أن يفوقها لذة ونقاوة... صارت روحي مفعمة بفرح لا يقدر أي شيء آخر أن يدخله عليها." هكذا وصف رينيه ديكارت تجربته في صعود البرج.

[414] **داني** "بحماس": هذا محفز جدا. لدي فضول كبير كي أختبر ذلك. زدني أرجوك، ماذا بعد؟

رجل الكهف: لقد وصلت الخطوة النهائية، ماذا تريد بعد. المائدة كلها بين يديك، والطعام الذي فيها لا ينضب، تماما كما لو كنت في الجنة. إنها الجنة على الأرض يا صاح. يمكنك أن تتذوق وتستزيد فيها من أي صنف تشتهيه نفسك. وكل صنف يسمح لك بالتعمق فيه دون أن ينضب. ومتى ما اشتهيت أن تأكل من صنف آخر، فالقرار قرارك. يمكنك التوسع في السياسة، أو التاريخ، أو الاقتصاد، أو الانثروبولوجي، أو السوسيولوجي، أو البيولوجي، أو السيكولوجي، أو الكوزمولوجي، أو الميثولوجي، أو الأنطولوجي، أو الابستمولوجي، أو الاكسيولوجي، أو أي مدرسة

فلسفية، أو الفلسفة بعمومها، أو أي دين من الأديان، أو مقارنة الأديان بالطريقة التي تراها مناسبة، أو التعلم عن ثقافات أخرى وحضارات أخرى، قديمة أو حديثة. يمكنك أن تتعمق في أي فرع تحبه وأنت لست غريبا عن غيره. أو إن أردت، يمكنك أن تمضي- بقية حياتك تتنقل بين هذه الفروع حسب ما يلح عليك دماغك.

داني "بسرور": هذا رائع. أحببت ذلك جدا.

[415] **رجل الكهف** "نافثا دخان غليونه": وعليّ أن أؤكد على أمر بالغ الأهمية، وهو أن مرورك بكل تلك المراحل، يجب أن يكون مرور الفاهم، لا الحافظ. تذكر إننا لا نريد شخصا حافظا. أريدك أن تكون هادفا للفهم، وبطبيعة الحال، فأنت تتعرض للمعلومات التي ستستخدمها كمخزون حفظي في ذاكرتك. عليك ان تُعنى بالأمرين معا. فمدرسة الحياة تختلف عن المدرسة الحكومية. فالأخيرة تمتحنك بما حفظت، أما الأولى فتمتحنك بما وعيت.

لوسيل: ملاحظة قيمة. شكرا للتذكير.

[416] **داني**: لكن لَم تُخبرني لِمَ لا أجد معظم المثقفين ينهجون هذا النهج؟ لِم أرى معظمهم منعزلا عن الواقع يقرأ الكتب. أراه إنسانا نظريا فقط يناقش أمورا كلها بعيدة عن الواقع، بينما لا يفقه أي شيء فيما يلامس الحياة المادية التي يعيشها؟

رجل الكهف "وهو ينظف غليونه": على الرغم من أن "المثقف" هو مصطلح حديث نسبيا، لكن عبر التاريخ كله كان هناك بصورة أو بأخرى "مثقفون"، هم بناؤو البرج. اختلفنا أو اتفقنا على تعريف المثقف، فإن هذا ليس موضوعنا الآن. ومع ذلك، فإن المثقف بالصورة التي تطرحها أنت هو كائن حديث جدا. لم يكن مثقفو الماضي -أيا ما كانوا- على هذه الشاكلة بتاتا. وإني أرى مرد هذا إلى عوامل ثلاث.

[417] **داني** "بلهفة": ماهي؟

رجل الكهف: أولها هو الرأسمالية القذرة، التي شجعت، لأسباب لسنا بصددها الآن، على تقسيم الأعمال، ومن ثم التخصص في اختصاصات محددة، وعلى التخصص ضمن التخصص. لدرجة أن "... التفكير نفسه في عصر التقسيمات هذا، ربما أصبح حرفة مميزة..." بكلمات آدم فيرغسون في كتابه *مقالة في تاريخ المجتمع المدني*. لذا فبات هذا الكائن المثقف مقتنعا أن مهمته محصورة في التعامل مع المجردات. مع الأفكار، مع الورق والأقلام، لكن ليس من شأنه أن يقوم بأي أمر آخر، لأن الأمور الأخرى يقوم بها عامة الشعب، من وجهة نظره. إنه أرستقراطي فكريا.

[418] **داني** "باهتمام": ألم يحث أفلاطون على ذلك في *الجمهورية* و*القوانين*؟

رجل الكهف: بالطبع هو أقرّ ذلك من ضمن ما أقرّه من مصائب آذت البشرية من بعده. لكنها لم تدخل حيز التطبيق الفعلي واسع النطاق إلا بعد سيطرة الرأسمالية. ولولا أني لا أريد لحوارنا أن

يتحول إلى حوار في الاقتصاد وفي الاقتصاد السياسي، لكنت تطرقت للموضوع بتفصيلاته.

لوسيل: صحيح، لسنا بصدد ذلك الآن.

[419] **رجل الكهف:** وثاني العوامل هو وسائل الإعلام. التي روّجت، بتوجيه من ثالوث القمع، لهذه الصورة النمطية عن المثقف، كي تنفّر الناس منه. ألا تذكر أنهم يروجون لمن صعد البرج على أنه مجنون؟ لذا فهي تصوره في الحكايات والمسلسلات والأفلام إنسانا معقدا، منفصلا عن الواقع. لا يعرف كيف يتكلم مع الناس، وإن كلمهم فهو يكلمهم بلغة لا يفهمونها. لا يفهم أحدا، ولا أحد يفهمه. يضع نظارات سميكة، لا يهتم بهندامه ولا بمظهره. ممتعض، عابس الوجه، معوز. يشرب القهوة دائما دون سكر، يدخن التبغ بشراهة أو يكره التدخين. فتلقف الناس هذه الصورة وتقمصها بعضهم، فاعتبروا أنفسهم مثقفين، واعتبرهم الناس كذلك. والجدير بالملاحظة أن ذلك الذي يريد ثالوث القمع عرضه على الرعايا ليأخذوا منه ثقافتهم، يعرضه عليهم في وسائل الإعلام بحلة أنيقة، دبلوماسيا، وذا كاريزما جذابة، تماما بعكس تلك الصورة المقيتة.

داني "مفكرا": صدقت. هذا ما يحصل فعلا.

[420] **رجل الكهف:** وثالثها هو أن الكثيرين يلجؤون للقراءة كمخدر فقط، أي هربا من الواقع. فكما أن هناك أناسا يهربون من الواقع بلجوئهم إلى الدين، وآخرون بالموسيقى، وصنف ثالث بتعاطي أنواع المخدرات أو المهلوسات أو إدمان الكحول، وغيرهم بإدمان ألعاب الفيديو أو مشاهدة الأفلام، فأيضا لديك نوع من الناس يدمن القراءة للهروب من الواقع فقط. يستعملها كمخدر، وكوسيلة لتمضية الوقت. هو لا يثقف نفسه ليقوم بفهم الواقع ومن ثم ليقوم بتحسينه، هو يهرب منه فقط ليعيش داخل فقاعة من عالمه الخاص. فمن البديهي ألا يقارب قراءاته مع ما يحاول الهرب منه.

لوسيل "بتركيز": تحليلك منطقي. فعلا أعرف نماذج كثيرة من هذا النمط من المثقفين، لكن لم يخطر لي أن أحلل الأسباب بهذه الطريقة.

[421] **رجل الكهف:** "... من الصعب أن عليه أن يخطأ هدفه، لأن قدميه الاثنتين مزروعتان بقوة بالأرض ومضغوطتان عليها بوزن جسمه كاملا. المتوحشون الافريقيون يعبدون الأفعى لأن جسدها كله يلامس الأرض وهي لابد بالضرورة تبعا لذلك تعرف كل أسرار الأرض. إنها تعرفهم ببطنها وبذيلها وبرأسها. هي دائما على اتصال و تمازج مع الأم. ونفس الأمر ينطبق على زوربا..." هكذا قال الراوي في رائعة نيكوس كازانتزاكيس *زوربا اليوناني*، وأضاف: "... نحن الأناس المتعلمون عبارة عن رؤوس فارغة تحلّق في الهواء." إن أمثال ذلك المثقف يصدق فيهم هذا القول، لأنه منفصل عن الواقع، يعيش في عالم آخر، لا شأن له بمن حوله. لا يلمس الأرض، وبالتالي لن يعرف أسرارها. ليس مزروعا فيها، وبالتالي سيخطأ أهدافه.

داني "منفعلا": يا له من تشبيه رائع!

[422] **رجل الكهف:** إنه تعلّم خرائط عن الواقع، لكنه لم يطابقها مع الواقع. إنه في الحقيقة قد قايض الواقع كله، بخرائط عنه فقط. وما فائدة خرائط لا يُستفاد منها على الأرض، ما نفعها إن لم تكن بحوزتك لتستخدمها في زيارة الأماكن المختلفة التي تصوّرها لك؟ تراه يريد مناقشة ما بعد الحداثة وما قبل التاريخ وهو لا يدري ماذا يحصل اليوم. تراه يرغب في معرفة الانفجار الكبير، وهو لا يعرف كيف تحصل انفجارات الوقود في محرك سيارته. يريد معرفة كيف تتشكل الثقوب السوداء، وهو لا يعرف كيف يثقب ثقبا في الجدار. يريد أن يبحث أصل نشأة الحياة، وهو لا يعرف كيف تتشكل الأجنة في الأرحام. يريد أن يناقش الفيزياء الكمومية ويبدي رأيه فيها، وهو لا يعرف كيف يوصل سلكا كهربائيا. إنه شغوف بمعرفة إمكانية السفر عبر الثقوب الدودية، وهو غير قادر على شراء تفاح لا توجد فيه ثقوب دودية. يريد ابتداع نظام عالمي جديد، وهو لا يعرف كيف يعمل نظام التشغيل في حاسوبه. يريد البحث في السفر عبر الزمن، وهو لا يعرف كيف تعمل الطائرة التي يسافر بها ضمن نطاق هذا الزمن. يريد تغيير العالم، وهو غير قادر على تغيير إطار سيارته أو أسطوانة الغاز في مطبخه. يريد أن ينسخ نظاما اقتصاديا يعجبه، وهو غير قادر على نسخ ملف من حاسوب إلى آخر. هذا إن كنت محظوظا به يريد تلك الأمور، ولم يكن من ذلك النمط الذي لا يقرأ سوى الروايات والأعمال الأدبية.

[423] **لوسيل** "بحماس": فعلا، إن غالبية هؤلاء هم مدمنون للأعمال الأدبية فقط.

رجل الكهف: هذا متوقع ومفهوم.

[424] **لوسيل** "بتعجب": لماذا؟

رجل الكهف: لأن الذين يريدون استعمال القراءة كمخدر، للهروب من الواقع، فإن الأعمال الأدبية هي أفضل ما يمكنه مساعدتهم في ذلك. فهي النوع الوحيد من الكتب التي تقوم بخداع الدماغ كي يعيش منفصلا عن الواقع.

[425] **داني** "مذهولا": ماذا تعني؟

رجل الكهف: إن الدماغ لم يتطور ليتعامل مع المجردات. الدماغ تطور ليتعامل مع الواقع. تطور بطريقة أن يبذل جهدا فيحصل على ثمرته. يذهب للصيد، فيعود بفريسة. يمشي، فيصل إلى وجهته. يزرع، فيحصد. يطبخ، فيأكل. يبني منزلا، فيسكن. يصنع شيئا، فيستخدمه. أما الكسب من القراءة فهو غير ملموس. ولهذا فإنه في أثناء قراءتك لأي كتاب، خاصة إن لم تكن شغوفا بمحتواه، فإنك ستصبح بسرعة شارد الذهن، وستثيرُ بسهولة اهتمامَ دماغك أتفه الأمور في محيطك.

لوسيل "مقاطعة بتركيز": صحيح، كلنا اختبرنا ذلك.

[426] **رجل الكهف:** لذلك فإن على الإنسان أن يقرأ فقط ما يكون شغوفا بقراءته، كي يحصل دماغه على كسب مباشر من القراءة، بحصوله على إجابات يبحث عنها مثلا. وإلا، فحتى لو كان الكتاب الذي يقرأه هو من أعظم الكتب قاطبة، لكنه غير مهتم لقراءته. فإن ذبابة تحوم حوله، ستكون مثيرة لاهتمام

دماغه أكثر من ذلك الهراء الذي بين يديه. ولذا فإن عليه أن يقوم، لحل هذه الإشكالية، بربط كل ما يقرأه بالواقع.

[427] **داني** "مفكرا": ماذا تعني؟

رجل الكهف: عليك أن تنطلق في قراءتك من الواقع، في محاولة منك لفهمه. ومن ثم عليك إسقاط كل فكرة تقرأها على الواقع، كل يبقى دماغك محفزا وواعيا أن ما تقرأه يلامس الواقع، مهما كان مجردا. لكن لو كنت تقرأ بهدف الهروب من الواقع، فإن القيام بهذا لن يساعدك. لذا فإن الأعمال الأدبية، على أنواعها، هي ملجؤك الوحيد.

[428] **داني** "بتعجب": وكيف ذلك؟

رجل الكهف: لأن الأعمال الأدبية هي الوحيدة التي يستطيع دماغك أن يعيش فيها. فبدل أن يقوم دماغك بإسقاط ما تقرأ على الواقع، فإنه يقوم بالهروب من الواقع وإسقاط نفسه في الرواية أو المسرحية أو القصيدة، وذلك بتقمصه إحدى شخصياتها مثلا. فأدمغتنا عندما تطورت في الغابات لم تكن الكتب موجودة، ولا القصص الخيالية، وبالتالي فإن دماغك يخدع نفسه بأن يعيش القصة وأحداثها. وهذا ما يجعلك تتأثر أثناء قراءتك للأعمال الأدبية عموما. فتفرح وتحزن وتكتئب وتغضب وكأنك فعلا تعيش الأحداث. نفس الأمر ينطبق على الأفلام والأغاني، التي هي مبنية على أعمال أدبية على أي حال. هل نستما حديثنا بالأمس كيف أن الدماغ يُخدع بسهولة؟

[429] **لوسيل**: كلا أبدا. لطالما تساءلت عن سبب تفاعلي مع أحداث الروايات وتأثري فيها، واعتبرته أمرا سخيفا.

رجل الكهف: كلا على الإطلاق، إنه ليس سخيفا. إنه أمر واقعي لا يمكنك التحكم به. قد يختلف ذلك التأثر من شخص لآخر، كما أنه ينخفض كلما استطاع الإنسان بناء حِس نقدي عقلاني موضوعي. لكنه يبقى أمرا طبيعيا لا إراديا. بل إن الإنسان ليُثارُ جنسيا لو كان المحتوى فيه إغراء جنسي. وما انتشار الأفلام والمجلات والروايات والصور الإباحية حول العالم إلا دليل على نجاحها في خداع الدماغ. فمن وجهة نظر بيولوجية عقلانية، لا يجب أن يُثار الانسان جنسيا وصولا لمرحلة القذف أو الرعشة الجنسية دون وجود موضوع جنسي- بحسب تعبير سيغموند فرويد- حقيقي يشاركه التجربة. من وجهة نظر بيولوجية ذلك نشاط لا طائل منه بل وعبثي. لكن أخذا بعين الاعتبار أننا نحمل ادمغة لم تتطور في ظل وجود هذه الوسائط، فإن الأمر يصبح مفهوما. الدماغ يُخدع. فيعتبر الموضوع الجنسي- الوهمي، حقيقيا. ونفس الأمر ينطبق على أفلام وروايات الرعب والرومانسية والبطولية وسواها. فيعيش القارئ أو المشاهد الحالة بكل تفاصيلها كما لو كانت تحدث معه شخصيا.

داني "مبتسما": أنت داهية. لم أفكر بالأمر على هذا النحو مطلقا من قبل.

[430] **رجل الكهف**: ولهذا السبب بالذات، فإن الأعمال الأدبية هي أكثر ما يتم قراءته حول العالم، فهي لا تحتاج أن ينطلق الإنسان من الواقع أثناء قراءتها، مع ان الكثير من الأعمال الأدبية العظيمة هي إسقاطات للواقع، لكن القارئ الذي يريد الهروب منه لن يلاحظ ذلك، بل يعيش داخلها في رحلة مجانية، وتجربة خيالية. إنها تستعمل كمخدر، تماما كما يتعاطى المهلوسات من يريد خوض تجربة ذهنية خارج العالم الواقعي.

لوسيل: إذا المثقف الذي تبحث عنه مختلف تماما عن هذا.

[431] **رجل الكهف**: بكل تأكيد. هل نسيتما ما خلصنا إليه ونحن في طريقنا إلى هنا؟ هل نسيتما أن الثقافة تشمل كل شيء؟ هي ليست تلك المصطلحات الرصينة والكلمات الغامضة فحسب، هي كل شيء يحيط بنا. لا أريد مثقفا يعيش في فقاعة ذهنية. أريد مثقفا يغير حال الرعايا. يساعد أولئك المساكين داخل الغرف المظلمة. يقوم بتحسين الواقع. كيف بإمكانه فعل ذلك إن كان منفصلا عنهم وعن واقعهم وعما يقومون به من أعمال؟ أريد للمثقف أن يتصل بالرعايا بلغتهم، بمفاهيمهم، يحاورهم بما يمكنهم استيعابه. يُشعرهم أنه فرد منهم، يحس بهم تمام الإحساس. يفهم عليهم ويفهمون عليه. بالإضافة إلى تميزه عنهم لكونه مثقفا.

[432] **داني**: ماذا تعني؟

رجل الكهف: أريده أن يمتلك قاعدة حوار مع الجميع. إن تكلم مع خبير بالحواسيب، أن يكون فاهما بها. وإن تكلم مع ميكانيكي، أن يكون قادرا على مجاراته والحديث معه بلغته. وإن تكلم مع مُحاسب، أن يكون عارفا بالمحاسبة، وإن تكلم مع محام، أن يكون قادرا على مناقشة القوانين معه. بل أريده إن مارس الجنس أن يكون على علم ومعرفة ليجعل شريكه الجنسي- يعيش تجربة مميزة. هكذا يكون المثقف، ملما بكل النواحي الثقافية. عليه أن يكون كائنا متكاملا، ملتصقا بواقعه، متعاليا عنه بهالة تميزه عن غيره. لأن تغيير الواقع لا ينطلق إلا من الواقع نفسه، ولا يحصل بإسقاط خارجي. وفي ظل التسويق المضاد من قبل ثالوث القمع، فعلى المثقف أن يُسوّق لنفسه بتقربها من الرعايا بهذه الطريقة. فضلا عن أن إلمامه بكل هذه الأمور الحياتية تفيده بشكل شخصي مباشر.

[433] **لوسيل**: ماذا تقصد؟

رجل الكهف: أن يكون قادرا على القيام بخدمة نفسه بنفسه. فلن يضطر للجوء إلى خدمات الحرفيين إلا في حدود الضرورة الدنيا. فيكون بهذا ممارسا فعليا للثقافة النظرية التي يمتلكها.

[434] **داني** "متعجبا": لا يمكنني تخيل ذلك. ثم إنه لن يستطيع تعلم القيام بتلك الأمور. فالكلام النظري شيء، والعملي شيء آخر.

رجل الكهف: ولهذا بالضبط أريده أن يقوم بالخبرة العملية. يقول ايدوارد سعيد في كتابه "تمثيلات المثقف": "... إن وجود المثقف مرهون بالأساس بالمعرفة والحرية، ولكن هاذين لا يكتسبان معا

كمجردات... بل كتجارب قد مُرَّ بها في الواقع..." ثم إني لا أتفق معك مطلقا على أنه لن يستطيع تعلم القيام بخدمة نفسه. فالجهل اليوم في ظل التقدم التكنولوجي هو قرار شخصي محض. لا يمكن الاعتذار بالجهل، طالما أن بإمكانك استخدام محركات البحث على الإنترنيت من هاتفك الذكي وأنت مستلق على سريرك. ولهذا قلت لك إن تعلم اللغة الإنجليزية أمر جوهري في تكوين عقلية المثقف. فيمكنك البحث عن أي شيء تريد تعلمه وستجد مقالات وفيديوهات تشرح لك أدق التفاصيل في ذلك الأمر. ستتعلمه لمرة واحدة، وبعدها يمكنك تكراره كلما دعت الضرورة. وإن الساعات التي قد تقضيها وأنت تبحث وتتعلم كيفية صيانة شيء ما أو صنع شيء ما، أو القيام بأمر ما، هي تعلّم، وليست مضيعة للوقت. فإن ما تتعلمه وما تمارسه هو ثقافة. لا يمكنك الاكتفاء بالفقاعة النظرية مالم تلامس بمعارفك الخبرة العملية. وستجد نفسك رويدا رويدا تزداد ثقافيا وتزداد خبرة بالحياة وفهما لواقعك ومحيطك، وتزداد قربا من الرعايا وإحساسا بهم.

[435] **داني**: لكن الحرفي بحكم العادة سيقوم بالأمر بسرعة أكبر وبجودة أعلى.

رجل الكهف: كما أنه سيقوم به بطريقة تجارية.

[436] **داني** "بتعجب": ماذا تقصد؟

رجل الكهف: الحرفي يقوم بعمله كي يكسب المال فقط، ولذا فهو مبرمج على أن يقوم بخطوات معينة ليحصل بعدها على المال. ما يهمه هو المال، وفقط المال. لذا سيحاول الوصول إليه بأقصر الطرق، وأسرعها، بأقل الجهود المبذولة. أما بالنسبة لك، فسيكون الأمر تجربة علمية. أتفق معك أنه سيكون أسرع منك، وأنك قد تخطأ، مرة أو أكثر وتتعلم من أخطائك، لكن هكذا يتعلم الناس. ألا تريد أن تصبح مثقفا؟

داني "بتركيز": بلى بالتأكيد.

[437] **رجل الكهف**: ناهيك عن أمر جد مهم، وهو أن معظم الحرفيين في دول العالم الثالث والدول النامية يتعلمون حِرَفهم بالممارسة، أي بالتدريب العملي، دون أي بحث نظري. وإن كل المهن والحِرف تتكون من مزيج شقين هما عملي ونظري. وشقها النظري هو تلك المعلومات التقنية والتفاصيل الدقيقة التي لا يمكن لخبرة الحرفي العادي أن تكسبه إياها، بل يتم اكتشافها في المخابر التقنية والدراسات العلمية. وعليه فنعم سيقوم الحرفي بإنجاز المهمة، ونعم سيقدم رأيه المستمد من الخبرة، لكن مالم يكن ملما بالدراسات النظرية التي تتعلق بحرفته أو مهنته، فرؤيته ستكون لا بد قاصرة، وعمله بعيد كل البعد عن المثالية أو حتى الجودة أحيانا. ويستثنى من ذلك الحِرف التي تعتمد على الإبداع أكثر من التقنية.

داني "بدهشة": لم أنتبه لهذه النقطة.

[438] **رجل الكهف**: لكن بما أنك باحث، فأنت ستقوم بالإلمام بكل الجوانب النظرية والتفاصيل التقنية

قبل أن تبدأ ممارستك العملية، وبما أنك تقوم بذلك العمل لنفسك، فستحاول ان تقوم به بأفضل طريقة ممكنة. وكلما كانت بصيرتك ثاقبة، كلما اقتربت من المثالية في عملك. وسَيسعَدُ دماغك بالمكافئة في لمسه لنتيجة جهده المبذول. أضف إلى أنك كمثقف موسوعي مُلِم بمختلف المجالات، ستخرج بحلول وأفكار إبداعية دامجا فيها مجالات متنوعة، وهذا ما لا يفعله الحرفي قاصر النظر المحدود بخبرته الروتينية في مجاله الضيق.

[439] **داني**: لكن من أين لي بالأدوات اللازمة؟

رجل الكهف: إن الأدوات والمعدات التي تنتج في الصين اليوم هي زهيدة الثمن. أنت لست بحاجة لمعدات احترافية كمن يحتاجها للاستخدام اليومي. كلما احتجت لشيء ما تشتريه وتضيفه إلى صندوق أدواتك.

داني: فكرة صحيحة.

[440] **رجل الكهف**: وهكذا دون أن تشعر، تكون قد تعلمت الواقع باحتكاك مباشر معه، تعلمت أمورا لم تكن تعرفها، وشعرت بشعور الحرفيين، وتقربت من الرعايا، وأصبحت قادرا على إيجاد حديث مشترك معهم. ليس هذا فحسب، بل هم سيجدون الحديث معك ممتعا، لأنك خبير بخفايا أعمالهم، تستطيع الحديث معهم حولها، ولستَ ذلك المثقف المتعالي الذي سبقت الإشارة إليه.

داني: فكرة رائعة.

[441] **رجل الكهف**: طبعا أنا أتكلم عن الأمور الروتينية والبسيطة. من المؤكد أن هناك بعض الأمور التي تحتاج اختصاصا لا يمكنك تعلمه ببضعة ساعات أو أيام. وأمور تحتاج معدات غالية الثمن أو كبيرة الحجم لا يمكنك شراؤها، أو أمور يكون إيكالها إلى حرفي أرخص بكثير وأكثر عقلانية من أن تقوم أنت بها. عليك أن تكون حكيم نفسك.

لوسيل: لم يخطر في بالي ان يفكر مثقفٌ بالقيام بالأعمال الحرفية.

[442] **رجل الكهف**: قال توماس هكسلي في كتابه *في دراسة علم الحيوان*: "... في عالم الأدب، التعلم والمعرفة هما شيء واحد، والكتب هي مصدر للاثنين. بينما في العلم، كما في الحياة، التعلم والمعرفة متمايزان، ودراسة الأشياء، وليس الكتب، هي مصدر الأخيرة." أي مصدر المعرفة في العلوم وفي الحياة. لا يمكنك ان تكون منفصلا عن التجربة العملية والاكتفاء بالمعرفة النظرية.

داني "مفكرا": مقنع تماما.

[443] **رجل الكهف**: علينا كسر تلك الصورة النمطية للمثقف. فهي صورة مشوهة ومنفصلة عن الواقع. علينا الحذر من أن نقع في ذلك الفخ. أي أن نكون ذلك المثقف المحدود البصيرة الذي يعتقد أن ما لا يعرفه هو، لا يعتبر أمرا يستحق المعرفة. فالمعرفة لا تُحدد بما يرغب به الأشخاص المنفردون. كتب توماس سويل في كتابه * المثقفون والمجتمع*: "الشخص الذي يُعتبر شخصا واسع المعرفة عادة لديه

معرفة من نوع خاص، ربما أكثر أكاديمية، أو أنواع أخرى من المعارف لا توجد بين السكان على نطاق واسع. الشخص الذي لديه معلومات أكثر في أمور دنيوية أكثر -السباكة، النجارة، أو نواقل الحركة الأوتوماتيكية على سبيل المثال- أقل احتمالا في أن يُقال عنه واسع المعرفة بواسطة هؤلاء المثقفين الذين يعتبرون ما لا يعرفونه ليس معرفةً... إنه من غير المؤكد بأي حال من الأحوال أن النوع من المعرفة المملوكة بواسطة المثقفين هي بالضرورة أكثر ترابطا منطقيا في تأثيراتها في العالم الواقعي." هل فهمتما الآن لِمَ على الثقف أن يطلع على، ويمارس الأنشطة التي طالما تمّ اعتبارها أنشطة غير ثقافية؟

لوسيل: فهمت فكرتك.

[444] **رجل الكهف**: لا شك في أن القراءة هي العمود الفقري لتكوين المثقف. إلا أني أرى هياكل عظمية كثيرة. والهياكل العظمية سهلة الكسر، ولا يُستفاد منها إلا كتمثال يستخدمه هاوٍ للزينة. كما أني أرى كتلا عضلية منتشرة بكثرة في المجتمعات. لا الهياكل العظمية الجرداء، ولا الكتل اللحمية الصماء يمكنها تغيير وتطوير المجتمعات. فقط أولئك القلائل الذين يكسون هيكلا عظميا بكتلة عضلية، يحصلون على مزيج متناسق وقوي بما يكفي لتحقيق تغيير في المجتمع.

داني "مركزا": تشبيه جميل.

[445] **رجل الكهف**: والآن، عود على بدء. هل تعتقد أن خريطة الطريق تلك مفيدة، وتمكنك من خوض غمار بحر الثقافة بثبات دون أن تكون تائها تتقاذفك الأمواج؟

داني "بحماس": بكل تأكيد. إنها تمكنني في كل مرحلة من تملك الأدوات التي سأستفيد منها في المرحلة التالية.

[446] **رجل الكهف**: أعرف أنك تسجل المحاورة كي تسمعها لاحقا، لكن هل لك أن تتذكر تلك المراحل وتوجزها لي كل أتأكد أنك وعيتها؟

داني: عليّ أن أكون:

1-ملما إلى أبعد الحدود في مجال واحد على الأقل من مجالات المعرفة الإنسانية وكل ما يتعلق بذلك المجال.

2-ملما بلغتي الأم، لغة البلد الذي أقيم فيه، بالإضافة إلى اللغة العالمية.

3-ملما بثقافتي الأم، ثقافة البلد الذي أقيم فيه، بالإضافة إلى ثقافة الحضارة السائدة عالميا.

4-ملما بالعلوم الحديثة وتطوراتها على الصعيدين النظري والعملي. وفاهما لفلسفة العلم.

5-ملما بالأعلام وأفكارهم وحقبهم الزمنية.

6-ملما بخريطة العالم الطبيعية والسياسية وتوزع اللغات والايديولوجيات عالميا.

7-الاطلاع على المدارس الفلسفية الكبرى، الحضارات الإنسانية الكبرى، الإيديولوجيات الكبرى، والعلوم الأساسية.

8-ملما بخريطة المعارف الإنسانية وفروعها وترابطاتها.

9-التعمق في فرع أو أكثر من المعارف الإنسانية.

10-زيادة التوسع في الوصايا السابقة على مستويي التعمق والشمول.

[447] **رجل الكهف**: جميل جدا. إذا لقد انتهيت إلى عشر مراحل، وهذا يسهّل عليك مراقبة تقدمك. فكل مرحلة منها ستعطيك نسبة واحد على عشرة، أو عشرة بالمئة.

داني "مبتسما": صحيح، لم أنتبه لهذا. إنها مصادفة جيدة.

[448] **رجل الكهف**: إذن لم تعد يائسا كما كنت أثناء تناولنا للطعام.

داني: كلا، بل أنا متحمس لأبدأ الإبحار.

رجل الكهف: يسعدني سماع ذلك. فلنعد أدراجنا الآن قبل أن يحل الظلام.

****

الباب الثامن
في مفاتيح تحرير الدماغ

(ثلاثتهم جالسون داخل الكهف صباح اليوم التالي يشربون القهوة ويستمعون إلى موسيقى الجاز)

[449] **لوسيل** "برقة": يؤسفني إخبارك أن هذا آخر يوم لنا برفقتك. فعلينا المسير قبل منتصف يوم غد.

رجل الكهف: إن هذا محزن فعلا. فصحبة شباب شغوف بالمعرفة مثلكما ممتعة إلى أبعد الحدود.

داني "مبتسما": ونحن أيضا لم نشعر بالوقت في رفقتك. وكم كنا لنكون محظوظين لو صادفناك منذ بداية رحلتنا.

[450] **رجل الكهف**: يبدو أن لا شيء يدوم في هذه الحياة إلا الألم والحزن. أما المسرات فسرعان ما تنتهي.

لوسيل "مبتسمة": لكن مازال أمامنا اليوم بأكمله، ولدينا الكثير لنتناقش فيه.

[451] **داني** "بحماس": صحيح، فأنا أريد مشاطرتك أمرا أفكر به منذ أن كنا على الشاطئ.

رجل الكهف: وما أخّرك عن ذلك؟

داني "بخجل": خشيت أن أكون مِلحاحا مُزْهِقا.

[452] **رجل الكهف**: كلا يا صاحبي، فالحوار البنأء يثري المعرفة ويحرك ركود الأدمغة. "... كل ما نحتاجه هو النقاش، وعندها نكون متأكدين من أننا نقوم بعمل جيد. لا يهم ما يمكن أن تكون عليه أخطاؤنا. فخطأٌ سيتصادم مع آخر، كل منهما سيدمّر غريمه، وتُستنبط الحقيقة..." هكذا كتب هنري باكل في *تاريخ الحضارة في إنكلترا*.

داني "مبتسما": صدقت.

[453] **رجل الكهف**: فما هو ذلك الأمر الذي جال في نفسك؟

داني: إني إذ فكرت في الثقافة والمعارف الإنسانية، وقد عقدت العزم على اتباع الخطوات التي نصحتني بها، فوجدت أن المهمة جسيمة يصعب على الإنسان إنجازها. إنها ستتطلب مني أن أفرّغ جُلّ وقتي للبحث والتعلم وقراءة الكتب والمجلدات الضخمة.

[454] **رجل الكهف** "وهو يشعل غليونه": على رسلك يا صاح. من قال لك هذا؟ لقد أشرتُ أن عليك اعتبار بحثك الثقافي هواية. أليس للناس هوايات؟

داني "بتعجب": بالتأكيد.

[455] **رجل الكهف**: وأن تكون مثقفا يُعني أنك تتخذ من الثقافة هواية لك. مهما كان تحصيلك الأكاديمي

عاليا، ومهما كانت المهنة التي تعمل بها تُعتبر مهنة ثقافية بامتياز، فإني أريدك أن تفرق تماما بين مهنتك تلك، وبين كونك مثقفا. ذلك العمل المحترف هو مهنة، أما كونك مثقفا فهو هواية.

داني "مستغربا": لم أفهم المغزى من هذا.

[456] **رجل الكهف**: المهنة هي عمل تقوم به لأجل المال، المال هو حافزك ومبتغاك. وأنت لا تحصل على المال إلا إن أعطاك إياه شخص آخر، أو هذا ما أتمناه. وعليه فأنت مضطر لأن تداهن وأن تسلك سلوكا معينا بما يضمن لك الحصول على المال.

داني: صحيح.

[457] **رجل الكهف**: والمال هو أهم أداة بيد ثالوث القمع، وهو سيقطعه عنك إن لم يعجبه نشاطك الثقافي. وسغريك به لتنتهج نهجا يرضيه في بحثك وبالتالي سيستخدمك أداة لزيادة قمع الرعايا والتحكم بهم، وأنا أريدك مثقفا يحرر الرعايا. لذا وجب عليك ألا تضع بحثك الثقافي تحت رحمة أحد. ولا في ضوء إشراف أو مراقبة أحد. أتوسل إليك، إن لم تكن قادرا على فعل هذا فأرجوك لا تحاول أن تصبح مثقفا. من الأفضل أن تكون فردا من الرعايا مظلوما على أن تكون مثقف سلطة ظالما. إن إمتلاك الثقافة أعظم شأنا من إمتلاك قطعة سلاح. ولا يستطيع ضميري تحمُل تَبِعات ما قد تفعله بها إن تم شراؤك.

داني "بنفي قاطع": كلا يستحيل أن أصبح كذلك، لا تقلق.

[458] **رجل الكهف**: ولذا فأنا أريدك أن تخرج من تحت عباءة ثالوث القمع بأن تتخذ مهنة لنفسك، أيا كانت، وأن تجعل من بحثك الثقافي هواية. كتب بيرتراند راسل في كتابه الهام *الاستيلاء على السعادة*: "واحد من أسباب عدم سعادة المثقفين في العصر الحالي هي أن عددا كبيرا منهم، خاصة أولئك الذين مهاراتهم أدبية، لا يجدون فرصة للتجربة المستقلة لمهاراتهم، لكن يتوجب عليهم أن يؤجروا أنفسهم للمنظمات الغنية التي يديرها غير المثقفون، الذين يصرون في إنتاجهم على ما يعتبره المثقفون أنفسهم هراء خبيثا..." وأشار إيدوارد سعيد في كتابه *تمثيلات المثقف* إلى أن: "... التهديد الخاص للمثقف اليوم، سواء في الغرب أو العالم غير الغربي، ليس الجامعة، ولا الضواحي، ولا الروح التجارية المروعة للصحافة ودور النشر، لكن الموقف الذي سأسميه احترافية. أنا أقصد بالاحترافية التفكير بعملك كمثقف كشيء تقوم به من أجل العيش، بين الساعة التاسعة والخامسة بعين على الساعة والأخرى موجة نحو ما يُعتبر السلوك المهني اللائق: لا تُأرجح القارب، ولا تشرد خارج النماذج المقبولة أو المحدودة، جاعلا نفسك قابلا للتسويق وفوق كل شيء أنيقا، وبالتالي غير مثير للجدل، وغير سياسي وموضوعي." ويوضح الأمر جان بول سارتر في كتابه *ما الأدب؟* بقوله: "... هناك صفات تأتينا فقط بواسطة رأي الآخرين. في حالة الكاتب، الحالة أكثر تعقيدا، لأنه لا يوجد شخص أُجبر على أن يختار لنفسه أن يكون كاتبا. بالتالي، الحرية هي الأصل. أنا مؤلِف، بادئ ذي بدء، من خلال نيّتي الحرة للكتابة. لكن في وقت ما يتبع ذلك أنا أصبح رجلا يعتبره رجال آخرون كاتبا، ذلك الذي عليه

أن يستجيب لمطلب محدد والذي قام باستثمارٍ سواء أعجبه أم لا، مع وظيفة إجتماعية محددة. أيا ما كانت اللعبة التي ربما يرغب بلعبها، عليه لعبها بناء على التمثيل الذي يملكه الآخرون عنه... وبالتالي العامة تتدخل، بعاداتها، ورؤيتها للعالم، وتصورها للمجتمع وللأدب ضمن ذلك المجتمع. إنها تحيط بالكاتب، إنها تطوقه، وغطرستها أو مطالبها الخبيثة، رفضها وهروبها هي المعطيات الحقيقية التي يمكن بناء العمل على أساسها." هل لاحظت المشكلة في المهنة الثقافية؟

[459] **داني** "بتركيز": فهمت مقصدك. كما أني لاحظت أن جان بول سارتر يقرر أنه مالم تكن هناك معارضة لعملك الثقافي، ومحاولات لكبحه، فإن هذا يعني أنك لا تقوم ببناء ثقافي.

رجل الكهف: بالتأكيد. فإن لم تلق معارضة، سواء من قبل الرعايا أو من قبل واحد من أركان الثالوث على الأقل، فهذا يعني ضمنيا أن مجرى بحثك هو بما يتلاءم مع ما هو سائد في الغرفة، وبالتالي فأنت لم تخرج بعدُ من الغرفة، ولم تبدأ صعود البرج.

لوسيل "بإعجاب": ملاحظة قيّمة.

[460] **رجل الكهف** "وهو ينفث دخان غليونه": وتذكرا ما قاله تشارلز كولتون "نحن ندين بكل معارفنا تقريبا، ليس لأولئك الذين وافقوا، بل لأولئك الذين خالفوا".

داني "مفكرا": فعلا، هذا صحيح.

رجل الكهف: وللتخلص من هذه الإشكالية، أو الضغوطات كما عبّر عنها إيدوارد سعيد في الكتاب المذكور، فإن الحل يكمن في تحويل النشاط الثقافي إلى هواية. فالهواية دائما تبقى حرة من أي توجيه أو ضغوط أو مؤثرات.

[461] **داني** "مستفهما": وما هي هذه الضغوط التي حددها إيدوارد سعيد؟

رجل الكهف: "التخصص هو أول هذه الضغوط، كلما ارتقى الإنسان في النظام التعليمي اليوم، كلما تم تقييده في منطقة محدودة نسبيا من المعرفة. الآن، لا أحد يمكنه أن يملك أي شيء ضد هكذا كفاءة، لكن عندما تتورط في خسارة الرؤية لأي شيء خارج الحقل المحدود للشخص -لنقل، قصائد الحب من العصر الفيكتوري المبكر- والتضحية بالثقافة العامة للشخص لمجموعة من السلطات والأفكار الرسمية، عندها المهارة في ذلك الحال لا تستحق الثمن المدفوع لها." ويضيف: " في دراسة الأدب، على سبيل المثال، والذي هو اهتمامي المحدد... في النهاية كمثقف متخصص تماما بالأدب أنت تصبح مُروضا ومتقبلا لأي شيء سيسمح به من يُعتبرون روادا في المجال. التخصص أيضا يقتل لديك حس الإثارة والاستكشاف، وكلاهما حاضر بشكل لا يمكن اختزاله في تكوين المثقف. في التحليل النهائي، الاستسلام للتخصص هو، كما شعرت دوما، تكاسل، حيث ينتهي بك المطاف لتقوم بما يقوله لك الآخرون، لأن ذلك هو تخصصك على جميع الأحوال.".

[462] **لوسيل** "بتعجب": لم أفكر أبدا بالأمر على هذا النحو. هلا أخبرتنا بالضغط الثاني؟

رجل الكهف: يتابع إيدوارد سعيد قائلا: "إذا كان التخصص هو نوع من الضغط العام الهادف في كل الأنظمة التعليمية في كل مكان، فإن الخبرة وعبادة الخبير الحاصل على شهادة هما ضغوط أكثر تحديدا في عالم ما بعد الحرب. كي تكون خبيرا عليك أن تكون مزودا بشهادة من قبل السلطات المعنية. هم يقومون بتوجيهك كي تتكلم بالطريقة المناسبة، وتستشهد بالسلطات المناسبة، وتبقى في حدود المناطق المناسبة. وهذه تصدق على وجه الخصوص عندما تكون مناطق حساسة و/أو مربحة من المعرفة على المحك." ويَخلُص إلى: "في النهاية، إن الخبرة، بالمعنى الدقيق للكلمة، على علاقة ضعيفة نوعا مع المعرفة...".

داني "باهتمام": هذا كلام لم أكن لأفكر فيه قبل سماعي لقصة البرج وثالوث القمع. أرجوك تابع.

[463] **رجل الكهف**: "الضغط الثالث للاحتراف هو الانجراف المحتوم نحو القوة والسلطة في إتباعها، نحو المتطلبات وامتيازات القوة، ونحو أن تكون مُستخدما بشكل مباشر من قِبلها...".

لوسيل "بحزم": هذا ما لا يجب أن يكون عليه من صعد البرج.

[464] **رجل الكهف**: "لهذا، فإن مشكلة المثقف هي أن يحاول التعامل مع الصدامات مع الاحتراف الحديث كما كنت أناقشهم، ليس بالتظاهر أنهم ليسوا موجودين، أو إنكار تأثيرهم. لكن عن طريق تمثيل مجموعة أخرى من القيم والامتيازات، والتي سوف أجمعها تحت اسم الهواية. حرفيا، نشاط مدفوع بالعناية والعاطفة بدل الربح والتخصص الضيق الأناني. على المثقف اليوم أن يكون هاويا..." هذا ما انتهى إليه إيدوارد سعيد.

[465] **داني** "بخجل": المعذرة، قد فهمت أنك تريدني أن أمارس البحث الثقافي كهاوٍ لا كمهني، لكني لم أفهم مقصد إيدوارد سعيد بشكل واضح.

رجل الكهف: لا عليك، يصف إيدوارد سعيد الهواية بوضوح أكبر بقوله: "... الرغبة لكي يتم تحريكك لا بواسطة الربح أو الجوائز، بل بواسطة الحب والاهتمام الذي لا يمكن إشباعه، في إطار الصورة الكبيرة، في إقامة روابط عبر السطور والحواجز، في رفضك لأن يتم تقييدك لتخصص ما، في الاهتمام بالأفكار والقيم، بغض النظر عن القيود المفروضة في المهنة." هكذا يكون المثقف، وهكذا يختلف عن المهني. الفرق بينهما هو في حرية الأول من جميع القيود، بينما محدودية الثاني بها.

[466] **داني** "بتعجب": هذه أغرب هواية أسمع بها في حياتي. كيف لي أن أمارس هكذا هواية بحق السماء؟

رجل الكهف: هل تذكر نصيحة توماس هكسلي؟

داني: أجل "حاول أن تتعلم شيئا عن كل شيء، وكل شيء عن شيء".

[467] **رجل الكهف**: أنظر ما كتبه عنه هنري مينكن في جريدة *The Evening Sun* الصادرة في 4 مايو 1925: "كبيولوجي ممتهن، لقد غطى في الحقيقة كل العلوم المتخصصة في المجال، ثم برز من

خلال اسوارها الأربعة. لم يكن هناك شيء على الإطلاق لا يثير اهتمامه. فضوله امتد من الموسيقى إلى اللاهوت، ومن الفلسفة إلى التاريخ. هو لم يكن يعرف ببساطة شيئا عن كل شيء، هو عَرَفَ قدرا عظيما عن كل شيء." هل لاحظت ماذا فعل؟

داني: نعم، لقد ركز كل جهوده على تعلم مهنته وما يحط بها، ثم بدأ ينتشر خارجها نحو الأبعد فالأبعد.

[468] **رجل الكهف**: صحيح، لكن ما هو المفتاح لذلك؟

لوسيل "بحماسها الطفولي": لم يكن هناك شيء على الإطلاق لا يثير اهتمامه.

[469] **رجل الكهف**: بالضبط. بكلمات أخرى، كان فضوليا.

داني: صحيح.

رجل الكهف: في الحقيقة، إن معظم الناس فضوليون بطبعهم، تراهم فضوليين ليعرفوا قصص الجوار، وما يجري بين الأصدقاء، وما يفعله الأقارب، وما يحصل مع الزملاء، يراقبون الناس ويتقصون أخبارهم، يلاحقون أخبار المشاهير في حيواتهم الخاصة، يسألون عن كل صغيرة وكبيرة لكن فقط فيما يمكن أن أسميه "اهتمامات الرعايا". هكذا هم الرعايا، محدودو الأفق والاهتمامات. وبالتالي فإن كل ما عليك القيام به، هو إعادة توجيه ذلك الفضول، من أن تحصره فيما يفعله جيرانك وما اشتراه أقرباءك، وما يحصل مع زملاءك، إلى أمور ثقافية بناءة. إلى أمور حقيقية تفيد بناءك الفكري والثقافي.

[470] **لوسيل** "بحزن": صحيح جدا، لو وجه معظم الناس فضولهم الفارغ ذاك نحو المعرفة المفيدة، لتغيرت المجتمعات كلها نحو الأفضل خلال بضع سنوات.

[471] **رجل الكهف**: قال جان بول سارتر إن المثقف "هو الشخص الذي يهتم بأمور لا تعنيه إطلاقا" ويشرح جيرار ليكلرك فضول المثقف في *سوسيولوجيا المثقفين* بقوله: "... يتجاوز المثقف حقل مهاراته المهني... ليتكلم في أمور ليس خبيرا فيها، بل هو يرى نفسه معنيا بها، بل هو متورط فيها... المثقف كائن طفيلي، فضولي بطبيعته، يتجاوز بما عنده من روح نقدية وباحثة كل التزام مهني. وهذا ما حدده ماركس إذ أشار إلى أن الفيزيائي المتخصص بالذرة حين يتحدث عن الانشطار النووي فهو يتحدث بوصفه عالما، أما حين يتحدث عن الاستخدام العسكري للذرة فهو يعبّر عن نفسه بوصفه مثقفا..." هل فهمت الفكرة؟ وهل لاحظت الفرق بين بين كونك ممتهنا، وبين كونك مثقفا؟

[472] **داني** "مفكرا": نعم لاحظت. إذن بدل التساؤل والفضول لمعرفة توافه الأمور، عليّ أن أسخر ذلك الجهد للتساؤل والفضول لمعرفة ما يبني لي عقليتي المثقفة.

[473] **رجل الكهف**: بالتأكيد. إن الناس يحصلون على ألقابهم المعنوية بناء على ما هم بارعون فيه، وما أنت بارع فيه هو ذلك الشيء الذي يثير اهتمامك وتشغل نفسك به. وعندما تشغل نفسك في الأمور الثقافية فأنت تصبح مثقفا. وكما قلت، فقط أريدك أن تسأل، أريد منك أن تسترجع فضول الأطفال

الذي تم سحقه وسلبه منك. في الواقع عليك التدرب لتعيد اكتسابه من جديد.

[474] **داني** "بتعجب": ماذا تقصد؟

رجل الكهف: أريدك بادئ ذي بدئ ان تكون مقتنعا أن كل المعارف التي اكتسبتها في حياتك، وكل الأفكار التي لديك، وكل المطلقات التي اعتدت وجودها، هي أمور قد تمت زراعتها في دماغك بواسطة ثالوث القمع والرعايا داخل الغرفة التي ولدت بها. هل نحن متفقون على هذه النقطة؟

[475] **داني** "مترددا": أنا متفق معك، لقد اقتنعت بهذا مسبقا، لكن كيف لي أن أتخلص من ذلك الإرث الذي، كما أقنعتني أنت، يؤثر في لاوعيي وبالتالي على نظرتي للأمور دون إرادة مني. كيف لي تحييد ذلك الأثر أثناء بحثي الثقافي، أليس هذا ضربا من الخيال؟

رجل الكهف "وهو يصب المزيد من القهوة": لقد اتسع النقاش كثيرا بسؤالك هذا. أريدكما أن تركزا معي جيدا كي لا نتيه.

لوسيل "بحماس، ممسكةً دفترا وقلما": كلي آذان صاغية.

[476] **رجل الكهف**: بما أنك متفق معي على ما ذكرت، فإني أريدك أن تنكفئ على نفسك بضع سنوات، وبكلامي هذا لا أعني ألا تخالط الناس، بل أعني أن تنسى كل خبراتك ومعارفك القديمة وتركز جُلّ جهودك على بحثك الثقافي، تسمع وتقرأ أكثر من أن تتكلم وتحكم. وذلك بمحاولة منك لكسر تلك الأقفال التي وضعت على دماغك، وإبطال البرمجة القديمة. أن تنكفأ على نفسك معناه أن تبدأ كل شيء من جديد. دون قاعدة بيانات سابقة تقوم باستخدامها. البيانات موجودة وستلح عليك في أن تعمل أو أن تقوم بالتأثير عليك، لكن خلال هذه السنوات سيكون تركيزك على هذا الأمر بالذات، محاولا كبحه بوعيك.

[477] **داني** "بتعجب": وكيف أقوم بهذا؟

رجل الكهف: أريدك أن تضع جميع الملفات في درج مكتبك وتقفل عليها. كل ما كنت تعرفه، من معلومات وأفكار ومبادئ ومسلمات وبديهيات وحقائق، وبهذا أنت تبدأ كطفل صغير لا يعرف شيئا. ولذا أريدك أن تسأل. اسأل عن كل شيء، أي شيء يخطر في بالك، مهما كنت تشعر أنه سخيف أو تافه، لا تهتم لشعورك، فشعورك ذاك يجب أن يكون في الدرج المقفول. اسأل تماما كالأطفال الصغار عن كل شيء.

لوسيل "ضاحكة": لكن هذا مضحك، سيبدو غبيا.

[478] **رجل الكهف** "وهو يشعل غليونه": لقد تساءل موريس فريهيل "من هو الأكثر غباء، الطفل الذي يخاف من الظلمة، أم الرجل الذي يخاف من النور؟".

داني "بخجل": أتفق معك، لكن كما أشارت لوسيل، أخجل من السؤال.

[479] **رجل الكهف**: هل ترى؟ هذا ما تعلمناه داخل الغرفة. هل نسيتما حديثنا السابق؟ الأهل يقمعون سؤالك، ورجل الدين يتهرب من سؤالك ويدعوك إلى إيقاف التفكير، ورجل السياسة يعاقبك على سؤالك ويمنعك من إعمال عقلك، والمدرس وزملاء الدراسة يستهزءون بسؤالك، ورب العمل يغضب من سؤالك، وزملاء العمل يسخرون من سؤالك. هكذا قاموا بأدلجتك وبقتل شغفك وبجعلك واحدا من الرعايا. لا يجب ان تسأل، لأنك إن سألت فستتعلم. ولا يجب أن تتعلم، لأنك إن تعلمت فستخرج من الحظيرة. ولا أحد يريدك خارجا من الحظيرة التي هو فيها.

داني "بخجل": صدقت.

[480] **رجل الكهف** "وهو يشغل فيديو على حاسوبه": هل تعلمون من هو هذا الشخص؟

لوسيل "بعيون لامعة": إنه الرائع جورج كارلن.

رجل الكهف "وهو ينفث دخان غليونه": لنسمع ما يقول إذن.

[481] **جورج كارلن**: "... هل كنتم تعلمون هذا، يوجد قدر كاف من الهراء ليمسك الأشياء على بعضها في هذه الدولة. الهراء هو الصمغ الذي يربطنا كأمة. أين كنا لنكون لولا هراءنا الأمريكي المألوف الآمن! أرض الحرية، موطن الشجاعة، الحلم الأمريكي، كل الناس سواسية، العدالة عمياء، الصحافة حرة، صوتك الانتخابي يتم حسابه، العمل نزيه، الرجل الجيد يفوز، الشرطة إلى جانبك، الرب يراقبك، مستوى معيشتك لن ينخفض، وكل شيء سيكون بخير تماما. الرواية الرسمية للهراء الوطني... كل واحد من هذه البنود يتم البرهنة على عدم صحته على مستوى أو آخر، لكننا نؤمن بهم لأنه قد تم دقّهم في رؤوسنا منذ الوقت الذي كنا فيه أطفالا. ذلك ما يفعلونه بهكذا نوع من الأشياء، يضعونها في رؤوس الأطفال ويدقونها فيها، لأنهم يعرفون أن الأطفال أصغر من أن يقدروا على أن يكون باستطاعتهم بناء مجادلات متطورة لهكذا نوع من الأفكار. وبالمناسبة، فإن الأطفال حتى عمر معين سوف يصدقون كل شيء يقوله لهم الكبار، كل شيء. لهذا الأطفال لا يتعلمون مطلقا أن يثيروا الأسئلة حول الأشياء. لا أحد يسأل عن الأشياء في هذه البلد بعد الآن، لا أحد يثير الأسئلة حول الأشياء. لماذا؟ لأن الناس مفرطو السمنة وسعيدون. الناس ناجحون بشكل مفرط في مصالحهم المادية الذاتية... لذا لا أحد يريد أن يقوم بأي شيء يغير الوضع الراهن، الناس هم مجرد أداة. الأمريكيون تم شراءهم بصمت بواسطة الأدوات وألعاب الأطفال. وكنتيجة لهذا، لم يتعلم أحد مطلقا أن يتساءل حول الأشياء. لا أحد يتساءل في هذا البلد، لا أحد...".

رجل الكهف "موقفا الفيديو": "... تم شراءهم بصمت بواسطة الأدوات وألعاب الأطفال...".

لوسيل "بألم": هذا مريع.

[482] **رجل الكهف**: إن كان كلامه صادقا على دولة تعد الأعظم في العالم، وقت تسجيل هذه الأمسية، فما هو حال الدول القابعة تحت حكومات ديكتاتورية صريحة، ودول العالم الثالث؟ دعونا نسمع

النصيحة الهامة التي سيقولها.

[483] **جورج كارلن**: "... ليس المهم أن تحث الأطفال على القراءة، الأطفال الذين يريدون القراءة سيقرؤون، الأطفال الذين يريدون تعلم القراءة، سيتعلمون القراءة. لكن الأهم بكثير هو أن تُعلِم الأطفال أن يتساءلوا عما يقرؤون. الأطفال يجب أن يتم تعليمهم أن يتساءلوا عن كل شيء. أن يتساءلوا عن كل شيء يقرؤونه وكل شيء يسمعونه. الأطفال يجب أن يتم تعليمهم أن يتساءلوا عن أفعال السلطات. الآباء لا يُعلمون أبناءهم مطلقا أن يتساءلوا عن أفعال السلطات لأن الآباء هم مظاهر سلطة بأنفسهم، ولا يريدون أن يقوّضوا هراءهم الذاتي داخل المنزل...".

[484] **رجل الكهف** "موقفا الفيديو": هذا ما أريده منك، أن تتساءل عن كل شيء. فإن فات الأوان ولم تعد طفلا بعد الآن ليتم تطبيق نصيحة جورج كارلن عليك، فعليك القيام بتلك المهمة بنفسك، بمسؤولية رجل واع. وتذكر المثل الصيني الذي يقول: "إن الذي يسأل يكون غبيا لخمس دقائق، أما ذلك الذي لا يسأل يبقى غبيا إلى الأبد".

داني "مفكرا": هذا صحيح.

[485] **رجل الكهف**: عليك أن تتخيل نفسك كائنا فضائيا، لا تفهم المغزى من أي شيء على هذه الأرض، ولا تفهم لم الأشياء هي على ماهي عليه، ولا لم يتصرف الناس بهذه الطريقة أو تلك، عليك أن تبقى تطرح الأسئلة، وتتابع التعمق في طرحها وستجد نفسك تتفرع في مختلف المجالات المعرفية بحثا عن الإجابات. وعليك أن تُدرّب نفسك على أن تُبقي هذه الأسئلة تجول في لاوعيك، لا تكن مِلحاحا في طلب الاجابة، بل عليك أن تُراكِم الأسئلة وتقوم بتصنيفها في دماغك وستجد نفسك تحل الألغاز رويدا رويدا. وأحيانا ستجد إجابة على سؤال ما وانت تبحث عن الإجابة على سؤال مختلف تماما، بل ربما في حقل معرفي مغاير تماما. هذه هي متعة هذه الهواية.

لوسيل "بحماسها الطفولي": يبدو الأمر ممتعا.

[486] **رجل الكهف**: داني! إن طرح الأسئلة هو الوقود الذي تستخدمه لتكوين بناءك الثقافي. وإن القاعدة تنص على هذه المفارقة: كلما زاد عدد الأسئلة التي لا إجابة لها عندك، كلما زاد ارتقاءك الثقافي. وكلما زاد عدد الأسئلة التي يوجد لها إجابات عندك، كلما تدنيت في المستوى الثقافي.

[487] **داني** "ضاحكا": ما هذه المفارقة المضحكة؟

رجل الكهف: ليست مفارقة مضحكة، بل هي حقيقة. لقد قلت لك، إن الأسئلة هي المصعد الذي تستخدمه لارتقاء البرج. هل نسيت أن الرعايا لا يسألون لأن لديهم إجابات جاهزة عن كل شيء؟ هل نسيت أننا وضعنا كل تلك الإجابات في الدرج وأقفلنا عليها؟ ألم تسمع عبارات مثل "كلما عرفت أكثر، كلما عرفت أني لا أعرف" أو "كلما تعلمت أكثر، كلما أدركت أني لا أعرف"؟

داني: بلى بالطبع.

[488] **رجل الكهف**: هذا لأنك كلما تعلمت، ستشعر بتلك الدهشة التي تقول فيها لنفسك: "كيف كنت على قيد الحياة دون أن أعلم هذا بحق السماء، آه كم كنت غافلا!" وفي نفس الوقت، ستثار لديك أسئلة جديدة لم تكن لتخطر على بالك. لأنك أصبحت في عمق مختلف في إدراك الأمر موضوع البحث. في الواقع إن الأمر أشبه باللعبة التي كلما حللت فيها لغزا ظهر لك على الفور ألغاز جديدة. هذا هو السر، هذه هي الإشارة التي تقول لك إنك على الطريق الصحيح في المعرفة. لو استطعت الإجابة على سؤال ولم تظهر لك على الفور أسئلة أخرى فأعد النظر فورا في منهج بحثك.

[489] **داني** "بذهول": لماذا ؟

رجل الكهف: لأن ذلك يُعني أنك لم تنتقل إلى مستوى أعمق من إدراك الأمر موضوع السؤال. هذا هو معنى ذلك المؤشر.

داني "بيأس": ذلك سيدفعني للجنون لو حصل معي.

[490] **رجل الكهف** "يقف ليتمشى داخل الكهف وغليونه في يده": هل تريد أن تصعد البرج أم تريد أن تبقى في الغرفة ؟

داني "بدهشة": طبعا أريد أن أصعد البرج.

[491] **رجل الكهف**: استمع إذن. فإني إذ أعطيتك البارحة الخريطة، فأنا الآن أعطيك مفاتيح الخروج من الغرفة والصعود على البرج. هل ستضع ملفاتك القديمة في الدرج وتقفل عليها، وتبدأ بتحويل فضولك لتتعلم عن كل شيء يحيط بك، وتسأل الأسئلة كالأطفال الصغار ؟

داني "بجزم": سأفعل.

[492] **رجل الكهف**: عليك ان تدرب نفسك على أن تكون موضوعيا في كل شيء، سواء في طرحك للأسئلة، أو في الإجابات التي تقبلها، أو في حكمك على الأمور أو نظرتك إليها. عليك تحييد نفسك ورغباتك ما استطعت. إن الموضوعية المطلقة مستحيلة على أي إنسان، لكن حاول أن تدرب نفسك كي تستطيع ملامستها.

داني: سأحاول قدر استطاعتي.

[493] **رجل الكهف**: وعليك ان تكون صادقا مع نفسك من الآن فصاعدا. لا تكن كالرعايا، الذين يقنعون أنفسهم أنهم مقتنعون مع أنهم مقتنعون أنهم غير مقتنعين. يكذبون على أنفسهم وهم مدركون أنهم يكذبون عليها. أريدك أن تراجع نفسك كل يوم قبل أن تنام، راجع يومك، احسب أخطاءك بحق نفسك، وبحق غيرك، عدّ مظالِمك، عليك الاعتراف بما تجهله، وبتقييم مدى صحة ما تعرفه. لا يوجد أسوأ من أن تكذب على نفسك وتخدعها. إن "... أشهر نمط للكذب هو ذلك الذي يخدع به الإنسان نفسه. الخداع للآخرين هو جريمة نادرة نسبيا..." كما قال نيتشة في *المسيح الدجال*. لا يمكن لأدنى قدر من خداع النفس أن يساعدك في تحقيق مبتغاك بل على العكس تماما، من شأنه إعاقتك عنه.

أنت تريد تحرير نفسك من خداع الثالوث، فلا تخدعها أنت. كلما كنت أكثر شفافية وتصارحا معها، كلما ساعدك ذلك على تحريرها ومن ثم تثقيفها. إن لم تكن طبيب نفسك، فمن سيكون طبيبك ويكشف لك الضرر الناجم عن البرمجة التي تعرضت لها؟

داني "بتركيز": لا أحد سواي.

[494] **رجل الكهف**: صحيح، لا يمكن لأحد أن يريد مصلحة نفسك، بإخلاص وصدق ونقاء، إلا أنت.

[495] **لوسيل** "بتعجب": ماذا تقصد؟

رجل الكهف: أقصد ألا تنتظري الفارس الذي سيأتي إلى نافذتك ليلا على حصان أبيض مجنح ليأخذك إلى مملكته ويجعلك أميرة. لن يأتي هذا الفارس، وإن أتى فإنما هو سيأخذك لتصبحي زوجته، ليمارس معك الجنس ويستأنس بوجودك في حياته. وليس مطلقا لأنه يريد إنقاذك من واقعك وتحسين حياتك. "هذا هو القانون، أبقه في ذهنك: من المهد إلى اللحد، الإنسان لا يقوم على الإطلاق ولا بشيء واحد لا يكون هدفه الأول، بل الأوحد هو تأمين راحة باله، واطمئنان نفسه." هذا هو القانون الذي أقره مارك توين في *ما الإنسان*. كل الكائنات الحية أنانية، ولا أريد أن أستفيض في هذا الأمر الآن فيأخذنا إلى علم الأحياء وعلم النفس، لكن أرجوكما لا تكونا ساذجين. نعم هناك أناس يريدون مصلحة غيرهم لكن فقط، وفقط لأن من مصلحتهم تحقيق ما يعتبره غيرهم مصلحتهم الخاصة. إنها منفعة متبادلة.

داني "بدهشة": هذا موضوع مثير للاهتمام حقا.

رجل الكهف: بالطبع إنه كذلك، لكن علينا ألا نستفيض فيه الآن لنثبته، قبل أن ننتهي من موضوعنا الأساسي.

لوسيل "موافقة": بالتأكيد.

[496] **رجل الكهف**: وإذ ذاك قد قيل، فنفسك لم يبق لها غيرك قد يهتم بها بحرص نقي. ودماغك لا يوجد أحد على سطح الأرض يريده أن يكون حرا تماما، إلا أنت لو أردت. فالقرار قرارك، خذ زمام المبادرة كرجل بالغ، وكن حريصا كل الحرص على ما لا يحرص عليه غيره.

داني: سأفعل جهد استطاعتي.

[497] **رجل الكهف**: لقد قلت لك بالأمس أن عليك تعلم نظرية المعرفة، وطريقة المعرفة العلمية، ومنهج البحث العلمي، والفلسفة العلمية، كي تطبقها في رحلتك الخاصة. ما اريده منك هو أن تكون قادرا على تحديد مشكلتك موضوع البحث، وتحييد العوامل، وتحديد ما يعتبر فروضا منطقية، ومقدمات أساسية ومعطيات. عليك ألا تتوه في بحثك بل أن تنطلق فيه بخطى ثابتة. تذكر كمية الهراء المنتشر من الأفكار الخاطئة، عليك تعلم كيفية وزنها وإقامة العلاقات بينها.

لوسيل "بتركيز": هذا مهم للغاية.

[498] **رجل الكهف**: وأن تكون صادقا مع نفسك وموضوعيا في طرحك للأسئلة يعني بالضرورة ألا تطرح سؤالا تكون لديك إجابة مسبقة عنه. من البديهي أن لديك الآن إجابات كثيرة، حالك كحال كل الرعايا في الغرف. لكن تلك الإجابات قد تم وضعها في الدرج والاقفال عليها، كما اتفقنا. لذا فهي بحكم غير الموجودة. كما أن شعورك لا يجب أن يكون عاملا مؤثرا في تقييمك للإجابات، منطقي، غير منطقي، مقبول، مستهجن، جميل، مريح، يبعث على الطمأنينة، مفزع، مخيف وما إلى ذلك من تقييمات سيقوم بها دماغك لا إراديا. تذكر أن ما يقوم به دماغك لا إراديا لا علاقة له بموضوعية الإجابات بل إن البرمجة التي تعرضت لها بالسابق، هي ما يدفعك إلى الشعور بتلك المشاعر والقيام بتلك التقييمات.

داني: صحيح، لقد تناقشنا في هذا.

[499] **رجل الكهف**: إذن عليك أن تضع كل ذلك جانبا وتتبع الأدلة حيث أخذتك رويدا رويدا، كمن يلاحق قطة هربت منه في الشارع، أيا ما كان الطريق الذي ستسلكه، مهما كان غريبا ومتعرجا وغير منطقي، فعليك اللحاق بها بصمت وصبر. وبالمناسبة، لا تقلق على كل تلك الأشياء الجميلة التي اعتدت الإيمان بها -وأصر على استعمال كلمة إيمان هنا، فالرعايا يؤمنون فقط ولا يعلمون- لأن "الواقع هو الذي عندما تتوقف عن الإيمان به، لا يذهب بعيدا" هكذا أجاب كاتب الخيال العلمي فيليب ديك طالبا جامعيا كنديا عندما سأله عام 1972 عن جملة واحدة يمكن بها تعريف الواقع. وبالتالي، أيا كانت تلك الأمور التي تؤنسك، وتريحك، إن كانت حقيقية فإنها لن تذهب بل ستجدها من جديد بعد أن تكون قد وضعت نسختها القديمة في الدرج. وإن كانت وهما، فعليك ان تكون سعيدا بتحررك منها. أم إن لديك رأيا آخر؟

داني "بتردد": لا أعرف ماذا أقول، إنه سؤال صعب.

[500] **رجل الكهف**: إذا فلم لا نسمح بالمخدرات والمهلوسات الكيميائية كما نسمح بتلك الفكرية؟ كلاهما يقوم بنفس المفعول، يجعلانك سعيدا ومرتاحا بصورة غير حقيقية. لم لا نتردد بإقرار ضرورة تحرير الناس من الأولى، بينما أراك مترددا بإقرار ضرورة تحريرك من الثانية. لم أفهم وجه الصعوبة في سؤالي!

[501] **داني** "بخجل": أتفق معك أن المنطق يقول بمساواتها، لكني كنت أفكر إن كنت سأتنازل عن كل ما اعتدت عليه إن لم تثبت لي حقيقته. هل ستكون حياتي سهلة يا ترى؟

[502] **رجل الكهف**: "إذا كنت تريد أن تأخذ الحياة بسهولة، ابق دائما مع القطيع، إنس نفسك داخل القطيع، اعشق الراعي، واحترم عضات كلبه." هكذا يقول لك فريدريك نيتشة، كما كتب كملاحظة كان عليها أن تُقال على لسان زرادشت في *هكذا تكلم زرادشت*. هل هذا ما تريده؟

داني "بخجل": كلا بالطبع.

[503] **رجل الكهف**: ألا تذكر أن الرعايا كائنات غريزية؟ ألا تذكر أن من يصعد البرج يتحرر من غرائزه، يتحرر من جسده، يتحرر من كل أشكال العبودية؟ أريد أن أصل بك إلى تلك المرحلة التي تقول فيها ما قاله نيكوس كازانتزاكيس على لسان زوربا اليوناني. والذي لم يكن ليقوله، لسخرية المقارنة، إلا لأنه تأثر بما قاله فريدريك نيتشة على لسان زرادشت. فإذا لم تكن تريد أن تأخذ الحياة بسهولة ببقائك مع القطيع، فهل يا تُرى ستحرر نفسك كما فعل زوربا، وكما أريد منك أن تفعل، كي ترى الحياة على حقيقتها دون أي زيف كما قال فيليب ديك؟ أم أنك تريد أن تكون بين هذا وذاك؟

[504] **داني** "متعجبا": ماذا تقصد ببين هذا وذاك؟

رجل الكهف: عندما لا تكون متحررا تماما فأنت حُكما متأثر بإيديولوجية معينة، أو بأفكار معينة، وبالتالي فإن ذلك يمنعك من أن تقوم ببحث حر. ألا تذكر أن الدماغ يجنح إلى الكسل، ويرتاح إلى المألوف، ويخشى عدم الراحة الناجم عن الجديد؟

داني: بالطبع اذكر.

[505] **رجل الكهف**: لذا فدماغك سيجنح دائما، مهما حاولت كبحه، إلى توجيهك كي لا تغير أي شيء من محتوياته، إنه يريد أن ينام قرير العين وأنت تريد إقلاقه. ستبقى في صراع معه أبد الدهر تماما كصراع سائق مع سيارته التي انفجر أحد إطاريها الأماميين. لذا وجب عليك ان تتحرر بالكامل. كي لا تعيش حالة الجذب تلك.

[506] **داني** "مستغربا": وكيف يقوم دماغي بحالة الجذب تلك؟

رجل الكهف: عن طريق استخدامه للميزات التي تحدثنا عنها مسبقا، فيقوم بتوجيهك بإعمائك عن بعض الحقائق وتسليط الضوء على غيرها. وعليه ستجد نفسك تقوم ببحث انتقائي يهدف إلى إثبات ما تريد إثباته، أو بالأحرى، ما يريد دماغك إثباته، وهو البرنامج القديم. ولهذا تجد باحثين كثر يعودون إلى المربع الأول الذي انطلقوا منه، فرحين بأنهم عادوا بيقين هذه المرة وليس بتأثير البرمجة، أو هكذا هم يحسبون. هؤلاء المساكين! لم ينتبهوا إلى الانتقائية التي كانت توجه بحثهم. وفي هذا العالم المليء بالأفكار، يمكنك إثبات أي شيء تريده بانتقائيتك أثناء بحثك، مستفيدا بكل مزايا الخدع الدماغية والأوهام التي يوفرها لك دماغك الكسول. وهذا ما لا يجب أن تكون عليه كباحث حر. احذر من هذا الفخ، إلا إن كنت تريد لنفسك ان تكون مثقف ثالوث أو أن تبقى من الرعايا.

داني "بجزم": كلا. أريد طبعا أن أكون مثقفا حرا.

[507] **رجل الكهف**: كي تكون حرا عليك أن تكون صادقا، وكي تكون صادقا عليك أن تكون بلا قناعات. عليك الحذر كل الحذر من أعداء الحقيقة.

[508] **داني**: وماهي أعداء الحقيقة؟

رجل الكهف: كتب فريدريك نيتشة في *إنسان مفرط في إنسانيته*: "أعداء الحقيقة: القناعات هي

أعداء أكثر خطرا على الحقيقة من الأكاذيب." لكنه يعود ليتساءل في *المسيح الدجال*: "هل هناك أي اختلاف حقيقي بين كذبةٍ وقناعةٍ..." ويَخلُص إلى الإجابة بالنفي على ذلك السؤال لأن "... ما كان كذبة عند الأب، يُصبح قناعة عند الابن..." ويقول ببصيرة نافذة: "أنا أدعوها كذبا، أن يرفض الانسان رؤية ما يراه، أو أن يرفض رؤيته كما هو عليه. سواء الكذبة قد تم التلفظ بها قبل المشاهدة أو ليس قبل المشاهدة، فإن ذلك لا يؤثر في النتيجة..." ولذا يكتب في مسوداته "الشيء الأكثر قربا من القناعة هو الكذب". كما أن العلاقة تبادلية، فلكي تكون صادقا، فإن ذلك يُعني بالضرورة أن تكون حرا لا منتميا لأن: "... الآن، ألا يرى الإنسان ما يراه، وألا يراه على حقيقته هو تقريبا أول مطلب لكل الذين ينتمون إلى جهة من أي نمط كانت. الإنسان المنتمي لجهة ما يصبح لا محالة كاذبا..." كما أشار في *المسيح الدجال*.

داني "بذهول": هذا خطير.

[509] **رجل الكهف**: بالطبع إنه كذلك. إن كنت تريد الحرية فعليك التحرر من كل أشكال المعتقدات. لأن "إنسان العقيدة، المؤمن من أي نوع، هو بالضرورة إنسان مُعتمِد، هكذا إنسان لا يمكنه وضع نفسه كهدف، ولا يمكنه إيجاد الأهداف في نفسه. المؤمن لا ينتمي لنفسه، هو يمكنه فقط أن يكون وسيلة لتحقيق غاية ما، إنه يجب عليه أن يكون مُستَغَلاً. إنه يحتاج لأحد ما كي يَستَغِلَّه..." هكذا وصف نيتشة الأمر في *المسيح الدجال*. ألا يوضح ذلك لك أنه هو عينه حال الرعايا في الغرف؟ يقول نيتشة في نفس الكتاب: "... الحرية من أي نوع من القناعات تنتمي إلى القوة وإلى وجهة نظر مستقلة..." لأن "... كل نوع من المعتقدات هو بحد ذاته دليل على محو الذات، على القطيعة مع الذات...". وبالتالي لا يمكن لمن لديه قناعات أن يحوز أي معارف، يقول نيتشة: "إن التعصب كان على الدوام أخطر الكوابح التي تعيق المعرفة.".

[510] **داني**: لكن لنكن واقعيين، لا يُمكن للموضوعية المطلقة أن تحصل في الواقع، لا بد للتصورات المسبقة أن تؤثر لاإراديا.

رجل الكهف: هذا صحيح، لذا عليك العمل بنصيحة أخرى لتوماس هكسلي.

[511] **داني** "متعجبا": وماهي؟

رجل الكهف: "علّمني العلم درسا... إنه أنذرني أن أكون حذرا في كيفية تبني وجهة نظر تقفز إلى تصوراتي المسبقة، بأن أتطلّب أدلة أقوى لمعتقدات كتلك، مما أتطلبه لِما كُنت معاديا له مسبقا." هكذا أخبر صديقه تشارلز كينجسلي في رسالة أرسلها له في 29 سبتمبر 1860.

داني "بإعجاب": هذه نصيحة لا تقدر بثمن.

[512] **رجل الكهف**: وعليه، فكلما شعرت نفسك مجذوبا نحو إجابة وتشعر أن دماغك يريد إن يقتنع بها، فعليك أن تبحث عن أدلة أكثر عليها، لكن قد يخدعك دماغك الكسول هنا أيضا بتحيزه، وبالتالي

لأكون دقيقا عليك محاولة نقدها "... إني أريد التأكيد على التساوي عندي بين الموقف العقلاني والموقف النقّاد. لأنه يجب علينا كلما ظننا أننا وجدنا حلا لمشكلة ما، محاولة إطاحة هذا الحل عوضا عن الدفاع عنه. لكن كثيرا منا لا يعملون مع الأسف وفق هذه القاعدة..." هكذا كتب كارل بوبر في "منطق البحث العلمي"، وقاعدته هذه ستحل لك تلك الإشكالية.

داني "بتركيز": قاعدة ذهبية. هكذا يمكنني أن أكون أكثر ثقة بجودة قناعاتي.

[513] **رجل الكهف:** ومع ذلك، إن الثقة المفرطة دليل على الجهل "...عادة ما يولد الجهل شعورا بالثقة أكبر مما تفعله المعرفة. إن هؤلاء الذين لا يعلمون إلا القليل، وليس هؤلاء الذين يعلمون الكثير، هم الذين يؤكدون بشكل قاطع، أن هذه المشكلة أو تلك لن يتم حلها عن طريق العلم..." هكذا كتب تشارلز داروين في مقدمة كتابه "نشأة الإنسان". إن هذا هو حال الرعايا دائما وأبدا، الكسالى الذين يضعون العصي في العجلات، ليرتاحوا في سباتهم. فحذار أن تكون مثلهم. بل عليك أن تفعل العكس تماما.

[514] **داني** "مستفسرا": وما هو العكس؟

رجل الكهف: أن تكون مدفوعا بالمعرفة دائما وأبدا وألا تكون متيقنا من أي جواب قد توصلت إليه، او معرفة تمتلكها "... إذا كنت متيقنا، فأنت يقينا مخطئ..." هكذا اختصر الأمر بيرتراند راسل في مقابلة له على شاشة التلفزيون البريطاني عام 1959. عليك ألا تعتقد بامتلاكك لأي معرفة يقينية، فلا أحد يعرف ماهي الحقائق اليقينية على أي حال. ستكون لديك معارف بنسب متفاوتة من التأكد، لكن لا يجوز لأي منها أن يكون يقينيا بنسبة مئة بالمئة. "... إن أكثر عمل مخيف في حياة الانسان هو أن يقول وأن يشعر (أنا أعتقد أن هذا وذاك حقيقي). كل المكافئات الأعظم وكل العقوبات الأشد في الوجود تتعلق بذلك التصرّف..." هكذا كتب توماس هكسلي في رسالته لتشارلز كينجسلي.

[515] **لوسيل** "مستفهمة": إذن لا يجوز مهما بلغ الانسان من المعرفة، أن يعتبر أي معرفة لديه على أنها حقائق يقينية.

رجل الكهف: إن هذا هو ما يجعل الرعايا رعايا، فهم لديهم حقائق يقينية. كما أن هذا هو أكبر خ قد يقع فيه أي باحث. بل إن العكس تماما هو ما يجب أن يكون.

[516] **داني** "بتعجب": ماذا تقصد؟

رجل الكهف: أقصد أن تتيقن من أنك لا تعرف، هذه هي بوابة الحكمة. وفي اللحظة التي تتيقن فيها عكس ذلك، فقد فقدت حكمتك.

لوسيل "بابتسامة": ليس لهذه الدرجة، أنت تبالغ!

[517] **رجل الكهف:** ما قولكِ في سقراط؟

لوسيل "بإعجاب": لقد حدثتنا عنه مسبقا، ولا شك أنه قد تجرّد من كل غرائزه، وصعد البرج ووصل أعلى ما يمكن أن يصل إليه رجل في زمانه.

رجل الكهف: إذا هو نموذج جيد ليُحتذى في صعود البرج.

لوسيل "موافقة": دون أدنى شك.

[518] **رجل الكهف:** وهل تريدين معرفة سر حكمة سقراط التي أوصلته إلى ما وصل إليه؟

لوسيل "بحماس": بكل تأكيد.

[519] **رجل الكهف** "وهو يتمشى": اسمعي الحكاية إذن كما قصّها في *الدفاع* أثناء محاكمته: "... سأحاول أن أوضح لكم طبيعة الأساس الذي اعتمادا عليه اخترعت تلك السمعة وتلك الافتراءات. فاسمعوا إذن، وربما يظن بعضكم أنني أمزح، ولكن ثقوا أني سأقول الحقيقة كاملة. إن سمعتي هذه ليس لها من مصدر إلا وجود حكمة معينة عندي. ما طبيعة هذه الحكمة؟ ربما لا تكون أكثر من حكمة إنسانية، ويمكن أن أكون بالفعل حكيما بتلك الحكمة... فيما يخص حكمتي، إن كنت أحوزها، وأي نوع من الحكمة هي، فإني سآخذ إلى جانبي شهادة الإله الذي في دلفي..." لأن كاهنة دلفي كانت قد أعلنت "... أنه ليس هناك من هو أحكم مني..." لذلك "... فحينما سمعت هذا تفكرت بيني وبين نفسي، ماذا يريد الإله أن يقول؟ وماذا يريد أن يعني؟ فأنا نفسي أعي أنني لست حكيما على أي نحو صغيرا كان أم كبيرا. فماذا يريد إذن أن يقول حينما يعلن أنني أحكم البشر؟ لأنه لا يمكن للإله أن يكذب، فذلك غير ممكن له. وظللت حائرا مدة طويلة أمام ما قصد الإله أن يقول...".

[520] **لوسيل** "بحماس": وماذا فعل بعدها؟

رجل الكهف: "وأخيرا... ذهبت إلى أحد هؤلاء الذين يُظنون حكماء، من أجل أن أفنّد هكذا، وبأحسن طريقة، إجابة النبوءة، قائلا لها: (هذا الرجل أحكم مني، أما أنتِ فقلت إني الأحكم) وفحصته إذن فحصا شاملا... كان أحد رجال السياسة، وقد جعلني فحصه... أحس بالتالي: فأثناء الحوار معه بدا لي أنه يبدو في نظر الكثيرين من الآخرين، وفي نظره هو على الخصوص، حكيما. أما في الحقيقة فإنه ليس بالحكيم... وفي نفسي، أثناء ابتعادي، قلّبت الأمر، ورأيت أنني أحكم من هذا الرجل: فمن الممكن ألا يعرف أحد منا نحن الإثنين شيئا ذا قيمة، ولكنه يعتقد، هو، أنه يعرف شيئا بينما هو لا يعرفه. أما أنا، فكما أنني لا أعرف شيئا، فإنني لا اعتقد كذلك أنني أعرف شيئا، فيبدو لي إذن أنني أحكم قليلا من هذا الرجل، حيث إنني لا أعرف شيئا ولا أعتقد أني أعرف. على إثر هذا ذهبت إلى آخر ممن يُعتبرون أحكم من السابق، وظهر لي نفس الشيء... وقسما بالكلب، أيها الأثينيون، وواجب عليّ قول الحقيقة لكم، إن هذا هو ما حدث لي: هؤلاء الذين كانوا مشهورين أكبر شهرة بالحكمة بدوا لي، إلا في النادر، بعد فحصي لهم... أفقرهم إليها، على حين أن آخرين كانوا يُظنون أقل منهم، كانوا في الحقيقة رجالا أجدر من وجهة نظر الحكمة." أي من وجهة نظر إمتلاك الحكمة، أو العقل، أو الحكم

بتعقّل وحكمة.

[521] **لوسيل** "بانتباه": أكمل القصة أرجوك.

رجل الكهف "وهو يشعل غليونه": "... بعد السياسيين ذهبت إلى الشعراء... وقد اصطحبت معي من مؤلفاتهم ما بدا لي أنهم بذلوا فيه غاية الجهد، وسألتهم بالتفصيل عما يقصدون راغبا في الوقت ذاته أن أتعلّم منهم. ولكني أخجل... من أن أقول الحقيقة لكم. ولكن الحقيقة يجب أن تُقال. ويمكن أن نقول إن كل الحاضرين كادوا أن يكونوا قادرين على الكلام حول ما كتبوه هم أفضل منهم هم أنفسهم. وظهر لي... أنهم لا يكتبون ما يكتبون على أساس من عِلم، بل بنوع معين من الموهبة الطبيعية وفي حالة من الإلهام... فهؤلاء أيضا يقولون أشياء كثيرة جميلة ولكنهم لا يدرون شيئا عما هم قائلون... انتهيت إلى أن الشعر يجعلهم يعتقدون أنهم أحكم البشر حتى فيما يخص الموضوعات الأخرى، وهو مالم يكونوه على الإطلاق. فذهبت عنهم إذن معتقدا، على إثر هذا، بتفوقي عليهم، تماما كتفوقي على السياسيين.".

لوسيل "مفكرة": وما أكثرهم عبر التاريخ، وفي أيامنا هذه.

[522] **رجل الكهف**: "وأخيرا ذهبت إلى المتخصصين في الأعمال اليدوية. وإذ كنت أنا على وعي بأنني لا أعلم شيئا، او ما يقرب، من هذا، فقد كنت واثقا من أن هؤلاء عالمون بأشياء كثيرة وجميلة، وبخصوص هذا لم أُكذَّب، فقد كانوا يعرفون أشياء لا أعرفها، وكانوا من هذه الناحية أعلم مني. ومع هذا... فقد بدا لي أن لدى هؤلاء الصناع الطيبين، نفس النقيصة لدى الشعراء: فكل واحد منهم، لأنه يؤدي مهنته تأدية ممتازة، يعتقد أنه أحكم البشر حتى في أهم الأمور الأخرى، وهذا خطأ من جانبهم غطّى على معرفتهم تلك...".

لوسيل "بألم": وما أكثر هؤلاء. إنهم في كل مكان.

[523] **رجل الكهف**: "هذه الإستقصاءات تولّدت عنها... الكثير من الافتراءات وتلك السمعة التي تقول إني حكيم. ذلك أن الحاضرين كانوا يعتقدون في كل مرة أنني عالم أنا نفسي في الموضوعات التي أكشف عن جهل محدثي بها. ولكنه من المحتمل... أن يكون الحكيم الحقيقي هو الإله، وأنه أراد في النبوءة... أن يقول: (الأحكم من بينكم، أيها البشر، هو من أدرك، مثل سقراط، أنه بغير قيمة في الحقيقة بالنظر إلى الحكمة)...".

لوسيل "بذهول": كم كان متواضعا! الآن فهمت مقصدك.

[524] **رجل الكهف**: نعم لقد كان متواضعا. فلا يجوز لمثقف أن يكون غير ذلك. وهذا لسببين مختلفين.

[525] **لوسيل** "باهتمام": ما هما؟

رجل الكهف: أولهما لأن القاعدة تقول: من تواضع للعِلم رفعه. هل تستطيعين ملئ كوب من الماء مالم يكن تحت مستوى الإناء الذي يحتوي الماء؟

لوسيل: كلا بالطبع.

[526] **رجل الكهف:** وهكذا وجب أن يكون طالب العلم. يتذلل أمام المعرفة كي ينهل منها. هكذا يُستزاد من المعرفة، كما يُستزاد من إناء الماء. هذا شرط لازم. وكلّما تذللتِ للمعرفة، وتواضعتِ أمامها، كلّما زادتك أكثر. وفي اللحظة التي يُخامِرك بها قَبسٌ من الكِبر، تتوقف تلقائيا فيها عن تزويدك. تماما كما يتوقف الكأس عن الاستزادة بالماء إذا رُفع إلى الأعلى.

لوسيل "مفكرة": لم أفكر في هذا مطلقا.

[527] **رجل الكهف:** إذا فالخروج من الغرفة يتطلب التواضع بالضرورة، وهنا يأتي السبب الثاني. إن تواضعتِ بما فيه الكفاية لتخرجي من الغرفة ثم تصعدي البرج، فأنتِ عمليا قد بدأتِ بالانسلاخ من جسدك الغريزي، وبدأتِ بناء كينونتك الثقافية. وما الكِبرُ والغرور إلا من الغرائز، التي وجب أن تكوني قد تحررتِ منها. ألم أسطر لكِ القاعدة التي تقول: بالقدر الذي تنقل فيه ماهيتك من قسم الغرائز إلى القسمين الآخرين، بالقدر الذي تقل فيه ماهيتك الغريزية وتزداد ماهيتك الثقافية. حتى تبلغ درجة الكمال عندما تفقد أي اهتمام بقسم الغرائز؟

لوسيل: أذكر هذه القاعدة بالطبع.

[528] **رجل الكهف:** إذا لا يمكن أن يجتمع تجلي من تجليات الماهية الغريزية، ممزوجا بماهية ثقافية. هذا مستحيل التحقيق. فالكِبر دون أدنى شك، أحد تجليات الغرائز الهادفة لتحقيق التمايز في الغرفة. لذا فهو غير موجود على البرج. وما أولئك المثقفون المتعجرفون، أو المتكبرون، إلا أشخاص استخدموا ثقافتهم كوسيلة للتنافس الجنسي داخل الغرفة، سواء كانوا مستقلين أو كانوا مثقفي ثالوث. هم قطعا في الغرفة طالما كانوا متكبرين. لأن هذه الصفة، كغيرها من المذمات، لا توجد على البرج.

لوسيل "مفكرة": هذا مقنع جدا.

[529] **رجل الكهف:** اسمعي هذه القاعدة: كل المذمات والرذائل والقبائح موجودة في الغرف فقط. البرج نقيٌ نقاء ثلج القطب الشمالي، أو الجنوبي. في اللحظة التي يُدنّس فيها نقاء المعرفة، بأحد المذمات، فاعلمي على الفور أن صاحبها موجود في الغرفة لا على البرج، وهو يستخدم معرفته استخدام الطاووس لذيله فحسب.

لوسيل "بذهول": هذه قاعدة عظيمة.

[530] **رجل الكهف:** وماذا لاحظتِ أيضا في قصة سقراط؟ مالذي أبعد الناس عن الحكمة غير عدم التزامهم التواضع؟

لوسيل "بحماس": وهم المعرفة.

رجل الكهف: أحسنتِ. وهم المعرفة، هذا الخطأ القاتل. الخطأ المدمر. الذي يوقف الإنسان عن

طرح الأسئلة، ويدفع به إلى التكبر.

[531] **داني**: ماذا تقصد على وجه التحديد بوهم المعرفة؟

رجل الكهف: أقصد بها أمرين: وهم إمتلاك المعرفة الغير مملوكة، ووهم يقينية المعرفة المملوكة. ألم تلحظ ذلك عبر حديثنا كله منذ الصباح. إياك ووهم إمتلاك المعرفة. يقع فيها الرعايا كلهم، ويقع فيها كثيرون ممن صعدوا البرج.

داني: صحيح لقد لاحظت ذلك.

[532] **رجل الكهف**: قال دانييل بورستين في مقابلة له مع جريدة *The Washington Post*:".... أعظم عائق للاكتشاف ليس الجهل، إنه وهم المعرفة". ونجده في كتابه *المكتشفون* يستخدم عوائق الاكتشاف وأوهام المعرفة تبادليا بقوله: "عوائق الاكتشاف -أوهام المعرفة- هم... جزء من قصتنا. فقط ضد خلفياتهم المنسية لما استلموه من فطرة سلمية، وخرافات سائدة في عصورهم أمكننا أن نبدأ الإحساس بالشجاعة، التهوّر، البطولة، والضربات الخيالية للمكتشفين العظماء. كان عليهم الصراع ضد الحقائق الحالية وعقائد المتعلمين التي لا تقبل الجدل..." وفي الواقع، فإن كتابه الرائع هذا يثبت بأكمله أن وهم المعرفة، كان هو العائق نحو الاكتشاف في التاريخ الإنساني كله.

[533] **داني** "بحماس": إذن يجب تنحية الرغبات جانبا عند البحث مهما كنا نعتقد بحقيقة أمر ما.

رجل الكهف: لا فض فوك. عليك ان تذوب تماما أثناء البحث. إما أنت برغباتك وقناعاتك، وإما المعرفة. الاثنان لا يجتمعان. وإن كنت تطلب المعرفة، فعليك تماما تنحية نفسك جانبا، كما فعل سقراط. اتبع الأدلة فحسب كما أوصيتك، ولتكن على أهبة الاستعداد دائما وأبدا لتغيير ما تعتقده حال ثبوت دليل ما من شأنه أن يفعل ذلك. أرسل توماس هكسلي لتشارلز كينجسلي: "... أعطني دليلا يثبت أهليته لي للاعتقاد بشيء آخر وسأعتقد بذلك. ولم عليّ ألا أفعل؟..." ولا تخف من الخطأ "... لأن أعظم عدوٍ للمعرفة ليس الخطأ، بل الهمود..." هكذا أشار هنري باكل في *تاريخ الحضارة في إنكلترا*.

[534] **داني** "مفكرا": إذن عليّ أن أكون مستعدا دائما لتغيير آرائي بصدر رحب.

رجل الكهف: في الواقع، كي أكون دقيقا. عليك أن تكون مستعدا لتغيير رأيك قبل أن يكون لديك ذلك الرأي. لأن "الغبي هو ذلك الشخص الذي كان قلمه خارجا قبل ممحاته" هذا ما قالته مارلين سافانت التي دخلت موسوعة غينيس كصاحبة أعلى معدل ذكاء في ثمانينات القرن العشرين. لذا فمن الحكمة أخذ رأيها بعين الاعتبار.

[535] **داني** "بإعجاب": هذه ملاحظة قيّمة، لكن أليس ذلك مربكا؟ أعني حالة عدم التأكد تلك.

رجل الكهف: إنها المناخ الطبيعي على البرج والذي هو على نقيض المناخ السائد في الغرف. وعمليا، ستعتاد على حالة عدم التأكد تلك لدرجة انها ستصبح طبيعية تماما، بل وستشعر بنشوة كلما

غيّرت أفكارا لديك. دعني أشبهها بتلك السعادة التي تعتري الرعايا عندما يستبدلون شيئا ما قديما يملكونه بشيء جديد. وإن كانت طبعا تفوقها بمراحل. فأنت على البرج لا تُهمك نفسُك. ألم أقل لك إما أنت وإما المعرفة؟ من انت في حضرة المعرفة؟ ما أهميتك ككائن بيولوجي تافه مقارنة بجلال المعرفة؟ بل إنك ستسعد لأن تغيير أفكارك هو دليل على أنك تصعد البرج. ألا تتذكر كيف أنه كلما ارتقيت البرج كلما اتسع أفق نظرك؟

داني: بلى بالطبع.

[536] **رجل الكهف**: واتساع أفق نظرك يعني بالضرورة أنك سترى أشياء جديدة، وهذا يعني بالضرورة أنك ستغير ما اعتدت أن تراه على أنه حقيقة، بشيء آخر، بناء على الرؤية الجديدة. وهنا قاعدة أخرى: في اللحظة التي تتوقف فيها عن تغيير أفكارك وآراءك ونظرتك للأمور، فهذا مؤشر على أنك توقفت عن صعود البرج. لذا عليك أن تكون ممتنا لمن يساعدك في ذلك. فهو يعطيك دفعة مجانية إلى الأعلى.

لوسيل "بإعجاب": هذه قاعدة هامة. ومؤشر يسهل مراقبته.

[537] **رجل الكهف** "وهو يشعل غليونه": بما أنني على صداقة حميمة مع بيرتراند راسل، فقد اطلعت على رسالة كتبها في التاسعة مساء الثاني والعشرين من أكتوبر عام 1894 في باريس لخطيبته أليس يقول فيها: "حبيبتي أليس، لا أظنك ترضين أن تعتمدي عليّ في كل شيء. لأنك سوف تجدين أني سوف أضجَرُ إذا وافقتِني دائما، ولسوف أحتاج من وقت إلى آخر لجدل ينعش عقلي. فإني أشعر بلذة حقيقية ومؤكدة إذا ما أشار أي إنسان إلى مغالطة في آرائي، لأنه لا تهمني آرائي، بقدر ما يهمني ألا تكون فيها مغالطة...".

لوسيل "بدهشة": لم أسمع في حياتي شخصا يقول كلاما كهذا.

[538] **رجل الكهف**: لأنه يندر أن تستمعي لشخص بحكمة بيرتراند راسل. هذا سر من أسرار الحكمة، شخص متواضع، نحّى ذاته تماما ويبحث عن المعرفة الصحيحة. لقد كتب هذا الكلام وهو في الثانية والعشرين من العمر، لقد إكتشف المفتاح واستخدمه طوال سنوات حياته التي قاربت المئة، مما كان من شأنه جعله فيلسوفا موسوعيا ومنطقيا عظيما من الطراز الأول. وإن كنتما نبيهين، فستكتشفان أن هذا السبب عينه، هو ما يجعل الرعايا، رعايا من الطراز الأول.

داني "مفكرا": صدقت يا رجل الكهف. لقد وضعت إصبعك على الجرح.

[539] **رجل الكهف**: إذا بحثت قليلا وشكلت قناعات ما، في ضوء أبحاثك، ثم ثبتَّ عليها للسنوات القادمة، فهذا يعني بالضرورة أنك لم تعد تمارس البحث. أين الأسئلة التي تطرحها وتبحث عن إجاباتها؟ هل يُعقل أن كل الإجابات الجديدة التي تتوصل إليها بموضوعية وفق الطريقة التي نتناقش بها، تُثبت قناعاتك القديمة؟ هل أنت إله لتكون كل قناعاتك على صواب مما لا يدفعك لتغييرها

مستقبلا؟ الآلهة تغير آراءها. ألم تقرأ الأساطير؟ يبدو أنك، والحالة هذه، أحكم من الآلهة جل جلالها شخصيا.

داني "ضاحكا": أنت على حق.

[540] **رجل الكهف:** كل المفكرين العظماء والباحثين الجادين، والأشخاص الذين غيروا بأفكارهم وأعمالهم التاريخ الانساني، أو قدموا إسهامات فيه، قد غيّروا آراءهم وقناعاتهم. وليس من النادر مطلقا أن تقرأ كتابا ما، وتجد مؤلفه قد قام بتعديلٍ لوجهات نظره في الطبعات اللاحقة، أو أصدر كتبا جديدة توضح ما توصّل إليه لاحقا. كاتب كهذا أرفع القبعة له احتراما، لأنه يقوم بالضبط بما يجب على الباحث فعله.

لوسيل: لقد لاحظت هذا مرات عديدة.

[541] **رجل الكهف:** وضعا هذا نصب أعينكما " أهم شيء تعلمته من أبي هو أنك إن سألت أي سؤال، وتابعته بعمق كاف، عندها في النهاية ستجد اكتشافا رائعا من النوع العام والجميل." هكذا كان ريتشارد فاينمان مدفوعا طوال حياته ليكتشف كل ما اكتشفه.

لوسيل "بإثارة": تحفيز رائع.

[542] **رجل الكهف:** والآن سآتي على ذكر مفتاح ذهبي من مفاتيح البرج.

داني "مقاطعا بحماس": ما هو؟

رجل الكهف: "لا تسمح لنفسك أن تكون مخدوعا، المفكرون العظماء مشككون..." هكذا كتب فريدريك نيتشة في *المسيح الدجال* الذي اعتبره حصاد مجمل فلسفته، مضيفا: "... القوة، الحرية، التي تنفذ من الطاقة الفكرية، من غزارة الطاقة الفكرية، يبرهنان على نفسيهما كشكوك..." هذا لأن "... رجال القناعات سجناء، إنهم لا يرون إلى بُعد كافٍ، إنهم لا يرون ما يوجد تحتهم..." ويضع القاعدة التالية: "... إن عقلا يطمح للأشياء العظيمة، ويرغب في وسائلها، هو بالضرورة متشكك...".

[543] **داني:** ماذا تقصد بالمتشكك؟

رجل الكهف: اريدك أن تشك في كل شيء، لأنك كلما كنت شكوكيا أكثر، كلما استطعت التوصل إلى معارف أكثر دقة. الرعايا لا يشكون، ولذا فهم لا يبحثون، عليك أن تكون على العكس من ذلك تماما. ابحث عن مصادر المعلومات والأفكار، ففي عالم يضج بالفوضى الثقافية، لا بد من أن تكون شكوكيا إلى أقصى الدرجات. وفي ضوء الاعتبارات السابقة التي تحدثنا فيها، لا مناص لك من أن تشك في كل شيء وأن تعتمد على نفسك لتبحث عن الحقائق. اسأل نفسك، لماذا يُخبرني فلان بهذا الأمر؟ هل يريد خداعي؟ هل يريد استغلالي؟ هل هذا الكتاب قد تمت ترجمته بدقة؟ هل دار النشر قد حرّفت كلام الكاتب؟ هل هذه القناة التلفزيونية قد حرّفت الخبر؟ ما الدليل على صحة هذه الفكرة أو تلك المعلومة؟ هل فلان يفهم تماما الفكرة التي يشرحها لي؟ وهكذا دواليك. فإن كنت تصدّق كل ما تقرأ فأرجوك لا تقرأ، وإن كنت تصدق كل ما تشاهده على التلفاز، فأتوسل إليك ألا

تشاهد التلفاز. بل إن الناس اليوم يبنون ثقافتهم ومعلوماتهم وقناعاتهم من مواقع التواصل الاجتماعي ومواقع الإنترنيت. احذر يا صاحبي من وهم المعرفة. "لا تسمح لنفسك أن تكون مخدوعا..." لا من قِبل غيرك، ولا من قِبل حواسك، ولا من قِبل دماغك. أخبراني ماهي أشهر مقولة لرينيه ديكارت؟

لوسيل "بحماسها الطفولي": "أنا أفكر إذا أنا موجود".

[544] **رجل الكهف:** هل تعرفين أين كتبها؟ وما سياقها؟

لوسيل "بخجل": كلا. لكني أحفظها عن ظهر قلب منذ أن كنت طفلة صغيرة.

[545] **رجل الكهف:** ومن لا يفعل! لقد تم اجتزاء هذه الجملة من سياقها، وتسويقها عالميا بواسطة ثواليث القمع لتدمير المنهج الديكارتي.

[546] **داني** "بذهول": ماذا تقصد؟

رجل الكهف "بعصبية": ديكارت صاحب منهج الشك، ورائد العقلانية، قد تم إشهار جملته تلك فقط، من بين كل ما كتب، ليتم برمجة أدمغة الرعايا ومن ثم حثّهم على التفكير بقولهم: فكر بعقلك واتبع مقولة ديكارت "أنا أفكر إذا أنا موجود". ضاربين بعرض الحائط كل فلسفة ديكارت، مانعين انتشارها بين الرعايا. هكذا يفعلون لمواجهة أفكار من صعد البرج. هؤلاء السفلة.

[547] **داني:** على رسلك. لم أفهم شيئا. هدأ من توترك وأخبرنا القصة.

رجل الكهف "وهو يشعل غليونه": أعتذر عن انفعالي لكني لا أستطيع تحمل التفكير بما يفعله الثواليث بحق الرعايا الضعفاء وأن أحتفظ بهدوئي اللامبالي. هل يسمح لك ضميرك أن تكون هادئا وأنت تشاهد ظالما يبطش بمظلومين مساكين؟

[548] **داني:** كلا بالطبع. لكن أخبرنا في أي سياق وردت تلك الجملة الشهيرة؟

رجل الكهف: وردت في كتابه *حديث في الطريقة* ودون الخوض في التفاصيل، سأخبركما بسياقها باختصار وستفهما الأمر لوحدكما. ركزا معي جيدا.

لوسيل "بتركيز": كلي آذان صاغية.

[549] **رجل الكهف:** "... لقد لاحظت منذ مدة طويلة أنه، فيما يتعلق بالممارسة، إنه من الضروري أحيانا أن نتبنّى... آراءً، والتي نميزها لأن تكون غير مؤكدة بشكل قوي... لكني عندما رغبت أن أعطي انتباهي فقط للبحث عن الحقيقة، فكرت أن نهجا معاكسا بالضبط هو ما يجب القيام به، وأنه يجب عليّ أن أرفض كأخطاءٍ مطلقةٍ كل الآراء التي تتعلق بما يمكنني أن أفترض به أقل قدرٍ من الشك، من أجل أن أتأكد إذا ما بقي لدي بعد ذلك البتة في إيماني ما يكون بالكامل غير قابل للشك... وأخيرا عندما أخذت بعين الاعتبار أن الأفكار ذاتها (العروض) التي نختبرها عندما نكون صاحين، يمكن أيضا أن يتم اختبارها عندما نكون نائمين، عندما يكون في ذلك الوقت ولا واحداً منها حقيقياً،

افترضت أن كل الأشياء (العروض) التي تم إدخالها إلى عقلي على الاطلاق في أوقات صحوي، لا تملك من الحقيقة أكثر من أوهام أحلامي. لكن على الفور، بناءً على هذا لاحظت أنه، بينما تمنيت إلى هذا الحد أن أعتقد أن ذلك كله كان خاطئا، كان من الضرورة بوضوح أنني أنا، الذي فكر بهذا، يجب أن يكون موجودا نوعا ما، وبمراقبتي لذلك، هذه الحقيقة، أنا أفكر، إذا أنا موجود، كنت متأكدا جدا ومن دليل كهذا لا يمكن أن يخامره الشك... أنا انتهيت إلى أنني، ربما دون تورّع، أقبلها كأول مبدأ للفلسفة التي كنت أبحث عنها.".

[550] **لوسيل** "بتركيز": إذن وأثناء شكّه، تنبه إلى أنه يفكر، فتأكد من وجوده.

رجل الكهف: بالضبط. وهذا ما دعا الناقد الأدبي الفرنسي أنطوني توماس، إلى أن يعيد صياغة هذه الجملة التي انتشرت كالنار في الهشيم خارج سياقها، فسلخت معناها الديكارتي تماما، بقوله في مقال له عام 1765: "بما أنني أشك، أنا أفكر، بما أنني أفكر، أنا موجود"، وقد تم إعادة صياغتها في الأدبيات اللاحقة لتصبح: "أنا أشك، إذا أنا أفكر، إذا أنا موجود" هكذا يستقيم المعنى الديكارتي لطريقة ديكارت في التأكد من وجوده. ولا أعتقد أن ديكارت كان ليمانع هذا التعديل قط، بل ربما كان ليقوم به شخصيا لو اكتشف التحريف الذي أخرجت به تلك الجملة العابرة من سياقها.

داني "مفكرا": إذن ديكارت كان مصرا على الشك كمصدر للمعرفة، بل كدليل على التأكد من الوجود الذاتي.

[551] **رجل الكهف:** إن الشك هو ما ميّز فلسفة ديكارت، نراه يكتب في *مبادئ الفلسفة* تحت عنوان "في مبادئ المعرفة البشرية" أول مبدئ هو: "من أجل أن تبحث عن الحقيقة، إنه من الضروري أن تشك مرة واحدة في خلال مسيرة حياتك، لأبعد مدى ممكن، في كل الأشياء." ويشرح هذه الضرورة بقوله: "لأننا كنا في وقت ما أطفالا، وإننا قد شكلنا أحكاما مختلفة بما يتعلق بالأشياء التي تم تقديمها لحواسها، عندما لم نكن بعدُ قد استخدمنا عقولنا بالكامل. العديد من التحيزات تقف في طريق وصولنا إلى معرفة الحقيقة، وبسببهم يبدو مستحيلا علينا تخليص أنفسنا، إلا إذا أخذنا على عاتقنا، مرة في حياتنا، أن نشك في كل هذه الأشياء التي قد نكتشف بها ولو أدنى شك من عدم اليقين." وبعد ذلك تماما، نجد المبدأ الثاني وهو: "يجب علينا أيضا أن نعتبر خطأً كل ما كان مشكوكا فيه." ويعقب على ذلك بقوله: "بل أكثر من ذلك، إنه سيكون من المفيد بالمثل أن نعتبر الأشياء التي سنستطيع التشكيك فيها على أنها خاطئة، لأنه يمكننا بوضوح أكبر اكتشاف ما يمتلك أعلى قدر من اليقين، وإنه الأسهل كي يُعرف.".

[552] **داني:** إذا علينا الشك في كل شيء قدر الإمكان.

رجل الكهف: وعبارة "في كل شيء" هذه، تقتضي- بالضرورة أن تبحث عن المعلومات من مصادرها، ولا تعتبر معلومة ما مؤكدة مالم تكن من مصدرها.

داني: ماذا تقصد؟

رجل الكهف: عندما تريد أن تحصل على المعارف التي تحدثنا عنا بالأمس، عليك أن تنهل معرفتك من المصادر. أي لتعرف عن أي مجال عليك الاستماع إلى فطاحل هذا المجال، وقراءة أمهات الكتب فيه، وإن كانت هذه الكتب مترجمة، عليك التأكد من أن المترجم ينتمي إلى تلك المدرسة وليس ضدها، وهكذا. إن الناس يبالغون بالاهتمام في جودة أحذيتهم، ولا يبدون أدنى قدر من الاهتمام بجودة أفكارهم، هذا تعريف دقيق للامبالاة برأيي.

لوسيل "بحزن": صدقت.

[553] **رجل الكهف**: عندما تريدين شراء شيء ما، لنقل هاتفا ذكيا، أو جهازا لوحيا، ولديكِ بديلان لتختاري منهما، ماذا تفعلين عادة؟

لوسيل: ابحث على مواقع الإنترنيت عن مواصفاتهما، واسأل أهل الخبرة وكل من أعرف أنه قد اقتنى أيا منهما، ثم أذهب لمقر الشركتين واشاهد بنفسي الجهازين ثم أحكم.

[554] **رجل الكهف**: هل تسألين الشركة الأولى عن رأيهم في الجهاز الثاني، والشركة الثانية عن رأيهم بالجهاز الأول؟

لوسيل "ضاحكة": كلا طبعا. هل تراني غبية كي أفعل هذا؟ من البديهي أن تمدح لي كل شركة بجهازها وتطعن بالآخر.

[555] **رجل الكهف**: هذا ما يقوم به أي شخص امتلك قدرا من الفطنة من شأنها منعنا من نعته بالغباء. لكن لماذا بحق السماء لا يفعل الناس نفس الأمر مع الأفكار كما يفعلون مع الأشياء؟ فترين الواحد منهم يستقي معلوماته عن الأديان الأخرى من رجل الدين خاصته، وعن المدارس السياسية الأخرى من رجل السياسة خاصته، وهكذا في كل الأمور. أليس من البديهي أن المعلومة ستصله مشوهة ومحرفة؟ لقد نجى من أن ننعته بالغباء في شراء هاتفه لكنه بكل أسف لم يكن محظوظا فيما دون ذلك.

داني "بألم": صدقت.

[556] **رجل الكهف**: ولا تكن ساذجا وتقتنع بصحة معلوماته لأنه قال لك اسم مصدرها، فهو يعرف أن الرعايا لا تبحث وراءه عن المصادر. من يتناقل رسالة وصلته على هاتفه دون أدنى تفكير فيها لن يذهب ليراجع المصادر وراء حديث قد سمعه أو خطبة قد حضرها. لذا سيلفقون المصادر لك، أو يجتزئون جملا من سياقها ويبنون عليها محاضرات كاملة بل ربما يؤلفون كتبا تفند جملة ما مأخوذة خارج سياقها، أو حتى فكرة ملفقة. لذا فإن الحل العقلاني الوحيد هو أن تبحث عن المعلومة من مصدرها حُكما. هذا ويقتضي الشك أنك وإن سمعت المعلومة من مصدرها أو قرأتها من كتاب من بيتها، ألا تعتقد بصحة فهمك لها بنسبة مئة بالمئة. فقد يكون أمر ما قد كان من شأنه تشويه نقل الفكرة، سواء كان الامر يتعلق بطريقة عمل دماغك أو دماغ المصدر، أو بوسيلة الانتقال المادي للفكرة. في

الحقيقة، عليك أن تنسى أي يقينية. عبارة "مئة بالمئة" يجب أن تُمحى من قاموسك إلى الأبد.

[557] **لوسيل**: إذا علينا الانتباه إلى الوسائل التي يستخدمها الثالوث للتحكم بالمعلومات، وعلينا الانتباه إلى التشويه الذي قد تحدثه حواسنا وأدمغتنا بالمعلومات.

[558] **رجل الكهف**: بالضبط. والآن هل لا زلتما تذكران أني قلت: إن عليك الانكفاء على نفسك لفترة من الزمن تكسر فيها القيود المفروضة على دماغك وتحاول فك شيفرة البرمجة وبدء التعلم والبحث؟

داني "وهو يصب المزيد من القهوة": نعم أذكر.

[559] **رجل الكهف**: بعد مدة من الزمن ستكون قد بدأت بعض الحقائق بالظهور لك، وبدأت تفهم تماما الكثير من الأمور. طبعا هذا يعتمد بالضرورة على جديتك في البحث. وبناء على كل ما سبقت الإشارة اليه، يجب عليّ أن أؤكد عليك ألا تقول أي رأي أو تحكم على أي أمر مالم تكن قد أتخمته فحصا وتحليلا. وعليه، ستكون الأمور لديك مقسمة بين أمور لم تبحث فيها، وأمور بحثت فيها جزئيا وشكلت عنها وجهات نظر جزئية، وأمور قد بحثت فيها بشكل عميق وشكلت عنها وجهات نظر واضحة.

داني: بالتأكيد.

[560] **رجل الكهف**: لذا عليّ أن أذكر، أن التزامك بكل ما سبق، يُحتّم عليك أن تقول لا أعرف، أو ليس لدي أي فكرة عن الموضوع. لأي أمر لم تبحث فيه بنفسك. لا تردد كالببغاء ما سمعته، هذا ما يفعله الرعايا. وإن كنت قد بحثت، فعليك تحديد درجة يقينيتك في وجهة نظرك أو حكمك أو قناعتك، هل هي مبدئية، جزئية، تقريبا كاملة، واضحة تماما. هذا وكما قلت لك، عليك أن تنسى- اليقين التام الذي لا يقبل الشك بعده. إياك وهذه الزلّة.

داني "بإعجاب": أنت محق، هذا موضوعي تماما.

[561] **رجل الكهف**: "... نعم أنت لديك قناعات، وأنت تقوم بمحاكمات، ولكنك تصل إليهم بالعمل، وبمعنى من الترابط مع الآخرين، المثقفين الآخرين، الحركة الشعبية، استمرارية التاريخ، بمجموعة الخبرات التي اكتُسِبَت من حيوات الناس. أما بالنسبة للمجردات، والعقائد الراسخة، المشكلة معهم أنهم رُعاةٌ يحتاجون إلى الاسترضاء والمداعبة طوال الوقت..." هكذا يُعلّمك ايدوارد سعيد في *تمثيلات المثقف* كيف يُمكنك تشكيل القناعات.

داني "مفكرا": هذه نصيحة هامة.

[562] **رجل الكهف**: قال ريتشارد فاينمان ذات مرة: "لقد ولدت دون معرفة، ولقد حصلت على وقت قليل فقط لأغيّر ذلك هنا وهناك." عليك الانتباه إلى عامل الوقت، صحيح أني لا أريدك أن تُرهق نفسك في البحث، بل أن تتخذه هواية، والهواية هي ما يستمتع الناس بالقيام به، عليك أن تستمتع بالبحث، وتجعله شغلك الشاغل، عقلك عليه أن يعمل طوال الوقت، لأن الوقت هو أثمن ما نملك.

كلنا نكسب مالا، ونخسر مالا ونكسب مالا من جديد، كلنا يمرض ويتعافى. كل شيء يُمكن أن يُعوض: عشيقتك، زوجتك، طفلك، صديقك، عملك، سيارتك، مالك، منزلك، وطنك، كل شيء، إلا الوقت. فهو يُهدر دون أي إمكانية لتعويضه. لا أريدك أن تستيقظ في يوم من الأيام، لتقول آه كيف ضيعت سنواتي الماضية. تذكر أغنية *Time* لبينك فلويد.

داني "مبتسما": أعرفها بالطبع.

[563] **رجل الكهف**: ومع ذلك، فإن اللحظة التي تستفيق فيها، هي اللحظة المناسبة للبدء. ليس عيبا أن تبدأ مهما كان عمرك. دعك من تلك الأمثال الشعبية التي وجدت لتثبط همم الرعايا، دعك من سخرية الرعايا ومحاولاتهم لثنيك عما عزمت عليه، هكذا هم، كالطلاب الكسالى الذين بدل أن يدرسوا، يحاولون منع زملائهم الشطار من الدراسة. وكالموظفين المهملين الذين بدل أن يجدّوا في عملهم، يقومون بالإساءة إلى أولئك المخلصين فيه. وبالتالي، فإن كنت تتساءل عن اللحظة التي يجب عليك البدء فيها، فالجواب هو: الآن. دماغك سيحاول هو الآخر ثنيك عن تلك المهمة، ذلك الكسول البليد، سيقول لك، سنبدأ بعد أن يتغير الوضع الفلاني، أو بعد أن تنجز العمل الفلاني، بعد أن تفعل كذا وكذا. ذلك محض هراء خالص، لا تستمع له. عليك مواجهته بكل جسارة ووضع حد لتماديه ذاك، مهما بدا لك مُقنعا. إنه وهم.

داني "مبتسما": نصيحة طيبة جدا. أشكرك عليها.

[564] **لوسيل** "بحماس": لقد تذكرت شيئا. كنت تقول إنك تريد منا أن نصل مرحلة من الحرية نقول فيها ما قاله زوربا، لكن أخذ الحديث مجرى مختلفا ولم تقل لنا ما قاله زوربا.

رجل الكهف "بعمق نافثا دخان غليونه": "تخلّصت من وطني، من الكهنة، ومن المال. لقد بدأت بغربلة الأشياء، أغربل مُخرجا أشياء أكثر وأكثر. أنا أخفف من أعبائي بتلك الطريقة، أنا -كيف سأصوغها لك؟- وجدتُ خلاصي، أنا أصبح إنسانا." هذه هي الحرية التي يجب عليكما بلوغها. عليكما التخلص من كل أشكال العبودية على الاطلاق. فكل أشكال العبودية هي من صناعة الثواليث. لا توجد عبودية على البرج. ومع أن زوربا هو أبعد ما يكون عن الإنسان المثقف، إلا أنه إكتشف صيغة الحياة كما يجب أن تكون.

[565] **داني** "بذهول": هذا قدر من الحرية لا يمكنني تخيله. هل أنت مدرك لأبعاد هذا الكلام؟

رجل الكهف: بالطبع أنا كذلك. وإذا كان زوربا قد وصل لهذه الحرية دون أن يقرأ كتابا واحدا، فلدي شخص آخر قد وصل لها بعد قراءة ما لا يحصى من الكتب.

[566] **لوسيل** "بحماس": ومن هو؟

رجل الكهف: إنه المصرفي في قصة *الرهان* لأنطوان تشيخوف. قصة كانت مُلهمةً لي منذ أن اطلعت عليها في طفولتي.

[567] **لوسيل** "بحماس": اقصصها علينا.

رجل الكهف: باختصار شديد هي قصة رهان بين مصرفي شاب ورجل مليونير، تراهنا فيها على أن يبقى المصرفي رهين السجن في غرفة لمدة خمسة عشر عاما، لا يرى فيها انسانا. وذلك إثر نقاش جرى بينهما حول هل السجن هو عقوبة أشد من الإعدام أم العكس. وتعهد الثري أن يدفع للمصرفي مليونين إن استطاع تحمل مدة السجن كاملة، على أن يزوده في فترة سجنه بكل ما يطلب من كتب وطعام ونحو ذلك. وفي الفترة التي سبقت انتهاء مدة الرهان، كان المليونير على شفير الإفلاس، وإن دفع المليونين للمصرفي، فإنه سيصبح معوزا تماما. فقرر قتل المصرفي في الليلة التي تسبق انتهاء المدة. وعندما دخل عليه الغرفة ليلا ليقتله، لفتت نظره رسالة كتبها المصرفي النائم يقول له فيها: "... لخمس عشرة سنة كنت أدرس باهتمام هذه الحياة على الأرض، صحيح أنني لم أر الأرض ولا أشخاصا، لكن داخل كتبك قد شربت عبق النبيذ، وغنيت الأغاني، واصطدت الظباء والخنازير في الغابات، عشقتُ نساءً..." ويتابع أمورا كثيرة إلى أن يقول: "كتبك أعطتني الحكمة، كل تلك الأفكار الغير متحفظة التي ابتدعها الناس عبر العصور هي مضغوطة في نطاق ضيّق في دماغي. أنا أعلم أني أكثر حكمة منكم جميعا." ويضيف "أنا أحتقر كتبك، أنا أحتقر الحكمة، وكل بركات هذا العالم، إنها كلها بلا قيمة، عابرة، وهمية، ومضللة كالسراب..." ثم يقول له: " أنت فقدت صوابك وسرت بالطريق الخاطئ، كنت تعتبر الكذب على أنه حقيقة، والبشاعة على أنها جمال..." ويختم قائلا: "لأثبت لك بالفعل كم أحتقر كل ما كنت تعيش به، أنا أتنازل عن المليونين الذين حلمتُ بهما ذات مرة على أنهما الفردوس والذي الآن أنا أحتقره. ولأحرم نفسي من الحق بالمال، سوف أخرج قبل خمس ساعات من الوقت المحدد، وبهذا أكسر التعاقد الذي بيننا...".

[568] **لوسيل** "بذهول": هل هذا يعقل. لا بد أنه فقد صوابه.

رجل الكهف: في الحقيقة نعم، لقد تحرر من كل متع العبيد بعد أن أمضى- خمس عشرة سنة في البرج. ولا شك أنه من الناحية السيكولوجية قد أصيب بمرض نفسي- على أي حال. لكنني لست بصدد تحليل ذلك، فهو ليس موضوعنا الآن.

[569] **داني** "حالما": هذا محمس جدا، كم أتمنى أن أشعر بتلك الحرية يوما.

رجل الكهف: إن ذلك ليس مستحيلا، ولو أنه صعب المنال. وجودك على البرج، يقتضي- بالضرورة أن تصبح حرا ولامنتميا. ولقد أسهبت في شرح هذا مرات عديدة.

[570] **داني** "بتعجب": ماذا تصد بلامنتمي؟

رجل الكهف: هل نسيت مقولة نيتشة؟ الانتماء لجماعة ما يعني بالضرورة أن تكون كاذبا والكاذب هو بالضرورة غير حر بعلاقة متبادلة. أنت خارج الغرفة، وهناك، في الأعالي، ترى جميع الغرف، فكيف لك أن تكون منتميا إلى أي منها؟ أنت أصبحت كائنا بلا انتماء، كائنا أمميا، كائنا عالميا. وهذا

شرط لازم أيضا. فالمنتمي لا يمكن أن يكون حرا، ولا صادقا لا مع نفسه ولا مع غيره. إني أريدك أن تكون هناك، في أعلى البرج تقول بقلب صادق ما قاله يوجين دِبس في جريدة * Appeal to Reason* في الحادي عشر من سبتمبر عام 1915.

[571] **داني** "بشغف": ماذا قال؟

رجل الكهف: "... عندما أقول أنا ضد الحرب، أنا أعني حرب الطبقة الحاكمة، لأن الطبقة الحاكمة هي الطبقة الوحيدة التي تصنع الحروب. إنه لا يهمني سواء كانت هذه الحرب هجومية أو دفاعية أو أي سبب كاذب آخر قد يُخترع لها. أنا ضدها، وسيُطلق عليّ النار بتهمة الخيانة قبل أن أشارك في حرب كهذه... أنا لا يوجد لدي بلدٌ أقاتل من أجله، بلدي هي الأرض، أنا مواطن أنتمي للعالم. أنا لن أنتهك مبادئي من أجل الرب، وبأقل من ذلك بكثير من أجل قيصر- مجنون، إمبراطور متوحش، ملك منحط، أو عصابة من الطفيليات ذات الكروش." وأضاف: "أنا ضد كل الحروب ماعدا واحدة، أنا للحرب بقلبٍ وروح، وتلك هي الحرب العالمية للثورة الاجتماعية...".

داني "بتأمل": هذه كلمات عظيمة.

[572] **رجل الكهف**: لا يهم أن تقول هذا، المهم أن تشعره بقلب صادق. عليك أن تكون مواطنا عالميا، لا منتميا، فالانتماءات القومية والوطنية والطائفية والعرقية والدينية والطبقية وسواها مما يفرق الناس، هي من صنع ثواليث القمع، أليسوا هم من ابتدع الغرف في الأساس لتفريق الناس إحقاقا لمطامعهم الشخصية؟

داني: بلى بالطبع.

[573] **رجل الكهف**: أليس الناس كلهم إخوة وأخوات، أم أنني بحاجة لإثبات ذلك لكم؟

لوسيل: كلا. لا شك في أننا جميعا عائلة واحدة. لقد أثبت العلم ذلك بشكل قاطع.

[574] **رجل الكهف**: إذا عليك أن تنسى انتماءك لتلك الغرفة لتي ولدت بها بالصدفة البحتة. عليك أن تصل إلى مرحلة الشعور بما شعره *زوربا اليوناني*: "... إذا سمعتُ أن اليونانيين قد احتلوا القسطنطينية، إنها بالنسبة إلى بالضبط كما لو أن الأتراك قد احتلوا أثينا." عندما تقول هذا صادقا، تكون قد تحررت فعلا من الغرفة.

[575] **داني** "مستفهما": لكن أليس الأولى بالمثقف أن يهتم بتحرير رعايا غرفته قبل أن يهتم بالآخرين من الغرف الأخرى؟

رجل الكهف: بالتأكيد. إن مهمة المثقف بالدرجة الأولى تحرير الرعايا في غرفته لأنه هو الاقدر على ذلك، بما أنه قد عايش الحياة في تلك الغرفة قبل أن يغادرها، وبالتالي هو يفهم تماما ما يعانيه سكانها، ويفهم طريقة تفكيرهم، وبإمكانه إيجاد لغة حوار معهم لمساعدتهم على التحرر. لا شك عندي مطلقا في هذا، لكن كي تفهم ما أقصده، فاسمع ما كتبه إيدوارد سعيد في هذا السياق: "إضافة إلى هذه المهمة

البالغة الأهمية بتمثيل المعاناة الجماعية لشعبك الخاص... يجب أن يُضاف شيء آخر، والذي فقط شخص مثقف، كما أعتقد، قادر على الالتزام بالوفاء به... إن مهمة المثقف، كما أعتقد، هي بصراحة أن يضفي طابعا عالميا على الأزمة، أن يضفي إطارا إنسانيا أعظم لما عانى منه عرق أو أمة ما. أن يربط تلك التجربة مع ما يعانيه الآخرون... هذا لا يعني على الإطلاق خسارةً في الخصوصية التاريخية، لكنها بالأحرى تحمي من احتمالية أن ذلك الدرس الذي تم تعلّمه من الاضطهاد في مكان ما، سوف يصبح منسيا أو منتهكا في مكان او زمان آخرين..." ويضيف هذه النقطة الجوهرية، اسمعها بتمعن "... وفقط لأنك تمثل المعاناة التي عاش بها شعبك والتي ربما أنت بنفسك قد عشتها أيضا، أنت لست مُخففا عنك مهمة كشف أن شعبك نفسه قد يكون يمارس الآن جرائم مماثلة بحق ضحاياه.".

[576] **لوسيل** "بدهشة": إنسان كهذا يكون قد بلغ أعلى مراتب الإنسانية.

رجل الكهف: ولو أني اتحفظ على كلمة إنسانية لأني لا أراها مناسبة لتعبر عما يجب أن تُعبِر عنه، لكني أقبلها، كما أقبل غيرها، بتحفظ كي لا أطيل النقاش. ومع ذلك، فهناك قلة ممن وصلوا هذه المرحلة من "الإنسانية". فاستمعي مثلا لما قاله الشاعر الفرنسي جوليان بلاين مؤسس مجلة *Doc (K)s* في مقابلة له مع جريدة *المستقبل* نشرت في 23 سبتمبر 2001، عندما سأله زميلكما في المهنة: "لقد سبق أن صرحت بأنه بالنسبة لأبناء جيلك فإن ثورة أيار 68 هي فشلٌ مطلق، بأي معنى؟" أجاب بلاين: " بالمعنى المطلق، كوننا حلمنا كثيرا وظننا فعلا بأننا سنغير الدولة، لا بل الأمة الفرنسية، وسنعترف بأشياء كثيرة، الأمر الذي لم يحصل، وأقصد هنا على سبيل المثال مسؤوليتنا في مسألة الاستعمار. كما أقول دائما، من الممكن أن تكون الهجرات إلى أوروبا غير شرعية، إلا أنها مُحقة. لدينا مسؤولية لم نتحملها بعد. نتكلم اليوم قليلا عن التعذيب في الجزائر، لكن الأمر أوسع من ذلك. أوروبا بشكل عام، وفرنسا بشكل خاص، بنت ثروتها ورفاهيتها من خلال استغلالها ثروات الآخرين. هذا ما أعنيه بالفشل المطلق...".

[577] **داني** "مستغرقا بتفكيره": هذا رائع حقا. إنه بحق إنسانٌ قد تحرر من قيود الثالوث. الآن فهمت مقصدك تماما، فعلا قلة من الناس يستطيعون أن يكونوا هكذا.

رجل الكهف: هذا لأن الأحرار هم قلة من الناس. من وصلوا سطح البرج ويريدون تحرير الرعايا هم حفنة قليلة من البشر. وهذا يقودني إلى نقطة جوهرية أخرى.

[578] **لوسيل** "بشغف": ماهي؟

رجل الكهف "وهو يشعل غليونه": صحيح أن على المثقف مسؤولية أخلاقية تجاه الرعايا، وعليه القيام بتحريرهم، لكن هناك فرق كبير بين تحريرهم، وقيادتهم. هناك شعرة تفصل بين هذه وتلك.

[579] **داني** "بتعجب": لم أفهم.

رجل الكهف: المثقف الحقيقي يريد تحرير الرعايا وفقط تحريرهم، إن كان يريد قيادتهم، فإن هذا من

شأنه جعله ثالوثا جديدا عليهم. وليضمن عدم وقوعه في هذه الزلة، عليه أن يعلمهم كيف يحرروا أنفسهم، لا أن يقوم هو بتحريرهم.

داني "بتركيز": ملاحظة قيمة.

[580] **رجل الكهف:** وهذا يضمن أمرا آخر، وهو ببساطة أن الرعايا إن قبلوا قيادته في تحريرهم، فهذا يعني أنهم رعايا منقادون، وبالتالي لا يمكن أن يصبحوا أحرارا، وإنما هم فقط ينقلون خضوعهم لجهة ما إلى جهة أخرى. وهذا أبعد ما يكون عن الحرية. لا يمكن للحر أن يكون منقادا، إما هذا أو ذاك.

داني "بتركيز": ملاحظة صحيحة.

[581] **رجل الكهف:** وعليه، إن أراد المثقف حقا تحرير الرعايا عليه ألا يحررهم بنفسه، بل فقط يساعهم على تحرير أنفسهم، بفتح عيونهم وتقديم النصائح والدعم لهم. قلت لك مسبقا، لا أحد يريد تحريرك إلا نفسك أنت. وبالتالي على الرعايا إن أرادوا أن يصبحوا أحرارا أن يقوموا بتلك المهمة بأنفسهم، الخروج من الغرفة هو عمل فردي، ويجب أن يكون بإرادة وجهد ذاتي فحسب، وهنا تكون مهمة المثقف، فقط في توعية الناس لضرورة الخروج من الغرفة، وتوضيح ما يعانونه في داخلها، ألم يكن هذا كل ما تحدثت به في قصة البرج؟ هل قلت لكما أن على المثقف أن يربط الرعايا ويجرهم إلى خارج الغرفة كالأغنام؟

لوسيل: كلا لم تقل ذلك.

[582] **رجل الكهف:** لأن على المثقف ألا يقود الرعايا، بل أن يحررهم ويحاول مجابهة وتخفيف سطوة ثالوث القمع عليهم فحسب. فقط بهذه الطريقة يكون التحرير. وهذا بالضبط ما قاله يوجين دِبس: "أنا لست قائدا للعمال، أنا لا أريدكم أن تتبعوني ولا أن تتبعوا أي شخص آخر. إذا كنتم تبحثون عن موسى ليقودكم خارج هذه الرأسمالية الموحشة، سوف تبقون في مكانكم ذاته. أنا لن اقودكم إلى هذه الأرض الموعودة لو كان بمقدوري. لأنني إن كان بإمكاني قيادتكم إلى داخلها، شخص آخر سيقودكم خارجها. يجب عليكم أن تستخدموا رؤوسكم كما وأيدكم أيضا، لتأخذوا بأنفسكم خارج وضعكم الراهن، تماما كما يستخدم الرأسماليون الآن رؤوسكم وأيديكم.".

داني "بإعجاب": إن كلمته تلك تكتب بماء الذهب.

[583] **رجل الكهف:** لا يهم أن تكتب بماء الذهب أم بحبر رخيص، المهم أن يتعلمها كل مثقف، وأن يمتثل بها كل من أراد تحرير الشعوب. فهذه أحد أكبر الهفوات التي يقع بها المثقفون كما كتب علي شريعتي في *مسؤولية المثقف*: "... ليس عمل المثقف أن يقود المجتمع. إن أحد أخطاء مثقفي العالم الكبيرة هو أنهم يتصورون أن عليهم أن يأخذوا بزمام قيادة المجتمع والناس. إن المثقفين هم أقل الفئات حيلة لقيادة الناس... إن رسالة المثقف لا تتمثل في القيادة السياسية للمجتمع. رسالة المثقف توعية أوساط المجتمع فقط، وفقط، ثم لا شيء. إذا تمكن المثقف من توعية أوساط المجتمع، سوف ينهض أبطال من وسط

المجتمع جديرين بقيادة حتى المثقفين أنفسهم، وطالما كانت أوساط الجماهير عاجزة عن إنجاب الأبطال فرسالة المثقف لا تزال باقية، أي إن رسالة المثقف هي توعية الطبقات في مقابل طبقة المستعمِر. بناء على هذا، فكل رسالة المثقف تنصب في مثل هذه التوعية... وما يزيد على هذا فهو توقعات إضافية وشعارات زائدة.".

[584] **داني**: إذا أنت لا ترى أنه من المناسب بأي حال من الأحوال أن يقوم المثقفون بحكم الرعية بغرض تحريرهم؟

رجل الكهف: ألم تتعلم من التاريخ؟ هل لازلت تصدق هذا الهراء؟ إن النفس البشرية حقيرة بأنانيتها الحيوانية. ألم تقرأ ما كتبه جورج أورويل في "1984": "... إن السلطة ليست وسيلة بل غاية، فالمرء لا يقيم حكما استبداديا لحماية الثورة، وإنما يشعل الثورة لإقامة حكم استبدادي. إن الهدف من الاضطهاد هو الاضطهاد والهدف من التعذيب هو التعذيب، وغاية السلطة هي السلطة. هل بدأت تفهم ما أقوله الآن؟".

داني "مفكرا": نعم لقد فهمت عليكما.

[585] **رجل الكهف** "وهو يشغل فيديو على حاسوبه": أتمنى ذلك. والآن بعيدا عن السياسة وقذارتها، دعونا نستمع إلى ما قاله لورانس كراوس مخاطبا الجمهور في مناظرة له في لندن عام 2013.

لوسيل "بحماسها الطفولي": لنستمع معا.

[586] **كراوس**: "... إن مسعاي هو فقط إثارة الأسئلة وحث الناس على التفكير حول أشياء مختلفة. ومن أجل ذلك، أنا آمل أن بعض التصريحات التي قمت بها ستدفع الناس للتفكير. وفي الواقع، إن نقطتي كلها هي إتاحة الإمكانية للوصول إلى المعلومات. وأنا أعتقد أنه يتوجب أن يكون لديكم إمكانية الوصول إلى المعلومات حول كيفية عمل العالم في الحقيقة، وذلك هو السبب في أني أُكتب كتبا علمية وأتحدث. لأنه على الأقل هذه بعض أجمل الأفكار التي وصل إليها البشر على الإطلاق. لا يجب أن نكون خائفين منها، لا يجب أن نخشاها... في الحقيقة إذا أساءت إلى معتقداتنا فذلك شيء جيد، لأنه يعني أن معتقداتنا خاطئة. وذلك، كما أقول للطلاب طوال الوقت، هو أعظم هدية يمكن أن نحصل عليها: تغيير آرائنا والتعلم هو ما يقوم بالتقدم الذي سمح لكل شيء بالحدوث، الذي سمح لكاميرات الفيديو هذه أن تقوم بتسجيل الأشياء. لذا فأنا فقط آمل أنه، وكما آمل أني راغب بتغيير معتقداتي أو تغيير رأيي في حال وجود دلائل وأن أحصل على معلومات، فأنا آمل أن بعضا من الأشياء التي قلتها ستحثكم على التفكير. وأنا بشكل قاطع لا أريد أن أحولكم لأي شيء...".

[587] **داني** "بحماس": لقد قال ما قلته لي بأنه عليّ عدم الانزعاج إذا اضطررت لتغيير معتقداتي بناء على الأدلة التي أحصل عليها. ويؤكد على ضرورة تغيير الآراء مع ظهور أدلة جديدة.

[588] **لوسيل**: كما أنه يقوم بما طلبته أنت من المثقف وهو حث الناس على طرح الأسئلة، وتقديم الأدلة

لهم بما يدفعهم للتفكير، دون أن يمسك بأيديهم ليجعلهم يتبنون فكرا ما أو وجهة نظر ما.

[589] **رجل الكهف:** هذا لأنه يطبّق بالضبط ما يجب على المثقف القيام به. وعليّ أن أضيف أمرا آخر.

داني "مقاطعا": ما هو؟

رجل الكهف: إن مما يميز عقلية المثقف هو ابتعاده عن التعميمات. التعميمات من مزايا الدماغ التي تحدثنا عنها آنفا، والتي يشتهر بها الرعايا. لكن المثقف وجب عليه أن يكون عقلانيا، وألا يسمح لدماغه بأن يؤثر على قراراته وأحكامه. إن التعميمات هي من أشنع الأخطاء التي يجب على المثقف أن يربأ بنفسه عنها إن كان منطقيا. تذكرا كلام كارل بوبر في *منطق البحث العلمي*: "... مهما بلغ عدد البجعات البيضاء التي رأيناها فإنه لا يسمح لنا بالقول إن كل البجع أبيض."

داني: صحيح تماما. إني أنزعج من التعميمات التي يستخدمها الناس كيفما اتفق، وأحاول جهد استطاعتي كبح نفسي عنها.

[590] **رجل الكهف:** وإن كنتما نبيهين كفاية، يجب عليكما أن تكونا قد لاحظتما أمرين في حوارنا هذا الصباح.

لوسيل "بتيقظ": ما هما؟

[591] **رجل الكهف:** أولهما، إن هذه المزايا التي تصبغ عقلية المثقف والباحث الحر هي قواسم مشتركة في طريقة تفكير معظم من خرجوا من الغرف، بغض النظر عن الغرفة التي كانوا ينتمون إليها. فلقد ذكرت لكما اقتباسات من ثقافات مختلفة، ومن عصور مختلفة.

لوسيل: صحيح تماما.

[592] **رجل الكهف:** وهذا يحيلني إلى الأمر الآخر، وهو أن ليس جميع من اقتبست كلمات منهم متشابهون، هم بشر، والبشر مختلفون، والبشر خطاؤون ومحدودون ببيئاتهم وتجاربهم الخاصة. لذا، وجب على الباحث الحر ألا يقدّس شخصية ما بعينها ويعتبرها امتلكت الصواب المطلق، أو أن يعتبر جميع أفكار وأفعال هذا الشخص صحيحة فقط لأنه قد سبقه في الخروج من الغرفة وفي صعود البرج. هذه هي القاعدة: لا أحد يملك حقائق مطلقة. لم ولن يوجد إنسان على صواب كامل، أيا كان، ومهما كان. على الحصيف أن يأخذ من أفكار غيره ما يراه صحيحا بناء على الأدلة، وينبذ الباقي. فكل المفكرين والمثقفين والباحثين والعلماء والفلاسفة عبر التاريخ ما هم إلا بشر، والبشر لا يمكن لهم أن يكونوا مثاليين، أو كاملي الصواب والرشاد. هل عليّ أن أشرح لكما لماذا؟ أم أنكما قد فهمتماه من حواراتنا السابقة؟

داني: كلا لا داع، فكلامك صحيح تماما ومفهوم.

[593] **رجل الكهف:** عظيم جدا. حذار من أن تقعا في هذه الزلة الشهيرة، وهي أن تحررا نفسيكما من

رجالات ثواليث القمع، لتقعا في تقديس رجالات البرج. ما هكذا يكون الإنسان الحر.

[594] **داني**: صدقت، وما أكثر من يقع بهذا الخطأ، وكأنهم يشتاقون إلى العبودية، فلم يستطيعوا أن يطيقوا الحرية من الثواليث ليبحثوا فورا عن البديل. مثلهم كمثل العبد الذي فاز على خصمه في مبارزة وكانت المكافأة حريته ومال كثير، فسُئِلَ ماذا ستفعل بكل هذا المال؟ فقال: سأشتري سيدا يعاملني برفق.

[595] **رجل الكهف**: بالضبط، تشبيه مثالي. بل أكثر من ذلك، إن الباحث الشغوف بالمعرفة، يعرف تماما أن بإمكانه التعلم من أي شخص، ومن أي موقف يمر به، لا من أشخاص بعينهم ومن أماكن بعينها، تراه يقظا لاقتناص المعلومات والمعارف. وعندما يصبح هذا الأمر ديدنه، سيصبح اوتوماتيكيا يقوم به دون أن يشعر. وتذكرا أن "... موقع المثقفين هو العالم الخالي من القداسة... حيث لاوجود -على الأقل ظاهريا- لأي نوع من التعالي." كما كتب جيرار ليكلرك في *سوسيولوجيا المثقفين* ولا تنسيا ما قلته سابقا، أن على الباحث أن يأخذ الأفكار الصائبة في فكر من سبقه، ومن يعاصره وينبذ الباقي ببساطة، دون شخصنة، وبغض النظر تماما عن أي قيمة لصاحبها. فالأفكار معزولة في قيمتها وصحتها عن الأفراد الذين ينتجونها تماما. لا شأن لكما بالأفراد. علاقتكما هي مع الأفكار فحسب.

[596] **لوسيل**: أذكر أنك قلت هذا مسبقا. إذن إن على الباحث أن يتدرب على الملاحظة بموضوعية تامة.

رجل الكهف: بالتأكيد. والآن سنأتي على مثال لتريا كيف استخدم المفاتيح السابقة في حياته كمثقف كبير.

[597] **لوسيل** "بحماسها الطفولي": من هو؟

رجل الكهف: هل تذكران دانييل بورستين؟

داني: نعم. لقد أخبرتا قبل قليل أنه قال في مقابلة له مع جريدة *The Washington Post*: "... أعظم عائق للاكتشاف ليس الجهل، إنه وهم المعرفة".

[598] **رجل الكهف**: أنت منتبه وصاحٍ هذا الصباح. لقد كان بورستين أمين مكتبة الكونغريس ومؤرخا هاويا. وقد قال في تلك المقابلة عن هوايته هذه: "أنا لا أكتب لأجمع المال، أو بسبب أني آمل بالحصول على الهيبة، أو لأحافظ على عملي... أنا أقوم بذلك لأني أحب ذلك، ولا يمكنني منع نفسي عنه..." وعندما سأله الصحفي عن تأثير كتابته لمدة ساعتين كل صباح على عمله، أجابه قائلا: "أنا لن أعد بأني لن أكتب كتبا أخرى، أنا أعد أن أعطي كل انتباهي وطاقتي لمنصبي الوظيفي..." ويشرح سبب براعته في تلك الهواية بقوله: "أحد مميزات أن تكون هاويا... هي أنك لا تكون متدربا في الأخاديد الناتجة عن الروتين... أنا أكتب عما يثير اهتمامي... أنا عديم الثقة بأي تفسير لأي شيء، بما في ذلك معنى الحقيقة... من هو الهاوي؟ إنه العاشق لشيء ما. أنا عاشق للحقائق. الحقيقة هي

المخلص، طالما أنت لا تمزجها داخل بعض أنماط القناعات المسبقة...." وإلى متى سيبقى يمارس تلك الهواية؟ يقول: "أنت تأمل أن تنمو وتتطور طالما أنت على قيد الحياة. لا يمكنك التربيت على الماضي. الكتاب الأفضل هو دائما الكتاب التالي.".

داني "مقاطعا بذهول": يا إلهي، لقد طبق تماما النصائح التي تقولها لنا.

[599] **رجل الكهف**: كما أن زميلكما كارول كروكوف الذي أجرى معه المقابلة قد قال عنه: "على الرغم من شهرته كمؤرخ أمريكي، بورستين لم يأخذ أي دورة تعليمية في التاريخ الأمريكي." وأضاف: "وما هو الأكثر تميزا في بورستين -يقول أولئك الذين يعرفونه جيدا- هو هذا البحث النهم الذي لا يشبع عن الإجابات، هذا الفضول المستهلك حول كل الأعمال للجنس البشري." وقال عنه سيلفيو بيديني: "إن لديه نظرة واسعة تلتقط الأشياء التي معظم الناس لا يرونها حتى... المتحف كان كعلبة ألعاب جديدة بالنسبة له. كان يُولّد الأفكار بسرعة كبيرة وبشكل مبتكر جدا لدرجة أنها كانت تجربة مثيرة أن تحاول مواكبة أفكاره." أما جون فرانكلين فقد قال عنه: "دانيال فقط مدفوع للمعرفة... إنه منقاد بواسطة هذا البحث عن الحقيقة. وعندما يكتشف شيئا ما يتوجب عليه مشاركته. هذا هو الجانب المرح في الأمر، أن يكون مُرشدا". ماذا لاحظتما؟

[600] **لوسيل** "بذهول": لا أصدق هذا! لقد استخدم المفاتيح التي قلتها لنا. فقد كان لديه عمل، ولديه فضول للمعرفة يمارسه كهواية، لا كمهنة، ولقد أصبح مشهورا كمؤرخ مع أنه لم يدرس التاريخ أكاديميا، بل لأنه اتخذه كهواية، وعمل عليها بكل جد ومثابرة، بحيادية وموضوعية. كما انه كان كلما اكتشف شيئا نوّر الناس به، أرشدهم إليه ولم يحتفظ به لنفسه، ولم يجبرهم على اتباعه وتصديقه. وإنه مستمر في البحث والكتابة حتى وفاته.

[601] **رجل الكهف**: ولم لا تصدقين ذلك؟ وهل تعتقدين أني أتكلم من فراغ؟ خذي هذا المثال أيضا. حيث أنه من المجحف أن نمر على كل هذه الأفكار دون أن نتكلم عن أحد أعمدة عصر الأنوار، وهو جان جاك روسو. أريد ان أذكر لكما مقتطفات من مقدمة واحد من أهم أعماله وهو *إيميل أو في التربية* وهو كتاب قد غير وجه التربية تماما، ولا يزال أثره ممتدا إلى يومنا هذا. أريد أن أسمع منكما ما ستجدان فيها.

لوسيل "بحماس": كلي آذان صاغية.

[602] **رجل الكهف**: "... إنه بناءٌ ليس على أفكار الآخرين أنا أكتب، لكن على تلك خاصتي. أنا لا أرى ما يراه الأناس الآخرون. ويتم لومي على ذلك منذ زمن بعيد. لكن هل يعود الأمر إليّ كي أزود نفسي- بعيون أخرى أو بالرغبة في أفكار أخرى؟ كلا. إن الأمر الذي يعود إليّ هو ألا أفرط في حماسي، ألا أعتقد أنني أنا لوحدي أحكمُ من الجميع. إن الأمر الذي يعود إليّ هو ألا أغيّر الآراء، لكن ألا أثق بما أملكه منها. ذلك كل ما بوسعي فعله، وذلك هو ما أفعله. إن قمت أحيانا بتبني أسلوب جازم، فإن ذلك ليس بنية صنع تأثير على القارئ، لكن بنية التحدث إليه بالطريقة التي أفكر بها. لِمَ يجب عليّ أن

أقدّم اقتراحا وكأنه مشكوك فيه لما هو، بحسب رأيي، أنا لا أشك فيه على الإطلاق؟ أنا أقول بالضبط ما يجول في ذهني." ويضيف: "في عرض آرائي بحرية، إن توقعي قليل في أن يؤخذ بها على نحو موثوق، لهذا، أنا أرفق بها عِللي دائما، وبتلك الطريقة يمكن أن يتم وزنهم وأن تتم محاكمتي. ولكن على الرغم من أني لا أرغب في أن أكون متعنتاً في أن أدافع عن آرائي، فإنني بالرغم من ذلك مقتنع أنه لزامٌ عليّ أن أقوم بعرضها إلى أبعد مدى. فيما يتعلق بما أملك فيه أفكارا مخالفة لغيري هي ليست مسائل عديمة الأهمية، إنها من ضمن تلك الأمور التي من الضروري معرفة صوابها أو خطئها والتي تصنع سعادة أو عدم سعادة الجنس البشري.".

[603] **داني** "مفكرا بعمق": هذه قطعة أدبية، إنها مدرسة متكاملة. يبدو أن روسو يُعلّم المثقفين كيف يجب عليهم أن يكونوا، قبل أن يعلّم الأهل كيف يجب عليهم أن يربوا أبنائهم.

[604] **رجل الكهف**: بالتأكيد هو لم يقصد ذلك، لكن هذا ما هو الحال عليه. وكأنه من دون أن يشعر، يقول: قبل أن تفكروا بتربية أبنائكم، عليكم أن تتعلموا مني كيف تكونون أنتم في حيواتكم. وأنتِ يا لوسيل ماذا وجدتِ فيها؟

[605] **لوسيل** "بتركيز": لقد لفتني فيها أولا تواضعه المفرط، وهو يقدّم كتابا بتلك القيمة التي أشرت إليها. ثم لاحظت أنه شخص يرى ما خفي عن الناس، ولهذا تميّز عنهم بفكره، ثم إنه يقرّ أنه لا يهتم لتغيير آراء الناس قدر اهتمامه بتغيير آراء نفسه، ويؤكد على أنه يقوم بذلك فعلا. كما أنه لتواضعه، يؤكد ان أفكاره تحتمل الصواب والخطأ، وأنه لا يعتبر نفسه حكيما، ويطلب من الناس بأدبٍ تقييم أفكاره، كما انه يشعر بضرورة مساعدة الرعايا دون أن يقوم بتوجيههم، ويؤكد بوضوح على هذا أيضا.

[606] **رجل الكهف**: ولتملّكه هذه الصفات، فإنه قد بلغ القيمة الفكرية التي بلغها. وهي عينها الصفات التي يمتلك الرعايا عكسها، ولهذا فهم باقون كرعايا.

داني "يهز رأسه موافقا": أصبت كبد الحقيقة يا صاحبي.

[607] **رجل الكهف** "وهو يشغل فيديو على حاسوبه": هل تعلمون من هو هذا الشخص؟

داني "ضاحكا": لا أعرف، ربما يكون والدك، فهو كأنه أنت بلحيته والكتب المحيطة به، لكنه كبير بالسن كثيرا مقارنة بك.

رجل الكهف: إن من اللطيف منك أن تشبهني بغاستون باشلار.

[608] **لوسيل** "باهتمام": ومن يكون؟

رجل الكهف: إنه أحد أهم فلاسفة فرنسا في القرن العشرين، له مساهمات هامة في فلسفة العلم وفي الابستمولوجي بل وحتى في الشعر، كان فيلسوفا موسوعيا عميق التفكير ترك بصمة واضحة.

لوسيل: يبدو أنه مفكر كبير.

رجل الكهف: هذه مقابلة أجراها معه صحفي أواخر عام 1961 قبل أقل من عام على وفاته، وحملت عنوان "صورة الفيلسوف". دعونا نسمع مقتطفات منها.

[609] **الصحفي**: "هل أنت حريص على أن تُنادى بماستر؟".

باشلار: "كلا أبدا، كلا أبدا، على الإطلاق. نادني غاستون باشلار أو باشلار فقط. لا سيد بروفيسور، بلا مُزاح، انتهى الأمر. أنا رجل بحرية كاملة، كل الناس ينادونني باشلار".

[610] **الصحفي**: "لا ماستر؟".

باشلار: "كلا، كلا، كلا".

[611] **الصحفي**: "هل الفيلسوف متفوق على البشر؟".

باشلار: "كلا ليس الأمر كذلك، يا إلهي، كلا. لا يوجد إنسان متفوق، أنا ليس لدي تلك التراتبية الهرمية الصوفية. الناس هم ما يمكنهم أن يكونوا... أنا لا أفهم كيف يمكن لأحد أن يقارن نفسه بالآخرين".

[612] **الصحفي**: "نحن تحت تأثير الانطباع بأن الفيلسوف يعرف كيف يعيش أفضل من الآخرين".

باشلار: "أفضل! لماذا؟".

الصحفي: "ذلك أنه محمي من العواطف".

باشلار: "كلا، كلا، كلا، إنه ليس دائما محميا من العواطف. أو إنه ربما يكون غير محظوظ لعدم امتلاكه أيا منها".

الصحفي: "تلك إجابة غير حقيقية، لكن يمكن للشخص ألا يجيب على السؤال".

[613] **باشلار**: "كلا، الحياة والعمل في الأفكار ليسا متماسكين بشكل مطلق. عندما أقرأ كتابا لفيلسوف ما، أنا أكون مندمجا به بالكامل، لكن ذلك لا يمنعني من أن أعيش كأي إنسان آخر، كمواطن صالح، ورب أسرة، كعامل في وظيفته. أنت تريد أن تثبت عليّ تلك الصورة للفيلسوف الذي يعيش في الأحلام بعيدا عن مصاعب حياته".

الصحفي: "أنا لا أريد ذلك، لكنها الفكرة العامة عن الفيلسوف".

[614] **باشلار**: "إذن يجب أن يتم تصحيحها على الفور. كلا، كلا، كلا، أنا أعرف كيف أقوم بكل شيء، ولست بحاجة لأي أحد، أنا أعرف كيف أطبخ، أنا مستقل بذاتي. عندما كنت أصغر بالسن، كنت أذهب إلى الجزار وأختار بنفسي. كلا، كلا، كلا، أنا لم أكن يوما مُحرجا من الحياة المادية. كنت أقوم بدراساتي في ستوديو صغير مع قاموسي أمامي وأفضل أنواع الجبن من المتجر. أنا أعرف بطرفة عين إذا كنت سأحصل على القطعة الجيدة من لحم الخنزير...".

[615] **الصحفي**: "في النهاية إنها طريقة للعيش سيد باشلار".

باشلار: "نعم، ذلك جميل: طريقة للعيش. أنت مجبر على أن يكون لديك طريقة للعيش أو إنك ستكون غبيا تعسا. عليك أن تكون متوازنا في وقتنا الحالي".

[616] **رجل الكهف** "موقفا الفيديو": هذا ولقد تحدث عن أمور أخرى في المقابلة، كاهتمامه بزراعة حديقته بالأشجار، وتخزين النبيذ في القبو. لكننا لن نشاهد المقابلة كلها الآن. ما رأيكما بما شاهدتما؟

لوسيل "بعيون لامعة": لا أصدق ما شاهدته للتو. كيف، بحق السماء، يمكن لإنسان بلغ الثمانين أو نحوها، فيلسوف بالقيمة التي ذكرتها، يتكلم بهذه البساطة مع الصحفي. كيف أمكن له مزج الجدية بالطرافة، والعمق بالسطحية، والتواضع مع الثقة بالنفس. هذا أغرب مزيج مر عليّ في حياتي.

[617] **داني**: كم هو متواضع. يكره الألقاب لأنه إنسان حر، تماما كما قلت لنا مسبقا. ويؤكد على أن كل ثقافته وفكره، لا يؤثران على كونه ملما بتفاصيل الحياة المادية ويقوم بكل واجباته على أكمل وجه كأي إنسان بسيط. كيف أكد على أنه لم يخجل يوما من أن يمارس المهام التي يقوم بها الناس البسطاء، واعتبر أن الإنسان لو لم يكن متوازنا بهذا الشكل فهو غبي تعس. كيف قال إن كل الناس سواسية، ولا توجد تراتبية هرمية في نظره، مبررا ذلك بأن الناس يقومون بما يستطيعون القيام به. يا إلهي، إنه يؤكد كثيرا من الأفكار التي قلتها لنا مسبقا.

[618] **رجل الكهف**: كان علينا أن نشاهد هذا الفيديو عندما كنا نتحدث عن أنصاف المثقفين وأشباه المثقفين وأدعياء الثقافة المنفصلين عن الواقع عندما كنا على الشاطئ، لكن الحاسوب لم يكن معنا. هل لاحظتما الفرق بين هذا وذاك؟

لوسيل "مفكرة بعمق": على المثقفين المنفصلين عن واقعهم، المتعجرفين، أن يتعلموا درسا من باشلار. أحدهم يقرأ روايتين ويرفع رأسه لتناطح السحاب. فعلا بدأت أفهمك أكثر الآن.

[619] **رجل الكهف**: أعرف أني قد تحدثت بأفكار غريبة جدا، لكني واثق أن الوقت سيثبت لكما أنها صحيحة. على أي حال، لقد تحدثنا مطولا هذا الصباح في أمور كثيرة متداخلة. ولقد كنتِ تكتبين ملاحظات يا لوسيل، هلا أطلعتنا عليها؟

لوسيل: حاولت أن أسجل الأفكار الرئيسية، كي أعود إليها وأتذكرها دون أن أضطر لطلب التسجيل من داني. وهذه الملاحظات تقول إن على المثقف أن يكون:

- هاويا للبحث الثقافي.
- فضوليا للمعرفة.
- يطرح الأسئلة دون توقف.
- موضوعي دائما.
- صادق مع نفسه.

- يعرف كيف يصوغ المشكلة ويحدد فرضياتها وعلائقها.
- يتبع الأدلة أينما أخذته.
- لا يمتلك معارف يقينية.
- يعرف أنه لا يعرف.
- حذر من وهم المعرفة.
- مدركٌ ألا أحد سيحرره إلا نفسه.
- متواضع.
- يقوم بتغيير آراءه دوما حسب الأدلة الجديدة.
- شكوكي.
- لا يقبل المعلومات إلا من مصادرها.
- متنبه إلى وسائل ثالوث القمع وأدواته.
- متنبه إلى تحيزات دماغه وقصوره البيولوجي.
- لا يبدي رأيا ولا يحكم على أمر لم يبحث فيه.
- لا يتورع عن قول لا أعرف.
- كل آراءه وأحكامه محددة بمدى عمق بحثه فيما يتعلق بها.
- يقدر قيمة الوقت.
- متحرر من كافة أشكال العبودية.
- غير منتمي.
- إنسان عالمي.
- لا يعمم.
- لا يطمح لقيادة الرعايا، بل لتحريرهم.
- لا يعتبر أي إنسان مثاليا.
- لا يقدس أحدا.
- يقظ دائما ليتعلم من أي أحد ومن كل موقف يمر به.

[620] **رجل الكهف**: هذه إذن هي مفاتيح الخروج من الغرفة، وهي نفسها مفاتيح صعود البرج. وعليها أن تكون دائما بحوزة المثقف، لأنها تعمل بشكل تكاملي، لا تراتبي. ففي اللحظة التي يفقد الباحث أحدها يتعذر عليه متابع صعود البرج، فهو سيحتاجها في كل طابق فيه. وبالتالي، فإنها أكثر أهمية بكثير من الخريطة التي رسمتها لكما بالأمس.

داني "بتعجب": لماذا؟

[621] **رجل الكهف**: لأنه من الممكن أن تصل إلى وجهتك عبر طرق أخرى غير المرسومة في الخريطة،

قد تكتشف أنت طريقا جديدا أو تجبرك الظروف على سلوك طريق آخر، لا مشكلة كبيرة، ستخرج من الغرفة وستصل البرج. أما من دون مفاتيح لن تستطيع المتابعة. أعني، من دونها لن تستطيع الخروج من الغرفة، وإن أضعتها بعد خروجك فلن تصل البرج، وإن وصلته فلن تدخله، وإن دخلته وأضعت أحدها في أي طابق من طوابقه فسيتعذر عليك الصعود الى الطابق الذي يليه. ولهذا السبب بالضبط، يتعذر على كثيرين متابعة صعود البرج، كما ويضطر كثيرون منهم للعودة إلى الغرفة. هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى، فإن الأهم هو أن تكون انسانا حرا، لا مثقفا. فكما قلت لك، الثقافة سلاح أخطر من الأسلحة المادية. فإن لم تكن حرا في البداية فستدمرك ثقافتك وقد تدمر غيرك أيضا، لذا وجب أن تكون حرا كشرط أساسي، عليك أن تكترث لضمان استمرارية تحقق هذا الشرط، ثم بدرجة ثانية، تهتم ببنائك الثقافي. فكم من مثقف ثالوثي قد دمّر شعوبا، وكم من حر أقل ثقافة قد حررها. ومن جهة ثالثة، أنا أريدك فاهما لا حافظا، ودون هذه المفاتيح يستحيل عليك أن تكون كذلك. لذا فاحرص على أن تلازمك هذه المفاتيح منذ هذه اللحظة وحتى وفاتك، وأن تستعملها دائما بالتزامن مع بعضها. ستحتاج بضع سنوات للتدرب على استخدامها لكنك ستنجح بالنهاية. وستصبح تلقائية، تستخدمها دون أن تشعر تماما كما تستعمل مفتاح باب بيتك بتلقائية دون تفكير.

داني "بحماس": سأعمل على هذا بكل تأكيد.

[622] **رجل الكهف**: والآن، هل حللت لك الأمر الذي شغلك منذ الأمس؟

داني "بابتسامة": نعم. شكرا جزيلا.

رجل الكهف: إذن دعونا نأكل شيئا ما.

****

الباب التاسع
في ماهية المثقف

(أثناء تناول الطعام)

[623] **لوسيل**: إن تلك المتطلبات التي تتضمن تغييرا جذريا لطريقة التفكير كثيرة جدا. ألا ترى أنها عصية على معظم الناس؟ أليس من الحكمة أن تقترح على الناس ما يمكنهم فعله، وليس ما تراه أنت مثاليا ليُفعل؟

رجل الكهف: "(اقترح ما يمكن فعله). إنهم لا يتوقفون مطلقا عن تكرارها لي. إنها كما لو قيل لي (اقترح فعل ما قد تم فعله) أو على الأقل (اقترح بعض الأمور الجيدة التي يمكن لها أن تتحالف مع الشر الموجود) مشروع كهذا، في بعض المسائل، هو أكثر خيالية من مشروعي. لأنه في هذا التحالف الجيدُ سَيفسَد والشرُ لن يُشفى. أنا أفضّل أن أتبع الممارسات المعترف بها في كل شيء على أن أتبع ممارسات جيدة لنصف الطريق. سيكون هناك تناقض أقل لدى الإنسان. فهو لا يمكنه أن يسعى نحو هدفين متناقضين في الوقت عينه. أيها الآباء والأمهات، ما يُمكن فعله هو ما تريدون أنتم فعله. هل يجب عليّ أن أكون مسؤولا عن إرادتكم أنتم؟" هكذا أجابك جان جاك روسو في *ايميل*. وبالمثل أقول، أنا أكره أنصاف الحلول فيما لا يقبل أنصاف الحلول، إن هذا خيانة للفكر وللنفس. هناك أمور في هذه الحياة لا تقبل المساومة، إما هي مقبولة أو غير مقبولة، إما صحيحة أو خاطئة، من منظور موضوعي لا شخصي أتكلم.

[624] **لوسيل** "بتعجب": إذا أنت تعتقد أن التزام تلك النصائح كلها هو أمر لازم لا يقبل المساومة.

رجل الكهف: بالطبع، إذا كنا نتحدث عن مثقف مثالي. أما وإن المثالية قد مُنعت عن البشر، فإن على الإنسان أن يحاول ملامستها ما استطاع كي يضمن عدم انزلاقه.

[625] **لوسيل**: نحن نتكلم عن المثقف، والمثقفين، والخارجين، منذ بداية لقائنا، وندور في فلكهم في حواراتنا، ونحاول تحديد أنواعهم، وما يتميزون به من معارف ومن طرق تفكير تجعلهم مختلفين عن قاطني الغرف سواء من الرعايا أو من أعضاء الثواليث وزبانيتهم. لكنك حتى الآن لم تُعرّف لنا المثقف!

رجل الكهف: هذا لأنه لا يوجد تعريف محدد للمثقف حتى الساعة. إن الأمر أكثر تعقيدا من تحديد الثقافة الذي تكلمنا عنه سابقا، مع عدم وجود تعريف واضح لها، إلا أننا تمكنا بسهولة من وضعها في إطار عام، لكن الأمر أشد تعقيدا مع المثقفين أنفسهم. ففي الحقيقة، كل مثقف يطمح إلى أن يُفصّل تعريفا للمثقف يناسب قياسه. الفلاسفة ينظرون للمثقف بأشكال مختلفة بحسب توجهاتهم، يمينية أو يسارية. وعلماء اللغة يُعَرّفون المثقفين بالدلالات اللغوية للكلمة. والأكاديميون يريدون إلصاق التحصيل الأكاديمي العالي بالمثقف. وعلماء الاجتماع يحددون المثقفين بما يتناسب وأهداف أبحاثهم. ولذا لا عجب أن يكتب محمد عابد الجابري في *المثقفون في الحضارة العربية*: "... عندما طرحت السؤال: ومن

المثقف؟ شعرت بالفزع..." الأمر مفزع حقا، فهناك فوضى عارمة تحف هذه الكلمة. لكن يُمكننا إن أردتِ أن نحاول استعراض الأمر ونحاول التوصل إلى مفهوم عن ماهية ذلك المثقف الموسوعي الحر المثالي.

[626] **لوسيل** "بحماس": تبدو مهمة ممتعة. دعنا نبدأ بها.

رجل الكهف: دعينا نبدأ بالمعنى اللغوي للكلمة لتكتشفي سبب اللغط الذي تسببه. ثقَّفَ يثقِّف، تثقيفًا، فهو مُثقِّف، والمفعول مُثقَّف. ثَقِفَ ثَقَفًا: صار حاذقًا فَطِنًا، فهو ثَقِفٌ .ثقُف الإنسان: أدّبه وهذبه وعَلَّمه. ثقَّف المعوجَّ: سوّاه وقوّمه. ثقف الحديث: حذَقه وفطِنه، فهمه بسرعة. ثقف الشّخص: صار حاذقًا فَطِنًا. وثَقِفَ العِلمَ والصناعةَ: حَذَقها .ثقف الشّيء: ظفِر به أو وجده وتمكّن منه. ثقّف التّلميذ: أدَّبه وربّاه، علّمه ودرَّبه، وهذَّبه. ثَقِفَ الرَّجُلُ: صَارَ حَاذِقاً مَاهِراً متعلما. ثَقِفَ الطَّالِبُ العِلْمَ: حَذَقَهُ وَحَصَّلَهُ. ثَقِفَ الحَدِيثَ: فَهِمَهُ بِسُرْعَةٍ وَنَبَاهَةٍ. ثَقِفَ عَدُوَّهُ فِي الحَرْبِ: أَدْرَكَهُ. ثقُف الشَّخصُ: صار حاذقًا فطنًا، انكبَّ على المطالعة حتى ثقُف. وهكذا دواليك في المعاجم العربية.

[627] **داني**: وبالتالي كلمة مثقف في اللغة العربية لا تعدو إلا أن تكون اسم مفعول من ثقف. وماذا عن اللغات الأخرى؟

رجل الكهف: إن الكلمة المنتشرة في اللغات الأوروبية هي الكلمة الفرنسية Intellectual والتي هي صفة من Intellect وتعني: القدرة أو الملكة في العقل والتي بواسطتها يمكن للإنسان أن يعرف أو يفهم بشكل منفصل عما يشعر به الإنسان وما يرغب به. وهي الفهم، أي ملكة التفكير واكتساب المعرفة. أو القدرة على التفكير واكتساب المعرفة، وخاصة في أمر معقد أو عالي. ويطلقها قاموس كامبردج بشكل رسمي على الشخص المتعلم جدا، والذي اهتماماته هي الدراسة وأنشطة أخرى تتضمن التفكير الحذر.

[628] **لوسيل**: وماذا عن الصفة منها؟

رجل الكهف: Intellectual كصفة تتعلق بقدرتك على التفكير وفهم الأمور، وخاصة الأفكار المعقدة. وكاسم يطلقها قاموس كامبردج تماما كسابقتها على الشخص المتعلم جدا والذي اهتماماته هي الدراسة وأنشطة فكرية أخرى تتضمن التفكير الحذر والجهود العقلية. أما كلمة Intelligentsia الروسية المولد **интеллигенция** فهي اسم من الصفة Intelligent والتي هي بدورها صفة للاسم Intelligence وتعني القدرة على اكتساب وتطبيق المعارف، أو هي القدرة على التعلم، الفهم، القيام بالمحاكمات، أو امتلاك آراء مبنية بشكل عقلاني. وعليه فإن الصفة منها Intelligent تعني القدرة على تعلم وفهم الأمور بسهولة، أو امتلاك فهم جيد أو قدرة عقلية عالية، سريع الفهم كإنسان أو حيوان. وهي امتلاك ملكة العقلانية والفهم. أو امتلاك الفهم والمعرفة.

[629] **داني**: وماذا إذن عن الاسم Intelligentsia؟

رجل الكهف: يعرفها قاموس كامبردج على أنها اسم للأشخاص المتعلمين جدا في المجتمع، خاصة أولئك الذين يهتمون بالفنون والسياسات. بينما يعرفها قاموس اوكسفورد على أنها اسم للمثقفين أو للأشخاص المتعلمين كمجموعة، خاصة عندما يتعلق الأمر بممارسة تأثيرات ثقافية وسياسية. إنهم ما يطلق عليهم باللغة العربية النخبة المتعلمة أو النخبة المثقفة في المجتمع.

داني: إذن الكلمة غير محددة بإطار واضح لتطلق على مجموعة معينة من الأشخاص على وجه التحديد.

[630] **رجل الكهف**: صحيح، إن الكلمة فضفاضة جدا في استخداماتها، إذا ما توخينا المعنى اللغوي لها، لأنها كلمة مستحدثة. ولهذا السبب قلت لكما أن تعريف المثقف يختلف جدا بحسب وجهة كل باحث ومفكر. لكن هناك شبه إجماع شعبي على الأقل، أو مستمد من المعنى المباشر المجازي للكلمة، وذلك باعتبار المثقفين هم من يمارسون الأعمال الذهنية في مقابل من يمارسون الأعمال اليدوية. كما وقد يراهم البعض محصورين بأولئك الذين يعملون في السلك الأكاديمي أو السياسي أو الفني على وجه التحديد. لكن مهلا، ألم نُفرّق فيما مضى بين المهني والمثقف؟ ألا يوجد في التاريخ أشخاص كانوا مثقفين بامتياز لكنهم كانوا يمارسون حرفة او مهنة ما؟ خذ سبينوزا على سبيل المثال. ومع أن كلمة مثقف لم تكن بعدُ قد استعملت في زمنه، إلا أنه من المجحف جدا ألا نعتبره كذلك، بينما نعتبر مدرسا بسيطا على أنه مثقف أو من النخبة المثقفة، وأن نعتبر ممثلا تلفزيونيا أو رساما هاويا على أنهما كذلك! هذه مفارقة غير مقبولة.

لوسيل: صحيح تماما.

[631] **رجل الكهف**: لهذا أنا أعتبر كل من يعمل في مجال عملٍ يتطلب استعمال القدرات الذهنية أكثر من استعمال القدرات البدنية، على أنه مهني. في مقابل الحرفي الذي يعتمد على القدرات الجسدية أكثر من الذهنية. أليس هذا منصفا؟

داني: بالتأكيد إنه كذلك.

[632] **رجل الكهف**: إذن سنستثني المهنة من تعريف المثقف لأنه كما قال جيرار ليكلرك في *سوسيولوجيا المثقفين*: "... لا يمكننا... اعتبار كل من يمارس وظيفة فكرية مثقفا بإطلاق...". وبالتالي علينا الالتزام بمقترح بول بارون: "إني أقترح أنه، عندما يتعلق الأمر بموقف إزاء القضايا التي تطرحها الصيرورة التاريخية بأكلها، يجب أن نبحث عن الخط الفاصل بين العمال الفكريين وبين المثقفين".

لوسيل "بتركيز": هذا مهم جدا.

[633] **رجل الكهف**: إذن لننظر إلى ما زودتنا به المعاجم أيضا من صفات لهذا الكائن. إنه اكتسب

معارف متنوعة ويقوم بالمحاكمات العقلية بشكل منفصل عما يشعر به وما يرغب به. ولديه القدرة على التعلم، الفهم، القيام بالمحاكمات، أو امتلاك آراء مبنية بشكل عقلاني. أي أنه مبدئيا لم يعد ذلك الببغاء الذي يردد ما يردده الرعايا. لكن مرة أخرى، تصر المعاجم على أن امتلاك هذه القدرة العقلية هو نتيجة للدراسة، والتي توحي أنها الدراسة الأكاديمية، وعليه، فإن هذا المثقف قد لا يعدو عن كونه قد تعلّم داخل الغرفة ما لم يتعلّمه الآخرون من الرعايا الذين لم يتابعوا التحصيل الأكاديمي الذي تابعه هو. ولقد تكلمنا عن أن التحصيل الأكاديمي لا يعني بالضرورة أن الإنسان قد أصبح واعيا، ولا حرا، وبالتالي ولا مثقفا. قال لويس كوزر في *رجال الأفكار*: "ليس كل الرجال الأكاديميين هم مثقفون، كما ليس كل أعضاء المهن كذلك...".

لوسيل "وهي تقدم الشاي": صحيح، لقد تلكمنا عن هذا.

[634] **رجل الكهف**: والآن دعونا ننظر إلى مصطلح الانتلجنسيا، والذي يعني النخبة المثقفة أو المتعلمة في المجتمع. إذا استثنينا التحصيل الأكاديمي والمهنة، يتبقى لدينا قاسم مشترك لأعضاء هذه المجموعة، وهو أنهم يهتمون بالفنون والسياسات، ويمارسون تأثيرا ثقافيا وسياسيا. هذا تحديد جيد لنفرّق بين هؤلاء وأولئك الذين يكتفون بالبحث الثقافي لأنفسهم، لمتعتهم الذاتية. لكن هل هناك ما يفرق بين أن يكون هؤلاء يعملون على تحرير الرعايا، أو أنهم ببساطة مثقفو سلطة يدعّمون سطوة ثالوث القمع؟ بكل أسف كلا، لا تفرّق المعاجم بين هؤلاء وأولئك. فكل من له تأثير ثقافي أو سياسي أو فكري لهو من النخبة المثقفة في نظر المعاجم. وبهذا نرى أن المعاجم لا تسعفنا على الإطلاق في تحديد تعريف دقيق للمثقف بالمعنى الذي نتكلّم عنه نحن. وهذا سبب اللغط الكبير حول استخدام وتعريف هذه الكلمة المستحدثة كغيرها من الكلمات التي أرى أن علينا إيجاد كلمات جديدة لها لتخفيف سوء التفاهم الذي يحيط بها، حيث يتم تحميلها معاني لا تتوافق مع معانيها اللغوية.

[635] **داني**: لكن ألم يكن هناك مفكرون ومثقفون في كل المجتمعات عبر التاريخ بالمعنى الذي تقصده أنت؟ ألم تتحدث لنا عن سقراط مثلا؟ كيف تقول إن هذه الكلمة هي كلمة مستحدثة؟

رجل الكهف "وهو يشعل غليونه": لأنه "على الرغم من أن هناك بعض الأفراد قد تخصصوا في الإنتاج الفكري، حتى في غالبية المجتمعات البدائية..." كما كتب روبرت بريم في *المثقفون والسياسة*، ومع أن "... الوظيفة الفكرية قد امتازت بتاريخها السحيق وديمومتها..." كما كتب ليكلرك، "فإن للمثقفين كما نعرفهم الآن تاريخ ولادة، وإن كان لا ينطبق تماما مع التاريخ الذي يسجله التاريخ الرسمي، فهو يعود إلى الحداثة الأوروبية القريبة العهد، بل إلى الزمن المعاصر بالذات.".

[636] **لوسيل** "بحماس": حدثنا عن مولدهم. فربما نستطيع تعريفهم بشكل أكثر موضوعية ودقة إذا نظرنا في قصة ولادتهم.

رجل الكهف: صدقتِ يا لوسيل. هذه فكرة جيدة. لقد بدأت قصة الانتلجنسيا الروسية عندما حاولت نخبة فكرية وإدارية تعمل لصالح الدولة أن توائم بين إخلاصها للسلطة وبين اكتسابها لأفكار

تتعلق بالحريات. ولاحقا حوالي العام 1860 بدأت هذه الانتلجنسيا أن تكون أكثر انفتاحا أمام الخارجين من أوساط الشعب. ويُرجّح ليكلرك أن الكلمة قد ظهرت حوالي عام 1865 لتعني حسب تعبيره: "الأذكياء الذين يعرفون مشاكل الشعب ويُحسنون عرضها، والذين يعتبرون أنفسهم ممثلي الشعب وناطقين باسمه، أو الذين يُمثلون أنفسهم بوصفهم ضمير الأمة..." الذين لديهم "... شعور حاد بالاغتراب وبالابتعاد تجاه الشعب، ورغبة حادة في تخليص الشعب وإعادة إحياء روسيا. ثمّة جذرية في الأفكار دفعت إلى حدود اليوتوبيا..." ويضيف "... وحين استعارت لغات أوروبا الغربية هذا التعبير، فإنه كان قد احتفظ بالدلالات التي علقت به في هذا السياق الروسي: مسافة ثقافية هامة تجاه الجمهور أو العامة الجاهلة، يقين بالانتماء إلى نخبة متميزة، ولكنها تحمل في الوقت نفسه مسؤوليات هامة، العقلانية واليوتيوبية في الأفكار السياسية..." أو كما يُعرّف روبرت بريم الانتلجنسيا بقوله: "... هو اصطلاح يشير إلى هؤلاء المفكرين الذين يعنون أساسا بنقد السلطة القائمة، ويلعبون أدوارا رئيسية في الحركات الثورية.".

[637] **داني**: وما هي قصة أصلها الفرنسي؟

رجل الكهف: بعد بضعة عقود من ولادة الانتلجنسيا في روسيا، وتحديدا في العام 1894 أدين الضابط الفرنسي- ألفرد دريفوس بتهمة تسليم وثائق إلى السفارة الألمانية. وحُكم عليه بنزع رتبته العسكرية بشكل علني والنفي الدائم إلى غويانا. لكنه كان بريئا من تلك التهمة. واحتاج الأمر حتى شهر مارس من العام 1896 ليكتشف قائد الاستخبارات الجديد بيكار ذلك، ويعرف ان المتهم الفعلي هو الضابط إسترهازي. إلا أن الجيش قد حاول إخفاء هذا الكشف الجديد.

[638] **لوسيل** "بحماس": وماذا حصل بعدها؟

رجل الكهف: بعدها بعامين، في يناير من عام 1898 نشر- جورج كليمانصو في جريدته *L'Aurore* مقالة لإيميل زولا بعنوان "إني أتهم" حيث كشف فيها عن المكيدة التي تعرض لها دريفوس. وبعدها ظهر في الجريدة نفسها بيان يقول: "إن الموقعين الذين يعترضون على انتهاك الأشكال القانونية، وعلى الأسرار التي أحاطت قضية إسترهازي، يُصرّون على طلب المراجعة." كان البيان موقعا بأسماء ما لبثت أن توسعت في الأيام التالية لتضم مئات الشخصيات من العالم الأدبي والثقافي والفني. كانوا كُتابا ومُدرسين وطلاب وفنانين. ثم كتب كليمانصو مقالا جاء فيه: "أليس ذلك علامة فارقة، أن يتحلّق هؤلاء *المثقفون* الآتون من كل زوايا الأفق حول فكرة معينة؟". لكن بارّيس زعيم المناوئين لدريفوس نشر بعد أسبوع مقالا بعنوان "اعتراض المثقفين!" كتب فيه: "...إن لائحة من يعرف بالمثقفين هي لائحة تضم العديد من الأغبياء ومن الغرباء أيضا...".

[639] **لوسيل** "بتركيز": وهل تمت إعادة المحاكمة؟

رجل الكهف: نعم، وخُفّض الحكم إلى عشر- سنوات سجن، ثم في محكمة النقض تم إلغاء الحكم وإطلاق سراح دريفوس وإعادة الاعتبار إليه.

داني "بسرور": هذا عظيم. لقد استطاع إذن هؤلاء الأشخاص الذين نُعتوا بالمثقفين، من إحقاق الحق بتبرئة متهم بريء. وهكذا إذن ولد المثقفون.

[640] **رجل الكهف**: في الحقيقة "يُعتبر المثقفون الفرنسيون... كما يُعتبر... الانتلجنسيا الروس... رجالا يقولون بالنفي، أو كما سيقول ماركوز... (رجالا يمتازون بالرفض الكبير)... إن جِدّة التعبير والتجمّع الغريب الذي قضى بتحلّق المثقفين أو الانتلجنسيا حول بعضهم بعضا، لا يُمكن أن يُخفيا مع ذلك الاستمرارية التي تتمثل بالوظيفة التي التزم بها هؤلاء الناس... والمتمثلة بالانحياز إلى الشأن العام والتشكيك في الحقيقة الرسمية المتمثلة في السلطات أو في المؤسسات. وفي الحالتين تضع الطبقة الفكرية نفسها بتماس مباشر وحميم، صراعي إلى حد ما، مع الدولة، أو مع الطبقة السياسية والطبقة المسيطرة في المجال الاقتصادي. كما تدخل ضمن علاقات تقوم إلى حد بعيد على المنافسة مع المؤسسات التقليدية..." هكذا كتب ليكلرك، مضيفا "... إن المثقف هو حصيلة تحول استثنائي ظهر في أوروبا بدءا من عصر النهضة... ترتبط ولادة المثقفين بعلمنة المجتمع، بالسياسة، بالثقافة في القارة الأوروبية. يُربط المثقفون بالحداثة، أي بالعلمانية، بالتعددية الدينية، بحرية الأفكار، وبظهور الطباعة في القرن الثامن عشر، بالثورة الفرنسية، وبضغط ما يُعرف (بحقوق الإنسان)." ومع ذلك "وإذا كان المثقفون الأوائل الواعون لأنفسهم قد ظهروا مع نهاية القرن التاسع عشر... فإن المثقف الملتزم لم يكتسب حقه من التقدير والنبل إلا بحدود الأعوام 1930، وفي هذا التاريخ أشارت صِفاته وأعماله ومعتقداته إلى ولادة المثقف المعاصر...".

لوسيل "مفكرة": من هذا يتضح لنا أن المثقفين هم بالضرورة أشخاص يريدون مساعدة المظلومين وتحرير الرعايا والوقوف في وجه الثالوث.

[641] **رجل الكهف**: بالضبط، هذا ما أردتك أن تكتشفيه من قصتي ولادة هذين المصطلحين. فالمثقف هو بالضرورة ذلك الشخص الذي وصفتِه للتو. كتب جينس ليونغرين في *لا وطن للمثقفين* تعقيبا على قضية دريفوس: "... المثقف المثالي الذي أعطاه زولا شكله سأسميه (النموذج الكلاسيكي). إنها تعني أن: المثقف يعمل كفرد وكخالق للآراء في الميادين المقدسة. المثقف يستغل السلطة في الثقافة أو في حقل العلم للتأثير على السياسة. المثقف مستقل ويتصرّف كفئة مستقلة وواضحة بجانب السياسيين، الصحفيين، ومجموعات المصالح المنظمة. المثقف يشير إلى القيم الكونية في الحالات الواقعية. المثقف يتصرّف ويكسب نفسه الشرعية كضمير وكسلطة تحريضية على المعارضة للمصالح الراسخة." هذه هي المحددات التي تعني كلمة "مثقف".

داني "مركزا": هذا صحيح.

[642] **رجل الكهف**: يؤكد على ذلك أيضا ايدوارد سعيد في *تمثيلات المثقف* بقوله: "... لا يوجد أدنى شك لدي في أن المثقف ينتمي لنفس الجانب مع الضعفاء والذين لا يمثلهم أحد...". ويكتب علي شريعتي في *مسؤولية المثقف: "... وكلمة المثقف... تعني صراحة ذلك الذي يتميز بوضوح الرؤية وسعة

الأفق... وتعني ذلك الذي لا يتصف بالتقيد والتوقف ولا يفكر بجمود عقائدي، بل يفكر بوضوح وسعة أفق، ويميز عصره والأرض التي يقف عليها، وموقع البلد الذي ينتمي إليه، والمشاكل التي تُطرح في مجتمعه ويستطيع تحليلها وتقديم الأدلة لها، وإفهامها للآخرين...وعلى العكس من ذلك، فإن الذي تُطرح أمامه مشاكل تمس مجتمعه وتمس حياته لكنه لا يستوعبها، ولا يدري أنها تمس حياته... مثل هذا الشخص ليس مثقفا بالمرة. ومن هنا فليس المثقف وحده هو الذي يزاول عملا فكريا، فمن الممكن أن يكون شخص ما يفكر بانطلاق وسعة أفق بينما يزاول في المجتمع عملا بدنيا أو يدويا ومع ذلك فإنه يُحسن الفهم، وعلى العكس تماما ممن يزاول عملا عقليا أساسه فكري... لكنه ليس مثقفا. ألا نرى أناسا نعرفهم ونلتقي بهم كل يوم تعلّموا تعليما عاليا ونالوا أرقى الشهادات بل ويشغلون مناصب علمية ويقومون بأعمال عقلية لكنهم مع كل ذلك لا يفهمون حوا من لوا؟ فهؤلاء لا يُعدون مثقفين لأنهم لا يتميزون بوضوح الرؤية والقرار العقلاني...".

داني: هذا تميز مفيد جدا، فلا علاقة للمهنة بتقييمنا لكون الانسان مثقفا أم لا.

[643] **رجل الكهف**: كلا بالطبع. يقول ليكلرك: "... المثقفون ليسوا بمحترفين، ولا هم جملة من المهن الفكرية، مع أن بالإمكان تجميعهم ضمن وظائف محددة. إنهم نوع من مجموعة خلاقة، أو تجمّع -إنهم فئة تمتلك إلى حد ما وعيا بذاتها، كما تمتلك (وعيا طبقيا) معينا- إنهم المنتجون والموزعون والمستهلكون الأولون للابتكارات الفكرية والجمالية. هؤلاء الأفراد... هم من يؤلّف أثرا أو عملا، أي شكل مميزا من العمل، والإنتاج. أي إنهم من يُظهر للعالم جملة من العلامات والرموز الحاملة لصفات أو لميزات نوعية..." وكتب إيدوارد سعيد: "... الحقيقة المحورية بالنسبة لي... أن المثقف هو فرد موهوب مما يُمكّنه من تمثيل، وتجسيد، وحمل رسالة ما، وجهة نظر ما، موقف ما، فلسفة ما، أو رأي ما للعامةِ وموجهٌ للعامة..." وذلك عن طريق "... إثارة أسئلة محرجة على الملأ، ليواجه السلطات والعقائد (بدل أن يقوم بإنتاجها) أن يكون شخصا لا يمكن أن يتم شراؤه بسهولة من قبل الحكومات أو الشركات. والذي سبب وجوده هو ليمثلَ كلّ هؤلاء الناس والقضايا التي يتم بشكل دوري نسيانها أو دفعها تحت البِساط. المثقف يفعل ذلك بناء على أساس من المبادئ العالمية: وهي أن كل البشر- أهلٌ لأن يتوقعوا معايير لائقة من السلوك فيما يتعلق بالحرية والعدالة من القوى الدولية أو الأمم. وأن الانتهاكات المتعمدة وغير المقصودة لهذه المعايير يجب أن يتم فحصها ومحاربتها بشجاعة.".

لوسيل: هذا يعني أن المثقف هو من يقف في وجه الثالوث.

[644] **رجل الكهف**: بكل تأكيد، ولو أنه شرط لازم غير كافي. كتب روبرت بريم: "... المثقف مؤهل -بطبيعته- لكي يتبنى الموقف النقدي خلافا لما هو سائد في المجتمع. ويتطلب الإنتاج الفكري ذي الصبغة التأثيرية استعدادا معينا كي يقف -كمعارض- أمام الحكم المتوارثة والمتفق عليها، كما أن تطبيق هذا الفهم على الظواهر الاجتماعية والسياسية يتضمن رفضا للإيديولوجيات السائدة." و كتب علي شريعتي: "وأعظم مسؤوليات المفكر في مجتمعه هي ان يجد السبب الأساسي والحقيقي لانحطاط المجتمع،

ويكتشف السبب الأساسي للركود والتأخر والمأساة بالنسبة لمواطنيه وجنسه وبيئته، ثم يقوم بعد ذلك بتنبيه مجتمعه الغافل الغائب عن الوعي إلى السبب الأساسي لمصيره وقدره التاريخي المشؤوم، ويبدي لمجتمعه الحل والهدف وأسلوب السير الصحيح الذي يلزمه من أجل ان يتحرك ويتخلص من هذا الوضع... ويقوم المفكر بنقل المسؤولية التي يحسها هو من طائفة المفكرين المحدودة إلى السواد الأعظم لمجتمعه، ويجعل التناقضات الاجتماعية الموجودة في قلب مجتمعه داخل وعي الناس وأحاسيسهم." هذا لأن "... المجتمع لا يتحرك بفعل العامل الديالكتيكي والجبر التاريخي لوحده، إذا لم يتوفر عامل الوعي ليس بإمكان التضاد والاستثمار الطبقي والتضاد الطبقي أن يكون عامل حركة المجتمع نحو المرحلة الثانية. بناء على هذا يجب أن يصل المجتمع والناس إلى الوعي. يجب أن يشعر... بالاحتقار ليكون الاحتقار سببا ليقظته. عليّ أن أتعرف على العدو وأفهمه وأشعر به حتى يكون مُعلّمي وسببا لوعيي ويقظتي... والمثقف عمله هو أن يرفع هذا التضاد، عدم التنسيق، واللاملائمات الموجودة في المجتمع، الموجودة في الواقع، أن يرفع ذلك من الواقع ويورده في شعور المجتمع ووعيه. هذه رسالة الفنان، هذه رسالة المثقف، هو أن ينقل التضاد الموجود في المجتمع من الواقعية إلى الذهنية...".

داني "مفكرا": إذن إن مهمة المثقف هي أن يكون موقظا للرعايا النائمين. وليس لها علاقة بمهنته التي يمتهنها مطلقا.

[645] **رجل الكهف**: صحيح، يُطلق البعض على هذا الشخص مصطلح المثقف القوي، أو أن هذا التوصيف هو المعنى القوي للمثقف. انظر مثلا ما كتبه محمد عابد الجابري: "وهكذا فالمثقف بهذا المعنى القوي يتحدد وضعه لا بنوع علاقته بالفكر والثقافة، ولا لكونه يكسب عيشه بالعمل بفكره وليس بيده، بل يتحدد وضعه بالدور الذي يقوم به في المجتمع كمُشرّعٍ ومعترضٍ ومبشرٍ بمشروع، أو على الأقل كصاحب رأي وقضية." ويضيف: "... إن الرغبة في الكشف عن الحقيقة ليست إذن سوى أحد الشرطين ليكون الإنسان مثقفا. أما الشرط الآخر فهو أن يكون شجاعا، أن يكون مستعدا للذهاب بالبحث العقلاني إلى أبعد مدى... إن المثقف إذن هو في جوهره ناقد اجتماعي. إنه الشخص اذي همّه أن يحدد ويحلل ويعمل، من خلال ذلك، على المساهمة في تجاوز العوائق التي تقف أمام بلوغ نظام اجتماعي أفضل، نظام أكثر إنسانية وأكثر عقلانية. إنه بذلك يصبح ضمير المجتمع، والناطق باسم قوى التقدم التي لا تخلو منها أية مرحلة من مراحله التاريخية. ولا مناص من أن يُنعت، بأنه شخص يثير العراقيل والفتن، من طرف الطبقة المسيرة التي تعمل على الحفاظ على الوضع القائم، ومن جانب (العمال الفكريين) خُدّام تلك الطبقة، الذين يتهمونه بأنه خيالي طوباوي، ويصفونه في أحسن الأحوال بأنه ميتافيزيقي، وفي أسوئها بأنه متمرد. وبعبارة أخرى إن (المثقفين)، وفقا لهذه التحديدات، هم أولئك الذين يعرفون ويتكلمون، يتكلمون ليقولوا ما يعرفون، وبالخصوص ليقوموا بالقيادة والتوجيه في عصر صار فيه الحكم فنّاً في القول، قبل أن يكون شيئا آخر.".

داني: لقد لاحظت أنه لم يستخدم مصطلح المثقفين للإشارة إلى مثقفي السلطة، فهو يرى أن

المثقفين هم بالضرورة من يقف ضد السلطة بالقول لا بالشعور فحسب.

[646] **رجل الكهف:** بالتأكيد، هكذا فقط يكون المثقفون الأحرار. كتب إيدوارد سعيد "... المثقف، بالمعنى الذي أقصده لهذه الكلمة، هو ليس شخصا مُهدِئاً، ولا شخصاً يجمع الآراء ويوفقها، لكنه شخص وجوده بالكامل مرهون على إحساس حَرِجٍ، إحساس أن تكون غير راغب لتقبّل الصيغ السهلة، والعبارات المبتذلة الجاهزة، أو أن تتقبل بسهولة التأكيدات التي يقولها ويفعلها ذوو السلطة والمتمسكون بالأعراف والتقاليد. وليس فقط بعدم رغبة سلبية، لكن برغبة فعّالة لقول ذلك على الملأ." وأضاف: "... إن المثقف هو أبعد ما يكون عن جعل جمهوره يشعر بالارتياح: إن كل الغاية هي أن يكون مُحرِجاً، مُعارِضاً، بل وحتى مُزعِجاً...".

لوسيل: وهو بهذا مختلف كل الاختلاف عن مجرد أن يكون مهنيا.

[647] **رجل الكهف:** بكل تأكيد. يوضح الأمر علي شريعتي بقوله: " إن مسؤولية المثقف في زمانه هي القيام بالنبوة في مجتمعه حين لا يكون نبي، ونقل الرسالة إلى الجماهير ومواصلة النداء، نداء الوعي والخلاص والإنقاذ في آذان الجماهير الصماء التي أُصيبت بالوقر، وبيان الاتجاه والسبب، وقيادة الحركة في المجتمع المتوقف، وإضرام نيران جديدة في مجتمعه الراكد، وهذا عمل لا يقوم به العلماء، لأن هناك مسؤولية على عاتق العلماء محددة تماما وهي منح الحياة أكبر قدر ممكن من الإمكانيات، ومعرفة الوضع الراهن وكشف قوى الطبيعة والإنسان واستغلالها. إن العلماء والفنيين والفنانين يمنحون المجتمع البشري أو مجتمعهم قوة علمية بوجودهم، لكن المثقفين يُعلمون المجتمع كيفية السير ويمنحونه الهدف، كما يقدمون رسالة التحويل واستجابة التحول إلى نسق بعينه ويضيئون الطريق للحركة." ويضيف: "إن العالِم مُوجِّه ومانح لرفاهية الانسان ومتعته وضامن لها، وهو الموكل بمنح الانسان القوة والراحة والسعادة، وهو في النهاية يكشف الواقعيات، لكن المفكر هو الذي يهدي إلى الحقائق، إن العالِم يقول: هذا الأمر هكذا. أما المثقف فيقول: لا ينبغي أن يكون الأمر هكذا بل كذلك. إن العالِم يضع مصباحا على الطريق أو أمام ضالٍ، والمثقف يُرشد إلى الطريق ويدعو إلى السفر، ويدل على بداية الطريق وهو نفسه رائد القبيلة وحادي القافلة، ومن هنا يسقط العالِم أحيانا أداة في يد الجهل والجور، لكن المفكر هو بذاته وبالضرورة الماحي للظلام والظلم، فالعلم قوة لكن الفكر نور." هل لاحظتما الفرق؟

[648] **لوسيل:** بالتأكيد. لكن مهلا، ألم تقل لنا مسبقا أنه قد قال: "... ليس عمل المثقف أن يقود المجتمع. إن أحد أخطاء مثقفي العالم الكبيرة هو أنهم يتصورون أن عليهم أن يأخذوا بزمام قيادة المجتمع والناس..."؟ كيف يقول هنا إن المثقف هو المرشد وهو رائد القبيلة؟

رجل الكهف: تسعدني يقظتك وفطنتك. إنه قد فسّر الأمر على النحو التالي: "الرائد هو الذي يُكلّف من قِبل القبيلة ليتقدمها، ويكتشف في الصحراء المنزل التالي أو عين الماء او البئر أو المرعى، ويكتشف الطريق ويعلم أحواله جيدا، ومدى أمنه وظروف السفر فيه ونقاط الخطر والقبائل الموجودة على جانبية، وكمائن الأعداء وقطاع الطرق أو الحيوانات المفترسة... ثم يعود إلى قبيلته

ويخبرها ويهديها في الرحيل إلى حياة أفضل." هل فهمتِ الفرق؟

لوسيل "بسعادة": نعم اتضحت الصورة تماما.

[649] **رجل الكهف:** لقد كتب وجيه كوثراني في جريدة *المستقبل* في 4 مايو 2001 مقالا يوصّف فيه أنواع المثقفين كماهم منتشرون في المجتمعات. وقد حدد مواقفهم على النحو التالي: "موقف المثقف البراغماتي الذي يتعامل مع الظواهر الطائفية كمعطيات لعمل سياسي وموقف سياسي عملي راهن... موقف المثقف المتعالي أو العقائدي أو الفيلسوف الذي يحلم بتغيير الواقع... انطلاقا من منظومات فلسفية مجردة ومتخيلة. موقف الخبير في التكنولوجيا أو في حقل اختصاص علمي محدد حيث يعمل بمعزل عن أي وعي سياسي أو ثقافي للسياق وللمحيط..." ويصف "مأزق الفكر اليوم، أي في عصر العولمة، أنه مجزأ بين المثقف المسيّس والمفكر المؤدلج، والخبير المُتَرّوِع مِنهُ سلاح الثقافة، أي سلاح الوعي..." ويرى أن "الارتقاء بالفكر والبحث في الانسانيات يتم عبر بناء الجسور بين هذه الأنماط، وبالنسبة لأجيالنا الجديدة، يجب السعي لربط حقول المعرفة التكنولوجية والعلمية بآفاق الإنسانيات والفلسفات." ويضيف: "... أخشى- أن يعيد تاريخنا (المستقبلي) أنماط المثقفين الثلاثة بمعزل عن بعضهم: الباحث الذي يبحث عن الترقي عبر السياسة، الفيلسوف الإيديولوجي، الخبير الذي يتوهم الحياد. السؤال كيف يتشكل المفكر والباحث الاستراتيجي الذي يجمع بين الثقافات الثلاث: البحث في الإنسانيات، الفلسفة، الخبرة التكنولوجية؟ هذا على ما أظن ما نحتاج إليه في عصر العولمة.".

داني "بحماس": الجواب هو باتباع خارطة الطريق والمفاتيح التي أعطيتنا إياها مسبقا.

[650] **رجل الكهف:** تماما. هل فهمتما عليّ الآن لِمَ أردت كل ذلك من المثقف؟

لوسيل: كي لا يقع في حفرة أحد هذه المواقف الثلاث والتي أي منها، سيجعل المثقف بالضرورة، أقل إفادة وأثرا.

[651] **رجل الكهف:** لكن النوع الأول منهم، ذلك المثقف الانتهازي، مثقف السلطات، هو أخطرها دون أدني شك. فهو شخص يساهم في قمع الرعايا لمصلحته الخاصة. هذا الكائن البغيض القذر، أو هؤلاء المرتزقة كما عبّر عنهم عاطف أحمد فؤاد في تقديمه لكتاب *المثقفون والسياسة* بقوله: "وأزمة المثقف... في علاقته بالسلطة ذات وجهين: الأول هو الوجه الإيجابي، حيث تصل علاقة المثقف بالسلطة إلى قمة توترها، حيث يتخذ المثقف -وهنا أعني به المثقف الإيجابي ذا النزعة الثورية- موقفا معارضا من نظام الحكم، أما الوجه الثاني -وهو يمثل أيضا أحد زوايا الأزمة- فأعني به الوجه السلبي، حيث يصبح فيها المثقف محض تابع للسلطة، يأتمر بأمرها، ويوجه فكره -إن صح أنه فكر- لخدمتها. وهم يمثلون ظاهرة المثقفين المرتزقة التي يندر أن يخلو منها مجتمع من المجتمعات... الذين يأكلون على كل الموائد ويصبحون بمثابة أبواق لكل الحكام وأصوات لمن يشتري، يبررون سلوك السلطة -أي سلطة- ويجدون الحجج لكل تصرفاتها، ويضفون على كل من هذا وذاك نوعا من الشرعية الزائفة.".

داني "بتركيز": لاحظ كيف قال: "... ويوجّه فكره -إن صح أنه فكر-..."

[652] **رجل الكهف**: بالتأكيد، لأنني أكدّت على أن الحرية هي السمة الأولى المطلوب توافرها في المفكر. وهو يؤكد على هذا أيضا بقوله: "ولستُ بظانٍ أن الحرية كمبدأ، والدعوة لها كهدف، يمكن أن يتعاظم أمامها مبدأ، أو يقوى على منافستها هدف. ولستُ بظانٍ أيضا أن هناك من هو أقدر، بل من هو أجدر على تحمل مسئولية دعوى الحرية والدفاع عنها والترويج الناضج لها من المثقفين..." فكيف لمثقف السلطة أن يكون حُرا؟ إنه يُضيف: "... مسؤولية العقلانية والتنوير تحقيقا للهدف الأكبر وهو نشر دعوى الحرية، لا يمكن إلا أن تكون مسئولية المثقف الثوري المستنير...".

لوسيل: فعلا، الحرية هي اللبنة التي تأسست من أجلها جماعة المثقفين.

[653] **رجل الكهف**: يؤكد عاطف أحمد فؤاد على هذه الحقيقة بقوله: "إذن الحرية هي القضية المحورية، المصيرية، بل هي المسئولية التاريخية التي قُدّرَ للمثقفين أن يتحملوها. ولكن الأمر عندي يستوجب الدعوة إلى أمرين لا تستقيم الحرية دونهما، بل إن دعوى الحرية لن يكون لها وجود دون وجودهما، وأعني بهذين الأمرين: العقلانية كاتجاه وسلوك في الحياة، والثورية فكرا وفعلا في الحياة أيضا بتباين أبعادها، واختلاف مظاهرها. ومن المؤكد أن هذين الأمرين من العسير أن يعمل أحدهما بمعزل عن الآخر، فلا إمكانية لتخلق العقلانية في غيبة نزعة فكرية وسلوكية ثورية تدعمها، ولا إمكانية أيضا لتصوّر احتمالية تشييد بناء فكري وسلوكي ثوري دون وعاء عقلاني تنمو بين جدرانه الثورية، وتستمد منه مقومات بقائها." ويضيف: "إذن هناك ركيزتان لا تتحقق الحرية دون الاعتماد عليهما، وهما العقلانية والثورية، والدعوة إليهما تتطلبان نوعية متميزة من الصفوة المثقفة. ولعل المثقف الثوري ذا التوجه العقلي التاريخي، الذي يعمل على استيعاب الماضي، ولا يرى ضرورة للتمسك به، بل يرى حتمية للإفادة منه، هو المثقف القادر على الترويج لمثل هذه الدعاوى والدفاع المستنير عنها.".

لوسيل: الآن بدأت أفهم ضرورة الالتزام بالكثير من التعليمات والخطوات التي شرحتها لنا مسبقا.

[654] **رجل الكهف**: سعيد لسماع هذا. دعونا نرى بعض التعريفات للمثقف، علّنا نستشف منها ما يفيدنا في بحثنا.

لوسيل "بحماسها الطفولي": بالطبع.

[655] **رجل الكهف** "وهو يشعل غليونه": عرّف جوليان بندا المثقفين في كتابه الشهير *خيانة المثقفين* بقوله: "هؤلاء الذين نشاطهم ليس في الأساس السعي وراء أهداف محددة. كل هؤلاء الذين يبحثون عن متعتهم في ممارسة فنٍ ما، أو علمٍ ما، أو تأملات ميتافيزيقية. باختصار، في امتلاكهم لمزايا غير مادية، وبالتالي بطريقة محددة يقول: مملكتي ليست في هذا العالم." ما رأيكما في هذا التعريف؟

لوسيل: إنه يرى المثقفين فقط أولئك الذين يبحثون عن المتعة في المعرفة، لا لتحرير الرعايا.

[656] **رجل الكهف**: تماما. فهو يرى أن المثقفين هم أولئك الذين قرروا الانفصال عن الواقع تماما، أولئك

الذين يقولون: لا علاقة لي مع هذه الحياة التافهة. هم أولئك المثقفون الذين صعدوا البرج وانقطعت أخبارهم. لم يعودوا ليحرروا الرعايا، ولا يكترثون حتى لمجرد الاتصال بهم. لأنهم احتقروا الحياة برمتها.

داني "بحماس": إنهم مثل ذلك المصرفي في قصة الرهان الذي أخبرتنا عنه.

[657] **رجل الكهف**: أحسنت. تلك الشخصية هي نموذج للمثقف كما يراه بندا. لكنه بالطبع ليس ذلك المثقف الذي نبحث نحن عنه. هذا المثقف متطرف جدا، ولا يفيدنا في شيء. إنه آثر مصلحته الذاتية على مصلحة باقي البشر، واعتبر نفسه متفوقا على كائنات لا تستحق مجرد العطف والحنان ومد يد المساعدة. لذا سندعه يحلّق في السماء، فلا شأن لنا به.

لوسيل "مبتسمة": أصبت.

[658] **رجل الكهف**: كتب ايدوارد شيلز: "في كل مجتمع... هناك بعض الأشخاص ذوي حساسية خاصة للمحرمات، وبقدرة استثنائية على تأمل الكون الذي يعيشون فيه، والقوانين التي تحكم مجتمعهم. هناك في كل مكان مجموعة قليلة من الناس الذين، بقدر أكبر مما يفعله أقرانهم العاديون، يستفسرون، ويتلهفون ليكونوا على تواصل مستمر مع رموز هي أكثر عمومية من المواقف المباشرة للحياة اليومية... في هذه القلة هناك حاجة لتجسيد البحث في حوار شفهي ومكتوب... هذه الحاجة الداخلية للنفاذ إلى ما وراء ستار الخبرة العملية المباشرة، هي ما يحدد وجود المثقفين في كل مجتمع." ماذا نستفيد من هذا التعريف؟

[659] **داني**: أن المثقفين هم من لم يعودوا يقبلون الأمور على ماهي عليه، بل يسألون ويحاولون تبصر ما خفي عن الرعايا، ويهتمون بالأمور العامة كمعايير القيم والحقيقة بشكل أكبر من اهتمامهم بتفاصيل الحياة الروتينية البسيطة التي يهتم بها الرعايا. كما ان عليهم أن يكتبوا وينشروا هذه الأفكار التي استطاعوا اكتشافها ببصيرتهم النقّاذة.

رجل الكهف: أصبت. إلا أنه لا يحدد علاقتهم بالثالوث وبالرعايا. ولذا علينا النظر في غيره.

لوسيل "مفكرة": صحيح.

[660] **رجل الكهف**: في ويكيبيديا نجد أنه قد تم دمج ثلاثة تعريفات للمثقف، ليصبح تعريف المثقف حسب ويكيبيديا: "مثقف: هو شخص يشغل نفسه بالتفكير الحرج، البحث، والتفكير في المجتمع، ويقدم حلولا لمشاكله المعيارية، بعضهم يحصل على سلطة كمثقفين شعبيين. آتٍ من عالم الثقافة سواء كخالق أو وسيط. المثقف يشارك في السياسات إما ليدافع عن مسألة محددة أو ليندد بالظلم عادة بواسطة رفض، اقتراح، أو توسيع إيديولوجية ما، وبواسطة الدفاع عن منظومة من القيم." ما قولكما؟

[661] **داني**: إنه تعريف غامض، لا يوضح مهمة المثقف الحقيقة ولا علاقته بالسلطات بشكل واضح، بل هو يعتبر أن المثقف قد يكون هذا الذي يدافع عن السلطات والايديولوجيات القائمة، أي مثقف سلطة. وهذا ما لا نريده في المثقف الحر. كما أنه يعتبر أن الوسطاء الثقافيين مثقفين، بينما هم قد يكونوا

مجرد مهنيين.

[662] **رجل الكهف**: إذا دعنا ننتقل لغيره. كتب علي حرب: "المثقف هو عندي العامل في حقل من حقول الثقافة أو في فرع من فروع المعرفة كالشاعر والرسام أو العالم والفيلسوف أو اللاهوتي والفقيه. ولكنه يهتم في الوقت نفسه بالشأن العام وينخرط في مناقشة مشكلات الساعة وقضايا المجتمع والأمة، بقدر ما يهتم بالدفاع عن الحقيقة والعدالة أو عن الحرية والديموقراطية... إذن هو الذي يجمع بين مهمته المعرفية والعلمية أو الأدبية والفنية وبين مهمته النضالية السياسية والمجتمعية أو الخلقية والإنسانية". ما رأيكما؟

[663] **لوسيل**: لقد أضاف حرب أن على المثقف مسؤولية الدفاع عن العدالة وأن عليه النضال السياسي والمجتمعي، لكنه يعتبر المثقفين هم من يمتهن مهنة ثقافية، والكارثة هي أنه يعتبر رجال الدين من المثقفين، بينما هم أحد أركان ثالوث القمع.

[664] **رجل الكهف**: ملاحظتك جيدة. فقد حدد علي شريعتي سمات طبقة المثقفين بقوله: "... ومن سماتها اللادينية ومعارضة اعتناق الآراء القديمة، ثم معاداة التقليدية والسلفية والكلاسيكية أو ما يعبر عنه بمصطلح الرجعية، ومن سماتها أيضا معاداة الأرستقراطية وسيادة العائلة المالكة والتمييز الطبقي، والجنوح عموما للجماهير، وإلى جوار ذلك فإن هؤلاء... استنوا سنة الاستناد إلى العلم... المقصود بالعلم هنا فهو العلوم الدقيقة المبنية على منطق علمي... ومن هنا... تعتقد أن كل ما يقوله العلم... هو الصحيح والحقيقي، وكل معرفة تتأتى عن غير طريق العلم ليست من العلوم البحتة الدقيقة وغير جديرة بالثقة..." فكيف يمكن لرجالات الدين أن ينتموا إلى هذه الطبقة؟

[665] **داني**: لكن لماذا استنوا سنة الاستناد إلى العلم؟

رجل الكهف: هذا ببساطة لأن المنهج العلمي للمعرفة هو المنهج الوحيد الذي لا يتبع سلطة ثواليث القمع، والذي هو تقريبا مطلق الموضوعية، ويعمل بطريقة ذاتية لاكتشاف الأخطاء وتصويبها. لا يوجد منهج معرفي آخر حقق هذه الميزات، وبالتالي فهو الأمثل من وجهة نظر المثقف الحر ليستقي منه معارفه.

داني "بإعجاب": جميل جدا. شكرا للتوضيح.

[666] **رجل الكهف**: كتب سمور ليبست مقالا في 1959 جاء فيه: "علينا هنا أن نعتبر المثقفين على أنهم كل أولئك الذين يبدعون، ينشرون، ويطبقون الثقافة -العالم الرمزي للإنسان- بما يتضمن الفن، العلم، والدين. في داخل هذه المجموعة مستويان رئيسيان يُمكن ان يُميزا: النواة الصلبة، الذين هم الخالقون للثقافة... وثانيا أولئك الذين ينشرون ما أبدعه غيرهم..." ما رأيكما؟

[667] **داني**: هو يعتبر المثقفين على مستويين، الأول هم المبدعون، والثاني هم الناشرون لما أبدعه أعضاء المستوى الأول، والذي يضم كارثيا، من يبدعون الأديان التي قد تم ابتداعها للسيطرة على الرعايا لا

لتحريرهم.

[668] **رجل الكهف:** صحيح، ونجد ليكلرك يرد على هذا التقسيم بقوله: "... المثقفون هم هؤلاء الذين ينتجون آثارا، الذين يبدعون، الذين يجددون في المجال الثقافي، الجمالي، الإيديولوجي. إلخ... أما إعادة إنتاج واستهلاك (أو ملائمة) الأثر فهي عمل المستهلكين البسطاء... أو المختصين بالنشر والإعلام...".

داني "مفكرا": فهو يرى إذا أن المثقفين هم المبدعون فقط، وليس من ينشرون ما أبدعه المثقفون.

[669] **رجل الكهف:** وهذا صحيح، لأن الآخرين قد يكونون ببساطة مهنيين لا أكثر. ومع ذلك فإنه "تبعا لعلماء الاجتماع الأمريكيين، يعتبر مثقفا من يقوم بالتلاعب بالرموز، إنه من يقوم ولأسباب مختلفة بإنتاج وتوزيع واستهلاك العلامات، والأعمال الثقافية والانتاجات الجمالية والعلمية أي الآثار (الفكرية) باختصار..." هكذا كتب ليكلرك. لكن هذا التعريف يتضمن كل من يستهلك الأعمال الثقافية، وهذا يحيلني إلى تعريف أنطونيو غرامشي للمثقف عندما كتب في *دفاتر السجن*: "كل الناس مثقفون..." لكنه عقّب على ذلك بقوله: "... لكن ليس كل الناس في المجتمع لديهم وظيفة المثقف." وعلّق على فكرته قائلا: "... لأنه من الممكن أن يحصل أن كل إنسان في وقت ما قد يقلي بيضتين، أو يخيط فتقا في معطف، لا نقول بالضرورة أن كل إنسان هو طباخ أو خياط."

لوسيل "بتعجب": لم أفهم هذا التناقض.

[670] **رجل الكهف:** شرح الأمر ببساطة محررا *دفاتر السجن* بقولها: "إن محور المجادلة لمقالة غرامشي- عن التشكيل للمثقفين بسيطة، إن المفهوم (المثقفين) كفئة إجتماعية متميزة ومستقلة هو خرافة. كل الناس من حيث المبدأ مثقفون بمعنى امتلاكهم واستخدامهم لثقافة ما. لكن ليس الجميع هم مثقفون بمعنى الوظيفة الاجتماعية. المثقفون بمعنى الوظيفة الاجتماعية ينقسمون إلى مجموعتين، بالمرتبة الأولى هناك المثقفون التقليديون المحترفون أدبيا وعلميا وما إلى ذلك... ثانيا هناك المثقفون العضويون، العنصر المفكر المنظم لطبقة إجتماعية أساسية معينة. المثقفون العضويون متمايزون بشكل أقل بواسطة مِهنهم، والتي قد تكون أي عمل مميز في طبقتهم الاجتماعية، منه بواسطة أنشطتهم في توجيه الأفكار والتطلعات لطبقتهم الاجتماعية التي ينتمون إليها عضويا...".

[671] **لوسيل:** إذا بالنسبة له، كل الناس مثقفون لكنهم ينتمون إلى ثلاث فئات، أولها المثقفون المستهلكون للثقافة، وثانيها المثقفون التقليديون وهم المحترفون المهنيون، وثالثها المثقفون العضويون وهم المثقفون الهواة الذين يحملون رسالة ثقافية لأبناء طبقتهم.

[672] **رجل الكهف:** بالضبط. فهو يقول: "... لا يوجد نشاط إنساني والذي كل شكل من المشاركة الثقافية يمكن أن يستثنى منه..." وبالتالي "... هذا يعني أنه بالرغم من أن المرء بإمكانه الحديث عن المثقفين، لكن لا يمكنه الحديث عن غير المثقفين، لأن غير المثقفين لا يوجدون...".

[673] **داني:** هذه ملاحظة حاذقة جدا من قِبل غرامشي. لكن وكأني فهمت من هذا أن لكل طبقة

مثقفيها. فالمثقفون لا يشكلون طبقة إجتماعية واحدة في هذه الحالة!

[674] **رجل الكهف**: بالتأكيد، فبالرغم من كل التصنيفات التي وَضَعَها للمثقفين، بما فيهم المثقف الحضري والآخر الريفي، ومع أنه استعرض الأمر كما هو عليه في كل الثقافات العالمية في عصره، إلا أنه يؤكد على أن: "المثقفون لا يشكلون طبقة مستقلة بل إن كل مجموعة إجتماعية لها جماعة من المثقفين خاصة بها أو هي تعمل على خلقها." وفي الحقيقة، إن الفريد ويبر قد صك مصطلح هو "النخبة المثقفة الغير مرتبطة اجتماعيا". أو كما وصف كارل مانهيم الأمر في *أيديولوجيا ويتوبيا* إن المثقفين يشكلون: "... طبقة لاطبقية نسبيا، والتي هي لا تقع على نحو جازم في التراتبية الاجتماعية...".

[675] **لوسيل** "بتعجب": لكن كيف لهم ألا يشكلوا طبقة متميزة بالرغم مما يجمعهم؟

رجل الكهف: ليس ذلك على نحو دقيق. إنهم فئة من الناس يجمعهم ما يجمعهم، لكنهم يبقون مرتبطين بطبقاتهم الاجتماعية. يشرح كارل مانهيم الأمر بقوله: "... على الرغم من أنهم مفرطون في التباين من أجل أن يتم اعتبارهم كطبقة واحدة، هناك على أي حال، رابط اجتماعي موحدٌ واحِدٌ بين كل طبقات المثقفين، وهو التعليم، والذي يربطهم كلهم سويا بشكل مُحكم. المشاركة في تراث تعليمي مشترك يميل تدريجيا إلى كبح اختلافات المولد، المكانة، المهنة، والثروة وليوحد الأفراد المتعلمين بناء على الأساس التعليمي الذي تلقوه." لكنه يضيف "برأيي الشخصي، لا شيء يمكن أن يكون أكثر خطأ من إساءة تفسير وجهة النظر هذه، والإبقاء على أن صلات الطبقة والمكانة للفرد تختفي تماما بالاستناد إلى هذا. إنها على أي حال، سمة غريبة لهذا الأساس الجديد من الرابطة، إنها تحافظ على التعددية لعناصر المركب بكل اختلافاتهم عن طريق خلق متوسط متجانس داخلها...".

[676] **داني**: هذا لأن الانسان لا يستطيع أن ينسلخ من تجاربه السابقة في الحياة، وبما كسبه من خبرات ومعارف. كما أنه من الممكن ببساطة أن يكون عاملا ضمن فئة معينة من الأعمال، أو أنه لايزال مصنفا ضمن فئة اقتصادية ما في التراتبية الهرمية للمجتمع.

[677] **رجل الكهف**: صحيح تماما. مع الاخذ بعين الاعتبار أن التعليم قد لا يكون التعليم الأكاديمي، ولو أن مانهيم قد قصده كذلك. فالمثقفون الذين صعدوا البرج، هم آتون من طبقات اجتماعية مختلفة، ومع ذلك، توحدهم حُرّيتهم ومعارفهم ورحلتهم الثقافية تلك، وتشاطرهم الرغبة في تحرير الرعايا. هذا ما يمحي الاختلافات بينهم، والتي هي في الواقع لاتزال موجودة كتصنيف اجتماعي. بل أكثر من هذا "... لا يوجد نمط ثابت وعالمي للمثقف، بل يوجد مثقفون..." كما كتب علي شريعتي.

[678] **لوسيل** "بدهشة": هذه ملاحظات مهمة جدا. لكن لماذا لا يوجد نمط عالمي ثابت للمثقف؟

رجل الكهف: لأن كل مثقف هو ابن بيئته، وعليه أن يكون على النمط الذي يُساعد في تحرير الرعايا في غرفته بالدرجة الأولى، ألم نتفق على هذا مسبقا؟ لقد كتب لويس كوزر في *رجال الأفكار*: "المثقفون يُظهرون من خلال أنشطتهم قلقا واضحا لنواة القيم في المجتمع. إنهم الرجال الذين

يسعون إلى تقديم معايير أخلاقية وأن يحافظوا على الرموز العامة ذات المعنى، الذين ينتخبون، يقودون، ويشكلون التنظيمات المعبرة في مجتمع ما..." ويضيف: "... المثقفون هم أشخاص لا يبدون مرتاحين مطلقا للأشياء على النحو التي هي عليه...".

[679] **داني**: إذا لا يختلف التصنيف الطبقي للمثقفين في كل شريحة اجتماعية فحسب، بل هم يختلفون من مجتمع إلى آخر، لأن الهدف من وجودهم بالدرجة الأولى هو تحرير الرعايا خاصتهم، لأنهم أكثر الناس فهما وإدراكا لحالة هذه الغرفة التي ترعرعوا فيها.

[680] **رجل الكهف**: بالضبط. وقبل أن أنسى، عليّ أن أشير إلى أمر آخر بالغ الأهمية، وهو ما كتبه توماس سويل في *المثقفون والمجتمع*: "الفكر هو ليس الحكمة... القوة الدماغية المحضة، الفكر، القدرة على فهم ومعالجة المفاهيم والأفكار المعقدة، يمكن أن توضع في خدمة المفاهيم والأفكار التي تؤدي إلى استنتاجات خاطئة وتصرفات غير حكيمة، في ضوء جميع العوامل المعنية بما في ذلك العوامل التي استُبعدت من بعض النظريات المبتكرة التي شيدها الفكر." ويضيف "إن التأمل، حتى العبقرية، لا يضمن أن عواملا مترابطة منطقية قد تم استبعادها أو إساءة فهمها." هذا لأن "القدرة على فهم واستيعاب الأفكار المعقدة هي كافية لتعريف الفكر، لكنها ليست كافية لتشمل الذكاء، الذي ينطوي على الجمع بين الفكر والمحاكمة... الذكاء ناقص المحاكمة يساوي الفكر. الحكمة هي أندر الخواصِ وجودا من بينهم جميعا. القدرة على الجمع بين الفكر، المعرفة، الخبرة والمحاكمة بطريقة لتتيح فهما متماسكا... الحكمة تتطلب انضباطا ذاتيا وفهما لواقع العالم، بما في ذلك التقييدات لتجارب الإنسان الخاصة وللعقل نفسه. المعاكس للفكر العالي هو البلادة أو البطء. لكن المعاكس للحكمة هو الحماقة. وهي أعلى خطورة بكثير.".

[681] **لوسيل** "بتركيز": هذه فعلا ملاحظة هامّة، وتمثّل الكثير من الشروط التي تحدثنا فيها مسبقا. لكن كيف يمكن للمثقفين تحقيق هذا التأثير في غرفتهم؟

رجل الكهف: يجيبك عاطف أحمد فؤاد بقوله: "أما كيف يترجم المثقف الإيجابي -أو الثوري- إيمانه الفكري بالحرية -تحقيقا للعقلانية والتنوير- إلى سلوك واقعي فيبدأ -فيما أتصور- بما يمكن تسميته بعملية توحيد المثقفين بعضهم مع البعض الآخر، وتنظيم جهودهم، وتكثيف أنشطتهم في تنظيم أو اتحاد، وهو ما يمكن أن يجسد قوتهم. ثم يلي ذلك... عملية توحيد أخرى مع... جماعتي العمال والفلاحين..." فهذا "... يحقق هدفين: الأول: كسر حدة العزلة التي يحياها المثقف... واحساسه بالاغتراب عن الجماعات الأخرى... أو إحساس تلك الجماعات بالاغتراب عن ذلك المثقف، وهي حالة كانت -وأعتقد أنها مازالت- تولّد شعورا بالتفوق لدى جماعة المثقفين، وتخلق إحساسا بالدونية لدى جماعتي الفلاحين والعمال. أما الهدف الثاني... فيتعلق بعملية خلق الوعي الخاص بهاتين الجماعتين، لأن غياب وعيهما كثيرا ما كان يُستغل تدعيما لأوضاع إجتماعية وسياسية واقتصادية لفئات بعينها، ولا شك أن خلق هذا الوعي وبلورته من العسير أن يتحقق بمعزل عن إسهام المثقفين..." هل فهمتما الآن لِمَ شددت

على أن على المثقف أن يستطيع التكلّم مع الرعايا بلغتهم، وذلك عن طريق ممارسته وإلمامه بمعارفهم ومهنهم وحِرفهم؟

داني "بتركيز": نعم، بدأت الأمور تتضح أكثر فأكثر. إذا من غير المقبول من المثقف أن يبقى منعزلا على البرج.

[682] **رجل الكهف**: يجيبك ليكلرك بقوله: "لا وجود لمثقف معزول. أن تكون مثقفا يعني الانتماء بوعي وبطريقة من الطرق إلى حياة الأقران الجماعية: يعني قراءة الجرائد، الوقوف على وقائع النقاشات، وإسماع الصوت في أوساط المثقفين الصغير... إن المثقف بالمعنى القوي للكلمة، هو الذي يتواجد اجتماعيا وثقافيا وسياسيا في هذا المكان، فإن لم يكن من ساكنيه، فهو ممن يرتاده وظيفيا على الأقل." ويضيف: "تشكّل أهمية التواصل بين الزملاء والشهرة والإشهار ودور القول العام -كشكل من أشكال التزام المثقف- وإدارة المبادرة، وزنا جماعيا، حتى لو كانت فردية في بادئ الأمر، كل هذه ظواهر تفيد أن المثقف هو شخصية انفرادية بعمق، كما أنه وفي الوقت نفسه شخصية منغمسة في المجموعة من أقرانه." بل إن "... المثقف هو من يستند في ممارسته لوظيفته الفكرية إلى قاعدة اجتماعية، ومن يشارك في نشاطات شبكات المثقفين السائدة...".

لوسيل: إذا لا بد للمثقف أن يعمل، وأن ينشط بشكل علني في مهمته تلك.

[683] **رجل الكهف**: بالتأكيد. قال ايدوارد سعيد: "... أنا... أريد أن أؤكد على أن المثقف هو فردٌ بمهمةٍ عامةٍ محددةٍ في المجتمع، لا يُمكن أن تخفف ببساطة إلى أن يكون مجرد مهني مجهول الهوية..." ولقد حمّل هذه المسؤولية علي شريعتي بكاملها على عاتق المثقف بقوله: "... لو ذهبت إلى السوق ورأيت أنهم لم يعرفوني، فأنا المحكوم، لا السوقي. هو لم يحمل رسالة، أنا أحمل رسالة، أنا المسؤول، هو لم يكن مسؤولا." وأضاف: "فلو عرفوا في سوق طهران الشيخ الفلاني والنائح الفلاني ولم يعرفوا السيد المثقف، فمن المسؤول؟ المسؤول هو هذا الذي لا ينزل من أعلى (أوتيل بالاس)، هو المحكوم. ذهبت إلى هناك لتعمل ماذا؟".

داني: إذن في هذه الحالة نجد أن الغالبية قد أجمعوا على أن المثقف هو حامل لرسالة.

[684] **رجل الكهف**: بالتأكيد. أن تكون مثقفا هي أن تكون مسؤولا. ومسؤولا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. إن المثقف في هذه الحالة لهو أبعد ما يكون عن المثقف الذي يقرأ الروايات. ها أنا أقولها: إن كونك مثقفا هي مسؤولية، وقلّ من يستطيع حملها بأمانة.

[685] **داني** "مستفسرا": هل لك إذا أن تعطنا أمثلة على المثقفين؟

رجل الكهف: ومن أنا حتى أعطي الآخرين شهادات تقدير لا أجرؤ أنا على إعطائها حتى لنفسي؟ لكن يمكننا أن نوصّف أنواع المثقفين باختصار من واقع ما عرضناه حتى الآن.

لوسيل: دعنا نقم بهذا.

[686] **رجل الكهف:** بداية لقد انتهينا من مشكلة ربط المثقف بالتعليم الأكاديمي. فهناك أشخاص ذوو تدرجات مختلفة من مستويات التحصيل الأكاديمي بدءا من حملة الاجازات المدرسية، وصولا إلى ذوي التعليم العالي.

لوسيل: صحيح.

[687] **رجل الكهف:** كما أننا انتهينا من ربط المثقف بمهنته، فهناك مهنيون وهم من يقومون بأعمال تتطلب مهارات ذهنية أكثر منها جسدية، والحرفيون وهم من يقومون بأعمال تتطلب مهارات بدنية أكثر منها ذهنية.

لوسيل: صحيح.

[688] **رجل الكهف:** إذن فلننظر للمثقفين، من حيث كونهم مثقفين. فلدينا المثقف العادي، وهو من درس أي دراسة أكاديمية. ونحن إذ نقول بهذا فإنما لنفرّقه عمّن لم يفعل ذلك. والذي سندعوه مثقف مستهلك، بما أن غرامشي قد أقنعنا بأنه لا يوجد أشخاص يمكن أن نسميهم بغير مثقفين.

داني "مبتسما": جميل.

[689] **رجل الكهف:** ولدينا أنصاف المثقفين، وهؤلاء الذين يقرأون ليهربوا من واقعهم، وعلى الأغلب تتركز قراءاتهم على الأعمال الأدبية. لكنهم فيما يتعلق بالواقع، هم لا يرون أبعد من أنوفهم.

لوسيل: وما أكثرهم.

[690] **رجل الكهف:** ولدينا أشباه المثقفين، وهم أولئك الذين يستخدمون القراءة السريعة غالبا، والثقافة الاستهلاكية، لينظرّوا على الناس بما يعرفون من معارف، فيحسبهم الجاهل عارفين، بينما هم مجرد ممثلين لديهم كاريزما مقنعة.

داني: وما أكثر هؤلاء أيضا.

[691] **رجل الكهف:** ولدينا المثقف التقليدي، وهو ذلك الذي يقرأ الكتب ولديه أفكار متنوعة عن أمور ثقافية مختلفة، لكنه يقوم بذلك للمتعة فحسب، دون ان يناقش الأفكار التي يطلع عليها أو حتى أن يتفكر بها.

داني "يهز رأسه موافقا": جيد.

[692] **رجل الكهف:** ولدينا المثقف النقدي، وهو ذلك الذي قرأ في مجالات مختلفة وأعمل عقله وقام بتطوير قسمي المعالجة والذاكرة، وأصبح قادرا على فهم أمور ثقافية كثيرة مما يخفى على من سبقه، لكنه غير مهتم بنشر أو بتوعية الآخرين، أو بمواجهة السلطة.

لوسيل: جيد جدا.

[693] **رجل الكهف:** ولدينا المثقف المبدع، وهو الذي لم يكتف كالمثقف النقدي بالفهم، لكنه بدأ يُبدع

أفكارا جديدة، أو يصوغ مفاهيم جديدة بناء على ما تعلَّمه في رحلته الثقافية.

لوسيل "مفكرة": مِثل هذا المثقف هو ما يضيف شيئا لمجتمعه أو للحضارة الإنسانية.

[694] **رجل الكهف:** صحيح. ولدينا المثقف المرتزق، وهو ذلك الذي يتعيّش من ممارسته لنشاطه الثقافي مدعوما بأحد عناصر ثالوث القمع. هو دائما يهدف إلى الحصول على المال من نشاطه الثقافي، لذا فهو عبدٌ لمن يدفع له.

داني "مقطبا حاجبيه": وهذا هو أكثر ما نريد الابتعاد عنه.

[695] **رجل الكهف:** بالتأكيد. لذا فإن لدينا على النقيض منه، المثقف الثوري، وهو ذلك المثقف المبدع الذي يهدف إلى إحداث تغيير في المجتمع من شأنه تحرير الرعايا والقضاء على سلطة الثالوث.

داني "مبتسما": وهذا هو المثقف الذي نطمح له.

[696] **رجل الكهف:** بكل تأكيد. فبعد أن تكون قد انكفأت على نفسك عدة سنوات تتعلم فيها، بشكل حر تماما عن طريق طرح الأسئلة والبحث عن إجاباتها بالطريقة التي تحدثنا فيها مسبقا، فإن عليك واجبا أخلاقيا في أن تظهر للعلن بطريقة أو بأخرى لتعمل على تنوير طريق العامة، وأن تكون سيفا يدافع عنهم في وجه ثالوث القمع. وعندما تصل هذه المرحلة، عليك أن تكون مستعدا للموت في سبيل نشر رسالتك، لا أن تبيعها بكل صفاقة.

[697] **لوسيل** "مفكرة": إذا هل لك أن تضع لنا تعريفا للمثقف المثالي؟

رجل الكهف: يمكنني القول: هو شخص قد حرر نفسه من سلطة ثالوث القمع على الصعيدين المادي والفكري. واتخذ من طرحه للأسئلة في مختلف المجالات الثقافية، وبمختلف المستويات العميقة والشمولية وبحثه عن إجابات لها هواية يمارسها بشكل دائم مدى حياته، ولا يقبل بأي مداهنات أو إجابات جزئية أو ضبابية، كما لا يقبل أن يتم شراؤه أو توجيهه، بل هو يتبع الأدلة أينما أخذته بتواضع تام، وحيادية عن غرائزه وأهوائه. يجب أن يكون شغله الشاغل إنارة الطريق للرعايا، وأن تكون رسالته تلك أثمن ما يملك، وبالتالي فهو مستعد للوقوف بوجه ثالوث القمع بكل صلابة إن دعت الضرورة، ولو اضطر أن يتحمل التعذيب والقتل من أجل رسالته تلك.

[698] **داني:** إنه تعريف دقيق لكنه طويل، هل لك أن تختصره؟

رجل الكهف: بما أني مقتنع تمام الاقتناع أن كينونة المثقف تكمن في رسالته، فيمكنني أن أعرّف المثقف ببساطة على أنه: شخص فهم لعبة الثواليث، وقصة الثقافة الإنسانية، حرر نفسه وبدأ بتوعية الرعايا.

[699] **لوسيل:** إذا هذا تعريف المثقف، وذاك تعريف المثقف المثالي. لكنه في كلتا الحالتين مُلزم بتوعية الرعايا.

رجل الكهف: بالضبط. وبالتالي، أن تكون مغنيا فتلك مهنة، لكن أن تنشر أفكارا تنويرية وثورية في أغانيك، فيمكن اعتبارك مثقفا. أن تكون ممثلا فتلك مهنة، لكن أن تقوم بنقد السلطات وتوعية الرعايا من خلال إضحاكهم مثلا، وألا تكتفي بالنكات الساخرة أو التمثيل غير الهادف، فيمكن اعتبارك مثقفا. إذا كنت كاتبا فتلك مهنة، لكن إذا كنت كاتبا تتجاوز الخطوط الحمراء بما ينوّر عقول القراء فيمكن اعتبارك مثقفا. إن كنت عالما فتلك مهنة، لكن إن كنت تنشر العلم بين الرعايا لتوعيتهم، وتحاول توحيدهم وتبيان كيف أن الثواليث يقومون بتفرقتهم فيمكن اعتبارك مثقفا. إذا كنت رائد فضاء فتلك مهنة، لكنك لو كنت تظهر على الناس وتحاول أن توصل لهم رسالة مفادها أنك ترى الأرض من الفضاء كلها كقرية واحدة، لا وجود للحدود السياسية والاختلافات الاثنية الا في عقول من وضعوها، وأن البشر كلهم إخوة يقطنون مكانا واحدا مهما بدا لهم متسعا، فيمكن اعتبارك مثقفا. وإن كانت مهنتك لا تُمكنك من نشر التنوير، فعليك ان تكتب، وتنشر، أو تقيم الندوات والمحاضرات، أو تصوّر فيديوهات أو أن تمارس أي نشاط تنويري، بالتنسيق مع المثقفين في مجتمعك. لكنّي أؤكد على ان هذا لا يجوز إلا بعد أن يكون المثقف قد بلغ مرتبة عالية على البرج، ولديه ما يقوله مما تعلّمه ووعاه وفهمه بل وربما طوّره وابتدعه، لا أن يكون ذلك المثقف الذي قرأ كتابين ثم بدأ ينشر الأفكار هنا وهناك كالببغاء ليجعل من نفسه أضحوكة.

[700] **لوسيل**: صدقت، وما أكثرهم، مروجو ومستهلكو الثقافة الاستهلاكية.

رجل الكهف: الثقافة الاستهلاكية الدارجة، هي امتداد لمثقف القهوة في السابق الذي يقرأ الجريدة ويتكلم في الاجتماعات المسائية مع الأصحاب. هؤلاء المثقفون لا يُحدثون إلا الضجيج.

[701] **داني** "مبتسما": لم لا نجلس في الخارج ونتابع حديثنا هناك؟

رجل الكهف: هيا بنا.

****

الباب العاشر
في عزلة المثقف

(ثلاثتهم جالسون في الخارج يستمتعون بدفء الشمس ويستمعون إلى أغنية Black And Blue للويس آرمسترونغ)

[702] **لوسيل**: يا لها من وحدة قاتلة تلك التي يصفها آرمسترونغ. كيف لإنسان أن يستطيع تحمل العيش هكذا!

رجل الكهف: هذه الأغنية كتبها كل من آندي رازاف وهاري بروكس عام 1929 لتصف معاناة الأمريكيين من أصل إفريقي في تلك الحقبة. غناها كثيرون منهم آرمسترونغ الذي طوّرها لاحقا، كما أعطاها زخما خاصا بصوته المميز. لكن هذه الأغنية في نظري توصّف معاناة أشخاص آخرين أيضا لو تم تعديل كلمة واحدة فيها.

[703] **لوسيل** "بتعجب": ماذا تقصد؟

رجل الكهف: لو تم استبدال كلمة "بشرتي" بكلمة "ثقافتي" في قوله: "إن خطيئتي الوحيدة هي في بشرتي" لأصبحت الأغنية بكاملها توصّف عزلة المثقف.

داني "بذهول": ماذا تقول!

[704] **رجل الكهف**: هل نسيتما قصة البرج؟ هل نسيتما كيف يعامل كل من العامة والثواليث المثقفين؟ هل نسيتما أن المثقف عليه أن يقف في وجه المجتمع كله وفي وجه السلطة ليقوم بإيقاظ الناس؟ هل تعتقدان أن ذلك طريق مفروش بالزهور؟

داني: بالطبع كلا، لكني لم أتخيل أن تكون العزلة بهذه الحِدة.

[705] **رجل الكهف**: إن هذه العزلة هي دليل على أنك تسير في الإتجاه الصحيح، وهي شرط لازم غير كافي، إنها الجانب المظلم من حياة المثقف. لو لم تصل للشعور بهذه العزلة، فهذا يعني أنك لم تبرح مكانك بين الرعايا بعد. يعبّر إيدوارد سعيد عما أسميه أنا بعزلة المثقف، بتعبير المنفى، في كتابه *تمثيلات المثقف* وهو يقصد بهذا المنفى نوعين، المنفى الفعلي، حيث يُجبر المثقف أحيانا على عدم المكوث في غرفته التي ترعرع فيها، أو المنفى المجازي، وهو بالضبط ما أقصده أنا بعزلة المثقف، والذي يصفه بقوله: "المنفى هو واحد من أسوأ الأقدار... الحالة من عدم كونك متأقلما بشكل كامل على الإطلاق، دائما تشعر أنك لا تنتمي لأحاديث العامة البسيطة والعالم المألوف الذي يقيم في السكان الأصليون. لذا يمكن القول، تميل إلى تجنّب، بل وحتى النفور من زخارف مكان إقامتك، والسعادة الوطنية. المنفى بالنسبة للمثقف في معناه المجازي هو الأرق، الحركة، دوام عدم الاستقرار، والتسبب في عدم استقرار الآخرين. لا يمكنك العودة إلى وضعٍ سابق، وربما أكثر استقراراً، وهو شعورك أنك

في بيتك. ويا حسرتاه، لن تبلغ بشكل تام مطلقا، شعور كونك في بيتك الجديد أو حالك الجديد.".

لوسيل: صحيح هذا التوصيف، المثقف لن يستطيع أن يقضي حياته بتلك الرتابة القاتلة الساذجة كما يحياها الرعايا، ما يشغل تفكيره أعمق وأبعد بكثير مما يشغل تفكيرهم.

[706] **رجل الكهف:** أعتقد أن أفضل توصيف لهذه الحالة هي ما قاله تيودور أدورنو، الذي جرب المنفى بمعنييه المجازي والفعلي، حيث كتب في منفاه كتابه *في الحدود الدنيا للأخلاق* يقول فيه: "... إن وجهة نظرنا حول الحياة قد تحولت إلى إيديولوجية تُخفي حقيقة أنه لم يعد هناك حياة بعد ذلك... الإقامة بالمعنى الصحيح أصبحت مستحيلة الآن. أماكن الإقامة التقليدية التي ترعرعنا فيها قد أصبحت لا تطاق. كُلُّ سِمة من سمات الراحة فيها يُدفع ثمنها بخيانة للمعرفة لما فيه مصلحة الأسرة. إن المساكن الفعالة الحديثة اليوم مصممة على ألواح صخرية فارغة ومصممة من قبل أخصائيين من أجل غير المثقفين... إن حالة عدم النوم جاهزة للتفعيل في أي وقت، لا يتردد في أن يكون جاهزا لأي شيء، متيقظ وغير واعٍ في الوقت عينه..." لذا يخلص إلى أن "... المنازل من الماضي... في الحقيقة، أفضل طريقة للسلوك في ضوء كل هذا، لا تزال كما يبدو لي عدم الالتزام... إنه جزء من الفضيلة ألا تشعر أنك في المنزل وأنت في المنزل... حياة خاطئة لا يمكن أن تُعاش بطريقة صحيحة.".

داني "مكررا": "... كُلُّ سِمة من سمات الراحة فيها يُدفع ثمنها بخيانة للمعرفة... إنه جزء من الفضيلة ألا تشعر أنك في المنزل وأنت في المنزل... حياة خاطئة لا يمكن أن تُعاش بطريقة صحيحة." هذا عميق المعنى فعلا.

[707] **رجل الكهف:** بالتأكيد هو كذلك. لا يجب ان يشتري الإنسان راحة باله بخيانة ضميره، ما هكذا يكون المثقف الحر، هكذا يكون المثقف المرتزق.

لوسيل "مؤيدة": صدقت.

[708] **رجل الكهف:** ومع ذلك، فأياماكن تصنيف المثقف، فهو بالضرورة سيشعر بنوع من الاغتراب، أو افتقاد الهوية كما عبّر عاطف أحمد فؤاد في تقديمه لكتاب *المثقفون والسياسة* بقوله إن المثقفين "... قد جمعهم شعور واحد هو الإحساس بالاضطهاد وبأزمة افتقاد الهوية، وإن كان المثقف المرتزق -وهو أكثرهم افتقادا لهويته- أقل هؤلاء إحساسا بفقدان الهوية.".

[709] **داني** "مستغربا": مهلا، لم المثقف المرتزق هو أكثرهم افتقادا لهويته لكنه بنفس الوقت أقلهم شعورا بذلك؟

رجل الكهف: المثقف الحر، لا يشعر بالانتماء للغرفة على الإطلاق، لا يستطيع الانتماء إلى الرعايا ولا إلى الثالوث. لكنه صاحب قضية وثقافة. قضيته التي يملكها وثقافته تلك هي ما يصبح هويته. وسواء كان الأمر كما عَنوَن جينس ليونغرين كتابه *لا وطن للمثقفين*، أو كان "... لا يوجد نمط ثابت وعالمي للمثقف، بل يوجد مثقفون..." كما كتب علي شريعتي. فإن رسالة المثقف الحر وقضيته تبقيان

هويته. دفاعه عن المبادئ السليمة التي تحمي حقوق الناس وحيواتهم، دفاعه عن المظلومين والمستضعفين، توحيد صفوف الرعايا من الغرف المختلفة، ونبذ التفرقة والعنصرية والطائفية هي هويته الثابتة، بل هي الهوية الثابتة التي تجمع كل المثقفين الأحرار في العالم ضمن مجموعة واحدة. فصحيح أنه أشد من يشعر بافتقاد الهوية والوحدة والنفي، إلا أنه يحمل رسالة وينتمي إلى مجموعة موحدة الأهداف.

[710] **لوسيل**: وماذا عن المثقف المرتزق إذا؟

رجل الكهف: إنه سيشعر بافتقاد الهوية كغيره من المثقفين لأنه قد انفصل عن الرعايا الذين ترعرع بينهم، لكنه لن يشعر بذلك الفقد كالمثقف الحر لأنه يلتجأ إلى السلطة، فهو والسلطة في صف واحد، لذا لن يشعر بالاغتراب الشديد. لكنه أكثر المثقفين افتقادا لهويته لأنه ليس صاحب رسالة، رسالته هي جيبه فهو كمن وصفهم عاطف أحمد فؤاد "... الذين يأكلون على كل الموائد ويصبحون بمثابة أبواق لكل الحكام وأصوات لمن يشتري، يبررون سلوك السلطة -أي سلطة- ويجدون الحجج لكل تصرفاتها، ويضفون على كل من هذا وذاك نوعا من الشرعية الزائفة" لذا فهو في الواقع لا ينتمي لأي فئة، ولا لأي مجموعة، فهو اليوم مع هذا وغدا مع ذاك، غير قادر على تكوين صداقات حقيقية بعيدة عن المصلحة، لأنه تاجر، فاليوم هو صديق لمن يُضطر لمجاملتهم من أجل رزقه، وغدا هو عدو لهم لأن أعدائهم قد دفعوا له أكثر، أو لأنهم قد فقدوا السلطة وتسلّمها غيرهم. لا يستطيع حتى تكوين علاقات صداقة مع أحد، لأن جيبه هو الأهم في حياته، لا العلاقات الإنسانية. لا يقيم إي اعتبارات لأي شيء سوى المال. شخص كهذا، هو أكثر الناس وحدة وافتقادا للهوية.

داني "مفكرا": توصيفك صحيح، وما أكثر أمثال هذا الانسان، لكني لم أكن أتخيل أنه مفتقد للهوية ووحيد.

[711] **رجل الكهف**: هذا لأنك تُخدع بالمظاهر التي تشاهدها على التلفاز. دعك من الشاشات وانظر وراء الكواليس، ليس وراء كواليس التصوير، عليك أن تنظر وراء كواليس تلك الابتسامة الجذابة وربطة العنق الأنيقة. هل هناك سلام داخلي يا تُرى؟

لوسيل "مفكرة": صدقت.

[712] **رجل الكهف**: وإن عزلة المثقف هي أكثر ما يُصعّب عليه مهمته وتبليغ رسالته، بل إن عليه أن يكون متقبلا بصدر رحب لتلك الحقيقة التي تقول إن عمله غالبا لن يتم تقديره إلا بعد موته، كما وصف الأمر جيرار ليكلرك في *سوسيولوجيا المثقفين*: "... إن المثقف المعزول، فكريا واجتماعيا وتاريخيا هو من يرى عمله وقد عاش بعده لكن بوصفه خرابا باقيا، أو كما لوكان بناء معزولا..." هذا لأن معظم المثقفين في التاريخ، باستثناء قلة محظوظة منهم "... صارت أعمالهم تحفا تقدرها الآن الإنسانية جمعاء، أما في ثقافتهم الأصلية فقد افتقدوا طلابا يأخذون بها ويطيلون أعمارها، إلى حد أصبحوا معه أحيانا (طي النسيان) ولقرون طويلة.".

[713] **داني** "مفكرا": إذن على المثقف أن يعمل للأجيال اللاحقة فقط وليس لأبناء جيله.

رجل الكهف: قطعا كلا. أنت ملزم بالرعايا الذين يحيون اليوم لعدة أسباب. فأنت أولا لن تضمن أن يبقى أي شيء من آثارك بعد وفاتك أو أن يتم نشره حتى. وبالتالي قد تُمضي كل حياتك تمارسا نشاطا لا طائل منه. حريق صغير أو طوفان لمياه المجاري قد يُذهب كل جهود حياتك أدراج الرياح. لقد خسر نيتشة كتاب *إرادة القوة* في الماء، والكتاب المتداول الذي يحمل هذا الاسم هو كتاب ملفق بالكامل من شذرات متفرقة لنيتشة. سبينوزا كانت مفروشاته تُباع بعد وفاته لتغطية تكاليف الدفن، عندما تبرّع مجهول بنشر أعماله، ومنها عمله الذي غيّر وجه التاريخ *علم الأخلاق*. ولولا ذلك المجهول لربما كان مصير المخطوطات في موقد أحدهم، يُسخن عليها الماء ليستحم.

داني "ضاحكا": كان ليكون استحماما بالحكمة ممزوجة بالماء.

[714] **رجل الكهف:** من وجهة نظر مادية، بالتأكيد. لكن كل تلك الحكمة كانت لتجد طريقها إلى البالوعة لا إلى عقله.

لوسيل "ضاحكة": صدقت.

[715] **رجل الكهف:** وهذه حالة ليست بالنادرة في التاريخ، بل هناك حالات غريبة جدا. وهنا يمكنكِ التفكير كم مثقفا ومفكرا وباحثا قد رحل عن الحياة ولم يُنشر أي من آثاره التي كان من الممكن ان تغير مسيرة حياة البشرية لو نشرت. إنها مغامرة كبيرة.

لوسيل "بابتسامة": صحيح.

[716] **رجل الكهف:** ثانيا، لمن ستترك الرعايا الحاليين؟ هل يُعقل أن تكون بلا ضمير لدرجة أن تسمح لنفسك أن تمتنع عن الكلام وأنت ترى الناس يُعانون؟ ألا تعرف أنك ربما بنشاطك هذا ستحمي البعض من أن يتطوع في الجيش ليدافع عن الثالوث، وعن حدود غرفته الوهمية، أو ليغزو غرفة أخرى. أو إنك ستحمي أحدهم من أن يصبح متطرفا إرهابيا؟ وفي كلا هذين المثالين فأنت تساهم في حماية حيوات أناس. عملك هذا سيحمي أطفالا من أن يتيتموا، وسيحمي أمهات من أن يصبحن ثكالى، وسيحمي عائلات من أن تتفكك. إنها مهمة حقيقة لا تحتمل التأجيل، وخاصة في عصر كالعصر الذي نعيش فيه اليوم. كل سنة تتأخر فيها قد يموت أشخاص كان من الممكن أن يُحافظ على حيواتهم بسببك. نشاطك سيغير حيوات الناس وسيقول أحدهم آه لو كنت أعلم هذا مسبقا، لك أن تتخيل ما كان يمكن أن يتغير في حياته وحياة غيره لو لم تتأخر عنه.

داني "سارحا بفكره": صحيح، إنها مسؤولية عظيمة.

[717] **رجل الكهف:** كتب جيرار ليكلرك في *سوسيولوجيا المثقفين*: "... إن نيتشة... قد استسلم دون كلل للعزلة وللألم الجسدي... فهو لم يعش إلا من أجل كتابة أعمال لم يصل إلى أيدي القراء في حياته إلا العدد القليل منها. من هنا نجد مفارقة تقلل من الاندفاع في الحديث عن نيتشة بوصفه مثقفا (أو

ملتزما بكل الأحوال)، حتى ولو صار لاحقا كاتبا كبيرا، ومؤلفا كبيرا، وأحد أعلام الحداثة..." لأن الهدف من كونك مثقفا، كما اكتشفنا من تعريف المثقف، هو مساعدة الرعايا، قبل أن تفكر في مراسلة أبناء المستقبل كما كان يفعل نيتشة الذي كتب "لكن مالي والألمان؟ إنني أكتب، وأحيا من أجل قلة من الناس...". ويخبرنا لمن يكتب كتاباته في *إنسان مفرط في إنسانيته* بقوله: "هكذا، عندما كنت أنا في حاجةٍ اخترعت لنفسي (الأرواح الحرة)... الأرواح الحرة من هذا النوع لا توجد. لكن... كان لدي الحاجة لهم في ذلك الوقت، إذ كان عليّ الحفاظ على معنوياتي العالية بينما أنا محاط بالبلايا (المرض، العزلة، الأماكن الغير مألوفة، الملل، وانعدام النشاط). كالرفقاء الشجعان الذين يستطيع الانسان الضحك والحديث معهم عندما يشعر أنه بمزاج للضحك وللحديث. والذين يمكن للمرء إرسالهم إلى الشيطان عندما يصبحون مُملين. كتعويض عن الأصدقاء الذين أفتقر لهم. تلك الأرواح الحرة من هذا النوع قد توجد يوما...". وكتب في مقدمة كتابه *المسيح الدجال*: "هذا الكتاب يعود للأكثر ندرة من الناس، ربما ولا أحد منهم قد ولد بعد... أولا يوم بعد الغد يجب أن يأتي لي. بعض الناس يولدون بعد موتهم." والتي يشرحها المترجمون عادة بقولهم، كما كتب علي مصباح مثلا في ترجمته التي حملت عنوان *نقيض المسيح*: "... بعد غد فقط هو زمني. فمن الناس من لا يولد إلا بعد المات." وترجمها جورج ديب في ترجمته التي حملت عنوان *عدو المسيح*: "... الغد وحده هو الذي يخصني فقط، وبعض المولودين فيما بعد.".

[718] **لوسيل**: إذن نيتشة كان يكتب لنخبة محدودة من أبناء المستقبل، ولا علاقة له ببني وطنه ولا ببني زمانه. لكن ماذا بالنسبة للبقية؟

رجل الكهف: لقد سأل نيتشة هذا السؤال وأجاب عليه في نفس المقدمة المذكورة بقوله: "... ماذا بشأن البقية؟ -البقية هي مجرد إنسانية- الشخص يجب أن يجعل من نفسه متعاليا على الإنسانية، بالقوة، بسمو النفس،- بالاحتقار.".

لوسيل "بصدمة": ما هكذا يكون المثقف. الاحتقار للرعايا بدل مساعدتهم!

[719] **رجل الكهف**: سعيد أنك بدأت تفهمين الفكرة. أن تكون فيلسوفا هو أمر، وأن تكون مثقفا هو أمر آخر. ألم نتعلم هذا من قصة دريفوس؟

داني "مفكرا": الفكرة تتضح شيئا فشيئا.

[720] **رجل الكهف**: عودة إلى موضوعنا. وصلنا إلى السبب الثالث في عدم إمكانية الكتابة فقط من أجل أجيال المستقبل. هذا لأنك أنت ابن بيئتك، ابن زمانك. من يعرف مالذي سيحصل في المستقبل؟ في عالم تتسارع فيه التطورات التكنولوجية، والسياسية، والاكتشافات العلمية، فمن الممكن جدا أن تصبح كتاباتك، التي تريد حفظها للأجيال القادمة، بلا معنى تماما، أو ذات فائدة محدودة جدا بعد بضعة عقود من كتابتها، وأنت لاتزال على قيد الحياة، بينما إنها كانت لتكون ذات فائدة قصوى لو نشرت وقت كتابتها، فما بالك بتأجيل نشرها لأبناء المستقبل؟ إن الكتب الهامة التي حفظها التاريخ لم

تصبح كلاسيكية لأنها قديمة فحسب، بل لأنها كانت ذات فائدة قصوى وقت نشرها، لذا فقد خلدها التاريخ. أنت لا تكتب عملا لأنك تريده أن يصبح كلاسيكيا، بل لأنه كان عملا مؤثرا في زمانه فقد يصبح كلاسيكيا. أنت لا تعمل لتصبح شخصية تاريخية لها قيمة، بل لأنك عملت عملا مؤثرا فقد تصبح علما تاريخيا. "إن الكتب التي تنتقل من عصر إلى آخر هي ثمرات الأموات. لقد كان لها في زمن آخر طعم آخر، حي ولاذع..." هكذا كتب جان بول سارتر في مقال له بعنوان *الكتابة من أجل العصر*.

داني: صدقت، هذا حقيقي.

[721] **رجل الكهف**: لهذا كتب جيرار ليكلرك: "إن المثقف يعتبر أن الالتزام هنا والآن بالحدث تفوق أهمية مستقبل أثره بعد وفاته. إنه إنسان يقدّم الفعل والتأثير الاستراتيجي على الحدث وعلى معاصريه، أكثر مما يقدم المسيرة المحتملة والمجهولة منه بالضرورة لعمله وسط جماهير المستقبل. يدور مصير المثقف... ويقاس بالتأثير الذي يمكن له أن يتركه في زمنه، الذي يعتبره (المطلق الحي، الوجه الجدلي الآخر للتاريخ). يهدف المثقف، حتى من خلال كتاباته بالذات إلى التأثير في العالم، الذي هو عالمه، بوصفه فاعلا حيا، وليس من خلال التأثير الافتراضي الذي يمكن له أن يأمله بعد وفاته، بفعل ما يمكن لعمله أن يترك من أثر، وما يجعل منه (كلاسيكيا) محتملا، أو (خالدا)".

[722] **داني**: لم أفهم شيئا. أنت أقنعتني من قبل، كما أقنعتني الآن، أن على المثقف أن يعمل من أجل الرعايا في غرفته بالدرجة الأولى، والرعايا في العالم بالدرجة الثانية، في فترة حياته. تلك مسؤوليته ورسالته وواجبه الأخلاقي. لكنك في نفس الوقت قلت إنه من الممكن ألا يرى أثرا لهذا النشاط إلا بعد وفاته، لكنه في نفس الوقت لا يجب عليه ان يعمل من أجل الأجيال اللاحقة قدر اهتمامه بالأجيال الحالية. لم أفهم هذه المفارقة.

[723] **رجل الكهف**: سؤالك هذا يحيلني إلى النقطة الرابعة، وهي أن "... أولئك الذين يتصورون أنه يمكن في الحضارة والثقافة قطع طريق مائة سنة في ليلة واحدة، إما انهم لا يفهمون، وإما أنهم يريدون ألا يفهم الآخرون." كما كتب علي شريعتي. الأمر ليس تغيير حذاء، إنه تغيير منظومات فكرية. لا يمكنك تغيير الثقافة في طرفة عين، إلا بالقوة، كما حصل في أماكن متفرقة عبر التاريخ، وهذه لا تسمى تحريرا للرعايا بل إعادة استعبادهم كما أثبت التاريخ، وكما أتمنى أني استطعت اقناعك مسبقا. أنت تواجه ثواليث القمع، بكل قوتهم، وأموالهم، ووسائل إعلامهم، ومرتزقتهم، وعليك ان تُفهم الرعايا أنهم مبرمجون، ثم عليك ان تنتظر حتى يكسروا الأقفال عن أدمغتهم، ويُبطلوا البرمجة القديمة، ويتثقفوا، وفي هذا الوقت ثواليث القمع تعمل وتبث سمومها بكل طاقتها ومواردها. لذا فإن عملية التنوير هي عملية تراكمية بطيئة، فأنت عمليا تعمل من أجل الأجيال القادمة عن طريق عملك في تنوير الأجيال الحالية، الذين هم من سينجب الأجيال القادمة. ودعني أفرض جدلا أن عملك سيبقى استثنائيا وذا فائدة قصوى لكنك لم تنشره، وبقي قرنا من الزمن منسيا، وبعدها تم نشره وتنور الناس وتغيرت

حيواتهم بسببه، عندها ستحتاج عدة أجيال مرورا بالخطوات السابقة حتى يبدأ الأثر بالظهور. هل لك أن تتخيل كمية البؤس الذي تسببت فيه بتأخيرك لنشر عملك، لأنك، كما تقول، لن ترى نتيجته في حياتك على أي حال؟

داني "مبتسما": نعم، لقد فهمتك تماما الآن. علينا العمل على الحاضر حتى يحصل الأثر في المستقبل.

[724] **رجل الكهف:** بالضبط. "الموضوع هو أن علينا أن نضحي أكثر ونتوقع أقل، بعكس ما هو موجود اليوم حيث يتوقع المثقف الكثير في حين لا يضحي إلا بالقليل. أنا أفضل أن يعمل جيلان أو ثلاثة أجيال ويصلوا بعد ذلك إلى النتيجة. وأما إذا وصلنا خلال عشر سنوات إلى نتيجة، فإننا سنعود مرة ثانية مئة سنة إلى الوراء." هكذا كتب علي شريعتي، وأراه مصيبا تماما. لأن التغيير الثقافي لا يمكن أن يكون إلا تراكميا، حتى يُبنى على أساس صلب، لكن معظم الناس يفشلون في التنوير لأنهم يعتقدون أنهم في اللحظة التي يكتبون فيها مقالا، أو ينشرون منشورا، أو يلقون محاضرة، أو يؤلفون كتابا فإن العالم سيتغير فورا بسبب جهدهم هذا. وهذا غير واقعي. إن الدور المحوري، للمثقفين، فريد من نوعه، وهو أصعب المهام التي يمكن أن تناط بإنسان. لكن ما من طريق آخر لمساعدة البشرية في عدم خسارة الكثير كمجتمع بشري، إلا بأن تكون هناك خسارة كبيرة في صف هؤلاء المُخَلِّصين.

[725] **لوسيل:** إذن ما هذه الحياة البائسة التي سيعيشها المثقف، مُحارَبا من قبل الجميع، وحيدا، يكافح كل حياته، ولا ير نتيجة جهده ذاك؟

رجل الكهف: صحيح أن المثقف الحر سيكون محروما من أي امتيازات في المجتمع، أو من قبل السلطات لكنك تنسين أنه قد اشترى بذلك حريته. لا يوجد شيء في هذه الحياة دون ثمن. والحرية هي أغلى ما يمكن أن يحصل عليه الإنسان، لذا فإن الثمن الذي سيدفعه من أجلها هو أغلى ثمن يمكن أن يُدفع للحصول على أي شيء. ومع ذلك، فإن لعزلة المثقف فوائد لا توجد في أي حالة أخرى، يقول في ذلك ايدوارد سعيد: "... النفي معناه أنك ستظل دائما مُهمشا، وأن ذلك الذي تقوم به كمثقف يجب أن يتم ابتداعه من قبلك، لأنه لا يمكنك إتباع طريق منصوص عليه. إذا كان بإمكانك أن تعيش مع ذلك القدر ليس كنقيصة وكشيء يُندب عليه، لكن كنوع من الحرية، طريقة للاكتشاف، حيث أنك تقوم بالأشياء بناء على طريقتك الخاصة، كاهتمامات متنوعة استولت على انتباهك، حيث إن الهدف المحدد الذي تضعه لنفسك هو ما تمليه نفسك عليك، تلك متعة فريدة." ويضيف: "... المنفي يرى كلا الأمرين، ما تركه خلفه، وما يراه في الحقيقة الآن. هناك منظور مزدوج بحيث لا يرى الأشياء مطلقا بصورة معزولة..." وهذا يجعلك "... تجنح لترى الأشياء ليس بالصورة التي هي عليها ببساطة، بل بالطريقة الي أصبحت عليها هكذا..." وهذه مقدرة لا يمكن أن تتوافر للرعايا بأي شكل من الأشكال. كما أن هناك "بالتأكيد المتعة في أن تكون مدهوشا، في عدم التسليم بأي شيء مطلقا. في أن تتعلم أن تقوم بما تقوم به في ظروف من عدم الاستقرار المتزعزع التي من شأنها أن تربك أو

تروّع معظم الناس." وهذه مقدرة أخرى ستقوم بتنميتها، وهي ذات فائدة قصوى في الحياة.

[726] **لوسيل:** هل سيصبح مصابا باضطراب الشخصية المازوشية كي يكون سعيدا بتلك الحياة؟

رجل الكهف: كلا بالطبع. لكن هل نسيتِ أنه لم يعد إنسانا غرائزيا؟ هل نسيتِ أن كينونته قد تحولت من جسده إلى فكره؟ لقد خرج من أنانيته المحدودة ليتحد مع الكون، جسده هذا الذي يُعاني ما هو إلا مرحلة مؤقتة من وجوده، إن وجوده الحقيقي قد أصبح في رسالته. إن سعادته الحقيقية هي في المعرفة، في رؤية الآفاق، في مساعدة الرعايا، في ابتسامة قد استطاع رسمها على وجه أحدهم، في أن يسمع من أحدهم جملة "لقد غيّرت حياتي نحو الأفضل"، في أن يعرف أن الأجيال القادمة ستعيش بحال أفضل من الأجيال الحالية بسبب نشاطه. هذه هي همومه وهذا هو ما يسعده. قلت لك إن الأمر يحتاج إلى البلوغ، لا أعرف كيف يمكنني شرح هذه الحالة من الألم الممزوج بالسعادة، أنا عاجز عن وصف ذلك الشعور الغريب الذي عبّر عنه إيدوارد سعيد بقوله: "... المثقف كمنفي يميل إلى أن يكون سعيدا في فكرة عدم السعادة، كعدم الرضا المتاخم لسوء الهضم، نوع من القابلية الكريهة لعدم الموافقة، يمكن أن تصبح ليس فقط نمط تفكيره، لكن أيضا مأوى جديدا له، ولو بصورة مؤقتة.".

لوسيل "بتعجب": هذا غريب.

رجل الكهف: لكنه حقيقي.

لوسيل "مبتسمة": حسنا أنا أصدقك.

[727] **رجل الكهف:** لا خيار آخر أمامك في الواقع.

لوسيل "ضاحكة": أنت محق.

رجل الكهف: ثم إن هناك أمرا آخر لم أشر إليه بعد.

[728] **داني** "بشغف": وما هو؟

رجل الكهف: إن مثقف القرن الواحد والعشرين هو أقل عزلة بكثير من المثقفين السابقين عليه. والفضل يعود إلى الانترنيت، حيث إن الأصدقاء لم يعودوا محصورين في إطار الحي الذي تقطنه، بل يمكنك تشكيل صداقات مع أشخاص حول العالم، وتتواصل معهم بالصوت والصورة وأنت مستلق في سريرك أو ربما وأنت تقود سيارتك.

داني "مقاطعا": صدقت في هذا.

[729] **رجل الكهف:** ثم ألم نقل إن المسؤولية تقع على عاتق المثقف في أن يقوم بالإعلان عن نفسه ومحاولة التواصل مع الآخرين؟ وفي عالم يوجد فيه الانترنيت فإن هذه المهمة هي أسهل بما لا يقاس من دون وجوده. إذ يمكن للمثقفين أن يشكلوا تجمعات في العالم الافتراضي وأن تصل رسالتهم إلى الرعايا بصورة لحظية، وكلٌّ موجود في بيته، وهذا مالم يكن ليحلم به المثقفون السابقون.

لوسيل "موافقة": صحيح تماما.

[730] **رجل الكهف:** لذا فمع أني أؤكد على أن الشخص سيعاني مما أسميه عزلة المثقف، إلا أنها أخف وطأة عما كانت عليه في السابق بسبب التكنولوجيا الحديثة. نعم سيبقى منطويا على نفسه، قليل الأصدقاء، وربما معظم أصدقاءه بعيدون جغرافيا عنه، وسيكون منبوذا من قبل السلطات، ومن قبل غالبية الرعايا، لكن بإمكان المثقفين اليوم أن يقوموا بتجميع أنفسهم، وتشكيل عالم خاص بهم يكسر قليلا تلك العزلة.

داني: كلامك مقنع. إذا لا داعي للقلق كثيرا من العزلة.

[731] **رجل الكهف:** الأمر يختلف من شخص لآخر، هي حتمية إن أصبحت مثقفا حرا، لكن مذاقها، الذي لا يمكنني التعبير عنه، أو وصفه، لهو مميز بطريقة أو بأخرى، وتختلف استساغته من شخص لآخر. لكن ما يمكنني أن أؤكده لك، هو أن كل من جرّب عزلة المثقف سيقول ما قاله مصطفى خليفة في *القوقعة*: "... لا الرغبة ولا الإرادة موجودتان للتغيير. بل على العكس، أحِسُّ رعبا قاصما للظهر عندما يومض في ذهني خاطر أن أعود للعيش كبقية الناس. يا إلهي كم العيش مثلهم متعب وسخيف.".

داني "مبتسما": هذا محفز جدا. ولو أني لا أستطيع الإقرار أني أفهمه، لكني أصدقك، فلا خيار آخر أمامي.

[732] **رجل الكهف:** دعونا نستمع إذا مرة أخرى لأغنية لويس آرمسترونغ ونتخيله يصف عزلة المثقف.

(ويعلو صوت البيانو معلنا بداية أغنية Black And Blue)

****

الباب الحادي عشر
في كيف تصبح مثقفا

(ثلاثتهم جالسون داخل الكهف ليلا، الإنارة خافتة، يشربون النبيذ، ويستمعون إلى ألبوم Rajazلفرقة (Camel

[733] **لوسيل** "برقة": كم هو محزن أن تكون هذه آخر ليلة لنا سويا.

رجل الكهف: سأفتقد وجودكما وحواراتنا الممتعة.

داني "مبتسما": لقد استفدت منك كثيرا يا رجل الكهف. وأريد منك نصيحة أخيرة.

[734] **رجل الكهف**: بخصوص ماذا؟

داني "بخجل": اريدك أن تعطيني بعض النصائح العملية التي يمكنني الاستفادة منها إذا طبقتها في حياتي كي أصبح مثقفا.

[735] **رجل الكهف** "وهو يشعل غليونه": تذكر المقولة المأثورة التي تم نسبها للعديد من الأشخاص مع أنها مجهولة المصدر.

داني "متعجبا": وماهي هذه المقولة؟

رجل الكهف: "إذا كنت أذكى شخص في الغرفة، فأنت في الغرفة الخاطئة".

[736] **داني** "بدهشة": ماذا تقصد؟

رجل الكهف: ألم نتفق على أن الناس تتأثر ببيئاتها؟

داني: بالتأكيد.

[737] **رجل الكهف**: لذا، إن كنت تريد أن تصبح مثقفا، عليك الإقلال من الوقت الذي تمضيه مع الأشخاص غير المثقفين، والذين لا يطمحون لأن يصبحوا مثقفين. أولئك الأصدقاء الذين يمضون وقتهم بلعب الورق أو ألعاب الفيديو مثلا. هذا النمط من الرعايا لن يفيدك في تقدمك الثقافي، بل سيحاول ثنيك عن مغادرة الغرفة.

[738] **لوسيل** "مستفسرة": إذا يجب أن يقطع صلاته بهؤلاء الأشخاص.

رجل الكهف: هل قلت أنا ذلك؟ لقد قلت أن يقلل من الوقت الذي يمضيه في جلسات كهذه، فإن كان كمعظم الشباب يمضي كل مساء مع أصدقاءه في نشاطات تافهة، فليخففها لمرتين في الاسبوع، ثم لمرة، وهكذا. إنه من غير اللائق أن تقطع صلاتك مع أصدقائك لأنك تريد أن تصبح مثقفا. المثقف هو نموذج للأخلاق السامية، وذلك تصرف غير أخلاقي. أريدك ألا تهدر وقتك معهم،

بل أن تستثمره في أن تصبح مثقفا، لكن على أن تبقى محافظا على صلتك بهم، لأنك ستعود إليهم مادا يد المساعدة بعد أن تصبح مثقفا.

داني "مفكرا": فهمت فكرتك.

[739] **رجل الكهف**: وعليك الحذر من دماغك.

داني "بدهشة": ماذا تقصد؟

رجل الكهف: دماغك سيحبذ تواجدك بين الأشخاص الأقل ثقافة منك، كي تشعر بتفوقك عليهم. هذا شعور يعشقه الدماغ ويزهو به. وهو شعور كارثي في مهمتك التي تريد انجازها، لأنك إن كنت أكثر الموجودين ثقافة فلم عليك البحث والتعلم؟ أنت مسبقا أفضل من أقرانك. لذا عليك أن تفعل العكس تماما.

[740] **لوسيل** "بتعجب": وما هو العكس؟

رجل الكهف: حاول ان تخالط المثقفين في محيطك، الأشخاص الأعلم منك، الأشخاص الذين يمكنك الاستفادة من تجاربهم. الذين يملكون من المعلومات والخبرات في أي مجال ما لا تملكه أنت. سيكونون مساعدين جدا لك في رحلتك الثقافية، ستتعلم منهم طريقة تفكيرهم، نظرتهم للأمور، عقليتهم النقدية، وطريقة كلامهم. ستجد نماذج حية أمامك لمن سبقك إلى البرج، وتتعلم من أخطائهم وتطور مسيرتهم.

[741] **لوسيل**: لكني أشعر أن هؤلاء الأشخاص لا يرحبون بالاختلاط مع الناس الأدنى منهم ثقافة.

رجل الكهف: إن المثقفين يحبون إنارة طريق الرعايا، إنهم يفرحون جدا بمساعدة أحدهم، لكنهم يكونون أقل انفتاحا لإقامة علاقات شخصية مع الرعايا لأن وقتهم ثمين، ولأنهم يعانون من غطرسة الرعايا عليهم. لذا فعليك أن تريهم أنك متواضع جدا، وراغب في أن تتعلم منهم ومن خبرتهم بكل احترام. وأنا أؤكد لك أنك إن كنت كما ينبغي لك أن تكون، فسيسعدون جدا بتقريبك إلى دائرتهم الشخصية.

[742] **داني** "مفكرا": فهمت مقصدك. عليّ أن أقترب منهم كتلميذ عاشق شغوف بالمعرفة، لا كمجادل وناقد ومقيّم، وأن أظهر لهم احترامي وتقديري لعلمهم.

رجل الكهف: بالضبط يا عزيزي. هكذا سيشعرون أنك أهل للوقت الذي سيمنحونه لك. سيكون وقتا له فائدة، لا وقتا يمضونه ليقابلوا بالأذى.

لوسيل "مؤيدة": هذا حقهم الطبيعي.

[743] **رجل الكهف**: حاول أن تخالط أشخاصا من ثقافات مختلفة، أديان مختلفة، توجهات مختلفة، لأنهم سيساعدونك على فهم تلك الثقافات التي لم تترعرع أنت في بيئتها، كما ستتمكن من النظر إلى العالم من

منظورهم. سيكسبونك نظارات إضافية تمكنك من فهم العالم بطريقة مختلفة، وستتقرب إلى الأفكار المخالفة لأفكارك.

[744] **داني:** أليس تحقيق هذا صعبا؟

رجل الكهف: في السابق كان شبه مستحيل، لاحقا أصبح ممكن التحقيق لكنه صعب، حيث كان الناس في القرن العشرين مثلا يقومون بالمراسلة عبر البريد التقليدي الورقي، ويشكلون صداقات بهذه الطريقة. لكنه اليوم سهل جدا، فهناك تطبيقات ومواقع على الانترنيت مجهزة بالضبط لهذا الغرض، حيث يستخدمها الأشخاص الشغوفون بالتعرف على الآخر. لذا فالأمر سهل جدا اليوم.

لوسيل: كلامك صحيح. أعرف العديد من هذه المواقع.

[745] **رجل الكهف:** حاول أن تخالط أشخاصا يعملون في مجالات متنوعة، لديهم مهن وحِرف مختلفة. هذا سيساعدك كثيرا في ان تتعلم عن المجالات المختلفة والمهن والحِرف المتنوعة. الأشخاص يحبون أن يتكلموا عن أعمالهم كثيرا، لذا فبإمكانك أن تسألهم وتتعلم من حصيلة خبراتهم ودراساتهم.

داني "مبتسما": هذه فكرة جيدة.

[746] **رجل الكهف:** ضع هذه القاعدة في ذهنك، يمكنك أن تتعلم شيئا من أي شخص تقابله. بغض النظر عن أي شيء آخر، كل شخص في هذا العالم قد عاش تجربة مختلفة، وهو غالبا بارع أو مهتم بأمر ما، وسيحب أن يتحدث عن تجاربه وعما هو بارع أو مهتم فيه. اغتنم الفرص دائما، واعرف مالذي عليك تعلمه من هذا وذاك.

لوسيل "مفكرة": صدقت. هذا صحيح تماما.

[747] **رجل الكهف:** أريدك أن تكون كالرادار، كل ذهنك وحواسك متفتحة للانتباه إلى التفاصيل وطرح الأسئلة عنها. أسخف الأمور في العالم، وأتفه المواقف التي يمكن أن تشاهدها أو أن تتعرض لها يمكنها فتح سلسلة غير منتهية من الأسئلة، والتي ستعلّمك الكثير. هذا الفرق بين من ينتبه إلى الأمور ويتعلم منها، وبين من يمر مرور الكرام على أكبر وأعقد المواقف. الأول يرى أن في كل صغيرة وكبيرة ما يثير التفكير، والثاني أصم وأعمى مع انه يسمع ويرى.

داني "موافقا": أوافقك الرأي. هذه مهارة عليّ تعلمها.

[748] **رجل الكهف:** لا تدع فرصة للسفر تفوتك. كلما عاينت ثقافات أكثر، كلما حررت دماغك من نظرته الأحادية المنغلقة. سواء كانت أسفارا داخلية أم خارجية، حاول أن تسافر قدر المستطاع. وفي كل مدينة تسافر إليها، اذهب إلى أحيائها الشعبية، لترى كيف يعيش الناس هناك، راقب نمط حياتهم، عاداتهم، ملابسهم، شوارعهم، أبنيتهم، الموسيقى التي يسمعونها، زر المتاحف والمعالم الأثرية وحدائق الحيوان، تذوق أكلهم المحلي، زر معابدهم ومدافنهم. سواء كانت رحلتك سياحية ام بقصد العمل، لابد ان تجد بعض الوقت لتقوم بسياحة ثقافية هناك.

[749] **داني** "متعجبا": لكن كيف لي أن أعرف كل هذا عن مكان غريب عني؟

رجل الكهف: الانترنيت موجود. يمكنك قبل سفرك إجراء بحث بسيط وستتعرف على كل ما سبق، أهم المعالم الاثرية، أفقر الأحياء في المنطقة، المعابد وكل شيء. سجل ملاحظاتك على دفتر صغير أو على هاتفك قبل سفرك، واقرأ قدر المستطاع عن تلك البلد خاصة إن كانت ثقافتها غريبة عنك، كي تعرف ما عليك ملاحظته وزيارته فيها.

[750] **لوسيل** "بتعجب": لكني لم أفهم لم عليه زيارة الأحياء الشعبية.

رجل الكهف: لأني أريده ان يتعرف على الثقافة المحلية، أن يقابل الرعايا في تلك الغرفة ويرى كيف يحيون. المناطق السياحية مزيّفة، ولا تعكس واقع المجتمع ولا الثقافة الشعبية. لذا عليه زيارة المناطق الشعبية، والأكل في المطاعم الشعبية التي يأكل فيها السكان المحليون، والجلوس في مقاهيهم الشعبية، هكذا يحتك بشكل مباشر بهذه الثقافة الغريبة.

داني "مذهولا": لم أفكر بهذا من قبل في أي من أسفاري.

[751] **رجل الكهف:** عليك فعل هذا من الآن، كما أن عليك جعل المراكز الثقافية في مدينتك قبلتك الدائمة. قم بزيارة المراكز الثقافية المتنوعة وخذ منهم جدول المحاضرات والأنشطة الثقافية التي سيقومون بها في المستقبل، استمع إلى الراديو أو اقرأ الجريدة التي يذكرون فيها أين ومتى يتم القيام بأنشطة ثقافية، محاضرات، معارض، ندوات، ورشات عمل وهكذا. وحاول أن تبرمج مواعيدك بناء عليها. فستجد نفسك كل يوم أو يومين تقضي أمسيتك في نشاط ثقافي ما، مما من شأنه أن يوسع من آفاقك وأن يعرفك على أشخاص مهتمين بالثقافة من مختلف الأطياف.

لوسيل "بحماس": هذه فكرة رائعة ومسلية.

[752] **رجل الكهف:** حاول ان تتعرف على أشخاص لديهم نفس طموحك، يريدون ان يصبحوا مثقفين. هؤلاء سيساعدونك جدا في رحلتك الثقافية، سيشجعونك، ستتبادلون الخبرات والمعارف. ويمكنكم التنسيق للقاءات دورية تتناقشون فيها ما تعلمتموه، أو ما قرأتموه، وأشياء من هذا القبيل.

[753] **داني** "بنظرة حزينة": لكن من الصعب إيجاد أشخاص يشاطروني نفس الاهتمامات الثقافية.

رجل الكهف: أنا لم أقل إن عليهم أن يشاطروك نفس الاهتمامات الثقافية! على العكس تماما، من الأفضل ألا يكونوا كذلك.

[754] **لوسيل** "بدهشة": لماذا؟

رجل الكهف: لأنكم في هذه الحالة ستشكلون مجموعة متكاملة متنوعة الاهتمامات كفرقة موسيقية، كل له اهتمامه ومجال بحثه الذي هو شغوف به، وسيحدّث الاخرين بما يعرف في مجال شغفه، وهكذا تتبادلون الخبرات، ويساعد كل منكم الاخر على فهم مجال يصعب عليه فهمه. فهذا مهتم بالأدب،

وذاك بالفن التشكيلي، وذاك بالفيزياء، وذاك بالسياسة، وذاك بالفلسفة، وذاك بالتاريخ، وذاك بالموسيقى، وهلم جر. وبهذه الطريقة ستستفيدون من بعضكم البعض.

داني "بسعادة": هذا صحيح. أوافقك الرأي.

[755] **رجل الكهف:** عليك أن تجعل بيئتك مشجعة على الثقافة. اشغل نفسك بالثقافة. مثلا، يمكنك استبدال اللوحات وصور الفنانين والمغنين الموجودة في منزلك، بخريطة العالم السياسية، والطبيعية، بالجدول الدوري للعناصر، بلوحات تشريحية متنوعة لجسم الانسان، يمكنك أن تشتري هيكلا عظميا بلاستيكيا وتضعه في بيتك، يمكنك أن تضع لوحات للمعادلات الفيزيائية الأساسية الجميلة، بعض الحكم والمقولات الملهمة، وأشياء من هذا القبيل.

[756] **داني** "بتعجب": ماذا سأستفيد من هذا؟

رجل الكهف: ستجبر دماغك على ملاحظة هذه الأمور والتدقيق فيها. فإن وضعت خريطة العالم السياسية على الحائط، تشاهدها كل يوم، فمع الوقت ستكتشف أنك قد حفظتها دون أن تشعر، دون ان تمارس جهدا فعليا في حفظها، وهكذا بالنسبة لباقي الأمور.

لوسيل "ضاحكة": فكرة رائعة ولو أنها غريبة، حيث إنها ستجعل المنزل يبدو أشبه بصف مدرسي.

[757] **رجل الكهف:** عندما تعتبرين الحياة مدرسة، فمن الطبيعي أن يكون المنزل هو الصف المدرسي.

لوسيل "بخجل": صدقت.

[758] **رجل الكهف:** بدل أن تضيع وقتك في مشاهدة المسلسلات التلفزيونية والأفلام الخيالية، استثمر نفس الوقت في مشاهدة الأفلام الوثائقية المتنوعة، والمحاضرات، والندوات العلمية والثقافية المختلفة. شاهد أفلاما وثائقية عن حيوات العظماء من المفكرين والعلماء والفلاسفة، شاهد مناظرات بين فرقاء مختلفين. بهذه الطريقة بعد أن تمضي ساعتين تشاهد شيئا من هذا ستخرج بمعلومات جديدة لم تكن تعرفها، وستطرح أسئلة لم تكن لتخطر على بالك قبل ساعتين فقط من الآن، وستجد إجابات على أسئلة لديك، وستتعلم أمورا جديدة. اليس هذا أمرا رائعا؟

لوسيل: صحيح، الأفلام الوثائقية المتنوعة تعلّم الكثير.

[759] **رجل الكهف:** إذا أدمنت الأفلام الوثائقية ستتعلم في مجالات مختلفة، من الهندسة إلى التاريخ، ومن السياسة إلى الطب، ستسافر حول العالم، وتشاهد ثقافات مختلفة، كما أنك ستحضر محاضرات لعلماء متخصصين، وفلاسفة، وندوات قام بها مفكرون عظماء. لكن عليك ان تكون واعيا إلى مصادرك، بمعنى أن عليك أن تعرف مؤهلات ومرجعية من يلقي المحاضرة، ومصداقية القناة التي تعرض الفلم الوثائقي.

داني "وهو يصب المزيد من النبيذ": صدقت، فهناك الكثير من الهراء.

[760] **رجل الكهف**: عليك الا تنسى أن تكون شكوكيا في كل شيء، فحتى أولئك المثقفون والأصدقاء وسواهم، لا يجب عليك أخذ كلامهم على محمل الثقة، أعتقد أننا انتهينا من هذا الأمر مسبقا. لكنك ستستفيد منهم في تفتيح عيونك على أمور لم تكن تعرفها كي تذهب وتبحث فيها بنفسك. ونفس الأمر بالنسبة للأفلام الثقافية، يمكنك الاستفادة منها لتبسيط أمور معينة ستكون شديدة الصعوبة لو قرأتها في كتاب وأنت لا تعلم عنها شيئا، أو تستفيد منها في ان تكون ملهمة لك ببعض الأفكار، لكن لا يمكنك اعتبارها مصدرك الأساسي للمعلومات وللفهم، بل مصدر مساعد فقط.

لوسيل: صحيح، لن أنسى أن أكون شكوكية بعد اليوم.

[761] **رجل الكهف**: يمكنك أن تستمع إلى المحاضرات والندوات والمناظرات والكتب الصوتية وأنت تمارس نشاطك خارج المنزل. وأنت تلعب الرياضة، أو تعمل، أو تقود السيارة. هذه فائدة مجانية تكسبها في وقت مهدور في أنشطتك اليومية.

داني "بسعادة": فكرة عظيمة، فعلا إنها استفادة مجانية.

[762] **رجل الكهف**: وبدل ان تضيع وقتك على مواقع التواصل الاجتماعي بقراءة ما يكتبه الناس من خواطر، استثمر وقتك بقراءة المقالات العلمية والثقافية المتنوعة. نفس الوقت الذي كنت ستهدره وأنت تقرأ عن فلان العاشق، وذاك المكتئب، وما طبخت فلانة، وما اشترى زيد، وما أكل عبيد، ستستفيده بالاطلاع على أحدث المقالات التي ستثريك ثقافيا.

لوسيل: هذا مفيد جدا. فعلا الوقت الذي يهدره الناس اليوم على مواقع التواصل الاجتماعي كبير جدا.

[763] **رجل الكهف**: يبقى الوصية الذهبية التي عليّ قولها، والعمود الفقري لتكوين المثقف، والشرط اللازم والكافي لبناء عقلية مثقفة.

داني "بحماس": وما هو هذا الأمر العظيم؟

رجل الكهف: إنه القراءة. لا يمكن أن تصبح مثقفا مالم تكن قارء نهما للكتب.

[764] **لوسيل** "بتعجب": وما قصدك بأنه شرط لازم وكافي؟

رجل الكهف: قصدي بالشرط اللازم، أنه لا يمكن ان يكون هناك مثقف لا يقرأ. والكافي، بمعنى أنه لو لم تتح للإنسان ممارسة هذه الاقتراحات التي نتكلم عنها الآن، فالقراءة قد تغني عنها.

[765] **داني** "بدهشة": كيف هذا؟

رجل الكهف "وهو يشعل غليونه": القراءة هي حوار، بينك وبين مؤلف الكتاب، فأنت عمليا بممارستك القراءة تقوم بعقد صداقات وجلسات ودية مع الكُتاب. وإن كنت ماهرا في اختيار الكتب،

ستقوم بهذه الحوارات مع أهم الفلاسفة والعلماء والمفكرين وليس فقط المثقفين الذين يمكنك الجلوس معهم كما اقترحت عليك مسبقا. بالقراءة يمكنك السفر حول العالم وعبر التاريخ وأنت جالس في مكانك. لذا فالقراءة المنظمة بمنهجية صحيحة قد تغنيك عن كل هذه الاقتراحات التي كنت أتكلم عنها الآن في جعلك مثقفا. لكن بنفس الوقت، لو مارست كل ما ذكرته لك بحذافيره ولم تقم بممارسة القراءة فأنت لن تصبح مثقفا حقيقيا.

[766] **داني** "بحماس": هذه نقطة مهمة جدا. أرجوك أعطني نصائح من أجل القراءة.

رجل الكهف: ليس الآن يا صاح. نحن نتكلم منذ الصباح الباكر دون توقف، وإن أردت الحديث عن القراءة فيستحيل عليّ إيفاء الموضوع حقه إلا بأيام من الكلام. فالموضوع واسع جدا، ولا أستطيع إيجازه بكلمات قليلة. وأمامكما رحلة شاقة غدا، فعليكما النوم الآن.

[767] **داني** "بحزن": لكن هذه آخر ليلة لنا معك، ليس هناك وقت آخر لنتحدث به عن القراءة.

رجل الكهف: الحديث معي لا ينتهي يا صديقي. لو بقيت تتكلم معي حتى وفاتك، فلن ننتهي من مناقشة الأفكار المتنوعة التي قد يغرينا الحديث عنها.

داني "بحزن": أعرف هذا. ولذا أنا حزين جدا لمغادرتك غدا.

[768] **رجل الكهف**: يمكنك لقائي مجددا.

داني "بدهشة بالغة": هل أنت جاد فيما تقول؟

رجل الكهف: ولم لا. فالحوار معكما ممتع جدا.

[769] **لوسيل** "بابتسامتها الرقيقة": وكيف لنا ان نراك مجددا؟

رجل الكهف: يمكنكما مراسلتي عبر بريدي الإلكتروني thecavemantalks@gmail.com والتنسيق للقائنا القادم.

لوسيل "بسعادة كبيرة": هذا لطف كبير منك.

[770] **رجل الكهف**: لكن بشرط.

داني "بابتسامة": وما هو؟

رجل الكهف: ألا تخبرا أحدا بمكان كهفي، وألا تأتيا مع أحد آخر دون إعلامي.

[771] **لوسيل** "رافعة كأسها": لك كل الحق في ذلك. أعطيك كلمتي.

داني "رافعا كأسه": وأنا أعطيك كلمتي في ذلك أيضا.

رجل الكهف: أثق بكما.

[772] **داني** "مُغيظا مع ابتسامة خفيفة": لا خيار آخر أمامك.

رجل الكهف: صدقت. لقد نلت مني.

داني "ضاحكا": لا تقلق، أنا عند وعدي.

[773] **رجل الكهف:** هذا أملي بكما. على أي حال، قبل أن ننام، هل لك أن تعيد عليّ الاقتراحات التي ذكرتها لك للتو؟

داني "مبتسما": بكل تأكيد، لقد حفظتها:

- قلل من الوقت الذي تمضيه مع الأشخاص الأدنى ثقافة منك والذين لا يطمحوا لأن يصبحوا مثقفين.
- خالط المثقفين، والأشخاص الأكثر علما منك.
- خالط أشخاصا من ثقافات وأديان وتوجهات مختلفة.
- خالط أشخاصا يعملون في مجالات متنوعة.
- كن شديد الملاحظة دائما.
- اجعل بيئتك ثقافية.
- سافر كثيرا.
- اجعل المراكز الثقافية قبلتك الدائمة.
- شكل مجموعة من الأشخاص الراغبين في أن يصبحوا مثقفين.
- شاهد أفلاما وثائقية بدل المسلسلات التلفزيونية.
- استمع إلى كتب صوتية، ومحاضرات أثناء تأديتك لنشاطاتك اليومية الروتينية.
- اقرأ المقالات بدل الوقت الضائع في تصفح مواقع التواصل الاجتماعي.
- اقرأ الكتب بشكل دائم.

[774] **رجل الكهف:** جيد جدا. أتمنى لك رحلة ثقافية موفقة.

داني "مبتسما": كل الشكر لك.

رجل الكهف: لا شكر على واجب. والآن سأدعكما تنامان، عليكما تخزين بعض الطاقة لرحلتكما غدا.

لوسيل "بحزن": هذا صحيح بكل أسف.

رجل الكهف: طابت ليلتكما.

****

الباب الثاني عشر
المراجع

(صباح اليوم التالي استحم كل من لوسيل وداني وجلس ثلاثتهم يشربون القهوة)

[775] **داني** "مبتسما": كنت أفكر الليلة الماضية بأمر لا أعلم إن كنت توافق عليه.

رجل الكهف: وما هو هذا الأمر؟

داني: أنت تعلم أني قد سجلت كل محاوراتنا.

رجل الكهف: أجل.

داني: كنت أفكر في أني قد استفدت جدا من حواراتنا هذه، وأنا واثق أن الكثيرين سيستفيدون منها أيضا.

[776] **رجل الكهف**: وما الذي تنوي فعله؟

داني: كنت أفكر في أن أسألك إن كنت تسمح لي بأن أحرر كل محاوراتنا على شكل كتاب، وهكذا يمكن للآخرين الاستفادة كما استفدنا انا ولوسيل.

[777] **رجل الكهف**: فكرة جيدة، لكن بشرط.

داني "بانتباه": وما هو؟

رجل الكهف: أن تكتب كل شيء بحذافيره كما قيل.

داني: سأكون دقيقا جدا، ولن أحرف أي كلمة.

[778] **رجل الكهف**: جميل جدا. أطلعني على نسخة من الكتاب عندما تنتهي من تحريره.

داني "بسرور": لك ذلك.

[779] **رجل الكهف**: إني أشعر أن هناك شيئا نسيت أن تسألني عنه.

داني "بتعجب": وما هو؟

رجل الكهف: لم تسألني عن مصادر معلوماتي والمراجع التي ذكرت منها الاقتباسات.

داني "مبتسما": صحيح، إني لم أفعل هذا، ولم عليّ ذلك! أنا أثق بدقة معلوماتك.

[780] **رجل الكهف**: وكيف لك أن تثق بدقة معلوماتي وأنت لا تعرفني إلا منذ بضعة أيام؟ وما أدراك أني لست مجرد ثرثار ذا كاريزما مقنعة، حيث أني أقنعتك بثرثرتي الفارغة؟ وما أدراك أني أفهم ما أتفوه به على أي حال، ولست واقعا تحت تأثير تحيزات دماغي ومحدودية قدراتي الفكرية؟ ألم أؤكد لك بما فيه

الكفاية على أن تكون شكوكيا؟

داني "بخجل": هذا صحيح، لكني لم أتوقع أن عليّ تطبيق ذلك عليك.

[781] **رجل الكهف**: ومن أنا حتى لا تطبق ذلك عليّ؟ ألم أقل لك أن عالم الأفكار هو عالم خالي من القداسة؟ ألم اقل لك ألّا تعتبر أحدا مطلق الصواب؟ كلنا بشر، وكلنا خطاؤون ومحدودون. إن هذا أهم درس عليك تعلمه في هذا الكهف يا صاح. أهم درس في كل ما تحدثنا به.

داني "مبتسما بخجل": هذا صحيح. أعتذر عن سوء تقديري. إذن هل لك أن تزودني بمراجع لمحاوراتنا. بحيث يمكنني الاستزادة عن كل الأفكار التي تحدثنا عنها، والتأكد من صحتها.

[782] **رجل الكهف**: يستحيل عليّ تزويدك بمراجع لكل فكرة قد تحدثت بها، فلقد شرحت لك مسبقا كيف يعمل الدماغ، وبالتالي فإن الأفكار التي حدثتك عنها هي حصيلة من كل ما قرأته وسمعته في حياتي، ودماغي ليس حاسوبا بحيث يُمَكِنني من تذكر من أين حصلت على كل فكرة أو كيف قمت بتوليدها.

لوسيل: أصدقك في هذا.

داني "ضاحكا": هل تمزح معي، لقد عاتبتني للتو على عدم مطالبتي لك بهذا.

[783] **رجل الكهف**: كلا، إني لا أمزح معك. أنا أتكلم الحقيقة. ومع هذا يمكنني تزويدك بالمراجع التي اقتبست منها الاقتباسات التي ذكرتها لكما، وبعض المراجع التي اقتبست منها بعض المعلومات، والتي ستساعدك على فهم بعض الأفكار التي تحدثنا عنها، أعتقد أنها ستكون كافية لتغطية مجمل المحاورات كلها، او على الأقل الأفكار الرئيسية فيها.

داني: يرضيني ذلك وأكتفي به.

[784] **رجل الكهف**: سجل عندك إذن:

- آدلر، مورتيمر. فان دورن، تشارلز: كيف تقرأ كتابا، الدار العربية للعلوم، بيروت، الطبعة الأولى، 1995.
- أفلاطون: القوانين لأفلاطون، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1986.
- أفلاطون: المحاورات الكاملة، المجلد الأول، الجمهورية، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1994.
- أورويل، جورج: 1984، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2006.
- آينشتاين، ألبرت: أفكار وآراء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986.
- بريم، روبرت: المثقفون والسياسة، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، 1985.
- *بلاين، جوليان*: جريدة المستقبل، بيروت، العدد 769، 23 سبتمبر 2001.
- بوبر، كارل: منطق البحث العلمي، الطبعة العاشرة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2006.

- بوخارين، نيكولاي. بريوبراجنسكي، أوجين: ألف باء الشيوعية.
- بوس، ديفيد: علم النفس التطوري، العلم الجديد للعقل، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2009.
- بينك، توماس: الإرادة الحرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2015.
- تايسون، نيل دي غراس. سميث، دونالد جولد: البدايات، 14 مليار عام من تطور الكون، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2014.
- الجابري، محمد عابد: المثقفون في الحضارة العربية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 2000.
- **حرب، علي**: جريدة المستقبل، بيروت، العدد 654، 31 مايو 2001.
- خليفة، مصطفى: القوقعة، يوميات متلصص.
- دارون، تشارلز: التعبير عن الانفعالات في الإنسان والحيوانات، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد 977، الطبعة الأولى، 2005.
- دارون، تشارلز: نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، المجلد الأول، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد 929، الطبعة الأولى، 2005.
- **ديكارت، رينيه**: فريدريك نيتشة، إنسان مفرط في إنسانيته، كتاب العقول الحرة، الجزء الأول، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002. (تم أخذ اقتباس لديكارت من هذا الكتاب فقط، والذي ورد في الفقرة 413).
- راسل، بيرتراند: الدين والعلم، دار الهلال، مصر، 1996.
- راسل، بيرتراند: النظرة العلمية، دار المدى للثقافة والنشر، الطبعة الاولى، 2008.
- راسل، بيرتراند: سيرتي الذاتية، المجلد الأول، دار المعارف بمصر، القاهرة.
- راسل، بيرتراند: عبادة الإنسان الحر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد 893، الطبعة الأولى، 2005.
- راسل، بيرتراند: في مدح الكسل ومقالات أخرى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد 2/65، الطبعة الثانية، 2009.
- راسل، بيرتراند: ما وراء المعنى والحقيقة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد 947، الطبعة الأولى، 2005.
- سبينوزا، باروخ: رسالة في إصلاح العقل، دار الجنوب للنشر، تونس، 1990.
- سبينوزا، باروخ: علم الأخلاق، دار الجنوب للنشر- تونس / المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2009.
- **سقراط**: أفلاطون، محاكمة سقراط، (محاورات أوطيفرون، الدفاع، أقريطون)، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية، 2001.

- السواح، فراس: قراءة في ملحمة جلجامش، سومر للدراسات والنشر والتوزيع، قبرص، الطبعة الأولى، 1987.
- **سولزبيرجر، آرثر**: ممدوح عدوان، حيونة الإنسان، دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية.
- سيغان، كارل: الكون، عالم المعرفة، العدد 178، الكويت، 1993.
- سيغان، كارل: بلايين وبلايين، أفكار حول الحياة والموت على حافة الألفية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد 563، الطبعة الأولى، 2003.
- شريعتي، علي: مسؤولية المثقف، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، الطبعة الثانية، 2007.
- شوبين، نيل: السمكة داخلة، رحلة في تاريخ الجسم البشري، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2012.
- العقل الإلكتروني، حيل العقل الباطن، الجزيرة الوثائقية. (اقتباسات وأفكار وردت في الباب الثالث).
- العقل الإلكتروني، قوة العقل الباطن، الجزيرة الوثائقية. (اقتباسات وأفكار وردت في الباب الثالث).
- فرويد، سيغموند. شتيكل، وليم: الكبت، تحليل نفسي، الموزع: المكتبة الشعبية، القاهرة.
- كراوس، لورانس: كون من لا شيء، منشورات الرمل، القاهرة، الطبعة الأولى، 2015.
- الكواكبي، عبد الرحمن: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثالثة، 2006.
- **كوثراني، وجيه**: جريدة المستقبل، بيروت، العدد 629، 4 مايو 2001.
- ماركس، كارل: رأس المال، نقد الاقتصاد السياسي، المجلد الأول، دار التقدم، موسكو، 1985.
- نيتشة، فريدريك: أفول الأصنام، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1996.
- نيتشة، فريدريك: عدو المسيح، دار الحوار، الطبعة الثانية.
- نيتشة، فريدريك: نقيض المسيح، مقال اللعنة على المسيحية، منشورات الجمل، الطبعة الأولى، 2011.
- هيجل، جورج: أصول فلسفة الحق، المجلد الأول، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1966/ دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثالثة، 2007.
- ولسون، كولن: التاريخ الإجرامي للجنس البشري، سيكولوجية العنف، جماعة حور الثقافية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2001.
- Almaany.com: المثقف.
- Adorno, Theodor: Minima Moralia, Reflections on a Damaged Life, Verso, New York, 2005.
- American Journal of Physics, 59, 1990.
- Bachelard, Gaston: Portrait of a Philosopher, Gaston Bachelard Interview

December 1961, YouTube, 2012.
- Ben-Ze'ev, Aaron: The Subtlety of Emotions, Massachusetts Institute of Technology, 2000.
- Bierce, Ambrose: The Devil's Dictionary, Oxford University Press, New York, 1999.
- Bierstedt, Robert: The Social Order, Tata McGraw-Hill Inc, India, Third Edition, 1970.
- ***Boorstin, Daniel J:*** The 6 O'clock Scholar, by Carol Krucoff, The Washington Post, 29 January 1984.
- Boorstin, Daniel J: The Discoverers, A History of Man's Search to Know his World, Vintage Books, 1985.
- Buckle, Henry Thomas: History of Civilization in England, Volume 2, D. Appleton and Company, New York, 1860.
- Carlin, George: Question Everything, YouTube, 2008.
- Chekhov, Anton: The Bet.
- Coser, Lewis: Men of Ideas, A Sociologist's View, The Free Press, New York, 1965.
- ***Darwin, Charles:*** David Quammen, Den Motvillige Mr. Darwin, Ett Personligt Porträtt av Charles Darwin och hur han utvecklade sin evolutionsteori, Adoxa Förlag, Lidingö, 2009.
- ***Darwin, Charles:*** The Life and Letters of Charles Darwin, Including an Autobiographical Chapter, edited by Francis Darwin, Volume 1, John Murray, London, 1887.
- Dawkins, Richard: The God Delusion, Bantam Press, a division of Transworld Publishers, Great Britain, 2006.
- Dawkins, Richard: The Selfish Gene, Oxford University Press, Great Britain, 1989.
- ***Debs, Eugene:*** (Debs: His Life, Writings and Speeches), With a Department of Appreciations, The Appeal to Reason, Kansas, 1908.
- ***Debs, Eugene:*** Voice of the U.S. socialist movement, by Howard Zinn, socialistworker.org, 21 May 2004.

- Descartes, René: Discourse on the Method, Feedbooks.
- Descartes, René: Selections from the Principles of Philosophy of René Descartes, Project Gutenberg Literary Archive Foundation, Oxford, 2003.
- Dictionary.cambridg.org: Intellectual.
- Dictionary.com: Intellectual.
- En.oxforddictionaries.com: Intellectual.
- Ferguson, Adam: An Essay on the History of Civil Society, London, (Printed for T. Caddel, in the Strand; and A. Kincaid, W. Creech, and J. Bell, Edinburgh.), London, Forth Edition/ (Printed for T. Caddel, in the Strand; and W. Creech, and J. Bell, Edinburgh.), London, Fifth Edition.
- ***Feynman, Richard***: No Ordinary Genius, The Illustrated Richard Feynman, Edited by Christopher Sykes, W.W. Norton & Company, New York, First Edition, 1994.
- ***Feynman, Richard***: The Fantastic Mr. Feynman, BBC.
- ***Freehill, Maurice***: Chalita Mansour, Os Mais Belos Pensamentos de Todos os Tempos, Assoc. Cultural Internac. Gibran, Rio de Janeiro, Forth Edition.
- Gramsci, Antonio: Selections from the Prison Notebooks, edited by Quentin Hoare and Geoffrey Nowell Smith, International Publishers, New York, 11th printing, 1992/ ElecBook, London, 1999.
- Grand, Steve: Creation, Life and How to Make it, Harvard University Press, Cambridge, 2001.
- Harris, Sam: Free Will, Free Press, New York, 2012.
- ***Huxley, Thomas H:*** Nature, 66, 30 October 1902.
- Huxley, Thomas H: On the Study of Zoology, Project Gutenberg Literary Archive Foundation, Oxford, 2001.
- ***Huxley, Thomas H:*** The Huxley File, Clark University.
- ***Kazantzakis, Nikos***: Life-Span Development in Kazantzakis's Zorba the Greek, By: Kenneth R. Elsman and John V. Knapp, Northern Illinois University, The International Fiction Review, 11, No. 1, 1984.
- Kazantzakis, Nikos: Zorba the Greek, RefineCatch Ltd, Kent, 2000.

- Keracher, John: How the Gods were Made, A Study in Historical Materialism, SPGB, 2004.

- Konner, Joan: The Atheist Bible, an Illustrious Collection of Irreverent Thoughts, Tonie Doe Media, New York, 2007.

- Krauss, Lawrence: The Big Debates Islam or Atheism Which Makes More Sense, Lawrence Krauss & Hamza Tzortzis, YouTube, 2015 / Lawrence Krauss vs Hamza Tzortzis - Islam vs Atheism Debate, YouTube, 2013.

- Lipset, Seymour Martin: American Intellectuals: Their Politics and Status, Daedalus, Vol. 88, No. 3, Current Work and Controversies, American Academy of Arts & Sciences, 1959.

- Ljunggren, Jens: Inget land för intellektuella, 68-rörelsen och svenska vänsterintellektuella, Nordic Academic Press, Lund, 2009.

- Mannheim, Karl: Ideology and Utopia, an Introduction to the Sociology of Knowledge, (Harcourt, Brace & Co., Inc), New York, 1954.

- Mencken, Henry Louis: A Second Mencken Chrestomathy, (A New Selection from the Writings of America's Legendary Editor, Critic, and Wit), Johns Hopkins University Press, 2006.

- Miller, Alan S. Kanazawa, Satoshi: Ten Politically Incorrect Truths About Human Nature, Psychology Today, 1 July 2007.

- ***Nietzsche, Friedrich***: A Nietzschean Bestiary: Becoming Animal Beyond Docile and Brutal, Edited by Christa Davis Acampora & Ralph R. Acampora, Rowman & Littlefield Publishers Inc, USA, 2004.

- Nietzsche, Friedrich: Human, All Too Human, A Book for Free Spirits, Cambridge University Press, Cambridge, Ninth printing, 2005.

- Nietzsche, Friedrich: The Antichrist, Knopf, New York, 1920.

- Nietzsche, Friedrich: Writings of Nietzsche, volume 1, Devoted Publishing, Ontario, 2016.

- Polchinski, Joseph: String Theory, volume 1, An Introduction to the Bosonic String, Cambridge University Press, United Kingdom, 2005.

- Rousseau, Jean-Jacques: Emile or On Education, Basic Books, USA, 1979.

- Russel, Bertrand: Bertrand Russel Speaks his Mind, The World Publishing Company, Ohio, 1960.
- Russel, Bertrand: The Conquest of Happiness, George Allen & Unwin Ltd, London, Fifth Impression, 1932.
- Said, Edward W: Representations of The Intellectual, The 1993 Reith Lectures, First Vintage Books Edition, A Division of Random House Inc, New York, 1996.
- Sartre, Jean-Paul: What is Literature?, Philosophical Library Inc, New York, 1949.
- ***Savant, Marilyn vos***: The Truth in Words: Inspiring Quotes for the Reflective Mind, compiled by Paras, iUniverse, USA, 2002.
- Sowell, Thomas: Intellectuals and Society, Revised and Enlarged Edition, Basic Books, New York, 2012.
- Spinoza, Benedictus De: The Principles of Descartes' Philosophy, The Open Court Publishing Company, Chicago, 1961.
- Sumner, William Graham: Folkways, (A Study of the Sociological Importance of Usages, Manners, Customs, Mores, and Morals), Ginn and Company, USA, 1906.
- Thackeray, Miss: Mrs. Dymond, (Smith, Elder & Co.), London, 1885.
- ***Thomas, Antoine Léonard***: Cogito Ergo Sum, World Heritage Encyclopedia, Project Gutenberg Self-Publishing Press.
- Twain, Mark: What is Man? And Other Stories, Createspace, USA, 2013.
- Tylor, Edward B: Primitive Culture, (Researches into The Development of Mythology, Philosophy, Religion, Language, Art, and Custom), volume 1, John Murray, London, Sixth Edition, 1920.
- Urquhart, David: Familiar Words, As Affecting the Character of Englishmen and the Fate of England, Trübner & co, London, 1855.
- Wikipedia.org: Intellectual.

[785] **لوسيل** "بحماسها الطفولي": هذا رائع، إنه مزيج من مراجع في مختلف المجالات.

رجل الكهف: أعتقد انكما إن اطلعتما على هذه المراجع فستفهمان كل الأفكار التي تناقشنا فيها.

داني "مبتسما": أشكرك جزيل الشكر.

الباب الثالث عشر
ملخص المحاورة وخاتمة

(حزم كل من داني ولوسيل أمتعتهما وتناولا فطورهما وهما جاهزان للسفر، ثلاثتهم واقفون عند مدخل الكهف)

[786] **لوسيل** "بابتسامتها الرقيقة": لا أعرف كيف لي أن أشكرك يا رجل الكهف، لقد دخلت الغابة لأستكشف الحياة البرية، وها أنا أهم بالخروج منها وقد استكشفت نفسي.

[787] **داني** "مبتسما": أشعر أني للتو دخلت هذا الكهف للمرة الأولى، لم أشعر بالوقت مطلقا برفقتك. أشعر وكأني كنت أعمى وقد بدأت أبصر للتو. لا أعلم كيف يمكنني شكرك على كل ما قدمته لنا.

[788] **رجل الكهف:** لا داعي لأن تشكراني يا صاحبي، هل نسيتما أن هذا واجبي الأخلاقي، والآن قد حمل كلاكما المسؤولية أيضا، عليكما تنوير الرعايا كما قمت بتنويركما. إن فعلتما ذلك فستكونان قد شكرتماني حق الشكر.

لوسيل "مبتسمة": سنفعل حتما. سينشر داني كل محاوراتنا كي يطلع عليها الناس.

[789] **رجل الكهف:** إن ذلك لا يكفي، عليكما مخالطة الناس والحديث معهم. من سيشتري كتابا لحوار ثقافي مع رجل الكهف! إن الرعايا لا يقرأون، وإن قرأوا فسيقرؤون الروايات، ألم نتكلم عن هذا مسبقا؟

داني: صدقت.

[790] **رجل الكهف:** قبل أن أسمح لكما بالمغادرة عليّ التأكد من أنكما قد وعيتما ما تحدثنا عنه، هل لكما أن تخبراني مالذي تعلمتماه هنا؟

[791] **لوسيل:** إن الغالبية الساحقة من البشر يعيشون كرعايا بسطاء تحكمهم السلطات الدينية والسياسية والاقتصادية، والتي أسميتها ثالوث القمع.

[792] **داني:** وإن المثقفين أنواع، فمنهم قاصر النظر، ومنهم الزاهد، ومنهم المرتزق، ومنهم المبدع ومنهم الثوري.

[793] **لوسيل:** وإن الفرق بين الناس، سواء كانوا مثقفين أم رعايا ناجم عن طريقة عمل الدماغ، الذي لا يمكنه إدراك الأمور والتعاطي معها إلا بحسب خبراته السابقة ومعارفه المكتسبة، وبالتالي فعندما يقول شخص رأيا ما، أو يصدر حكما ما، فإن هذا الرأي وهذا الحكم ليس موضوعيا قدر ما هو محكوم بالظروف الخاصة التي شكلت عقلية هذا الإنسان.

[794] **داني:** هذا وإن الدماغ يتكون من قسم للغرائز، وقسم للذاكرة، وقسم للمعالجة، وإن قسم الغرائز

هو المسيطر بشكل تام مالم يعنى الإنسان بتدريب وتنمية القسمين الآخرين بصورة مدروسة.

[795] **لوسيل**: وإن تسعين بالمئة من الأنشطة التي يقوم بها الدماغ يقوم بها في قسمه اللاواعي، وهذا ما يجعل من حرية الإرادة بالمفهوم الفلسفي والشعبي غير موجودة، ولذا فإن على الإنسان أن يعمل جاهدا على تحرير دماغه وتطوير ما يحتويه من معلومات وتطوير طريقة تفكيره كي يستطيع أن يكون إنسانا حرا ومن ثم مثقفا.

[796] **داني**: وإن دماغنا وحواسنا محدودون بالبيئة التي نشأ فيها أسلافنا، وهذا ما يجعلنا قاصرين تماما على فهم وإدراك الأمور الكبيرة كوجود الكون أو الأمور الصغيرة كالفيزياء الكمومية. لذا وجب علينا اللجوء إلى البحث العلمي الموضوعي، لا التقييم بناء على منطقنا المحدود.

[797] **لوسيل**: وإن ثواليث القمع قد طوروا منظومات متكاملة للقمع الفكري يخضع لها كل إنسان منذ لحظة ولادته وحتى وفاته، بما في ذلك النظام التعليمي المبني على طريقة المنافسة. وإن الذي يحفز غالبية الناس على مواصلة تعليمهم ليس حبهم بالمعرفة، وإنما من أجل تحصيل ألقاب ومناصب وظيفية أفضل.

[798] **داني**: وإن المثقفين لا يهتمون للألقاب ولا للمناصب، عليهم أن يكونوا أحرارا ويتخذوا من بحثهم الثقافي هواية.

[799] **لوسيل**: وعلى الإنسان ألا يقع فريسة الاستعراقية، التي يشجع عليها ثواليث القمع، كما وأدمغة الناس بشكل طبيعي، لذا على الإنسان الحر أن يكون موضوعيا في تقييمه للآخرين ولثقافاتهم الغريبة.

[800] **داني**: وإن الثقافة هي كل ما يتوارثه الأفراد لا جينيا، كل ما نكتسبه منذ لحظة ولادتنا. ويمكننا تقسيمها بنظرة ابستمولوجية إلى معارف شعورية، وعلوم إنسانية، وعلوم طبيعية.

[801] **لوسيل**: وإذا أراد الإنسان الإلمام قدر المستطاع بالثقافة الإنسانية فعليه أن يكون:

- ملما إلى أبعد الحدود في مجال واحد على الأقل من مجالات المعرفة الإنسانية وكل ما يتعلق بذلك المجال.
- ملما بلغته الأم، لغة البلد الذي يقيم فيه، بالإضافة إلى اللغة العالمية.
- ملما بثقافته الأم، ثقافة البلد الذي يقيم فيه، بالإضافة إلى ثقافة الحضارة السائدة عالميا.
- ملما بالعلوم الحديثة وتطوراتها على الصعيدين النظري والعملي. وفاهما لفلسفة العلم.
- ملما بالأعلام وأفكارهم وحقبهم الزمنية.
- ملما بخريطة العالم الطبيعية والسياسية وتوزع اللغات والايديولوجيات عالميا.
- مطلعا على المدارس الفلسفية الكبرى، الحضارات الإنسانية الكبرى، الإيديولوجيات الكبرى، والعلوم الأساسية.
- ملما بخريطة المعارف الإنسانية وفروعها وترابطاتها.

- يتعمق في فرع أو أكثر من المعارف الإنسانية.
- ثم بإمكانه زيادة التوسع في الوصايا السابقة على مستويي التعمق والشمول.

[802] **داني**: لكن الأهم من ذلك هو أن يكون:

- هاويا للبحث الثقافي.
- فضوليا للمعرفة.
- يطرح الأسئلة دون توقف.
- موضوعي دائما.
- صادق مع نفسه.
- يعرف كيف يصوغ المشكلة ويحدد فرضياتها وعلائقها.
- يتبع الأدلة أينما أخذته.
- لا يمتلك معارف يقينية.
- يعرف أنه لا يعرف.
- حذر من وهم المعرفة.
- مدركٌ ألا أحد سيحرره إلا نفسه.
- متواضع.
- يقوم بتغيير آراءه دوما حسب الأدلة الجديدة.
- شكوكي.
- لا يقبل المعلومات إلا من مصادرها.
- متنبه إلى وسائل ثالوث القمع وأدواته.
- متنبه إلى تحيزات دماغه وقصوره البيولوجي.
- لا يبدي رأيا ولا يحكم على أمر لم يبحث فيه.
- لا يتورع عن قول لا أعرف.
- كل آراءه وأحكامه محددة بمدى عمق بحثه فيما يتعلق بها.
- يقدر قيمة الوقت.
- متحرر من كافة أشكال العبودية.
- غير منتمي.
- إنسان عالمي.
- لا يعمم.
- لا يطمح لقيادة الرعايا، بل لتحريرهم.
- لا يعتبر أي إنسان مثاليا.
- لا يقدس أحدا.

- يقظ دائما ليتعلم من أي أحد ومن كل موقف يمر به.

[803] **لوسيل:** صحيح، فتلك شروط مهمة ليكون الإنسان حرا. حيث إنه قبل أن يصبح مثقفا عليه أن يكون حرا، وإلا فإن ثقافته قد تجعله مثقفا مرتزقا تابعا لثالوث القمع.

[804] **داني:** وعلى المثقف أن يقوم بتحرير الرعايا. إن التزامه بهذه المسؤولية هي ما يجعله مثقفا، لا نوع مهنته ولا شهادته الدراسية يجعلانه كذلك مالم يحمل على عاتقه مهمة تحرير الرعايا. ولذا فإن عليه العمل على تحرير الأجيال الحالية، ولو أن جهوده غالبا لن تثمر إلا بعد وفاته.

[805] **لوسيل:** وعليه أن يكون مستعدا ومتقبلا لأن يقضي بقية حياته في عزلة نسبية.

[806] **داني:** كما أنك نصحتني الليلة الماضية بأن:

- أقلل من الوقت الذي أمضيه مع الأشخاص الأدنى مني ثقافة، والذين لا يطمحوا لأن يصبحوا مثقفين.
- أخالط المثقفين، والأشخاص الأكثر علما مني.
- أخالط أشخاصا من ثقافات وأديان وتوجهات مختلفة.
- أخالط أشخاصا يعملون في مجالات متنوعة.
- أكون شديد الملاحظة دائما.
- أجعل بيئتي ثقافية.
- أسافر كثيرا.
- أجعل المراكز الثقافية قبلتي الدائمة.
- أشكل مجموعة من الأشخاص الراغبين في أن يصبحوا مثقفين.
- أشاهد أفلاما وثائقية بدل المسلسلات التلفزيونية.
- أستمع إلى كتب صوتية، ومحاضرات أثناء تأديتي لنشاطاتي اليومية الروتينية.
- أقرأ المقالات بدل الوقت الضائع في تصفح مواقع التواصل الاجتماعي.
- أقرأ الكتب بشكل دائم.

[807] **رجل الكهف:** إني فخور بكما، فأنتما شابان نبيهان. الآن يمكنني أن أقول لكما رافقتكما السلامة.

لوسيل: سنفتقدك كثيرا يا رجل الكهف، لكننا نعدك أن نبقى على تواصل بواسطة البريد الإلكتروني ربما نستطيع مقابلتك مجددا.

[808] **رجل الكهف:** يسرني ذلك، وأنا سأفتقدكما.

داني: إلى اللقاء يا صديقي.

[809] **ويتعانق ثلاثتهم عناقا قويا، ويبدأ الإثنان بالمسير. وبينما هما يبتعدان إذ يسمعان أغنية Each Small Candle يتردد صداها في أرجاء الغابة.**

داني "ضاحكا": إنه يودعنا بأغنية.

لوسيل "مفكرة": كلا يا داني، إنه يؤكد علينا أن نحمل الرسالة.

[810] **وبلغت الإثنان ويشيران مبتسمين لرجل الكهف، الواقف أمام كهفه يدخن غليونه، بأن رسالته قد وصلت. فلوح لهما بيده ثم دخل كهفه بذات الوجه الخالي من التعابير الذي استقبلهما فيه. وتابع الإثنان مسيرهما مبتعدين بينما يصدح صوت روجر ووترز وفرقته:**

Each small candle lights a corner of the dark
When the wheel of pain stops turning
And the branding iron stops burning
When the children can be children
When the desperados weaken
When the tide rolls into greet them
And the natural law of science
Greets the humble and the mighty
And the billion candles burning
Lights the dark side of every human mind

****

تمت المحاورة

03 August 2017 - 01:40 am
Kungshamn, Sverige

نقد ذاتي للمحاورة

[811] كنت قد ألزمت نفسي أن يكون حجم الكتاب أصغر ما يمكن لسببين: أولهما أن أمة اقرأ لا تقرأ، لذا فإني أردت أن يكون الكتاب صغيرا، لأن الناس تنفر من الكتب الكبيرة. وثانيهما هو أن الجمهور المستهدف هو جيل الشباب والذي أعرف معاناته المالية، فأردت أن يكون ثمن الكتاب أرخص ما يمكن عليه.

[812] كان ذلك هو المحدد الرئيسي الذي وضعته لنفسي قبل الشروع في هذا العمل، لكن مزيج محاولة الالتزام بالإيفاء به بالإضافة إلى محاولة دمج التبسيط مع الاختصار مع طرح أفكار ومعلومات غنية، شكّل تحديا مزعجا بشكل كبير أثناء بناء هذا العمل.

[813] أعتقد أن القارئ قد لاحظ أني في أماكن كثيرة جدا كنت ألقي بفكرة ما، أو معلومة ما، دون أن أسهب بشرحها، أو دون أن أتكلم عنها على الإطلاق، بل أرميها بين غيرها من الأفكار، أو تكون دفينة بين السطور فحسب. ومرد هذا هو رغبتي في مكافئة القارئ الشغوف بلفت نظره إلى أفكار ومعلومات إضافية لا تمس محور المحاورة مع التزامي الاختصار. لذا فقد اكتفيت بشرح الأفكار التي هي محورية في هيكل الكتاب، واكتفيت بالإشارة إلى ما دونها، تاركا مهمة البحث عنها للقارئ.

[814] لكن بالمقابل ربما لاحظ القارئ أني عمدت لتكرار بعض الأفكار، وهذا يتنافى مع التزام الاختصار، لكني عندما عمدت لهذا فهو لأني أريد تذكير القارئ بفكرة قد تطرقنا إليها سابقا لكنها على علاقة وطيدة بالفقرة الحالية. فأنا أعرف أن كثيرا من القراء لن يتبعوا نصائحي التي ذكرتها في "تنويهات قبل القراءة"، وبالتالي وجدت نفسي في بعض المواضع مدفوعا بضرورة تذكيرهم بأفكار قد مرت مسبقا.

[815] وإني أعترف أني لست من فطاحل اللغة العربية، لذا فمن المتوقع أن يجد بعض الحاذقين في اللغة أخطاء نحوية أو إملائية هنا وهناك، وأكون شاكرا لمن يراسلني بغية تصويبها في الإصدار القادم. لكن بالمقابل فإني قد عمدت لاستخدام بعض المرادفات تبادليا (مثل: علم الأحياء وبيولوجي، نظرية المعرفة وأبستمولوجي، سنة وعام) أو كتابة الكلمة نفسها بأكثر من طريقة طالما كان هذا جائزا لغويا (مثل: إذاً وإذن، مسؤولية ومسئولية، على أي حال وعلى أية حال) آملا أن يلتفت نظر القارئ لهذا فيبحث عنه ويتعلم شيئا جديدا إضافيا.

[816] إن محاولتي التزام الاختصار، والبساطة، وسلاسة القراءة، واعتقادي بضرورة استخدام مراجع تؤكد وتشرح الأفكار التي أتطرق لها -كي لا يعتقد القارئ أني أهذي دون علم، كما ولأرشده إلى مصادر يمكنه الاستعانة بها كي يزيد من فهمه للأفكار المطروحة- كان تحديا آخر. فكيف لي أن أوفق بين كل هذه الأمور؟ فوجدت حلا وهو استبدال كلامي بكلام غيري ممن أريد أن أستشهد بهم. أي بدل أن أعرض الفكرة ثم أشير إلى اقتباس ما يؤيدها كما يفعل الكُتاب عادة، فإني عمدت في معظم المواضع إلى أن أقتبس بشكل مباشر ما أريد قوله، بل وصل بي الأمر أحيانا إلى إقحام بعض

الشخصيات في النقاش معنا لكثرة وطول ما استشهدت به من أقوالهم، بدل أن أقول نفس الأفكار على لساني.

[817] وإن وجد القارئ الحاذق أني لم أستشهد بما قد يجده ضروريا في موضع ما، فإن مرد هذا لأمرين: أولهما هو أني بالتأكيد لم أقرأ كل الكتب المنشورة، فمن الممكن ألا أكون قد اطلعت على ما يراه هو مناسبا في هذا الموضع أو ذاك. وحتى وإن كنت قد قرأت الكتاب مسبقا فليس من الضروري أن تكون الاقتباسات التي أخذتها عنه لا تزال في متناول يدي. وهذا يقودني إلى الأمر الثاني وهو أني أدوّن ملاحظاتي واقتباساتي بالطريقة الكلاسيكية، فللقارئ أن يتخيل كمية الدفاتر والشذرات التي أبحث فيها عن المصادر. وبسبب ذلك فإني قد فشلت تماما في بعض الحالات في إيجاد مصادر واقتباسات أعرف يقينا أنها موجودة لدي. فعلى سبيل المثال عندما تحدثت في الفقرة 422 عن الخريطة، عليّ أن أنوه هنا إلى أن هذه الفكرة ليست أصيلة لي، لقد قرأتها في كتاب ما في وقت ما. إن فكرة الخريطة عالقة في ذهني منذ ذلك الوقت، لكني لا أذكر سياقها ولا أي شيء آخر يخصها، ولقد باءت كل محاولات بحثي عن مصدرها بالفشل المُحبِط.

[818] إن الأمانة الفكرية تحتم عليّ أن أنسب الأفكار إلى أصحابها، وقد حاولت الالتزام بهذا جهد استطاعتي، ومحاولا اعتماد الأقدمية كمعيار للأفكار المكررة. فلو توصّل شخص ما لفكرة ما بجهده الشخصي، لكنه فوجئ لاحقا أن غيره قد كتب هذه الفكرة قبل سنوات عديدة، فمن العدل أن تنسب الفكرة لقائلها الأول، لأنه ما من طريقة لدينا لنتأكد أن ذلك الميم لم ينتقل بطريقة مبطنة ليستقر في دماغ الثاني قبل أن يقوم بإعادة توليدها، كما أن الأسبقية هي للأول على أي حال. ولنا في قصة دارون ووالاس خير مثال (ولسخرية المصادفة، يصادف اليوم ذكرى نشر الورقة المشتركة لدارون ووالاس عام 1856).

كما أن لي شخصيا تجارب مريرة في هذا. فالكثير من الأفكار التي أوردتها في هذا الكتاب مقتبسة فقط من كلام غيري كنت أعتقد يوما أني قد توصلت إليها بنفسي، لأصدم لاحقا عندما قرأت كتبهم أنهم قد تكلموا بنفس "أفكاري".

[819] هذا وإني قد بذلت جهدا كبيرا في إعادة التأكد من المصادر مرة أخرى. فلم أكتف بما جمعته ودونته من اقتباسات سابقا، بل قمت بالعودة إلى المصادر مرة أخرى كي أتأكد أني لم أقتبس جملة خارج سياقها أو أنها تحتوي على خطأ ما. كما وإني قد ميزت بين المصادر المباشرة والمصادر التي هي عبر طرف ثالث باستعمالي للخط ***الثخين المائل*** للثانية في قائمة المراجع.

ولذا، فبما أني كنت حريصا كل الحرص على دقة المصادر، وبما أني أحجمت عن إيراد أي اقتباس لست متأكدا منه تماما، فإنني أتحمل مسؤولية مصداقية الاقتباسات عندما تكون ذات مصدر مباشر، أما الأخرى فإني أحيل مسؤولية مصداقيتها للطرف الثالث الذي اقتُبِست منه.

[820] ماذا نكتب في الهوامش عادة؟ إما تعليقات على النص الأصلي، أو إضافات له، أو مصادر

للاقتباسات الواردة في النص. إن وجود هوامش هو شيء إيجابي، بل وهام بالنسبة لي كباحث - هوامش المصادر على وجه الخصوص- ولو أن المبالغة في الهوامش يكون مربكا ومزعجا حتى لأكثر القراء خبرة (ففي بعض الأحيان، وخاصة في الكتب الفلسفية المترجمة، قد يصبح متن الكتاب أشبه ما يكون بترويسة لصفحات مليئة بالحواشي، وهذا تصرّف مثير للسخرية جدا. حيث إني أعتقد أن الأولى بالمترجم والحالة هذه أن يؤلف كتابا يشرح فيه الكتاب الذي هو بصدد ترجمته، وعندها فليطل شروحاته وملاحظاته ما شاء). لكن بالنسبة للشريحة التي أستهدفها في هذا الكتاب، فإن الحواشي مربكة جدا، أو عديمة الأهمية. آخذا بعين الاعتبار هذه النقطة، التي أكدها الاستبيانان اللذان قمت بهما، كما وآراء العديدين ممن سألتهم بشكل شخصي. كما وآخذا بعين الاعتبار حجم الكتاب، والذي كان ليتضخم أكثر لو تم تضمينه هوامشا، وبالتالي سيكون مرعبا للقارئ البسيط وأكثر تكلفة عليه، وبالتالي مُنَفِراً له. وعليه فإني قد ارتئيت أن أضمِّن كل ما أريد كتابته في الحواشي في متن النص الأصلي، مع محاولة الحفاظ على سلاسة القراءة ما استطعت. وبهذا فقد حُرِم القارئ فقط من معرفة أرقام الصفحات التي اقتبست منها، كما ومصادر بعض المعلومات التي آثرت إدراجها في متن النص بغية دمجها، أو صياغتها باختصار أكبر، أو لأنها آتية من مصادر عديدة.

على أي حال، فإن القارئ قد كسب بإلغاء الهوامش أقل قدر من التشويش والإرباك له أثناء القراءة، وبالتالي يكون قد حقق فهما أعلى. وبما أني قد أكدت أن هذا الكتاب يهدف للفهم وليس ليكون مصدرا للمعلومات، فإني أرى أن هذا هو الطريق الأنسب كمحصلة للعوامل السابقة الذكر. فبدل أن يقفز القارئ إلى المصادر بعد قراءته لكل فقرة، فسوف يعود للمصادر بعد انتهاءه من قراءة المحاورة. وما تضميني للمراجع كباب من أبواب المحاورة، لا كملحق كما جرت عادة الكُتاب، إلا لأؤكد على القارئ أن هذه المراجع هي جزء لا يتجزأ من المحاورة نفسها، وعليه العودة إليها لا الاكتفاء بما اقتبسته أنا منها. ومع ذلك، فإن هذا لا يعني أني أتفق بالضرورة مع كل ما جاء في هذه المراجع، بل يبقى كل كاتب مسؤولا عن أفكاره.

هل أنا مرتاح لهذا النهج في عدم تضمين أي هوامش؟ في الحقيقة إن الباحث الذي في داخلي كان -وما زال- يعاتبني طوال الوقت كي أضمِّن هوامشا أشير فيها إلى مصادر كل فكرة وكل اقتباس، كما وأن أضع قراءات مقترحة في المواضع التي أجد فيها ذلك مناسبا. لكن نفس هذا الباحث كان يلح عليّ أن أسهب في شرح الأفكار أكثر وأن يكون حجم الكتاب كبيرا، لدرجة أنه لن يكون سعيدا إلا إن احتوى على عدة مجلدات ربما، وهذا ضرب من الجنون. لذا كان عليّ وضع حد لرغباته وكبح شططه ما استطعت، لأن هذا الكتاب لا يهدف الباحثين أمثاله، وهذا ما يصعب عليه إدراكه.

يمكن العودة للاستبيانين المشار إليهما آنفا عبر الرابطين التاليين. وغني عن القول إنهما سيبقيان فاعلين ما بقي هذا الحساب فاعلا على موقع فيسبوك. لكن في الوقت الذي يتعطل فيه هذا الموقع أو هذا الحساب لسبب أو لآخر، فإن هذين الرابطين سيصبحان بلا قيمة.

https://www.facebook.com/rajulkahf/posts/1344969565623116
https://www.facebook.com/rajulkahf/posts/1344974758955930

إن موضوع الهوامش والمصادر لهو من المواضيع الشائكة جدا، والتي يستحيل إيجاد إجماع على رأي واحد فيها، وما الاستبيانان السابقان إلا مثالان على هذا. فليغفر لي القارئ الباحث أني لم أعطه حقه بل آثرت ما يفضله القراء المستجدون، فأعتقد أنني وهو/هي نهدف إلى مساعدة هؤلاء على أي حال.

[821] وابتغاء الاختصار وتجنبا للركاكة فإني قد آثرت ألا أكرر اسم المصدر إذا كررت الاقتباس منه في نفس الباب أكثر من مرة. فعلى سبيل المثال: إني لم أقتبس لأنطونيو غرامشي إلا من *دفاتر السجن*، ولروبرت بريم إلا من *المثقفون والسياسة*، ولعلي شريعتي إلا من *مسؤولية المثقف*، ولإيدوارد سعيد إلا من *تمثيلات المثقفين*، وهكذا فإني وجدت أنه من اللغو إعادة كتابة اسم المصدر مرات عديدة. وعندما أقتبس من أكثر من كتاب لنفس الكاتب، كما حصل مع فريدريك نيتشة، أو بيرتراند راسل، أو ريتشارد دوكنز على سبيل المثال، فإني كنت أذكر اسم المصدر عند كل اقتباس، وأتجنب تكرار ذلك إن أعدت الاقتباس أكثر من مرة من نفس الكتاب بشكل متتابع في فقرات متلاحقة أو قريبة من بعضها.

أما تلك الاقتباسات التي لا تتضمن اسم المرجع، فمرد ذلك أني اقتبستها من طرف ثالث لم يضمن اسم المصدر. مثال ذلك ما اقتبسته عن آرثر سولزبيرجر، والذي أخذته من كتاب ممدوح عدوان، حيونة الإنسان، لكن الأخير لم يضمن مصدر هذا الاقتباس -على الأقل في النسخة التي أملكها والمشار إليها في المراجع-.

[822] وكما لاحظ القارئ، فإني قد استخدمت مصادر أجنبية أكثر من العربية، غالبيتها الساحقة باللغة الإنكليزية. بعض تلك الكتب غير مترجم للعربية -على حد علمي- وبعضها الآخر مترجم. لكن اضطرني بعض المترجمين إلى عدم اعتماد ترجماتهم لأني لم أجدها دقيقة بما يكفي لاعتمادها. ولذا فقد وجدت نفسي مجبرا على أن أترجم بنفسي، والترجمة خيانة كما أذكر أن جورج طرابيشي قد كتب يوما. ومع أني لم أرد أن أحمّل نفسي مسؤولية هذه الخيانة، لكن الأمانة قد حتمت عليّ ذلك، لهذا فقد أخذت مني الترجمة نصيبا وافرا من الوقت محاولا الخروج بترجمات آثرتُ في معظمها الدقة على السلاسة -على عكس المترجمين الاحترافيين-، مالم أضطر لفعل عكس هذا إذا وجدتُ أن ترجمة الاقتباس الدقيقة ستكون ركيكة لدرجة مربكة. ولذا فبالنسبة لمعظم هذه الاقتباسات، يمكن للقارئ الملم بالإنكليزية أن يتخيل الاقتباس بهذه اللغة بسهولة. ومن وجد ملاحظات في هذا السياق فأتمنى أن يصوبني.

[823] في بعض الحالات لم أتفق مع المترجمين حتى على ترجمة اسم الكتاب. فعلى سبيل المثال: إن كتاب إيدوارد سعيد *Representations of The Intellectual* -الذي نُشرت طبعته الأولى عام 1994، والذي هو عبارة عن سلسلة محاضرات كان الكاتب قد ألقاها في العام الفائت، حيث حمل

اسم الكتاب عنوان أولها- فإن لدي ثلاث ترجمات عنه باللغة العربية هي:

- ترجمة دار النهار 1996، والتي قام فيها المترجم باعتماد اسم *صور المثقفين* كترجمة ل Representations of The Intellectual. لكن ترجمته هذه غير دقيقة لأنها مربكة. فكلمة صور تحمل مرادفات كثيرة في اللغة الإنكليزية. وأعتقد أن ما قصده سعيد من Representations سيكون آخر ما يخطر على بال القارئ.

- ترجمة التكوين للطباعة 2003، حيث لم يجد المترجم أمامه لترجمة Representations of The Intellectual إلا ما وجده زميله السابق وهو *صور المثقفين*. مما دعا إلى نشر الكتاب تحت عنوان آخر، فقد اختير نشره تحت عنوان الباب الأخير *الآلهة التي تفشل دوما* والذي من الواضح أنه عنوان تسويقي على أي حال، ولا يمت لموضوع الكتاب بصلة. هذا ولا يخبرنا المترجم لم أعاد ترجمة كتاب مترجم ومنشور سلفا، ولم نشره تحت عنوان يخالف عنوانه الأصلي، حيث إنه قد أراح نفسه من عناء كتابة أي مقدمة لهذه الترجمة.

- ترجمة رؤية للنشر والتوزيع 2006، وفيها لا يخبرنا المترجم أيضا لم أعاد ترجمة كتاب مترجم ومنشور مرتين آنفا، كما أنه لم يتمكن من ترجمة Representations of The Intellectual إلا ب *صور تمثيل المثقف* مبررا عدم استعماله لكلمة "تمثيلات" -دون إقحام كلمة "صور" كي يجمع كلمة "تمثيل"- بقوله: "... وإذا حاولنا جمع المصدر (تمثيل)، فهو من المصادر التي لازالت اللغة العربية تأنف جمعها." وإني أراه يقول هذا بصفة شخصية لا موضوعية، لأنه لم يوضح رأيه مثلا بكتاب "تمثيلات الآخر" لنادر كاظم -الحامل لإجازة الدكتوراه في اللغة العربية- والمنشور قبل ذلك الوقت بعامين. وإني إذ بحثت في الأمر، فمع أني لم أجد كلمة "تمثيلات" واسعة الانتشار، إلا أني بالمقابل لم أجد في أي مرجع ما يقول إن هناك حرجا لغويا من استعمالها. إذا فيبدو لي أنه ليست اللغة العربية هي التي تأنف جمع "تمثيل"، بل هو الذي يأنف ذلك. لكنه في الوقت نفسه لم يأنف أن يبتدع عنوانا جديدا للكتاب هو *المثقف والسلطة*.

وبالإضافة إلى كل ذلك، فإن أيا من هذه الترجمات لا ترقى برأيي لأن تكون صحيحة ولا دقيقة. وهذا ما يؤسف حقا.

[824] كتاب بيرتراند راسل *The Conquest of Happiness* عندي ثلاث ترجمات له باللغة العربية كحال سابقه وهي:

- ترجمة مكتبة الحياة 1980. والتي كتب مُترجمها هامشا في بداية مقدمته الموقعة في مارس 1964: "شاءت الظروف أن يتأخر اصدار هذا الكتاب ستة عشر عاما، فقد كلفتني دار مكتبة الحياة بترجمته إلى اللغة العربية في أوائل عام 1964...". من هذا يتضح أنه قد ترجم الكتاب في أقل من ثلاثة شهور، ثم انتظر بعدها ستة عشر عاما حتى أبصر الكتاب النور. ستة عشر عاما لم يستطع خلالها أن يخرج بعنوان أفضل من *الفوز بالسعادة*. وهذا المعنى بعيد جدا عن المعنى الذي قصده

راسل. فلم يستعمل راسل كلمة Conquest كي يفهم منها القارئ "الفوز" ببساطة. فلو أراد هذا المعنى، لما كان مضطرا أبدا ليتكلف استعمال Conquest على وجه التحديد. هذا ولم يتطرق المترجم في مقدمته لتبيان سبب اختياره لكلمة "الفوز" كترجمة ل The Conquest، كما وكأنها المرادف الطبيعي لها.

- ترجمة دار الأمير 1995 بعنوان *غزو السعادة*. وإني لا أرى المترجم مصيبا في هذا العنوان مطلقا. فلو أراد راسل أن يُفهم من اسم الكتاب ما يفهمه القارئ من كلمة "غزو" لاستخدم Invasion بدل Conquest. إن ما قصده راسل بعيد كل البعد عن مفهوم "الغزوة". ليس هذا فحسب، بل تمت إضافة عنوان فرعي لأغراض تسويقية وهو "كيف تصبح سعيدا في الحياة الزوجية*العمل*المجتمع". وعلى الرغم من وجود مقدمة للناشر وأخرى للمترجم، إلا أن أيا منهما لم يتطرق لعنوان الكتاب. ولم يذكرا لم تمت إعادة ترجمة كتاب مترجم ومنشور سلفا، بل على العكس، كتب الناشر بوضوح أن هذه هي الطبعة العربية الأولى لهذا الكتاب، وهذا غير صحيح.

- ترجمة المركز القومي للترجمة 2009. فمع أن هذه هي الطبعة الثانية لهذا الكتاب، إلا أن أحدا لم ينتبه إلى أن عنوان الكتاب بالعربية لا علاقة له بعنوانه الأصلي لا من قريب ولا من بعيد. حيث تم اختيار *انتصار السعادة* كعنوان له.

ولن تستغرب إن قلت لك أن أيا من هذه الترجمات لا يرقى للمستوى المطلوب.

إن كلمة Conquest تعني حسب قاموس كامبردج -بما أن راسل كان قد درس في كامبردج- ما يلي:

"The act of conquering a country, area, or situation"

و كلمة Conquering تعني:

"To take control or possession of foreign land, or a group of people, by force" / “To deal with or successfully fight against a problem or an unreasonable fear"

أعتقد أن من يقرأ هذا الكتاب الرائع بتمعن سيفهم لماذا استخدم راسل هذه الكلمة بالتحديد من بين كل البدائل المتاحة. وبغية الاختصار أقول إني ارتأيت أن أترجم هذا العنوان إلى *الاستيلاء على السعادة* أو يمكن القول "الاستحواذ على السعادة"، فإني أعتقد أن راسل قد قصد هذا المعنى بالتحديد. كما أنه من غير المنطقي أن نقول "احتلال السعادة" والذي هو المرادف الحرفي للعنوان.

[825] وبالمثل، فلدي مثلا *نقيض المسيح* و *عدو المسيح* -المشار إليهما في الفقرة 717- كترجمتين مستقلتين لكتاب فريدريك نيتشة *The Antichrist*. وبما أني استخدمت النسخة الإنجليزية من هذا الكتاب -كحال سابقيه-، فمنعا لأي التباس لدى القارئ، فإني قد آثرت ترجمة عنوان الكتاب إلى *المسيح الدجال*، والذي أراه العنوان الأصوب على أي حال.

أما بالنسبة لكتابه *Human, All Too Human* فإني على الرغم من استعمالي لنسخته الإنجليزية أيضا، إلا أني آثرت استخدام ترجمة للعنوان مطابقة لترجمة منشورة بالعربية وهي *إنسان مفرط في إنسانيته* لأنني لم أتوصل إلى ترجمة أكون مقتنعا بها في غضون الوقت المتاح، فارتأيت استخدام العنوان المستخدم سلفا تجنبا لتحمل تبِعات تأنيب الضمير على تقديم شيء لست مقتنعا به.

[826] مثال آخر هو كتاب *The Selfish Gene* لريتشارد دوكنز، والذي له ترجمة عربية ذات أخطاء كارثية، وكما يمكنك ان تتوقع، بما في ذلك العنوان. حيث تمت ترجمته إلى *الجينة الأنانية*، بينما الصحيح هو *الجين الأناني*. وإني إذ استخدمت النسخة الإنجليزية هنا، فإني لم أتردد في استخدام العنوان الذي أراه صحيحا.

لن أتكلم عن أمثلة أكثر، لكن هذه الملاحظات ضرورية كي لا يقع القارئ في حيرة من أمره حيث أنه قد يجد ضمن المحاورة أسماءً لكتب سيجدها بأسماءٍ أخرى في الأسواق، أو أنه سيجد اقتباسات لا تتطابق مع الترجمات التي بين يديه.

[827] أما وإن الكمال قد مُنع على البشر، فإني أعرف أن هذا الكتاب غير كامل، لكن جل ما آمله هو أن يحقق المطلوب منه بأن يكون بمثابة شمعة تنير الظلمات التي تعيش بها المجتمعات الناطقة بالعربية في هذه الحقبة من الزمن.

[828] وإني بابتداعي نمط تنسيق غير مألوف في هذا الكتاب، فإن ذلك مرده إلى أني مقتنع أن هذا هو الطريق الأصوب في تنسيق الكتاب. فإني قد أعلمت القارئ بأسباب تأليفي لهذا الكتاب، المباشرة وغير المباشرة، بل وجعلته يتخيل المشاهد بدقة كافية، ولم أؤثر على ذهن القارئ بأي شيء بعد ذلك، إلا بنصحي له بأن يقرأ الكتاب بطريقة معينة تتناسب وطريقة تأليفي له، كي يحصل على أعظم كسب ممكن منه. ثم أعطيته فكرة عما هو مقبل عليه، ثم وصَفت له المشكلة، وحددت أسبابها، وطرق علاجها. وبعد ذلك أدرجت المراجع في متن الكتاب كي أؤكد على القارئ أنها جزء منه كما أشرت آنفا. كما وختمته بملخص ليذكر القارئ بالأفكار العامة لما قرأه.

وبما أني أتمنى أن أكون قد وفقت في جعل القارئ يعيش المحاورة وكأنه موجود فعليا مع الأشخاص الثلاثة، فإني تابعت ذلك بأن أوضحت للقارئ مالذي كان يجري وراء كواليس المحاورة. وبهذا فإن القارئ الذي يقرأ هذه السطور لم يقحم نفسه في المحاورة فحسب، بل أقحم نفسه مع مؤلف المحاورة، في حوار مباشر وراء الكواليس. وبما أن الحوار هو حديث متبادل، وبما أني آمل أن يكون القارئ قد امتثل لمطلبي بأن يبقى صامتا طوال هذه المحاورة، فالآن قد أنهى ثلاثتنا الكلام، وحان دور القارئ.

[829] فعليك أيها القارئ أن تلتزم أدب الحوار وأن تمسك قلمك وتكتب نقدا -وليس نقضا- للمحاورة.. ليس من الضروري أن ترسله لي -ولو أن بإمكانك فعل ذلك-، لكن من الضروري أن تقوم به على أي حال ولو أبقيته لنفسك. وإن لم تفعل هذا، فمثلك كمثل الذي انتظر مُحاوره كي ينهي كلامه، ثم أدار ظهره ومشى بعيدا. وأعتقد أن الجميع يتفق على أن هذا تصرف غير لائق. (سأتطرق لتفسير هذا

الأمر بالتفصيل في محاورة القراءة القادمة).

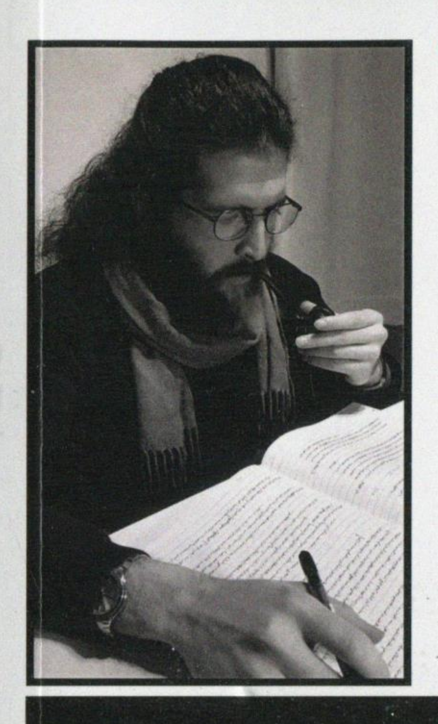
وبالنسبة للقارئ الذي يريد العودة لقراءة المحاورة بتأن والرجوع للمصادر والتمعن بكل فكرة فيمكنه كتابة نقد أولي الآن، ونقد ثان بعد إتمام القراءة الثانية، كي يقارن ويكتشف مدى الكسب الذي حققه من القراءة الثانية.

[830] وإني آمل إذ ابتدعت هذا النهج من التنسيق أن يكون سنة حسنة يستنها الكتاب اللاحقون، إن وجد القراء والنقاد أنها حققت شيئا لم تحققه الطريقة الكلاسيكية.

رجل الكهف

22 August 2017 - 05:40 am
Kungshamn, Sverige

نقد القارئ للكتاب:



حوار مع رجل الكهف في ما المثقف؟

يمكن قراءة هذه المحاورة من أجل التسلية، فهي غنية بالطرافة الظاهرية والمبطنة وتحتوي العديد من القصص والأفكار المثيرة. لذا فإن قراءتها قبل النوم ستضمن للقارئ أحلاما غير معتادة

يمكن قراءة هذه المحاورة من أجل المعلومات، فلا تخلو فيها فقرة من معلومات معظمها غير مألوف. وتتنوع المعلومات فيها من الفلسفة إلى الغناء، ومن علم الأعصاب إلى الشعر، ومن الفيزياء الكمومية إلى الروايات، ومن البيولوجيا إلى أدب السجون، ومن المنطق إلى السير الذاتية، ومن علم النفس إلى الأمثال الشعبية، ومن علم الفضاء إلى الأساطير

يمكن قراءة هذه المحاورة من أجل الفهم، ولقد تم بناؤها بالضبط من أجل هذا الغرض. فأنا مقتنع تماما، كما آمل أن يقتنع معي القارئ من خلال صفحات هذا الكتاب، بصحة ما قالته آن إيزابيلا ثاكيراي في رواية *السيدة دايموند*: "... إذا أعطيت شخصا سمكة فهو سيجوع مجددا في غضون ساعة. إذا علمته كيف يلتقط سمكة فأنت تصنع له نقطة تحول جيدة في حياته..." ولذا فأنا لا أهدف إلى إطعام القارئ السمك، بل أهدف إلى أن أقنعه بوجود بحر مليء بالسمك، ثم أن أعطيه خريطة للطريق المؤدي إليه، وأن أعلمه كيف يصطاد سمكا بنفسه

رجل الكهف


9 789163 950384